الدكتور مصطفى غالب

القرامطة

بين المد والجزر

دار الأندلس

القرامطة

بين المدّ والجزر

الدكتور مصطفى غالب

القرامطة

بين المد والجزر

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

دار الأندلس - بيروت، لبنان
هاتف : ٣١٧١٦٢ - ٣١٦٤٠١ - ص.ب : ٤٥٥٣ ١١ - تلكس ٢٣٦٨٢

مقدمة

لعب القرامطة دوراً سجل على صفحات التاريخ الإسلامي بأحرف سوداء كالحة ، ولا يزال العلماء فيهم مختلفون بين أخذ ورد ، ومد وجزر ، حتى عصرنا الحالي ، لأن العوامل التي أحاطت بتاريخ هذه الجماعة جعلت دراسة تاريخهم من الصعوبة بمكان ، لفقدان مؤلفاتهم ، ولكثرة ما دسه الخصوم حولهم من إشاعات وأباطيل ، وما لفقوا من روايات وأقاويل، خاصة ما يتعلق منها بعقائدهم الدينية ، وحياتهم الاجتماعية ، وما نسب إليهم من جرائم وآثام .

ولم يتفق العلماء والمؤرخون حتى الآن على تحديد مذهب هذه الجماعة وصحة انتسابهم إلى الاسماعيلية ، أو القطع بعدم صحة هذا الانتساب ، فالاختلاف في تكوين هذه الجماعة السياسي والعقائدي لا يزال قائماً ، والنقاش مستمراً ، والاستنتاجات المبنية على ما قاله فلان وفلان لا تزال تصطخب فيها صفحات كثيرة من المؤلفات والكتب ، بدون أن نصل إلى أي نتيجة نستطيع في ضوئها أن نرسم صورة واضحة عن هذه الجماعة التي وضعت أول لبنة في صرح العدالة الاجتماعية الإسلامية ، وأشادوا عليها نظام الإلفة والمحبة والإخاء .

ونحن لا نتحدث عن العلاقة بين القرامطة والإسماعيلية لأن هذه العلاقة موجودة في الأصل وفي دور تكوين القرامطة الأول، كون الإسماعيلية هم المعنيون بكلمة قرامطة ، والقرامطة هم إسماعيلية ، والتسمية التي دست عليهم دساً ، بقصد إبعاد الناس عنهم ، وتشويه

سمعتهم ، باعتبارهم خطر كبير يهدد الجماعة الإسلامية ، لا تقدم ولا تؤخر ولا تعطي فكرة واضحة عن هذه الجماعة ومدى علاقتها بالإسماعيلية .

فالأحداث التاريخية التي وقعت خلال نشاط القرامطة وصراعهم الطويل مع الخلافة العباسية ، وما رافق هذه الأحداث من معارك وصراع مع الذين ناصبوهم العداء ، تعطينا الدليل الواضح على أن هذه الجماعة كان لها مركز ثقل بالنسبة للعالم الإسلامي ، استطاعت بواسطته أن تبسط نفوذها في كافة أنحاء العالم الإسلامي ، وتثير الخوف والرعب في كافة المجتمعات ، كما وأنها أثبتت ضعف الخلافة العباسية وعجزها التام عن حماية الحجاج والأماكن المقدسة .

ومما لا شك فيه بأن الصراعات السياسية ، والمعارك الحربية ، والعصبية الدينية والمذهبية ، تؤدي إلى إخفاء الكثير من المناقب ، وتظهر المساوىء لصقل عقول الغوغاء وإبعادها عن التيارات السياسية المناوئة للسلطة .

والحركة الإسماعيلية أو القرمطية ، هي حركة إصلاحية قامت على أسس دينية واجتماعية وسياسية في مرحلة مليئة بالقلق والاضطراب والانحدار السياسي والاجتماعي ، في جو مشبع بالظلم والاستبداد والإرهاب ، يسيطر عليه التعصب الديني المقيت ، والانتقام السياسي الفظيع .

والحركة القرمطية ـ كما أفهمها ـ تجسيد لأحلام المقهورين والمعوزين المضطهدين في دولة بني العباس التي سادها الفوضى والبلبلة ، وانتشرت فيها الفتن والحروب . ولم تكن الحركة القرمطية وليدة المناسبات بل أطلقتها عوامل ومؤثرات عديدة تكوكبت وتبلورت

فكونت الاندفاع القرمطي نحو الحق ، والعدالة ، والإخاء ، والمحبة ، والإلفة .

ومن المؤكد بأن الدعوة القرمطية قد لاقت رواجاً كبيراً بين القبائل العربية ، وفي أوساط الفلاحين والعمال والصناع ، لنظامها المالي المتقن ، الذي أوجب أن تجمع الأموال في موضع واحد ، وأن يكون الجميع في أسرة واحدة ، لا يغفل أحد صاحبه ولا أخاه في ملك يملكه ، وأصبح ما يقدمه الفرد من خدمات للجماعة ، وما يبذله من نشاط في نصرة الدعوة ، هو الذي يكون مركزه ومكانته في المجتمع القرمطي .

ولقد أوجدت قيادة الدعوة القرمطية في كل قرية رجلاً مختاراً من ثقاتها ، يجمع عنده أموال أهل قريته من بقر وغنم وحلي ومتاع ، وكان يكسو عاريهم ، وينفق على سائرهم ما يكفيهم ، ولا يدع فقيراً بينهم ، ولا محتاجاً ولا ضعيفاً ، وأخذ كل رجل من القرامطة بالاجتهاد في صناعته والمكسب جهده ، فيكون له الفضل في رتبته . وجمعت المرأة كسبها من مغزلها ، والصبي أجرة نطارته للطير ، ولم يتملك أحد من القرامطة إلاّ سيفه وسلاحه .

وبهذه الأنظمة الاجتماعية التطبيقية استطاع القرامطة أن يضموا إلى صفوفهم العديد من الناس ، وأن يكونوا جماعة متحمسة ، لا فقير فيها ولا غني ، بل عدالة ومساواة ، وأعدُّوا العدة لصراع عنيف مع العباسيين .

ومما لا شك فيه بأن دعاة القرامطة الأول بعد أن درسوا أوضاع الدولة العباسية الاجتماعية والاقتصادية استطاعوا أن يرسموا صورة واضحة للمجتمع العباسي قبل أن يطبقوا نظام الإلفة والإخاء ، حيث

لمسوا التضارب الحاد بين مصالح الأفراد ، بين الغني والفقير ، وبين القوي بظلمه وتعسفه والضعيف بحرمانه ، وبين التاجر واستغلاله وجشعه في جمع المال من عرق العامل والفلاح ، وكنزه لتبذيره في سبيل الشهوات . واستبداد الحكام بالضعفاء والفقراء معاً ، وظلم ذوي السلطان من خلفاء وأمراء للمستضعفين من عباد الله ، وعبودية هؤلاء الخلفاء والأمراء للشهوات والأهواء ، واعتبارهم أموال الدولة (بيت مال المسلمين) ملكاً خاصاً لهم يسرفون في إنفاقه وتبذيره على القصور وعلى اللذات ، بدون أن يفكروا بالجهل والفقر والجوع والمرض الذي يفتك بقسوة بالجماعات .

ولما تبين لهم هذه الأمور ومدى خطورتها على المجتمع العباسي ، طبقوا نظام الألفة وساروا بمجتمعهم قدماً نحو الأفضل والأمثل والأكمل .

وفي كتابنا الذي نقدمه اليوم الكثير من الحقائق عن الحركة القرمطية وصراعها الطويل مع الخلافة العباسية، نرجو أن تتيح للقارىء أن يكوّن فكرة صحيحة عن الحركة القرمطية التي كانت أول من طبق العدالة الاجتماعية في الإسلام .

مصطفى غالب

الفصل الأول

بعثة الأهوازي
إلى السواد

كان الصراع على أشده بين العباسيين الذين تسلموا الخلافة الإسلامية بعد القضاء على الأمويين في بلاد الشام ، وبين العلويين من آل بيت النبي الذين اعتبروا العباسيين - أولاد عمومتهم - قد اغتصبوا الخلافة وفعلوا بآل البيت أكثر مما فعل الأمويون ، لذلك توارى العلويون عن الأنظار بعد أن فشلت جميع الحركات الثورية التي قاموا بها رغم ما لاقوه من تأييد ، ورغم ما كان يظهره أتباعهم من الشيعة من حماس وتضحية .

ففي الوقت الذي فشلت فيه هذه الثورات العلوية ، كانت الحركة الإسماعيلية التي يتزعمها الإمام السابع محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق تنتشر سراً بدقة وانتظام على أيدي دعاة علماء تجنبوا الوقوع في أخطاء الثورات السابقة وراحوا ينشرون دعوتهم العقلانية التعليمية بنشاط كبير ، ويركزوا دعائمها في جميع أنحاء العالم الإسلامي بإحكام .

وحسب تنظيمات الدعوة الإسماعيلية السرية كان يتولى رئاسة الدعوة الإمام بالذات يحيط به أربعة دعاة كبار يعرفون بالدعاة الحرم ، ويتسمّون بنفس اسم الإمام إمعاناً منهم في التستر والتكتم على الأئمة . بالإضافة إلى مجلس الدعوة المؤلف من اثني عشر داعياً يشكلون مجلس القيادة العليا في كل قطر ويرأسهم داعي الدعاة .

ولما أعلنت وفاة الإمام جعفر الصادق عام ١٤٨ هجرية ، وسبب موته اضطراباً عند الشيعة ، وانقسموا إلى طوائف متعددة ، مما أدى إلى نقل مجلس الدعوة الإسماعيلية إلى الأهواز حيث استقر فيها الإمام محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق .

وقبل أن تنتقل قيادة الدعوة الإسماعيلية إلى سلمية أعلنت وفاة الإمام محمد بن إسماعيل سنة ١٩٣ هجرية فتسلم الإمامة من بعده ولده عبد الله بن محمد بن إسماعيل بموجب النص عليه بحضور الدعاة الحرم ، فأمر أن يعقد اجتماع المجلس القيادة العامة للدعوة في الأهواز للتداول في أمر نقل مقر الدعوة إلى سلمية في سورية ، ولتعيين داعي لدعاة جزيرة العراق لخلو المنصب بمناسبة الوفاة .

ولقد ضم الاجتماع المذكور الدعاة الأربعة الحرم وهم : عبد الله ابن ميمون القداح ، وعبد الله بن سعيد بن الحسين ، وعبد الله المبارك ، وعبد الله بن حمدان ، بالإضافة إلى داعي دعاة جزيرة فارس .

ولما بدأت الجلسة قال الإمام عبد الله بن محمد : تعلمون مدى الرقابة الشديدة التي فرضها علينا العباسيون ، فهم يبثون العيون في جميع البلدان ، ويلاحقون آل البيت ومن يمت إليهم بصلة النسب تحت كل سقف وفي كل صقع ، والخليفة العباسي في بغداد ، يحاول معرفة مكان وجود الإمام الذي تروج باسمه الدعوة لإلقاء القبض عليه . لذلك رأيت أن يكون لنا دار هجرة نلجأ إليها في الملمات ، ونجعلها مقراً لقيادة الدعوة ، ومكاناً لتوزيع الدعاة في جميع أنحاء العالم الإسلامي ، ويا حبذا لو كانت هذه الدار منعزلة وبعيدة عن الأنظار ، لا يأتيها جنود بني العباس .

قال عبد الله بن ميمون القداح : هذا ما كان يدور بخلدي يا مولاي منذ نقلنا مقرنا من الكوفة إلى الأهواز بعد أن نقلت إلينا الأخبار الواردة من داعينا في بلاط الخليفة العباسي بأن الخليفة قد بث العيون وخصص الأموال الطائلة لمعرفة مقرنا ، وأخشى أن يتوصل بواسطة عيونه إلينا ، لذلك أقترح أن نوفد أحدنا متخفياً إلى الصحراء

السورية فيتصل بدعاتنا المنتشرين في كافة القرى والدساكر ، ويتداول معهم في الأمر .

وليس أصلح من زميلنا الداعي عبد الله بن المبارك لهذه المهمة لأنه خبير بتلك المناطق ، وسبق له أن قام بمهمات عديدة إلى حلب والرقة والمعرة وحماه ولعب دوراً كبيراً في تأسيس الدعوة في تلك المناطق ، وهو يجيد التنكر والاختفاء في حالة الضرورة .

قال الإمام عبد الله بن محمد : سمعت يا مبارك ما قاله القداح فما هو رأيك بالموضوع ؟

قال عبد الله بن المبارك : تعرفون يا مولاي مقدار إخلاصي وتضحيتي في سبيل تركيز دعوة الحق وانتشارها ،فبلاد الشام كما أعرفها من خلال تجوالي فيها صالحة لدعوتنا ، وسكانها مهيئين اجتماعياً واقتصادياً ونفسياً لقبول الدعوة ، فأنا في خدمتكم يا مولاي ، والأمر بيديكم !

قال الإمام عبد الله بن محمد : لا بد من استماع رأي بقية الإخوان ، وعلى ضوئه سنقرر ما نراه مناسباً وبأقصى سرعة .

قال عبد الله بن سعيد بن الحسين : المبارك يا مولاي موضع ثقتنا ، ومستودع أسرارنا ، وإليه نوكل أمرنا .

قال عبد الله بن حمدان : ليس في اختيار المبارك إلا النظرة الثاقبة إلى الأمور بعين المتبصر العارف ، أتمنى له التوفيق في مهمته .

قال الإمام عبد الله بن محمد : لقد منحتك يا مبارك بركاتي المشفوعة بثقتي فسر على بركة الله في الوقت الذي تراه مناسباً ، وتزود من بيت مالنا بما تحتاجه من أموال .

وقبل أن يغادر الإمام عبد الله بن محمد مجلسه ويعلن عن انتهاء الاجتماع طرق باب القاعة وأطل منه الداعي المكلف بأبراج الحمام الزاجل طالباً المثول بين يدي الإمام ، فأشار إليه الإمام مستفسراً عما يحمله من أخبار ؟

قال الإمام عبد الله بن محمد : أدخل ما وراءك يا صدر الدين ؟

قال صدر الدين بعد أن دخل وسجد بين يدي الإمام : هذه الرسالة وصلت الآن على جناح الطير من سواد الكوفة .

وتناول الإمام الرسالة وقرأ ما فيها من أخبار ، ثم قطب حاجبيه وقال : هذه الرسالة من نائب داعي الدعاة في سواد الكوفة يحيطنا علماً بأن داعي الدعاة فيها قد انتقل إلى رحمة الله وغفرانه ، لذلك أرى أن نبحث في أمر انتقاء داعي من دعاتنا الكثر الموزعين في جميع أنحاء العالم الإسلامي ليحل محله ، باعتبار أن تلك المنطقة حساسة والظروف فيها مواتية لنشر الدعوة ، خاصة وأن الأفكار مهيئة ، والعقول معدة لاستقبال الدعوة ، ومما لا شك فيه بأن تجاوب أهل تلك الناحية سيكون سريعاً ومذهلاً . فمن تختارون لتولي هذه المهمة الصعبة ؟

قال عبد الله بن ميمون القداح : لقد كان داعي دعاتنا في السواد من أخلص المؤمنين ، وأغزر الدعاة علماً ، فلا يسعني إلا أن أطلب لروحه الغفران والرحمة . وأرشح لهذا المنصب الهام الداعي المطلق الحسين الأهوازي الذي أمضى فترة من حياته بنشر الدعوة في جهات السواد فهو يعرف تلك النواحي شبراً شبراً ، ولديه أصدقاء من مختلف طبقات المجتمع ، وخاصة الفلاحين ، وأصحاب الحرف من العمال .

قال عبد الله بن المبارك : لا بد لي يا مولاي قبل التوجه إلى بلاد

الشام من لفت نظركم لما يدور في الأوساط الإسلامية حول كيفية اختيار الدعاة ، فهم يزعمون بأننا نختار لهذه الغاية العناصر الشعوبية من رجالنا،ونبعد العناصر العربية ، لذلك أرى الابتعاد ولو قليلاً عن تولية العناصر الشعوبية ، مع أننا لا نؤمن بالفروق القومية ولا الطبقية ، فداعينا في البصرة محمد بن حسن الوراق خير من ينتدب لهذه المهمة ، لما يتمتع به من ثقة وإخلاص وعلم وحكمة .

قال الإمام عبد الله بن محمد وقد ظهر الامتعاض على محياه : هذه الفريات السخيفة نحن لا نعطيها أي اهتمام لأن من مبادىء الدعوة الشمول والمساواة بين كافة الطبقات ، فلا نفضل عربي على أعجمي ، ولا أعجمي على عربي ، إلا من مكان يجسد الإيمان كله ، والإخلاص كله ، ومتفوقاً في العلم والحكمة . فأنا أوافق على ترشيح الوراق والأهوازي وأترك مهمة التفضيل والاختيار للأكثرية ، كما تعودنا في كل قراراتنا .

قال عبد الله بن حمدان : هذا هو عين الصواب يا مولاي ، فما علينا إلا أن نرسل في طلبهما على جناح السرعة ، ثم نختار من بينهما من يصلح لهذه المهمة .

قال عبد الله بن سعيد : الأهوازي والوراق ، من خيرة دعاتنا ، ولكنني أفضل الأهوازي لخبرته ، وحنكته ، ولدرايته العميقة بأكثر اللغات ، ومختلف العلوم الدينية والعقلانية ، والرأي يا مولاي أن يمثلا بين يديكم في أقرب فرصة .

قال الإمام عبد الله بن محمد : كلفوا صدر الدين بأن يستدعيهما بسرعة وقبل أن نودع المبارك ، وسندرس أمرهما في الاجتماع القادم إن شاء الله .

ولما خرج الإمام عبد الله بن محمد من المجلس استدعى الداعي عبد الله بن ميمون صدر الدين الداعي المولج بالمراسلات ، وطلب منه أن يستدعي فوراً الداعي الحسين الأهوازي من السواد ، والداعي محمد بن حسن الوراق من البصرة ، فكتب صدر الدين رسالة أودعها في أنبوب نحاسي علقه في رجل أحد الطيور وأطلقه في الفضاء ، وكذلك أودع رسالة ثانية أرسلها إلى البصرة يستدعي فيها الداعي الوراق .

وبعد أن انفض الاجتماع توجه الداعي المبارك إلى أمين بيت المال وطلب منه مبلغاً من المال ليستعين به في رحلته إلى بلاد الشام ، كما وأنه أرسل أحد تلامذته من الدعاة المكاسرين الذي اعتاد أن يصحبه في تنقلاته ورحلاته الطويلة إلى سوق البلدة وأمره أن يبتاع بعض البضائع الرائجة في بلاد الشام كالأقمشة والعطور والبخور والحرائر ، وعدداً من الجمال والغلمان ويعد العدة للسفر في بحر أسبوع .

وتوجه المبارك إلى منزله حيث كتب رسائل إلى داعي الرقة وداعي تدمر وداعي حماه يحدد فيها موعد سفره وموعد وصوله إلى تلك البلدان ويطلب منهم أن يكونوا في استقباله خارج مدنهم ، ثم استدعى الداعي صدر الدين المكلف بأبراج الحمام وأمره بأن يرسل هذه الرسائل إلى أصحابها بأقصى سرعة ممكنة .

في اليوم الثاني كانت جميع الرسائل قد نقلت إلى أصحابها بدقة وانتظام ،وكانت كل هذه الرسائل قد كتبت بالشفرة التي برع في استخدامها دعاة الحركة الإسماعيلية ، خشية أن تقع هذه الرسائل بأيدي غريبة عن الدعوة .

ما كاد الداعي المطلق الحسين الأهوازي يتلقى أوامر بيت

الدعوة القاضية بمثوله بين يدي الإمام عبد الله بن محمد حتى تزيّا بزي الدراويش من المتصوفة الذين كانوا يجوبون البلدان وتوجه إلى البصرة حيث قابل زميله الداعي الوراق في جامع المدينة وطلب منه أن يستعد للسفر إلى مقر الإمامة برفقته ، فأبلغه الوراق بأنه قد تلقى نفس الرسالة وأنه ينتظر قدومه وما عليهما إلا انتظار حلول الظلام حتى ينطلقا بعيدين عن الأنظار ، فيقطعا الخليج بواسطة القارب الذي أعده منذ الصباح ليصلا إلى البر الفارسي ، ومن هناك يواصلان السفر سيراً على الأقدام .

ولما خيم الظلام على مدينة البصرة تسللا من جامع المدينة وتوجها نحو الشاطىء حيث وجدا القارب الذي أعده الوراق بانتظارهما فركباه واجتازا الخليج فوصلا الأراضي الفارسية دون أن يلاقيا أية عقبة في طريقهما إلى عبدان حيث وجدا داعي عبدان بانتظارهما على مدخل البلدة وكان قد أعد لهما الطعام ودابتين للركوب ، وأشار عليهما أن يبتعدا بقدر الطاقة عن الطرق الرئيسية ويسلكا المسالك الغير مطروقة ليكونا بعيدين عن الأنظار حرصاً على سلامتهما .

وبعد أن ارتاحا قليلاً وتناولا طعام الإفطار غيرا ملابسهما واعتما بالعمامات الفارسية الخضراء التي تدل على أنهما من المتصوفة الزهاد ويمما شطريهما نحو الأهواز فوصلاها في اليوم التالي في ساعة مبكرة من الصباح ، وقد استقبلهما الداعي عبد الله بن ميمون استقبالاً حاراً يليق بمركزيهما ، وطلب منهما أن ينزلا في ضيافته ويرتاحا من وعثاء السفر حتى يعرض أمر وصولهما على الإمام ليحدد لهما موعد الاجتماع به ، فوافقا على اقتراحه ورافقاه إلى المنزل حيث أفرد لهما جناحاً خاصاً في منزله ، ثم توجه إلى مقر الإمام حيث عرفه بوصولهما وأنهما يقيمان في منزله وهما يستأذنان بالمثول بين يديه .

فقال الإمام عبد الله بن محمد : بلغ إخوانك الحُرم بأن موعد الاجتماع سيكون مساء هذا اليوم فليحضر الجميع ، وكذلك الأهوازي والوراق ولا مانع من حضور داعي الدعاة المسؤول عن الدعوة ومجلسها الأعلى علي بن حمدان .

قال عبد الله بن ميمون : سمعاً وطاعة يا مولاي ، ولكنني أفضل أن تكون دراسة أمر الأهوازي والوراق من قبل اللجنة العليا للدعوة أي من قبل الدعاة الأربعة الحرم فقط ثم إذا اختلفوا في تقرير مصيرهما نحيلهما على مجلس الدعاة ليقرر من منهما يستحق أن يكون داعياً لدعاة العراق . فما هو رأي مولاي بالأمر ؟

قال الإمام عبد الله بن محمد : نعم الرأي رأيك يابن القداح ، وهذا من صلب تنظيماتنا السرية ، ولكن وجود داعي الدعاة علي بن حمدان لترجيح كفة أحد المرشحين في حالة إجراء التصويت على أيهما يكون الأفضل في حالة تساوي الأصوات أي يكون بمثابة المرجح ، وأنت تعلم بأن القرار الأخير سيكون للإمام ولكنني أرغب في إعطاء حرية التفكير للجميع ، حرصاً مني على تنظيمات الدعوة .

قال عبد الله بن ميمون : سمعاً وطاعة يا مولاي .

خرج عبد الله بن ميمون القداح من مقر الإمام عبد الله بن محمد وتوجه إلى منزله حيث أبلغ الحسين الأهوازي والوراق عن موعدهما مع الإمام ، ثم كتب رقعة أرسلها مع غلامه طلب من الدعاة الحرم أن يحضروا الجلسة المقررة ، كما أرسل رقعة أخرى إلى داعي الدعاة هرمز ابن الحسين يطلب منه فيها الحضور في الوقت المحدد .

***

ويستفاد من الوثائق السرية الإسماعيلية والتي لا تزال مخطوطة لدى بعض المشايخ في سورية بأن الاجتماع الذي نوقشت فيه قضية

تعيين الأهوازي وانتدابه ليقوم بنشر الدعوة في سواد الكوفة وما جاورها من بلدان تتبع حسب التقسيم الإسماعيلي إلى جزيرة العراق كان مساء الجمعة العاشر من شهر رمضان المبارك عام ٢٠٨ هجرية والله أعلم .

والتاريخ الإسلامي العام يقف موقف التناقض من تاريخ تكليف الداعي الحسين الأهوازي فيذهب إلى أن الأهوازي كان من دعاة الإمام الإسماعيلي أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق وأن الإمام المذكور هو الذي عينه داعياً لجزيرة العراق وأرسله من سلمية ، بينما يذهب بعض المستشرقين إلى أن الحسين الأهوازي أرسل في بعثة إلى العراق من مقر الإمامة الإسماعيلية في الأهواز وقبل نقل مقر الدعوة إلى سلمية حول سنة ٢٦٥ هجرية . ولا يستبعد حسب قولهم أن يكون الأهوازي واحداً من أولئك الدعاة الذين استقروا بسلمية بعد قدومهم إليها من الأهواز ولذلك اشتهر بالحسين الأهوازي . ويحتمل كما يزعمون أنه لم يصرح للناس بأنه جاء من سلمية تستراً على إمامه المختفي بها ، يؤيد ذلك هروبه إلى بلاد الشام بعد أن قبض عليه في سواد الكوفة ، على نحو ما جاء في رواية الطبري .

وفي اعتقادي أن هذه الفرضيات والأقوال لا يمكن الاعتماد عليها ، لأن الدعوة الإسماعيلية كما هو معروف كانت سرية ، لذلك كانت تحركات الأئمة وكبار الدعاة تحاط بالتكتم الشديد ، فلا يعلم بتنقلاتهم إلا الإمام بالذات ودعاته الأربعة الحرم حرصاً على سلامتهم وسلامة الدعوة التي ينشرونها . ومتى كانت الأمور سرية كسرية بدء الدعوة الإسماعيلية وانطلاق دعاتها لنشر الدعوة أصبح من الصعب جداً على الباحث أو المؤرخ جلاء الحقائق بالضبط وبالدقة المتناهية التي يفرضها العلم ، فأكثر الذين كتبوا عن الإسماعيلية بنوا ما ذهبوا إليه

على الاستنباط والتخمين والترجيح بحسب ميول كل منهم ، لذلك كل ما قيل ويقال لا يعدو كونه نقلاً عن السابقين بعلاته وما أملته الظروف والبيئة والحكم .

ومن المؤكد أن الاجتماع عقد في مدينة الأهواز في المكان المتفق عليه وفي اليوم المحدد والساعة المحددة ، ولكن تاريخ الاجتماع سيظل مجهولاً ولغطاً يصعب حله حتى تتوفر نصوص جديدة ومصادر جديدة وأظنها لن تتيسر لأن أغلب الوثائق قد أتلفت أو أحرقت بفعل الأحداث والويلات التي تعرضت لها الدعوة الإسماعيلية في دور الستر الأول .

* * *

في القاعة التي عقد فيها الاجتماع جلس الإمام عبد الله بن محمد على كرسي مطعم بالأحجار الكريمة وقد اعتمّ بعمامة جده الحسين بن علي بن أبي طالب ، واتكأ على عصا جده الرسول الكريم ، ووضع في أصبعه خاتماً من الفضة فيه فص أحمر من العقيق ، ورثه عن جده الإمام علي بن أبي طالب ، ودخل الدعاة الأربعة الحرم فقبلوا الأرض وجلس عبد الله بن ميمون وعبد الله بن المبارك عن يمينه ، وعبد الله بن حمدان وعبد الله بن سعيد بن الحسين عن يساره ، ثم دخل داعي دعاة جزيرة فارس هرمز بن الحسين فقبل الأرض وجلس على عدة خطوات في الوسط ، وبعد لحظات دخل الحسين الأهوازي والوراق فقبلا الأرض ، واقتربا من المكان الذي يجلس فيه الإمام عبد الله بن محمد فقبلا يديه وسلما عليه وطلبا منه البركة . وبعد أن لمس بيده رأسيهما أمرهما بالجلوس مشيراً بيده إلى المكان الذي أعد لهما أمامه ، ثم قال : يا حسين ليباركك الله ، ويمنحك القوة والسعادة في الدارين ، لقد قمت بواجبك خير قيام ، وقدمت لنا خدمات جلى ستكون خير زاد لك في الدنيا والآخرة ، ولا نشك في مقدرتك العلمية وحكمتك وزهدك

وتقشفك ، لذا فقد استدعيتك لأمر يتعلق بمصير الدعوة في جزيرة العراق بعد وفاة داعي الجزيرة وترشيحك لتولي هذا المنصب بعده .

قال الحسين الأهوازي : يسعدني يا مولاي أن أكون موضع ثقتكم ، وأقوم بخدمتكم ، فأتولى بذر بذور دعوتكم في أي صقع من أصقاع المعمورة ، ولكن هناك يا مولاي من هو أقدر مني على حمل هذه الرسالة ، فدعاتكم كثر وأكفاء وكلهم يتمتعون بالحكمة والمعرفة ، إلى جانب التفاني والإخلاص ، والزهد والتقشف ، فإذا شئتم يا مولاي ذكرت بعض الأسماء .

قال الإمام عبد الله بن محمد : لقد أشبعنا الموضوع درساً وتمحيصاً وقر قرارنا على أن تكون في طليعة المرشحين لهذا المنصب ، بالإضافة إلى الأخ الداعي الوراق ، وعلى ضوء اجتماعنا اليوم سنقرر من منكما سيكون له شرف حمل هذه الرسالة .

قال الحسين الأهوازي : إذا كانت هذه مشيئتكم يا مولاي ، فستجدني أول المطيعين ، عملاً بقوله تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منك » .

قال الإمام عبد الله بن محمد وقد افتر ثغره عن ابتسامة عريضة : ليباركك الله ، ويعينك على أداء الواجب . والتفت إلى الناحية التي يجلس فيها الوراق فقال : لقد استدعيناك أيضاً يا بني لأنك أحد المرشحين لخلافة داعي الدعاة في العراق ، ونحن نوليك كامل ثقتنا لما خبرناه من حسن مزاياك وإخلاصك وعلمك وحكمتك ، لذلك أوليك ثقتي بنفس القدر التي أوليها لزميلك الأهوازي ، وأطلب من الأخوان الدعاة الحرم أن يتحاوروا معكما ، ويختاروا أفضلكما لما فيه خير الدعوة ومجدها .

قال الداعي محمد بن حسن الوراق : تشرفني يا مولاي هذه الثقة ، وأعلن بصراحة أن الأخ الداعي الحسين الأهوازي أجدر مني بهذا المنصب ، وله خبرة واسعة طويلة بكافة المناطق القريبة والبعيدة من بغداد ، بالإضافة إلى علمه الواسع ، وحكمته القويمة ، ومعرفته الواسعة بالقضايا الاجتماعية وبنية المجتمعات في الجزيرة ، والأمر الأول والأخير يعود إليكم يا مولاي وما علينا إلا الطاعة والتنفيذ .

قال الإمام عبد الله بن محمد : لك بركاتي وتقديري يا وراق على ما أظهرته من نبل وحسن طوية ، تدل على رجاحة عقلك ، وتفانيك في خدمة إمامك ، الذي سيقود الجميع لما فيه الفلاح .

والتفت الإمام إلى يمينه وشماله ، وخاطب دعاته الحرم وقال : لقد جاء دوركم فناقشوا الموضوع ، وبعد أن تنتهوا سنبدأ بالتصويت ، ومتى فرغنا من اتخاذ القرار النهائي سنكلف داعي الدعاة هرمز بن الحسين لعرضه على مجلس دعاته لأخذ الموافقة وإبداء الرأي .

ولما كان عبد الله بن ميمون القداح أكبر الدعاة الحرم سناً وأقدمهم رتبة ، وأغزرهم علماً ، وأكثرهم خبرة في مضامين الرجال قال : لقد أعطانا نظام الدعوة الحرية المطلقة الغير محدودة في إبداء الرأي ومحاكمة الأمور في نطاق مصلحة الدعوة وحاجات الجماعات العرفانية ، بشرط أن تنسجم هذه الحرية مع قوانين الدعوة وأصولها العقلانية ، وكل تجاوز عن هذه المنطلقات يعتبر خروجاً عن الدعوة . لذلك رأيت أن أوجه إلى الأخ الداعي الأهوازي بعض الأسئلة وكلي ثقة بأنه سيجيب عليها بحرية مطلقة .

السؤال الأول : ما هي علة الاختلافات بين أهل الديانات

النبوية ؟ وهل الأنبياء مختلفون في ما يعتقدون من الدين سراً وعلانية ؟

قال الأهوازي : بسم الله الرحمن الرحيم نبدأ وبه ثقتي : إن معنى الدين في لغة العرب هو الطاعة من جماعة لرئيس واحد ، ولما كانت الطاعة لا تتبين إلاّ بالأوامر والنواهي ، والأمر والنهي لا يعرفان إلاّ بالأحكام والحدود والشرائط في المعلومات ، سميت هذه كلها شريعة الدين وسنن أحكامه .

فلما كان الإنسان هو جملة مركبة من جسد جسماني ظاهر جلي ، ومن نفس روحانية باطنة خفية ، صارت أحكام الدين والإسلام وحدود الشريعة على وجهين : ظاهر وباطن . والظاهر هو أعمال الجوارح ، والباطن هو اعتقادات الأسرار في الضمائر ، وهو الأصل ، كما قال مولانا وسيدنا الإمام علي بن أبي طالب : الأعمال بالنيات ، ولكل امرىء ما نوى .

والأنبياء ، عليهم السلام ، لا يختلفون فيما يعتقدون من الدين سراً وعلانية ، ولا في شيء منه البتة ، كما قال تعالى : « أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » . وأما الشرائع التي هي أوامر ونواه وأحكام وحدود وسنن ، فهم فيها مختلفون كما قال تعالى : « ولكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً » . وقال : «ولكل أمة جعَلْنا مَنْسكاً » .

وفي رأيي أن اختلاف الشرائع ليس بضار، إذا كان الدين واحداً ، لأن الدين هو طاعة وانقياد للرئيس الآمر فيما يأمر وينهي المرؤوسين بحسب ما يليق بواحد واحد ، وما يرى أنه يصلح له ويصلح فيه ، لأن أوامر أصحاب النواميس ونواهيهم مماثلة لأمر الطبيب فيما يرى ويأمر العليل . والأنبياء هم أطباء النفوس ، عندما تتعرض هذه النفوس للعلل والأمراض المختلفة في الأدوار والقرانات ،

من الأخلاق الرديئة ، والعادات الفاسدة ، والجهالات المتراكمة ، كما تتعرض الأجساد للعلل والأمراض ، فبحسب ذلك يجب أن يكون اختلاف علاجات الأطباء ومداواتهم . وبهذه الأسباب اختلفت شرائع الأنبياء وسننهم بحسب أهل كل زمان وما يليق بهم أمة أمة ، وقرناً قرناً ، مثل شريعة نوح في زمانه ، وشريعة إبراهيم بعده في زمان آخر وقوم آخرين ، وشريعة موسى في زمان آخر وقوم آخرين ، وشريعة عيسى بعده في زمان آخر وقوم آخرين ، وشريعة سيد الأنبياء محمد ، عليه الصلاة والسلام والتحية والرضوان ، في زمان آخر وقوم آخرين ، فهؤلاء الأنبياء كلهم دينهم واحد ، وإن كانت شرائعهم مختلفة

وأما الاختلافات التي وقعت بين شريعة واحدة ، بعضهم مع بعض ، كالذي بين طوائف اليهود فيما بينهم ، وبين طوائف النصارى ، وكما بين طوائف المسلمين كذلك ، فهي خمسة أنواع : منها اختلاف في ألفاظ التنزيل ، ومنها اختلاف في المعاني كالذي بين المفسرين ، ومنها اختلاف في أسرار الدين وحقائق معانيه الخفية كالذي بين المقلدين والمتبصرين ومنها اختلاف في الأئمة الذين هم خلفاء الأنبياء كالذي بين الشيعة ، ومنها اختلاف في أحكام الشريعة وسنن الدين كالذي بين الفقهاء .

قال عبد الله بن ميمون : صدقت وأحسنت في الإجابة يا أهوازي ، فما تقول في سبب اختلاف العلماء في الإمامة ؟

قال الأهوازي : مسألة الإمامة والقيادة الروحية ، وخلافة الأنبياء ، من إحدى مسائل الخلاف بين العلماء ،قد تاه فيها الخائضون إلى حجج شتى ، وأكثروا فيها القيل والقال ، وبدت بين الخائضين فيها العداوة والبغضاء ، وجرت بين طالبيها الحروب والقتال ، وأبيحت بسببها الأموال والدماء ، وهي باقية إلى يومنا هذا لم

تنفصل .

ومما لا شك فيه أنه لا بد من إمام يكون خليفة للنبي في أمته بعد وفاته : وذلك لأسباب شتى وخصال عدة : أحدها هو أن يحفظ الإمام الشريعة على الأمة ، ويحيي السنة في الملة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وتكون الأمة تصدر عن رأيه ، ويرجع إليه الفقهاء والعلماء عندما تعترضهم أية مشكلة دينية يختلفون فيها فيحكم بينهم ، ويرشدهم إلى الطريق القويم .

وهم أيضاً مختلفون على من ينبغي أن يكون الإمام ، فمنهم من يعتقد أنه لا ينبغي أن يكون الإمام إلا أفضلهم كلهم بعد النبي وأقربهم إليه نسبة ، ويكون قد نص عليه ، ومنهم من يرى بخلاف ذلك . ولهم في هذين الرأيين منازعات وخصومات ، يطول شرحها ، مذكورة في كتبهم .

قال عبد الله بن ميمون : لقد أوجزت فأحسنت يا أخي ، فهل تحدثنا بإيجاز عن أجود الآراء وخير الاعتقادات ؟

قال الحسين الأهوازي : إن اعتقادات الناس كثيرة لا يحصي عددها إلا الله سبحانه وتعالى ، ولكن لا تخرج كلها من ثلاثة أنواع : فمنها ما يصلح للخاص دون العام ، ومنها ما للعام دون الخاص ، ومنها ما بين الخاص والعام .

ومن أجود الآراء وأنفع الاعتقادات ، وما يصلح لجميع الناس من الخاص والعام أن يعتقدوها ، هو القول بحدوث العالم ، وأنه مصنوع ، وله بارىء حكيم ، وصانع قديم ، وخالق رؤوف رحيم ، وأنه قد أحكم أمر عالمه ، وأتقن أمر خلقه على أحسن النظام

والترتيب ، ولم يترك فيه خللاً واعوجاجاً البتة . فإنه لا يجري في عالمه أمر ، ولا يحدث حدث صغير ولا كبير ، دقيق ولا جليل ، إلاّ هو يعلمه قبل كونه ، لا تخفى عليه خافية ، وإن له ملائكة هم خالص عباده ، وصفوة بريته ، نصبهم لحفظ عالمه ، ووكلهم بتدبير خلائقه ، لا يعصونه طرفة عين مما نهاهم عنه ، ويفعلون ما يؤمرون . وإن له خواص من بني آدم اصطفاهم وقربهم ، وجعلهم وسائط بين الملائكة وبين خلقه . وتعرف هذه الأمور عن طريقين : أحدهما الاستبصار والمشاهدة بعين البصيرة واليقين ، بعد تأمل شديد للمحسوسات ، ودقة نظر في المعقولات ، وخبرة بالرياضيات ، وإقرار باللسان ، وإيمان بالقلب ، وتسليم بالقول .

وأما الركن الآخر فهو الطاعة والانقياد من المأمورين والمرؤوسين للآمرين الناهين . وعلى كل مرؤوس طاعة رئيسه ولا يعصيه فيما يأمره به وينهاه عنه فيما فيه صلاح للجميع .

قال عبد الله بن ميمون : لقد وفيت وكفيت ، فلك إعجابي وتقديري ، وأطلب من الأخ الداعي عبد الله بن المبارك أن يناقشك في بعض المسائل المتعلقة باختصاصه !

قال عبد الله بن المبارك : بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتي ، وعليه اتكالي ، هل لك يا أهوازي أن تدلنا على أصدق قول في التوحيد والتسبيح والتمجيد والإثبات ؟

قال الحسين الأهوازي : إن أصدق قول في التوحيد والتسبيح والتمجيد والإثبات ما يكون من قبيل نفي الصفات الموجودة في الموجودات وسلبها عنه تعالى . لأن إثبات الصفات له سيؤدي إلى الافتراء عليه تعالى بنسب ما لا يليق به إليه وإجرائه مجرى ما دونه من

مخترعاته ، لذلك كان أصدق ما يعتمد عليه في التوحيد هو نفي الصفات عنه لأنها ليست له باعتبارها من مخلوقاته أو مخترعاته .

والباري سبحانه وتعالى منزه عن الصفات والأسماء لا شريك له ، وأنه ليس أيساً وليس ليناً ، وهو ليس من جنس العقول حتى تدركه العقول ، وليس بجسم حتى يراه البصر ، ولا يحل في جسد ، وإنه تعالى لا يعرب عنه بلفظ قول ولا بعقد ضمير ، أبدع من ذاته الموجود الأول أو المبدع الأول أو السابق وجعله علة للموجودات ، العلوية والسفلية ، لأنه عين الإبداع وعين المبدع من ناحية ، وعين الوحدة من ناحية أخرى ، يمد بالتأييد كافة الحدود الروحانية التي هي دونه ، ويخرج النفوس من حد القوة إلى حد الفعل ، لم يسبقه في عالم الإبداع شيء ، لأنه شيئية الأشياء كلها ، وعينه العلم والعقل والعمل والرفعة ، والعزة ومجمع الحروف ، وهو أول طالع في الظلمة لظهور الأيسيات ، وبه نصاب الحياة الروحية الأبدية .

قال عبد الله المبارك : هذا هو التوحيد العقلاني الخالص قد جسدته في أقوالك ، فهل تبين لنا كيفية وجود عالم الإبداع وعالم العقول بإيجاز واختصار ، وأمثال عالم العقول في عالم الصنعة النبوية ، وهل وجود الموجودات كان عن طريق الفيض أم الإبداع ؟

قال الحسين الأهوازي : شرح هذه الأمور يحتاج إلى مجال أوسع وأشمل ، ولكن بمقدوري أن أبين ذلك بإيجاز ودقة متناهية ، فإذا اعتقدنا أن وجود الموجودات عن الباري سبحانه وتعالى المتعالي عن الصفات عن طريق الفيض لا على سبيل الإبداع ، نكون قد صورنا وجوده بما لا يطابق ما عليه عينه وحقه لما يلزم ويجب به من وجود ما يعلل المتعالي عن الصفات ما وجوده محال . وذلك أن من شأن الفيض

أن يكون من جنس ما منه يفيض ومشاركاً له ومناسباً ، ويكون الفيض من جهة ما هو فيض كعين ما يفيض منه الفيض بكونه كذات الفيض ، إذ ما يفيض منه الفيض فيه من طبيعة الفيض مثل ما في الفيض من طبيعته ، ولا فرق بينهما من هذه الجهة ، ومثال ذلك الضوء الذي هو فيض من عين الشمس من جهة ما هو ضوء كعين الشمس التي منها فاض الضوء بكونها كذات الفيض ، إذ ذات الشمس يوجد فيها من الضوء مثل ما فاض عنها ، ولا فرق بينهما من هذه الجهة ، فيصير الذي منه يفيض الفيض متكثراً بما يشاركه فيه الفيض وما يختص به هو مما لا يشاركه فتكون ذاته من شيئين : شيء تشاركا فيه فلم يتباينا فيه ، وشيء وقع به التباين بينهما ، وحصلت الغيرة التي لولاها لما أمكن أن يقال ذاك غير هذا ، وهذا غير ذاك . والذي يكون متكثراً فتكثره لحاجة بعض تلك الأشياء التي بها كانت الكثرة في وجوده إلى البعض الآخر ، الذي لولاه لما وجدا جميعاً ، وهما جميعاً في الوجود ووجودهما باستناد الواحد منهما إلى الآخر ووقوعهما تحت القدرة الجامعة لهما ، ويقتضي ذلك أن يكون الباري سبحانه - إن كان ما وجد عنه فيضاً - متكثراً واقعاً تحت قدرة غيره في وجوده ، وأن يتقدم عليه ما وجوده محال ، وإذا كان الباري هويته لا عن هوية هي غيرها ، فقد تعالى أن يكون موصوفاً بقلة أو كثرة فقد بطل أن يكون من شيئين ، وإذا بطل أن يكون من شيئين بطل أن يكون ما وجد عنه فيضاً ، فيكون موجباً لما فاض عنه كثرة عنها عن ذاته ثم أن من الأوائل في العقل وأحكامه أن الذي يكون أبسط ، وأعرى من آياة الكثرة ، وأقوم بذاته فهو أشرف من غيره ، وعلى هذه القضية فالفيض أبسط من الذي فاض منه بكونه شيئاً واحداً ، وكون الذي فاض منه شيئين بأحدهما يشارك الفيض ، وبالآخر يختص فيباينه ويلزم من ذلك أن يكون الفيض أولى بأن يكون متقدماً على الذي فاض منه لشرفه عليه بقلة الكثرة فيه ووجود

الكثرة في ذلك ، وإذا كان كونه فيضاً موجباً أن يكون هو أشرف من الذي فاض منه الذي هو الباري المتعالي عن الصفات ، فأي محال أعظم من اعتقاد شيء هو بالضد مما عليه أمره . ثم أن الفيض لا يكون إلا عن تمامية ذات ما يفيض منه ، والباري سبحانه تعالى أن يكون تماماً أو تاماً فيقع الاشتراك به بينه وبين غيره من معنى من المعاني . فيلزم من ذلك وجود ما عنه تكون هويته إذ التام مشارك للتام ، والتام مشارك للتام ومناسب ، والمشاركة والمناسبة بين شيئين يقتضيان ما يتقدم عليهما ، ولو كان للمتعالي سبحانه مشاركة مع غيره في شيء من الأشياء أو مناسبة لاقتضى ما يتقدم عليهما ، ويستندان في الوجود إليه كلاهما فتؤدي الحال في ذلك إلى أمر في نهايته يوجب أن لا توجد الموجودات . فلما كان هذا باطلاً محالاً بطل أن يكون الموجود عن الباري فيضاً . فلما بطل أن يكون ما وجد عن الباري سبحانه فيضاً ، لم يبق إلا أن يكون إبداعاً ، فهو الإبداع الذي وجوده لا من شيء والموجود الأول الذي وجوده لا من مادة ، والشيء الأول الذي إن طلبت إحاطة بكيفية وجوده لن تنال بكونها محجوبة عن العقول بوقوعها تحتها ، وذلك أن العقول عند نهوضها لمعرفة شيء وتحصيل موجود ترجع إلى ذاتها في ذلك فتدركه من الجهات التي بها تطارده : والإحاطة بهذه المعرفة لا يليق بالعقول لكونها بالذي يصدر عنه وجود الإبداع أولى من المبدع الذي هو ذات الإبداع . ثم لتقدمها على ذات العقل بكونها مما هو خارج عنها إذ العقل هو الذات الصادرة إلى الوجود عن القدرة التي بها حصل الإبداع الذي هو حق العقل ونفسه ، والعلم بأنه كيف يوجد وكيف يكون وجود شيء لا من شيء يتصور أنه خارج عن ذات العقل ، وسابق عليها ، والطلب ليس لمعرفة ذات الإبداع فيكون الإبداع الذي هو المبدع الأول ليرجع إلى ذاته فيحيط بها ، بل الطلب لمعرفة ما عنه حصل الإبداع وبه وجد ، وذلك متقدم على

الإبداع الذي هو ذات العقل ، والعقل متى تحرك لطلب ما يتقدم على ذاته لم يحصل إلا في الحيرة لحاجته في ذلك إلى مفارقة ذاته ، وفي مفارقة ذاته خروجه من كونه عقلاً ، وفي خروجه من كونه عقلاً جهله ، وإذا كان في طلب ما يتقدم على ذاته حيرته وجهله ، وكيفية الإبداع هي متقدمة على ذاته رتبة ، فلن يحصل طالبه إلا على الجهل والحيرة فطلبه محال .

والإبداع في اعتقادي هو الموجود لا من شيء تقدمه من جنسه ، ونهاية إحاطة العقل انتهاؤه فيها إلى هذا الموجود الأول لزم الوقوف عند هذا الحد والإقرار عما سواه مما هو خارج عنه ليكون تقديساً فلا إله إلا هو ، أوجد عن طريق الإبداع المبدع الأول فانبعثت منه عقول تسعة على الترتيب والنظام يقابلها في عالم الصنعة النبوية الموجود الأول كالناطق والموجود الثاني كالأساس والثالث كالإمام والرابع كالباب والخامس كالحجة والسادس كداعي البلاغ ، والسابع كالداعي المطلق والثامن كالداعي المحدود والتاسع كالمأذون المطلق والعاشر كالمأذون المحصور الذي هو المكاسر . ولكل من هذه الحدود اختصاصه وتأثيره وامداداته واستمداداته ، وجذب الأنفس إلى العبادة والطاعة ، والحمد لله رب العالمين .

قال عبد الله بن المبارك : أحسنت وأجدت وحلّقت عالياً يا أهوازي فلك تقديري وإعجابي ، وليس لي ما أقوله سوى أن أطلب من الأخ الداعي عبد الله بن حمدان أن يدلو بدلوه في هذه المناسبة .

قال عبد الله بن حمدان : لي سؤال واحد يا أهوازي وهو يتعلق بالقضاء والقدر فهل نسمع رأيك بالموضوع ؟

قال الحسين الأهوازي : إن القدر يعني تقدير الباري سبحانه

الأشياء على الصورة التي هي بها ، أشياء خارجة من العدم إلى الوجود ، مرتبة في أماكنها ، لا يعدو بعضها بعضاً ، منتظمة انتظام الحكمة على صحة التأليف ، ونظام التركيب لا يسبق بعضها بعضاً ، فالأول لا يكون متأخراً ، والمتأخر لا يكون أولاً ، لقوله تعالى : « إنّا كل شيء خلقناه بقدر » والقدر هو وضع الشيء في موضعه اللائق به ، وكونه في مكان يحس كونه فيه . والقضاء هو ما أوجب في الحكمة من العناية بالعالم من تكليف الاستطاعة الموجودة فيهم . وهو ما قضاه الله في سابق علمه لأنه سبحانه لا يكلف خلقه إلا ما يجعله في وسعهم وطاقتهم لقوله : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » فمتى تكلفوا في غير ما في طباعهم عما نهاهم عنه عذبهم ، لأنهم قد خرجوا من قضائه وحكمه ، وعدلوا عن وصيته .

قال عبد الله بن حمدان : إجابة جيدة ومختصرة ومفيدة تستحق عليها التهنئة والإعجاب ، فليتفضل الداعي الأخ عبد الله بن سعيد بن الحسين بالاستفسار عما يراه منسجماً مع اختصاصه ؟

قال عبد الله بن سعيد بن الحسين : يبدو أنك يا أهوازي قد اجتزت مرحلة الاختبار بتفوق ، لذا أرغب في معرفة رأيك ومدى تعمقك بالقضايا التأويلية ، فأعطنا فكرة عن الفرق بين التأويل والتفسير ؟

قال الحسين الأهوازي : التأويل بمفهومه العلمي يختلف اختلافاً كلياً عن التفسير الذي يقول به علماء الظاهر وعامة الناس . لأن التأويل بنظري هو الرجوع إلى الأصل لإدراك معاني القرآن الكريم ، واستنباط جوهر الحقيقة ومعناها الروحي العرفاني الذي يوافق العقل السليم .

ولقد أوجب سبحانه وتعالى التأويل في آيات كثيرة من كتابه الكريم فقال : « وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث » . وقوله : « وسأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً » وقوله : « وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ، ولنعلمه من تأويل الأحاديث » وقوله : « هو الذي أنزل عليك الكتاب ، منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات . فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلاّ الله والراسخون في العلم » .

ومن استقراء آيات القرآن الكريم وتحليل ما ورد فيها من رموز وإشارات على ضوء العقل ، يتبين لنا أن على الإنسان أن يفكر ويتأمل ويرجع إلى المعنى الحقيقي للكتاب ليجد أن لكل آية منه ظاهراً وباطناً قد أشار إليهما سبحانه وتعالى في أماكن كثيرة .

والمحور الذي يرتكز عليه علم التأويل هو المثل والممثول ، أو الظاهر والباطن ، لأن الموجودات الروحانية والجسمانية لها أمثال في عالم الدين في العبادتين العملية والعلمية وتفاعلهما . والموجودات الروحانية والجسمانية لها أمثال في عالم الدين في العبادتين العملية والعلمية وتفاعلهما . والموجودات قسمان : قسم ظاهر للعيان وهو الغلاف أو القشرة ، وقسم باطن وهو اللب أو الجوهر . فالظاهر يدل على الباطن ، كجسم الإنسان الذي هو الظاهر ، ونفسه التي هي الباطن . وإن ما ظهر من أمور الدين ، وما جاء في ظاهر آيات القرآن ، هي معان يعرفها ويناقش بها علماء أهل الظاهر ، ولكن لكل فريضة من فرائض الدين تأويل باطني لا يعلمه إلاّ الهداة من الأئمة والحجج والأبواب والدعاة ، وهؤلاء هم الراسخون في العلم الذين يكشفون روح الروح ، أو نفس النفس ، لأنهم جوهرها ومعناها

الروحي ، والصور الإنسانية التي هي مثال عن العقول الإبداعية ، يقيمون التوازن بين الظاهر والباطن ، أي بين العمل والعلم .

قال عبد الله بن سعيد بن الحسين : أبدعت وأنصفت يا أهوازي ، جزاك الله خيراً ، وسدد خطاك لما فيه خير الدعوة وسؤددها .

قال الحسين الأهوازي : لست سوى نقطة في بحر الإمام الزاخر ، وقفت نفسي على خدمة الدعوة وإعلاء شأنها ، ونشر علوم آل البيت الذين طهرهم الله وقرن طاعتهم بطاعته .

ولما انتهى الدعاة الحرم من نقاشهم مع الأهوازي ، وقد بهرهم ذكاءه ، وقوة حججه ، وسلاسة منطقه ، قال الإمام عبد الله بن محمد : بعد أن سمعنا الأهوازي ، ولمسنا مدى علمه وحكمته ، لا بد لنا من الاستماع إلى الوراق ، فابدأ يا بن ميمون بمحاورته !

ولما هم عبد الله بن ميمون بالكلام زحف الوراق على ركبتيه وانحنى أمام الإمام عبد الله بن محمد وقال : هل يسمح لي مولاي بأن أقول كلمة قبل أن يبدأ الأخ ابن ميمون بالكلام ؟

قال الإمام عبد الله بن محمد : تكلم يا وراق لقد منحنا الجميع حرية القول والتعبير عما يتفاعل في أعماقهم .

قال الوراق : أتوسل إليك يا مولاي أن تعفيني من هذا النقاش ، لأنني أعتبر الأخ الأهوازي خيراً مني لتحمل هذه المهمة ، وأعلن عن استعدادي للتعاون معه ، وتأييده في كل خطوة يخطوها ، فهو أفضل مني وأغزر علماً ، وأرجح عقلاً ، وله دراية واسعة ، وخبرة دقيقة في جزيرة العراق ، أما أنا فمجال عملي بالبصرة ،

والجماعات يلحون عليَّ بالبقاء حيث أنا إذا شاء مولانا ! !

قال الإمام عبد الله بن محمد : لا بد من النقاش كما هو مقرر ، إلا إذا شاء الدعاة الحرم أن يلبوا طلبك ويمنحوا ثقتهم الإجماعية للأهوازي . ثم التفت يميناً وشمالاً حيث يجلس الدعاة الحرم فقال : ماذا ترون فيما يعرضه الوراق ؟

فقال عبد الله بن ميمون : أنا موافق يا مولاي على إعفاء الوراق من هذه المهمة تلبية لرغبته ، وتقديراً للأهوازي الذي أظهر مقدرة عجيبة على المناقشة والمحاورة .

فقال بقية الحرم كل في دوره : إننا نوافق يا مولاي على طلبات الوراق ، طالما تنازل بمحض إرادته عن حقه في الترشيح ، ومنح ثقته للأهوازي ، فالأمر يعود إليكم يا مولاي ! !

قال الإمام عبد الله بن محمد : طالما أجمعتم على اختيار ولدنا وعزيزنا الحسين الأهوازي لهذه المهمة فإنني أعلن عن موافقتي وتأييدي لقراركم وأرفع الجلسة إلى مساء الغد حيث نعقد اجتماعاً خاصاً بالتكريس يحضره بالإضافة إلينا داعي دعاتنا في الجزيرة الفارسية هرمز ابن الحسين الذي سيتولى تلاوة المراسيم ، ويمكن للوراق أن يلتحق فوراً بمقره ، فله بركاتي الأبوية والأمومية . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد أن أعلن الإمام عبد الله بن محمد انتهاء الجلسة نهض الجميع وتقدموا كل بدوره من الأهوازي ، وراحوا يقدمون إليه التهنئة بالمنصب الجديد ويدعون له بالتوفيق ، ثم توجهوا من الباب السري إلى حيث يقيم الأهوازي ضيفاً على عبد الله بن ميمون القداح ، وكانت

الساعة قد تجاوزت منتصف الليل بقليل ، ثم تفرق الجميع كل إلى منزله .

ولما أصبح الأهوازي والوراق منفردين في الغرفة التي خصصها لهما ابن ميمون ، تعانقا طويلاً ، ثم أوى كل منهما إلى فراشه ، وقبل أن يخلدا للنوم قال الأهوازي مخاطباً الوراق . وقد امتلأت مقلتيه بالدموع : يا أخي ورفيق دربي ، قل لي بصراحة لماذا فعلت هكذا ، وأنت العالم النحرير ، والحكيم القدير ، والتقي النقي الزاهد في أمور الدنيا ؟

قال الوراق : منذ أن استدعينا إلى مقر الدعوة شعرت بأنك أجدر مني بهذا المنصب الحساس ويمكنك أن تنجح في مهمتك أكثر مني ، لأنه مجال اختصاصك ، فنويت ونحن في الطريق إلى الأهواز على تأييدك ، ومنحك الثقة ، ولكنني تريثت حتى انتهت المناقشة ، ولمست مدى وقع ردودك في الجميع ، فصممت على التخلي عن ترشيحي ، وإعطائك كامل ثقتي ، لأنك أهلاً لها ولهذا المنصب .

قال الأهوازي : شكراً على هذه التضحية ، وكلي أمل بأن يوفقني الله لما فيه خير الدعوة التي نبشر بها ، ونعمل على انتشارها في مختلف أنحاء المعمورة ، وسأحفظ لك هذه البادرة ما حييت .

وفي صباح اليوم التالي استدعي الوراق إلى مقر الإمامة ، حيث ودع الإمام ودعاته الحرم وتوجه بالطريقة التي قدم بها إلى مقر إقامته في البصرة ، أما الأهوازي فقد حضر الجلسة التي عقدت خصيصاً لتكريمه وقد حضرها الإمام عبد الله بن محمد ودعاته الحرم وداعي دعاة جزيرة فارس هرمز بن الحسين ، وبعد أن ركع الحسين الأهوازي أمام مجلس الإمام ، وضع داعي الدعاة هرمز بن الحسين على رأس

الأهوازي العمامة الخضراء المزركشة ، وألبسه الجبة الحمراء المحلاة بالخيوط الذهبية ، ثم أخذ الإمام عبد الله بن محمد سيف الإمامة الذي ورثه عن آبائه الأئمة السابقين ووضعه على كتف الحسين الأهوازي بينما كان راكعاً على ركبتيه وقال : بسم الله الرحمن الرحيم ، والعاقبة للمتقين العارفين ، والصلاة والسلام على النبي الكريم وأهل بيته الطيبين الطاهرين . الغر الميامين ، المحفوظة بهم حدود الدين وأركانه ، وسلم تسليماً وحسبنا الله ونعم الوكيل :

بموجب هذا القرار الذي اتخذ مساء أمس . والذي منحت بموجبه رتبة داعي دعاة جزيرة العراق ، وعملاً بقانون الدعوة الهادية ، وبما منحتني من حقوق القيادة والهداية ، والأبوة الروحية ، أبارك تعيينك داعياً لدعاة جزيرة العراق ، وأخصك بهذه الرتبة العلية السامية ، وأوصيك بالتمسك بالأمور التالية :

اعلم يا ولدي إن من كان أحسن سياسة ، وأوفر علماً ، وأغزر فهماً ، وأذكى نفساً ، وأثبت حكمة ، وأسرع فطنة ، وأحسن تدبيراً لنفسه ، وسياسة لأهله ، وأعدل سيرة ، وأحسن عشرة ، وأنصف معاملة ، وأعدل قيادة ، كان عند الله أعظم منزلة ، ولديه أقرب زلفى . ومن كان بقدرة الله أبصر ، وبحكمة الله أعرف ، ولآياته أقرأ ، كان بسياسة خلقه أعلم ، ومن كان بها أعلم ، فسياسته أحسن وأعدل ، ومن كان كذلك ، فهو إليه أقرب ، ولديه أوجه .

واعلم يا بني أن من قام في العالم بأمر الله ، ونهيه ، ومراده من عباده . وبلغهم رسالاته ، وصدق عنه في مقالاته ، فهو وجهه ، ولسانه ، ويده وجنبه ، في عالمه الأرضي ، وخلقه البشري ، إذ كان هو المؤيد له بذلك ، من قوته ومشيئته .

ومن كان لهذا الشخص مصدقاً ، ولقوله محققاً ، ولأمره متبعاً ، وعن نهيه مرتفعاً ، ولأمره خاضعاً ، ولديه واقعاً ، كان بالقرب منه أولى ، ولموضع حكمته أهلاً . فهو لا شك ، يرث مقامه من بعده ، ويتقلد أمانته وعهده ، في تبليغ رسالته ، وموعظته ، وإقامة دعوته ، وتكميل شريعته ، بمجاهدة أعدائها ، وإظهار تأويلها ، والقيام بما تحتاج إليه الأمة فيها ، مما تكون به حياتها ، ونجاتها ، وسلامتها .

ومن خالف أمر هذا الشخص ، وتكبر عليه ، وطلبه بالمكر ، والخديعة ، والرياء ، والنفاق ، والعصيان ، وإظهار المحبة له ، في ظاهر ما يبديه ، وإضمار خلافها ، فيما يخفيه ، كما قال عز وجل : «وإذا لَقُوا الذين آمنُوا قالوا آمنّا وإذا خَلَوْا إلى شياطينهم قالوا إنّا معكم إنمّا نحن مُستَهْزِءُون» فلا شك أن هؤلاء هم الذين يريدون إطفاء نور الله « والله مُتِمّ نورَهُ ولو كَرِهَ الكافرون » فاعرف يا ولدي هذا الأمر ، تسعد بمعرفته أنت ومن اتبعك .

والذي نحب أن نوصيك به يا بني ، ونلقيه إليك ، ونبلغك إياه ، ونعتمد فيه عليك ، من مراعاة إخوانك ، ومن قبل دعوتك من أصحابك ، ومن استجاب إليك ، ويستجيب ، إن شاء الله ، أن تجعل لهم مجلساً تجمع فيه جماعاتهم ، في كل اسبوع يوماً واحداً . يجتمعون فيه حيث ما اتفق لهم من مواضعهم وأمكنتهم ، بحيث يأمنون فيه على أنفسهم ، ويكون اجتماعهم على تقوى من الله ، وخيفة مراقبته ، ويتطهرون ، من قبل حضورهم ، ويتنظفون ، ويأخذون زينتهم بأحسن ما يقدرون عليه ، فإذا اجتمعوا بحيث تراهم ، وتعاينهم ولا يقعد أحد منهم ، إلا لعذر يمنعه من القدوم عليك ، والوصول إليك ، فابرز لهم واخرج عليهم في زيك وحللك ، وجميل هيئتك ، وجليل هيبتك ، كبروز النفس الكلية

للنفس الجزئية ، إذ هم لك كالأولاد ، وأنت لهم كالوالد ، وهم لك الأجساد ، وأنت كالنفس ، وهم لك كالبيوت ، وأنت فيهم كالساكن ، إذ كانت حكمتك مودوعة فيهم ، وروحك نازلة عليهم ، ويكون خروجك في سكينة ووقار ، في ليل كان ذلك أو في نهار . فإذا رأيتهم بحيث يرونك ، ويسمعون منك ، ويفهمون عنك ، فاتل عليهم من حكمتك ، وعظهم بتذكيرك ، حسبما يحتمل مكانتهم ، ويتسع لهم إمكانهم ، وأعلمهم ، وعرفهم ، فيما تلقيه إليهم من الموعظة ، والتذكرة ، والحث على طلب العلم ، أن تكون أكثر عنايتهم ، وقصدهم ، وقصارى همتهم ، وسعيهم في البحث عن الأمور الإلهية ، والآراء العقلية ، التي هي الغرض الأقصى في اللذة ، وغاية نعيم أهل الجنة ، وبه استكمال أهل الأنس ، والترقي عن عالم الحس ، والتبرؤ من ظلمة الأجساد ، والنجاة من أسر الطبيعة ، وقيد الشهوة ، وبحر الهيولى ، وترادف النشوء ، والبلى .

وعرِّفهم يا بني أن أصلح الأعمال ، وأجل الأفعال ، تفقد إخوانهم ، وتدبير أمورهم ، ومعرفة السياسات الدينية والدنياوية ، في معيشة الدنيا ، وما يجب لهم وعليهم من أداء الأمانة ، وترك الخيانة ، ومحبة بعضهم بعضاً في الله عز وجل ، وأن يتواصلوا ويتهادوا ، ويتحابوا ، ويتناصفوا ، ويعظ بعضهم بعضاً في الله ، ولا يتخاصموا ولا يتعادوا ، ولا يتقاطعوا . وعرفهم بآداب الأنبياء ، وصفات الحكماء ، وأخلاق المؤمنين . واتل عليهم من الحكمة الإلهية ، والأسرار الملكوتية ، والعلوم المكنونة ، وأوقفهم على الأسرار ، وعلى معاني الأخبار ، والروايات ، وأمثال الإشارات ، والعلامات .

ويجب عليك يا بني أن تكون للجماعات المؤمنة إذا عرفتهم بما

يجب لك عليهم ، وبما يجب لهم عليك ، أباً شفيقاً ، وطبيباً رفيقاً ، ولا تكن نزقاً ، ولا خرقاً ، ولا منحرفاً ، ولا متجبراً ، ولا متكبراً ، ولا متعسراً ، ولا تحمل أحداً منهم فوق طاقته ، ولا تكلفه فوق وسعه ، فإن الله سبحانه لا يكلف نفساً إلا وسعها ، لها ما كسبت ، وعليها ما اكتسبت .

فهذه وصايانا إليك ، وتقليدنا لك ، وعهدنا إليك ، فيما أمرناك به ، وأقمناك ، فاعمل فيها بموجب الأمانة وإياك والخيانة ، ولا تلقها إلا إلى من أمرت بهديه وهداه ، وإخراجه من عماه ، وتعريفه ربه وأولياءه ، بحسب ما يجب له من ذلك بقدر احتماله ، وما توجبه أعماله ، وما يبدو لك من أفعاله ، ولا تجهل هذه الوصايا ، وتلطف في استعمالها ، واعمل عملاً يسرك أن تراه ، واعلم أن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأنَّ سعيه سوف يُرى ، ثم يجُزاه الجزاءَ الأوفىَ ، وأنَّ إلى ربِّك المُنتهى . وهو الذي أغنى وأقنى ، عالم السر وأخفى ، له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى .

والحمد لله رب العالمين والصلاة والتسليم على جدنا محمد وآله الطاهرين أجمعين . ثم قال عليه السلام : انهض ليباركك الله ، ويلهمك الرشاد ، فنهض الأهوازي وراح يتقبل التهاني من الحضور ، بينما دخل الإمام عبد الله بن محمد إلى غرفته ، وطلب من غلامه أن يستدعي الأهوازي لمقابلته وتسليمه أمر تعيينه ، ولما دخل الأهوازي ، وأصبح وحيداً مع الإمام عبد الله بن محمد قال له : قبل أن تغادرنا يا حسين لا بد لي من إطلاعك على سر خطير من أسرارنا نحن أهل البيت ، وهو أنني قررت أن أنقل مقري من الأهواز إلى بلاد الشام حرصاً على سلامتنا وسلامة الدعوة ، وسوف أخبرك برسالة خاصة عن مكان دار هجرتنا ، بعد أن يعود الداعي عبد الله بن المبارك

من جولته في تلك البلاد ، وسيغادر الأهواز غداً إن شاء الله . وكذلك أوصيت بأن يكون الإمام بعدي ولدي أحمد بن عبد الله الذي سوف يرافقني إلى بلاد الشام ، فوجه اهتمامك لهذا الأمر ، وبلغه سراً إلى من تثق به ، ونعلم أنه يحرص عليه ، واستعد لمغادرة الأهواز في الحال ، برعاية الله وتوفيقه . فتقدم الأهوازي من الإمام عبد الله فبسط له يده مودعاً فقبل الأهوازي يده وخرج حيث ودع الدعاة الحرم وداعي الدعاة هرمز وأخذ طريقه باتجاه سواد الكوفة .

أما الداعي عبد الله بن المبارك فتوجه إلى منزله حيث استدعى ولده أحمد بن عبد الله المبارك الذي كان مأذوناً في الدعوة وأبلغه بأنه سيذهب في مهمة سرية عصر هذا اليوم قد تستغرق بعض الوقت ، لذا يوصيه بوالدته وإخوانه ، وأن يجعل نصب عينيه خدمة الدعوة ، ونشر الحكمة ، ورعاية الجماعات ، وأداء الأمانة التي أؤتمنت عليها عائلتهم من عهد جدهم الأكبر . ثم طلب منه أن يرسل له خادمه ومرافقه في رحلاته الطويلة نصر الدين الموسوي الذي كلفه بإعداد نفسه ورحله للسفر . ودع أحمد بن عبد الله والده ، وسار إلى خارج البلدة حيث كان يقيم نصر الدين الموسوي في مزرعة تبعد عدة فراسخ عن الأهواز وطلب منه أن يوافي والده في المنزل ليحدثه في أمور تتعلق بالسفر .

ولما دخل نصر الدين الموسوي على الداعي عبد الله بن المبارك وهو في منزله يجمع بعض الكتب والأوراق ، قال له عبد الله بن المبارك : هل أعددت كل شيء يا نصر الدين ، لأننا سنرحل فور هبوط الظلام ؟

قال نصر الدين الموسوي : كل شيء أصبح جاهزاً يا مولاي كما أمرت ، لقد أعددت ثلاثة جمال بأحمالها من الخز والديباج وستة بغال

لتحمل العطور والبخور ، واخترت ثلاثة من الاخوان المستجيبين ألبستهم ثياب الغلمان ليرافقونا في هذه الرحلة ، كما أعددت لك يا مولاي الثياب التي اعتدت أن تلبسها في مثل هذه الرحلات ، وجهزت لك حمارتك البيضاء ، والجميع في المزرعة بانتظار أوامركم لنشد الرحال .

قال عبد الله بن المبارك : بارك الله فيك ، خذ هذه الأوراق وأودعها في مكان أمين ، دون أن يراك أحد الغلمان ، فأنا قادم إليكم فور هبوط الظلام .

تناول نصر الدين الأوراق ووضعها في خرج أعده لوضع مثل هذه الأشياء ، وعاد إلى المزرعة حيث دخل غرفة جانبية ، وبعد أن أغلق الباب خلفه أودع الخرج بين الخز والديباج ، ثم خرج إلى حيث يجلس الغلمان ، وراح ينتظر حلول الظلام .

ولما توارت الشمس وراء الأفق ، أمر صدر الدين بأن توضع الأحمال على الجمال ، والبغال ، ثم يخرجوا بها من المزرعة بأحمالها سالكين الطريق الفرعية الممتدة عبر الجبال والأوهاد ، باتجاه بلاد الشام ، وما هي إلاّ لحظات حتى وصل عبد الله بن المبارك فدخل الغرفة الجانبية وأبدل ثيابه واعتم بعمامة بيضاء ولف شالاً على عنقه أخفى فيه نصف وجهه ، ثم خرج فركب حمارته البيضاء ، ولحق بالركب ، وإلى جواره مرافقه صدر الدين الذي امتطى ظهر بغلة حمراء أخذت تشق طريقها عبر المسالك والدروب بين الأحجار والصخور ، تتقدم القافلة حيناً لتكتشف الطريق ، وتعود حيناً إلى حيث كان يسير المبارك على صهوة حمارته البيضاء .

الفصل الثاني

عبد الله المبارك في بلاد الشام

قطعت القافلة التي يقودها ابن المبارك باتجاه بلاد الشام المسافة بين الأهواز والموصل بيومين ونصف ولما وصلت إلى أطراف الموصل في الأراضي العراقية وجد الداعي عبد الله بن المبارك في انتظاره الداعي فضل الله بن علي مع ثلاثة من رجاله يحملون الزاد والماء ، وكان الداعي فضل الله بن علي قد تسلم رسالة بواسطة الحمام الزاجل من داعي الرقة ينبئه فيها بموعد وصول قافلة ابن المبارك ويطلب منه فيها استقباله وتزويده بالطعام والماء ، وإرشاده إلى الطريق الأقرب والأسهل إلى الرقة .

ويبدو من سياق الأحداث أن عبدالله بن المبارك بعد أن وصل إلى الموصل واجتمع مع داعيها علم بأن الطريق إلى الرقة محفوفة بالمخاطر ، إذ لا بد من وجود بعض الجند العباسي بين دير الزور والرقة ، لذلك فهو ينصحه بوجوب تغيير الطريق ، وسلوك الطريق الذي يقوده إلى تدمر عبر البادية . فإذا وافق على اقتراحه فإنه سوف يعلم داعي تدمر رباح ليكون في انتظاره خارج تدمر مع الطعام والماء :

ولكن الداعي عبد الله بن المبارك أصر على سلوك الطريق إلى الرقة ماراً بدير الزور ، لأنه سوف يتجنب المدن والقرى ويسلك الطريق الصحراوية ، لذلك يأمل منه أن لا يخبر أحداً بوجهته حتى لو كان من أقرب المقربين ، وإذا سئل من قبل أحد المقربين الموثوق فيهم فليقل بأنه سار باتجاه تدمر عبر الصحراء .

وبعد أن تناولوا طعام العشاء وتزودوا بالماء والطعام ساروا باتجاه الرقة في طريق فرعي بعيد عن العمران وبينما كانوا يجدون السير وقبل أن يصلوا إلى دير الزور اعترض سبيلهم مفرزة من الجند مدججين

بالسلاح ، فأمروهم بالوقوف ، ريثما يتعرفوا على هوياتهم .

وقفت القافلة عن المسير فتقدم رئيس المفرزة الذي كان ملثماً يمتطي صهوة جواد محجل يسير بقوة وخيلاء ، فقال مخاطباً عبد الله بن المبارك - الذي كان بدوره ملثماً - عن هويته ووجهة سيره.

فقال عبد الله بن المبارك : أنا تاجر من نيسابور أحمل البضائع والبخور ، متوجهاً إلى حلب لحضور سوقها التجاري الذي سيعقد في الأسبوع القادم ، وهؤلاء غلماني أستعين بهم من وعثاء الطريق !

فقال رئيس المفرزة : علمنا بأن أحد أحفاد الإمام الصادق سيمر من هنا هذه الليلة ، وأوصافه تنطبق على أوصافك ، فهل تسمح لجنودي بأن يفتشوا الرحال ، ويتفحصوا ما لديكم من أوراق تثبت شخصيتكم ؟

فقال عبد الله بن المبارك : ولم لا . تفضلوا يا أولادي جزاكم الله كل خير ، فأنتم تقومون بواجباتكم ،وتذودون عن كيان الأمة ، ولكن ألا تمهلنا حتى نؤدي صلاة العشاء ؟

قال رئيس المفرزة : لا مانع لدينا ، ولكن أيها الشيخ الجليل ألا تسمح لنا جميعاً بمشاركتكم هذه الصلاة لتعم البركة ، وتتهذب نفوسنا مما علق بها من أدران ؟

قال عبد الله المبارك : تفضلوا فليباركم الله !

توقف الركب وترجل الجميع ، فأناخوا الجمال ووضعوا لها الطعام ثم أدوا صلاة العشاء ، وبعد الصلاة التف الجميع حول عبد الله بن المبارك الذي راح يتلو بعض الآيات القرآنية ، ويعدد مناقب المؤمن وصفاته ، ويدعو الجميع إلى التمسك بأهداب الدين ، والتعاضد والتكاتف .

ولقد كانت الكلمات تخرج من فم ابن المبارك فتقع من مسامع الحضور موقع البلسم ، كأنها الشهد المصفى ، مما جعل الجميع يتطلعون إليه بإعجاب شديد ، وإيمان منقطع النظير .

وما كاد ينتهي من وعظه وإرشاده حتى تقدم رئيس المفرزة فقبّل يديه ، واعتذر عما بدر منه ، ثم طلب منه أن يرتاح حتى مطلع الفجر ليكون له فرصة أداء صلاة الفجر بمعيته ، ولكن ابن المبارك صمم على مواصلة السفر ، وأخذ يفتش في جيوبه ليخرج له ما طلب من أوراق ، إلا أن رئيس المفرزة تصرف بحكمة ونقاوة ضمير ، فقال لابن المبارك : لا أريد أن أرى إلاَّ وجهك الصبوح ، الذي إذا شاهدته أشعر بالسعادة الكبرى ، ولولا المهمة الموكولة إليَّ لرافقتك حتى حلب ، فالله يحفظك ، ومع السلامة ، وانصرف مع جنوده إلى حيث كان يختفي عن الأنظار يراقب الدروب والمسالك .

واصلت قافلة ابن المبارك السير متخطية المكوث في دير الزور بل مرت القافلة على بعد منها ، دون أن يفكر عبد الله بن المبارك بمقابلة داعي دير الزور علي بن يعقوب ، لأن داعي الموصل أبلغه بأنه في قلب البادية يبشر بين قبائل البدو الرحل ، وسار الليل كله حتى صباح اليوم التالي ، فأمر القافلة بأن تخرج عن الطريق وتتخذ لها مكاناً تخيم فيه عبر الكثبان الرملية حتى حلول الظلام ، وكانوا قد أصبحوا على مسافة ليلة واحدة من الرقة ، لذلك يجب أن ترتاح الجمال ، ويتناولوا الطعام ، بانتظار وصول داعي الرقة حسان بن ماهر الصفوي الذي سيرافقهم حتى الرقة . حيث أعد لهم منزلاً ليرتاحوا فيه عدة أيام، يحضر خلالها ابن المبارك اجتماع الدعاة في الرقة للتداول في بعض الأمور المتعلقة بنشر الدعوة في الرقة وحلب والبادية السورية ، والتي جرت العادة على عقده في كل عام في بلد تختاره قيادة الدعوة من بلاد الشام :

ولما طلع الصباح وسطع نور الشمس في كبد السماء ظهر فارس ملثم يتوجه نحو المكان الذي تخيم فيه القافلة ، فعرف عبد الله بن المبارك أن الفارس القادم في هذه الساعة المبكرة ليس سوى داعي الرقة حسان بن ماهر الصفوي ، فأرسل مرافقه نصر الدين الموسوي وأمره أن يختفي على مسافة عدة فراسخ من المخيم خلف إحدى الكثبان ويراقب الفارس القادم ، فإذا كان داعي الرقة ، وأعطاه كلمة السر التي هي « عمامة خضراء » فليرافقه حتى المخيم ، وإذا لم يعطه كلمة السر المتفق عليها فليحاول القبض عليه ، وإذا تعذر عليه ذلك فليقتله ويدفنه في الصحراء .

ففعل نصر الدين ما أمره سيده واتجه غرباً نحو عدة فراسخ حيث كمن خلف إحدى الكثبان الرملية ، وراح يراقب الفارس القادم ، وما هي إلا لحظات حتى أصبح على بعد عدة خطوات منه ، فناداه بصوت جهوري : قف يا هذا ! فوقف الفارس . فقال له نصر الدين : ترجل عن فرسك ولا تحاول أن تأتي بأية حركة . فنزل الفارس عن جواده . فقال له : تقدم إليّ واعلن عن اسمك ، وإلى أين تتجه بعيداً عن الطريق العام ؟ فقال الفارس : أنا عابر سبيل ضللت الطريق وأطلب شربة ماء . فقال نصر الدين : إذا كنت حقاً كما تدعي فاكشف عن وجهك اللثام وواصل التقدم قبل أن أغمد هذه النبلة في صدرك .

ولما رأى الفارس الملثم أن الأمر جد ، مد يده إلى لثامه فانتزعه وكشف عن وجهه ، فعرفه نصر الدين ، وتأكد أنه الداعي حسان بن ماهر الصفوي ، الذي التقاه عدة مرات عندما كان يزور الرقة برفقة سيده عبد الله بن المبارك ، ولكنه لم يفصح عن هذه المعرفة ، بل تابع قائلاً : يبدو أنني عرفت مقصدك ، فاعطني كلمة السر إذا كنت فعلاً كما أظن ! فقال الفارس : عمامة خضراء ! فقال نصر الدين : أهلاً

بك يا سيدي ، وتقدم منه فعانقه ، واتجها سوية إلى حيث كان ينتظرهما ابن المبارك في المخيم .

ولما دخل الداعي حسان بن ماهر على ابن المبارك وهو في خيمته قبل يده وعانقه عناقاً طويلاً ثم قال : قلقت عليك يا مولاي لأنك تأخرت عن الموعد المحدد في الرسالة التي وصلتني منذ عدة أيام بواسطة الحمام الزاجل ، فرأيت أن أخرج لوحدي فعسى أن أجدك في المكان المعين ، وها قد وجدتك بالفعل ، فارتاح فؤادي وشعرت بالسعادة التي لا توصف ، فهل تأمر بمتابعة السير إلى الرقة أم ننتظر حتى حلول الظلام ؟ فقال عبد الله بن المبارك وقد ظهرت على ثغره ابتسامة عريضة : تأخرنا يا ولدي ليلة واحدة فقط لأسباب أمنية ، كوننا التقينا بمفرزة من الجند على مقربة من دير الزور فأمطرونا بوابل من الأسئلة عن وجهتنا وهوياتنا ، ولكننا استطعنا التخلص منهم بعد أن أدركوا بأننا تجار نقصد سوق حلب التجارية ، فهل الطريق إلى الرقة آمنة إذا واصلنا المسير في النهار أم ننتظر حلول الظلام ؟

قال داعي الرقة حسان : لم أصادف في طريقي أية عقبة حتى فاجأني نصر الدين على بعد عدة فراسخ من هنا ، ولكنني أفضل يا مولاي حرصاً على سلامتنا أن نواصل السير عند المغيب فنصل الرقة وقت العشاء .

فقال عبد الله بن المبارك : لك ما تريد يا حسان ، ادخل وخذ قسطاً من الراحة في خيمتي . ثم نتحدث بعد ذلك حول بعض الأمور المتعلقة بالدعوة في الرقة وتوابعها . دخل الداعي حسان إلى الخيمة وجلس باتجاه مجلس ابن المبارك ، بينما خرج المرافق نصر الدين ليعد طعام الإفطار ، وأغلق باب الخيمة خلفه وطلب من الغلام المكلف بالحراسة أن يمنع الدخول لأي كان .

ولما أصبح المبارك وحسان وحيدين ابتسم المبارك ، فشعر حسان

وهو ينظر إلى طلعته البهية ولحيته البيضاء التي كانت تغطي نصف صدره ، أن هناك ما يود قوله . فقال حسان : لست متعباً يا مولاي ، فالمسافة قصيرة بين الرقة والمكان الذي تخيمون فيه ، فأنا على استعداد لسماع ما ترغبون قوله ، بعد أن أصبحنا وحيدين :

فقال عبد الله بن المبارك : عندما قمت بجولتي المعتادة في السنة الماضية ، وقضيت فترة في الرقة ، تبين لي بأن الدعوة تنتشر بدقة وانتظام ، وأنها تسربت بفضلكم إلى القبائل التي تقطن في بادية الرقة ، كما وأن تقاريركم المتابعة تفيد بأن بعض أمراء هذه القبائل أخذ يميل إلى مساعدتنا وتأييدنا ، فهل لك يا حسان أن تخبرني بدقة عن موقف الدولة تجاه هذا النشاط ، وهل تعلم بتحركاتكم ، أم أنكم تنشرون الدعوة ، وتبشرون فيها كما تعلمتم بصورة سرية تامة ؟

قال حسان : نحن نحرص على السرية بتحركاتنا وسلوكنا في كافة المجتمعات التي نعمل فيها ، ولا أعتقد بأن أحداً من المسؤولين في الدولة يعلم شيئاً عن تحركاتنا ، ولقد استطعت أن أستميل أمير الرقة إلى جانبنا ، وأخذت عليه العهود والمواثيق ، فهو يقدم لنا المساعدات ، ويسهل تحركنا في مختلف الأوساط ، وسوف أدعوه للإجتماع بكم قبل انعقاد مجلس الدعاة في الرقة ، فإذا وجدتموه مخلصاً في تأييده ومساعدته ، كرسناه في تنظيمات الدعوة ومنحناه الرتبة التي يستحقها !

فقال عبد الله المبارك : عمل جيد تستحق عليه التهنئة ، ولكن قل لي ماذا فعلت بخصوص ما أشرت به عليك في السنة الماضية بشأن دراسة المجتمعات التي تعيش في حلب ومنطقة الرقة ، وخاصة الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ، ونشاط العمال الزراعيين والصناعيين ، وغيرهم من طبقات المجتمع كأصحاب الحرف والتجار والموظفين والجند والملاكين !

فقال الداعي حسان : منذ أن غادرتنا يا مولاي في السنة الماضية ، ونحن نعمل بكل قوانا على دراسة أوضاع القبائل في البادية ، وطرق معيشتهم ، بالإضافة إلى الأبحاث المتواصلة التي يقوم بها الدعاة في مدينة حلب والقرى التابعة لها ، وكذلك بالنسبة لسكان مناطق الرقة !

قال عبد الله بن المبارك : هل أعددت دراسة مفصلة عن هذه الأمور ، لتقدمها إلى مجلس الدعاة الذي سيعقد في الرقة ، وهل أعطيت رأيك بالطرق الواجب اتخاذها لمعالجة أمثال هذه الأمور ؟

قال الداعي حسان : كل شيء معد منذ أسابيع ، وسيقدم إلى المؤتمر في حينه ، فعسى أن يوفقنا الله لما فيه خير الأمة الإسلامية ، ومصلحة الطائفة !

ولما مالت الشمس نحو الغروب ، أمر عبد الله المبارك مرافقه نصر الدين أن يستعد ورفاقه لمغادرة المكان ، وعلى الفور هدت الخيام وحملت على ظهور الجمال والبغال ، وسار نصر الدين في المقدمة بينما تقدم حسان القافلة ليكشف معالم الطريق ، وأخذ الداعي عبد الله المبارك مكانه في وسط القافلة التي تقدمت بخطى وئيدة باتجاه الرقة . وعندما أعلن المؤذن أن موعد صلاة العشاء قد حان ، كانت القافلة تدخل في باحة الدار التي أعدها حسان لإيواء القافلة طوال مدة إقامتهم في الرقة .

أما الداعي عبد الله بن المبارك ، فقد رافق الداعي حسان إلى المنزل الذي أعده له في أطراف الرقة بعد أن أوعز لمرافقه نصر الدين بأن يأتيه بالأوراق التي كلفه بالمحافظة عليها ، وأن يؤمن الحراسة المتواصلة على البضائع بعد أن يضعها في مكان أمين ، وأوصاه بأن يأمر الغلمان بأن يبقوا في المنزل ، ولا يغادروه أبداً حتى لا يلفتوا الأنظار .

لم تكن المسافة بين الدار التي نزلت فيها القافلة وبين المنزل

الذي أعد لاقامة الداعي عبدالله المبارك بعيدة، فما عليهما إلاَّ أن يقطعا الشارع الذي يخترق البلدة من جنوبها إلى شمالها ثم يسيرا قليلاً بين البساتين فيصلا إلى غايتهما ، وطوال المسافة التي قطعاها لم يتكلم أحدهما بكلمة واحدة ، بل سارا صامتين ، حتى دخلا الحديقة التي تحيط بالمنزل ، فاعترض سبيلهما الحارس الذي كلفه الداعي حسان بحراسة البيت ، فأعطاه الداعي حسان كلمة السر، فسمح لهما بالمرور إلى داخل المنزل .

ولما أصبحا داخل البيت ، قال حسان : إذا شاء مولاي أن يرتاح قليلاً في غرفته ، ريثما أستدعي بعض الدعاة الذين ينتظرون عودتي في جامع البلدة ، لنتشاور معهم.، حول بعض الأمور المتعلقة بالدعوة وبالمؤتمر الذي سيعقد مساء غد ؟

قال عبد الله بن المبارك : لا بأس إذا استدعيت أيضاً حول منتصف الليل داعينا في حلب ، وداعينا في معرة النعمان ، لأنني أرغب في التحدث إليهما ، ولا أخالني بحاجة إلى الراحة ، لأن الواجب يقضي أن أنهي المهمة قبل انعقاد المؤتمر !

قال حسان : سمعاً وطاعة يا مولاي سيكونان هنا عند منتصف الليل إن شاء الله .

خرج حسان مسرعاً من الدار واتجه نحو الجامع ، حيث وجد بانتظاره دعاة الرقة ، وقد تحلقوا في حلقة ذكر بجوار المحراب ، فانضم إليهم ، وأخذ يردد بعض الآيات القرآنية معهم ، ويسجد ويبتهل ، فعلم الجميع بأنه قد وفق في مهمته ، وأن الداعي عبد الله بن المبارك قد أصبح في مكان أمين .

ولما أصبح المسجد خالياً إلاَّ من أصحاب الحلقة ، قال حسان هامساً : سأخرج بعد قليل فاتبعوني إلى حيث يقيم مولانا ، لأنه ألح في طلبكم ، والتفت إلى الداعي المأذون سليمان بن سعد ، وطلب منه

أن يتوجه إلى مكان إقامة داعي حلب ، وداعي المعرة فيبلغهما أن الداعي عبد الله المبارك قد وصل ، ويريدهما بعد منتصف الليل في منزله . ثم سجد سجدة طويلة ، وسلم وخرج ، ففعل الجميع كما فعل ، ولحقوا به إلى حيث يقيم عبد الله بن المبارك .

ولما دخلوا من باب الحديقة قال لهم حسان : انتظروا في الصالة حتى أستأذن لكم بالدخول ، واتجه نحو الغرفة التي يقيم فيها الداعي المبارك فقرع الباب ودخل بعد أن أذن له بالدخول ، فقال : وجدت الجميع يا مولاي في الجامع كما اتفقنا فأتيت بهم ، فهل تسمح لهم بالدخول للسلام والتهنئة بسلامة الوصول ؟

قال عبد الله بن المبارك : ما رأيك يا حسان لو أخرج إليهم حيث يجلسون ، فنتبادل التحية ، ثم نبحث في شؤون الدعوة ؟

قال حسان : لك ما تريد يا مولاي .

قال عبد الله المبارك : إذن اخرج إليهم وقل لهم بأنني قادم !

خرج الداعي حسان إلى الصالة وأبلغ الدعاة بأن المبارك سيخرج إليهم بعد قليل . وما هي إلا لحظات حتى فتح باب غرفة ابن المبارك وأطل منها بقامته المديدة ، والابتسامة العريضة لا تفارق محياه ، فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

فأجابوا جميعاً وقد علت البشرى وجوههم : عليك السلام ورحمة الله وبركاته ، نحمد الله على وصولك يا مولانا بالصحة والعافية .

قال عبد الله المبارك وهو يصافحهم ويقبلهم فرداً فرداً : كانت رحلة موفقة لولا بعض العقبات التي تمكنا من إزالتها ببركة الله وحسن توفيقه ، وبفضل ما أعده الأخ حسان من ترتيبات دقيقة ، سهلت لنا الوصول بالسلامة . ولما سلم عليه الجميع وقبلوا يديه ، أفسحوا له مكاناً في وسط القاعة ، وجلسوا حوله على شكل نصف دائرة ، بينما

تقدم حسان وجلس عن يمينه ، ورنت إليه أبصار الجميع وقد صمتوا عن الكلام بانتظار ما سيقوله الداعي الكبير . ولكن المبارك ظل صامتاً يجوب ببصره في وجوه الدعاة الملتفين حوله ليقرأ ما ارتسم عليها من تعابير تدل عما يتفاعل في أعماقهم من إيمان عميق ، وإخلاص تام .

وما هي إلا لحظات حتى طرق باب القاعة ودخل منه مرافق المبارك نصر الدين ، حيث أخرج من تحت ثيابه مجموعة من الأوراق قدمها للمبارك ، وغادر القاعة . ففض المبارك الأوراق وأخرج من بينها رسالة ، فض غلافها وقال : عندما غادرت الأهواز طلب مني مولانا الإمام الحاضر أن أنقل لكم هذه الرسالة التي تحمل في طياتها بعض الإرشادات والتعاليم ، وكلفني أيضاً بأن أحمل إليكم بركاته الأبوية . ثم سلم الرسالة إلى الداعي حسان وأمره أن يتلوها على الجميع ، فتلاها حسان ، وقد جاء فيها ما يلي :

بسم الله الرحمن الرحيم والعاقبة للمتقين الزاهدين ، والصلاة والسلام على جدنا وسيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين ، هداة الخلق أجمعين ، من تمسك بعروتهم الوثقى نال البركة في الدنيا والدين ، وأصبح مع الخالدين ، والحمد لله رب العالمين .

من عبد الله ووليه : عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق إلى أتباعنا ومريدينا المؤمنين ، في الرقة من بلاد الشام ، سلام عليكم . فإننا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلاّ هو ،ونسأله أن يصلي على جدنا محمد ، خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، صلى الله عليه ، وعلى آله الطاهرين ، الأئمة المهديين ، وسلم تسليماً .

أما بعد : فإن داعينا وخادمنا ، الداعي عبد الله بن المبارك ، يحمل إليكم بركاتنا وتعلياتنا ، وإرشاداتنا ، ونطلق يده في تفقد أحوال الدعاة والدعوة في بلاد الشام ، له ثقتنا المطلقة للإشراف على شؤون الدعوة في تلك الأطراف ، فاحرصوا على إظهار ولائكم لإمامكم

الروحي وطاعته ، لأن بطاعته يقبل الله سبحانه منكم الطاعة ، وبتقلد عهده تملكون الشفاعة ، حافظوا على شريعة جدنا رسول الله ، ﷺ عملاً بأوضاع صلاتها وزكاتها ، ووفاء بحقوق مفروضاتها ومسنوناتها ، وعلماً بخفيات رموزها ، واستخلاصاً لحقائقها من كنوزها ، بروا بوالديكم اللذين جعلهما الله سبحانه لوجودكم سبباً ، وحاذروا من العقوق الذي يكدر عليهما من الثقة ، بكم مشرباً . وكونوا على اختلاف الجسوم نفساً واحدة ، وأعضاداً على حفظ الدعوة متعاضدة ، وأطيعوا دعاتكم ورجال دينكم الذين ولّيناهم عليكم ، فهم بالنسبة إلينا قوادم الجناح الذي تطيرون به في أفق العلياء ، يشفقون عليكم إشفاق الآباء على الأبناء ، ويسلكون بكم مسالك من أسقاهم ماء غدقاً من صوب رحمته لما استقاموا على الطريقة ، وعرفوا كنه الحقيقة .

لقد فوضنا وأنبنا داعينا عبد الله المبارك بأن يجمع أموال الزكاة والنجوى ، ويخصص لكم منها ما يلزم لرفع مستوى العائلات المعوزة والفقيرة ، فكونوا قائلين بالسمع والطاعة ، باذلين في نهيه الإستطاعة ، والله تعالى يهديكم في اتباع أوامرنا لأمثل الطريقة ، إن شاء الله ، والسلام عليكم ورحمة الله .

كتب بخط اليد الشريفة النبوية في شهر رمضان سنة ٢٠٣ والحمد لله وصلواته على جدنا محمد ، خاتم النبيين وسيد المرسلين ، وعلى آله الطاهرين ، الأئمة المهديين ، وسلامه ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

ولما انتهى الداعي حسان من قراءة الرسالة قال الجميع بصوت واحد : الله وحده يعلم ما في الضمائر ، وما تخفيه السرائر ، وهو على كل شيء قدير . وخيم الصمت على القاعة من جديد . . . ولكن الداعي عبد الله بن المبارك الذي يعرف مدى إخلاص هؤلاء الدعاة

وتفانيهم في طاعة الإمام ومن يمثله ، تحرك قليلاً في مقعده ، فتحولت أنظار الجميع إليه ، فقال : ثقتي بكم كبيرة ، وأملي بنشاطكم أعظم ، ولكن مولانا عليه السلام شاء أن يذكركم بواجباتكم تجاه الدعوة ، ونحو الجماعات ، فأمر الجماعات ورفع مستواهم الاجتماعي والعلمي يهمنا أكثر من كل شيء ، لأن ذلك يوصلنا إلى الهدف الأكمل ويقودنا إلى المجتمع الأمثل . فليباركمكم الله ويثبتكم على حبه وطاعة الإمام ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . اخلدوا إلى الراحة، لقد انتصف الليل فقوموا يرحمكم الله .

ونهض عبد الله المبارك من مجلسه ودخل غرفته ، فغادر الجميع المنزل ، إلا حسان فإنه عاد إلى الصالة بعد أن خرج بوداع الدعاة ، وقرع باب غرفة الداعي المبارك ، ولما فتح له الباب قال له : لقد بلغنا داعي حلب وداعي المعرة بوصولكم يا مولاي ، وهما قادمان إلينا عند منتصف الليل ، فهل أنتظرهما هنا ، أم اخرج لاستقبالهما في الحديقة ؟

قال عبد الله المبارك : انتظرهما في الحديقة، وعندما يحضرا ادخلهما فوراً إلى غرفتي ، ولا بد أن تكون معهما ا خرج حسان إلى الحديقة وجلس على كرسي بجوار البحرة ينتظر حلول الساعة المحددة لقدوم الداعيين ، ولما دقت الساعة معلنة انتصاف الليل ، سمع الحارس المكلف بحراسة المدخل يتكلم همساً ويطلب كلمة السر من شخصين يرغبان بدخول المنزل ، فنهض من مجلسه وسار باتجاه المدخل ، حيث طلب من الحارس أن يسمح لهما بالدخول ، ففتح الحارس الباب وأفسح لهما الطريق ، فدخلا وسلما على الداعي حسان الذي أدخلهما في الحال إلى الصالة ، وبعد أن جلسا ، طرق باب غرفة عبد الله المبارك وأنبأه بوصولهما ، فقال له : ادخلهما فوراً يا حسان إنني بانتظارهما . فأشار حسان إليهما

أن يتفضلا ، فنهضا من مجلسهما ودخل داعي حلب ثم تبعه داعي المعرة ، فقبلا يد الداعي المبارك وهنّأه بسلامة الوصول ، فأشار إليهما ليجلسا أمامه ، وطلب من حسان أن يجلس بقربهما ، ليسمع ما سيقوله لهما ، لأن الأمر يتعلق بالجميع . ثم قال عبد الله المبارك : سأبحث معكم ما حملني إياه الإمام وأمر أن نستعرضه سوية لأنه يعود إلى شئون الدعوة العليا ، التي لا يجوز معرفتها إلاّ دعاة المناطق والأقاليم ، والدعاة الحرم .

لقد قرر مجلس الدعوة أن ينقل مقر القيادة إلى بلاد الشام ، لأن المقر الحالي في الأهواز لم يعد صالحاً لإقامة الإمام ومجلس دعوته ، لذلك أوفدني لأبحث معكم أمر إيجاد دار هجرة ، يكون بعيداً عن عيون العباسيين وجنودهم ، فما هو رأيكم في الموضوع ؟

قال فارس بن إبراهيم داعي حلب : كنا نرغب من أعماقنا أن تكون حلب دار هجرة للدعوة ، ولكن العيون فيها كثيرة ، والرقابة أكثر ، ففيها الكثير من المناوئين الذين يترقبون الفرص السانحة للفتك بنا ، وأمير حلب مغلوب على أمره ، ولا يمكن التعامل معه ، لذلك أرى يا مولاي أن تكون هذه الدار في بلدة سلمية لأنها بعيدة عن الأنظار وفي طرق البادية ، وأميرها حديث العهد في هذا المنصب ومن المغضوب عليهم من قبل العباسيين ، مع أنه يمت إليهم بصلة القربى .

وقال أبو المعالي داعي المعرة : أنا أفضل يا مولاي أن تدرس دراسة واقعية من قبلكم بالذات كافة البلدان السورية ، طالما ستقومون بجولة إلى حلب وقراها ثم إلى المعرة وحماه وسلمية ، وعلى ضوء خبرتكم تقررون المكان الأصلح ، واعتقد بأن سلمية خير دار للهجرة .

قال حسان داعي الرقة : في اعتقادي أن تدمر صالحة لتكون مقراً لدعوتنا ، كونها محاطة بالعديد من القبائل التي استملناها للدعوة ، وواقعة في قلب البادية وبعيدة عن أنظار الحكام ، ولا يعيبها إلا كونها ممراً للقوافل الآتية من العراق ، والذاهبة إلى الشرق ، ولقد سبق أن أقام فيها فترة مولانا الإمام محمد بن اسماعيل عليه السلام ، ومنها كان يوزع الدعاة إلى جميع أنحاء البلاد الإسلامية ، ولا يزال لنا فيها أتباع ودعاة ومريدون .

قال عبد الله المبارك : لقد كونت فكرة عن هذه القضية ، وسوف أتفقد أثناء تجوالي هذه البلدان ، والتي أراها صالحة وآمنة منها سأختارها لتكون دار هجرة ومقراً لدعوتنا ، وهناك أمر آخر أود إطلاعكم عليه ، ويتعلق بالإمامة ، ومن سيكون الإمام القادم بعد مولانا عبد الله بن محمد ، فقد كلفني أن أنقل اليكم بسرية تامة أن الإمام من بعده هو ولده الأكبر أحمد بن عبد الله الذي أعد إعداداً تاماً ليكون خليفة لوالده الإمام الحاضر ، فاحفظوا هذا السر ، وخذوا له البيعة من الجماعات فور تلقي الأوامر بذلك ، والله يسدد الخطى ويطيب المسعى ، ويمنح مولانا الحاضر المزيد من الصحة والعافية . وأوصيك يا حسان أن تبلغ الدعاة الذين وفدوا من كافة المناطق أن موعد الإجتماع غداً بعد صلاة المساء في هذا المكان ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ولما أعلن المبارك انتهاء الجلسة ، نهض الجميع وانحنوا بخشوع وغادروا المكان إلى حيث يقيمون ، أما المبارك فانه استدعى مرافقه نصر الدين ودخل وإياه الغرفة المخصصة لإقامته . ولما أصبحا وحيدين ، سأله المبارك عما فعل بالبضاعة ، فأجابه بانه ينتظر أوامره . فقال له المبارك : اذهب بقسم منها غداً إلى سوق البلدة واعرضه

للبيع ، وبعد أن تبيعه حاول شراء بعض الأصناف المرغوبة في حلب وقراها ، ثم وزعها على الرواحل كلها وجهز نفسك للسفر المفاجىء بعد انتهاء المؤتمر ، ولا تعلن عن وجهة السفر حتى تتلقى أوامر جديدة . ومن المؤكد أننا سنحمل معنا بعض الأموال من الذهب والفضة فحاول أن تجد لهذه الأموال مكاناً سرياً تودعها فيه ، ولا تدع أحداً يعلم بها ، أو بمكان وجودها . وأمر نصر الدين بأن يعد له فراشه كونه يرغب في الإستراحة بعض الوقت ، ثم عليه أن يعزز الحراسة في الداخل وحول البيت .

فقال نصر الدين : لقد أخذت كافة الإحتياطات يا مولاي وضعت بعض الغلمان ليراقبوا بدورهم الحراس الذين وضعهم الداعي حسان تحسباً للطوارىء ، وبعد أن أقوم بجولة تفقدية عليهم سأجعل مكان منامتي أمام غرفتك بعد أن أوصد كافة الأبواب ، ولن أسمح لأحد بالدخول في هذه الساعة المتأخرة من الليل .

فقال عبد الله المبارك : لا أشك في نباهتك وإخلاصك فليباركك الله يا نصر الدين وتصبح على خير .

أوى عبد الله المبارك إلى فراشه بعد خروج نصر الدين ، وحاول أن ينام قليلاً ، ولكن الأفكار المتلاحقة حالت بينه وبين الرقاد ، وأخذت الصور تتجسد أمام ناظريه وتمر متتابعة كأنها شريط سينمائي يعرض تطورات الدعوة منذ انتقال الإمام جعفر الصادق وانشقاق الشيعة من بعده حتى دخول الأئمة من ولده في دور الستر ، واضطرارهم إلى التخفي والتنقل من بلد إلى بلد خشية أن يقعوا في أيدي العباسيين الذين كانوا يلاحقونهم تحت كل سماء وفي كل بقعة ، وتمثلت أمام ناظريه صورة ضخمة كبيرة لوالده الداعي المبارك الكبير

وهو يوصيه قبل وفاته بوجوب الإخلاص والتفاني في خدمة المبادىء التي كرّس حياته لها ، وتأمل ملياً في تلك السنوات الطويلة التي قضاها في خدمة الإمام والدعوة ، وبالجولات المتواصلة التي اعتاد أن يقوم بها في كل عام ، فافتر ثغره عن ابتسامة عريضة عندما اتضحت له نتائج أعماله وخدماته ، فقال مخاطباً نفسه : لقد أديت الأمانة التي كلفت بها ، ورعيت الشجرة التي زرعها والدي حتى نمت وترعرعت وحملت أطيب الأثمار ، وليساعدني الله على طاعة أولي الأمر وتأدية واجبي حتى النهاية ، ولكنه تنهّد طويلاً واغرورقت عيناه بالدموع عندما تذكر ولده أحمد الذي ربّاه تربية عقلانية صحيحة ، فأدخله وهو لا يتجاوز الثامنة من عمره مدرسة الدعاة حيث درس كافة العلوم الفقهية والشرعية ، وتعمّق في الأدب والتاريخ ، وبعد أن أظهر نبوغاً منقطع النظير انتقل إلى علم الحقائق وفلسفة ما وراء الطبيعة ، ثم أصبح مأذوناً في الدعوة ، ويعتبر من أنشط الدعاة وأعمقهم معرفة ، مما جعله مقرباً من مركز الإمامة ، والإمام بالذات يقربه ، ويتدبه للمهمات السرية الخطيرة ، وكم يكون سعيداً لو مد الله بعمره حتى يرى ابنه وقد تسلم أعلى المناصب في الدعوة لأنه جدير بالثقة ، ولم يشعر إلاّ وقد راح في إغفاءة عميقة استمرت حتى أعلن المؤذن صلاة الصبح ، فنهض من فراشه وتوضأ ثم أدى فريضة الصلاة ، ولما انتهى فتح النافذة المطلة على الحديقة فشاهد أشعة الشمس الذهبية وقد تسللت بين الأشجار ، وسمع تغريد الطيور بأنغام عذبة شجية تعلن ولادة يوم جديد ، فانتابه إحساس غريب بالسعادة مما جعله يستبشر بأن مهمته ستنجح وأن الاجتماعات والخلوات التي سيجريها ستكون ذات فائدة قصوى للدعوة ، فمسح بيده على لحيته البيضاء وأطلق ابتسامة عريضة ، ثم تناول عمامته فوضعها على رأسه وفتح باب الغرفة ونادى مرافقه نصر الدين الذي دخل مسرعاً فأدى تحية الصباح وقبل يد

المبارك ووقف ينتظر أوامره .

فقال عبد الله المبارك : أهلاً بك يا نصر الدين ، لقد كان ليلاً طويلاً لم يغمض لي جفن خلاله ، إلا قبل ساعات ، فاذهب إلى الداعي حسان وابلغه أن يأمر كافة الدعاة الذين سيحضرون المؤتمر مساء هذا اليوم بأن يحضروا الأموال التي بين أيديهم ، وبعد أن يقبضها منهم استلمها وضعها في مكان أمين ، فقد نحتاجها خلال تجوالنا أو نحتاج بعضها ، ثم ننقل ما تبقى منها إلى مقر الإمامة في الأهواز ، وإذا أمرنا بالبقاء في سلمية أو غيرها نحفظها حتى تأتينا أوامر جديدة .

قال نصر الدين : سمعاً وطاعة يا مولاي ، وسأشد كل ما يتجمع في أكياس أعددتها لهذه الغاية وأضعها بين الأقمشة والبضائع على ظهور الجمال ، وقد نحتاج إلى عدد من الدواب والغلمان ، فهل يأمر مولاي بابتياعهم من سوق الرقة ؟

قال عبد الله المبارك : افعل ما تراه مناسباً وصالحاً ، ولكن لا تكثر من عدد الدواب والغلمان حتى لا تلفت اليك الأنظار .

توجه نصر الدين إلى منزل داعي الرقة حسان وأبلغه أن المبارك يأمره بأن يجمع أموال الزكاة والنجوى من كافة الدعاة وأن يسلمه تلك الأموال فور الإنتهاء من جمعها ، فأجابه حسان بانه قد علم بأن داعي حلب وداعي المعرة وداعي حماه والقدموس ومصياف ، قد احتفظوا بقسم من أموالهم لينفقوها حسب ارشادات الإمام على الجماعات لرفع مستواهم الإجتماعي والعلمي ، وللإنفاق على شؤون الدعوة وتنقلات الدعاة في المدن والدساكر ، وسآمر أمين مالية الدعوة في الرقة ليجمع الأموال فوراً ، وسأسلمك إياها عند الإنتهاء من هذه المهمة ، فعد الينا عند صلاة الظهر انشاء الله .

عاد نصر الدين إلى حيث يقيم عبد الله بن المبارك واعلمه بأن كل شيء سيكون معداً بعد صلاة الظهر ، فقد أمر الداعي حسان أمين مالية الدعوة بأن يتصل بالجميع ويبلغهم أوامر المبارك القاضية بتسليم ما لديهم من أموال ، وسيأتي حسان مع الأموال متى تم جمعها ، وسأنتظره في الوقت المحدد.

وبالفعل وصل الداعي حسان بعد الظهر ومعه الأموال التي جمعها من دعاة كل المناطق ، ودخل على الداعي عبد الله المبارك ، وسلمه الجداول الخاصة بكمية هذه الأموال ، وأعلمه بأنه سلمها جميعها إلى مرافقه نصر الدين الذي يعمل على وضعها في مكان أمين ، وبنفس الوقت وضع بين يديه جداول بالنفقات والصرفيات التي تسلمها من دعاة المناطق ، وكذلك جداول تتضمن مقدار المبالغ الباقية لديهم احتياطاً للطوارىء . ثم مد يده إلى جيبه فأخرج صندوقاً مطعماً بالأحجار الكريمة وقال للداعي المبارك ، هذا الصندوق بعثت به إليّ ابنة أمير الرقة جهان التي استجابت للدعوة منذ سنة على يدنا وكلفتني بأن أسلمه إليك لتقدمه نيابة عنها هدية إلى مولاتنا حرم الإمام عليه السلام ، ولما فتح عبد الله المبارك الصندوق وجد فيه قلادة مرصعة بالزمرد والأحجار الكريمة النادرة ، ومصنوعة من الذهب الخالص صناعة دقيقة تبهر الأبصار ، فقال : ليباركها الله ويرشدها إلى سواء السبيل ، بلغها بأننا سنسلم هديتها ، وسنطلب لها البركة والتوفيق في الدنيا والآخرة .

وما أن خرج حسان من غرفة المبارك بعد أن أدى مهمته ،حتى أوى المبارك إلى فراشه وراح في سبات عميق ،لم يصح منه حتى سمع طرقاً خفيفاً على الباب ينبئه بأن الظلام قد خيم على المنزل وأن الدعاة بدأوا بالتسلل إلى المنزل لحضور المؤتمر . فنهض من فراشه واغتسل ، ثم

ارتدى ملابسه ، وأخرج جبته المذهبة وعمامته الخضراء وارتداهما ، وجلس ينتظر اكتمال النصاب وهو يداعب لحيته المتدلية فوق صدره ، مستعرضاً أمام مخيلته ما يجب أن يقوله عند افتتاح المؤتمر ، وقد اعتاد أن يتكلم في مثل هذه المناسبات مرتجلا دون أن يكتب كلمة واحدة ، لأن الكلمات كانت تخرج من فمه وهو يتكلم كأنها الدر المنضض ، فيأخذ بألباب السامعين لمتانة لغته ، وقوة تعابيره ، وسلاسة لفظه وأسلوبه ، ولم يتذكر خلال المدة الطويلة التي قام بها بمهمة الداعي الحرم وهو أعلى منصب في الدعوة أن بصيرته خانته يوماً من الأيام ، ولكنه الآن وفي هذه الساعة يشعر برهبة الموقف لأول مرة في حياته ، فالكلمات العميقة الحلوة التي اعتادت أن تتكوكب في مخيلته في مثل هذه المناسبات بدأت تهرب منه ، فأخذ يلاحقها ويفتش عن مطلع لكلمته يفتتح المؤتمر بها . فالمؤتمرين من كبار الدعاة العلماء الذين عبوا من العلوم العقلية الماورائية حتى بلغوا القمة ، فإذا خانته بصيرته هذه المرة فماذا سيكون موقفهم منه ، وقد عرفوه معلماً حكيماً يجمع بين الحكمة والفلسفة ، بالإضافة إلى مرتبته الكبرى.

وبينما تتجاذبه الأفكار وتتكوم أمام مخيلته ، لم يشعر إلا والداعي حسان يدخل عليه ويعلن أن الجميع أصبحوا في القاعة يجلسون في حلقة ويحيطون بالمقعد الذي أعد له إحاطة السوار بالمعصم ، فهل يتفضل مولاي بالخروج اليهم .

فقال عبد الله المبارك : استعن بالله وافتح باب الغرفة على مصراعيه سأخرج بالتو واللحظة .

وبالفعل خرج عبد الله المبارك وما كاد يطل على القاعة التي تغص بالدعاة حتى نهضوا جميعهم واقفين واحنوا رؤوسهم إجلالاً له ،

فسلم عليهم ثم جلس على مقعده وراح يجول ببصره في وجوه المجتمعين ، بينما جلس بين يديه الداعي حسان ، ووقف خلفه مرافقه نصر الدين ، وقد ارتدى أفخر الثياب المطرزة بالخيوط الذهبية .

وران على القاعة صمت رهيب قطعه عبد الله المبارك بقوله :

بسم الله الرحمن الرحيم أفتتح هذا المؤتمر ، وكلي ثقة وأمل بأن المؤتمر القادم سيكون في الربوع السورية ، وليعلم أبنائي الروحيين بأنني أنقل إليهم بركات مولانا الروحية ، لهم ولجميع الاخوان في بلادهم ، ومولانا عليه السلام راض تمام الرضاء عن سير الدعوة ونشاط الدعاة ، لذلك يحمد الله الذي لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلي على جده محمد ، خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، وعلى آله الطاهرين الأئمة المهديين .

ومولانا عليه السلام يود أن يعلم علم اليقين ، من أبنائه المؤمنين ، هل عقول الناس والحالة الإجتماعية بين المواطنين ، الذين يقطنون بلادكم الخيرة للعطاء ، معدة لقبول علم آل البيت ، وترتاح له ؟ وهل التربة صالحة للزرع فكرياً وعقائدياً واجتماعياً ؟ وهل يمكن تقويم العقول ، وتهذيب النفوس حسب الأصول المتبعة في الدعوة؟ وهل أوضاع البلاد وأحوالها السياسية والإقتصادية يساعدكم على نشر آرائكم وأفكاركم العقلانية؟

هذا ما أراد مولانا الإمام الحاضر معرفته من قبلكم ، فصوروا لنا الأوضاع وارسموا صورة واضحة عن مدى انتشار دعوتنا!!

إخواني وأبنائي أمدنا الله بروح منه .

ينبغي أيدكم أيدكم الله تعالى ، أن لا تعادوا علماً من العلوم ،

أو تهجروا كتاباً من الكتب ، ولا تتعصبوا على مذهب من المذاهب ، لأن رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها ، ويجمع العلوم جميعها ، لأنه النظر في جميع الموجودات بأسرها ، الحسية والعقلية ، والماورائية ، والإلهية ، من أولها إلى آخرها ، ظاهرها وباطنها ، مثلها وممثولها ، بعين الحقيقة من حيث هي كلها من مبدأ واحد ، وعلة واحدة ، وعالم واحد ، ونفس واحدة محيطة جواهرها المختلفة ، وأجناسها المتباينة ، وجزئياتها المتغيرة.

واعلموا يا أبنائي وإخوتي أن علم النفس والحس والمحسوس ، والعقل والمعقول ، والنظر في أسرار الكتب الإلهية ، والتنزيلات النبوية ، ومعاني ما تتضمنه موضوعات الشريعة ، من الأسس العرفانية لدعوتنا ، وبالإضافة إلى كل هذا ينبغي أن تتذاكروا بالعدد والهندسة والتأليف والنجوم . فاعرضوا على الناس ما في بستانكم من علوم ومعارف ، واخرجوا للجماعات من كل ثمرة طيبة ، وفاكهة لذيذة ، وريحان زكي ، وورد جني ، ونور شعشعاني أنيق ، وجوهر بهي ، وطير غرد ، وشراب عذب ، حتى إذا أعجبتهم هذه الدرر والجواهر وارتاحوا لها ، دخلوا البستان وقيل لهم : كلوا ما شئتم ، وشموا ما شئتم ، واختاروا ما شئتم ، وانظروا كيف أردتم ، وتنزّهوا أين شئتم ، وتلذذوا وتنعّموا وتطيّبوا وتنسّموا في الدنيا والآخرة .

واعلموا يا أبنائي بأن الإتحاد وجمع الكلمة ورص الصفوف ، خير ما يرضي مولانا ويسعده ، فأوصيكم بالتضامن وعدم الإختلاف ، والطاعة الخير محدودة لإمام زمانكم ، والله وحده الموفق لما فيه الخير والفلاح ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، والصلاة والسلام على نبينا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، وأهل بيته الطيبين الطاهرين ، آمين .

وأعطيت الكلمة للداعي حسان ، فنهض وافتتح كلمته باسم الواحد الأحد المبدع الصانع ، ثم صلى على رسوله الكريم وآله الطيبين الطاهرين وقال : لقد بلغت دعوتنا مبلغاً عظيماً ، فانتشرت في مختلف الأوساط الإجتماعية والسياسية والإقتصادية والعلمية ، رغم المعارضة الشديدة التي نلقاها من بعض المتعصبين من أتباع بني العباس ، واستجاب لنا بعض العلماء والفقهاء ، والأمراء والقواد في كافة البلدان ، واعتمدنا في الدرجة الأولى على الشبان لسلامة صدورهم ، وشدة اندفاعهم في تأييد ما تستمال إليه قلوبهم ، مع ما هم عليه من مزية الإرتياض بالطاعة وقبول العلم والإرشاد والزهد في الدنيا ، والمحبة والوفاء والصدق والأمانة .

لقد تخرج يا مولاي من مدارس الدعوة في بلاد الشام نخبة مستنيرة من الدعاة توصلوا بحكمتهم إلى استمالة ذوي الرئاسة والجاه والمال ، فاستجابوا لدعوتهم وأصبحوا سنداً تشتد به قواهم ، ليتمكنوا من زرع الحكمة وتقويم العقول وتهذيب النفوس بآرائهم العرفانية ، وأفكارهم العقلانية .

ونحن يا مولاي كما تعلمنا ورضعنا على رأي واحد ، ومذهب واحد ، ودين واحد ، يربطنا عهد ، ويشدنا ميثاق ، ننصر بعضنا البعض ، ونتعاون على كل الأمور كرجل واحد ، وكنفس واحدة ، ننصر الدين ونطلب الآخرة ، لا نبتغي من وراء ذلك سوى وجه الله ورضوانه جزاء ولا شكوراً . وفقكم الله أيها الاخوان وجميع إخواننا للصواب بفضله ومنّه . حسبنا الله ونعم الوكيل ، نعم المولى ، ونعم النصير ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الأئمة المهديين .

وطلب الكلام داعي المعرة الشيخ منصور بن علي الداديخي ، فعلق على قول الداعي حسان مبيناً بأن الدعوة في بلاد الشام أصبح لها وزنها العقلاني والفكري في مختلف الأوساط ، وأصبح لها أنصار ومؤيدون من كبار الأعيان وأصحاب السلطة في البلاد ، وإن كان هؤلاء مطبوعين على الرغبة في الحياة الدنيا ، والحرص على طلب منافعها ، والميل إلى التمتع بلذاتها ، غافلون عن أمر الآخرة ونعيمها وسرور أهلها ودوام لذاتها ، ومع كل هذا فلقد وفقنا في استمالة هؤلاء ، وأصبحوا يسألون الله الرحمة والمغفرة ، ويتقربون إليه بالصلاة والصوم والدعاء ، وينفذون جميع ما نطلبه منهم من الزهد في أمور الدنيا وترك شهواتها ، والرغبة في الآخرة وطلب نعيمها ، فانقادوا إلينا فيما نأمر وننهي ، ونحلل ونحرم ، بإخلاص عجيب ، وتفان غريب ، مما شد أزرنا ، ورفع كلمتنا ، وسهل أمورنا في السر والعلانية .

والحمد لله رب العالمين ، الصانع المبدع ، الخالق الموجد ، وصلى الله على نبينا الكريم وأهل بيته من الأئمة المهديين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وبعد أن تكلم عدد من الدعاة حول نشاطهم ومحور هذا النشاط والتأييد الذي يلاقونه أينما حلوا ، أعلنوا أن التربة مهيئة للزرع ، وأن البذور التي بذروها ستأتي أكلها قريباً . وبنفس الوقت أعلن دعاة مصياف ، والقدموس ، وحماه ، عن حاجتهم لبعض الأموال الإضافية لإنفاقها في سبيل نشر الأفكار الحقّانية ، لأن ما تجمع لديهم هذا العام لا يكفي .

وقبل أن يعلن الداعي حسان انتهاء المناقشات وكانت الساعة

قد تجاوزت منتصف الليل بقليل طلب داعي حلب الشيخ فارس بن ابراهيم أن يعطى الكلام ، فأجيب بالموافقة ، فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتي وعليه اتكالي ، وبعد . .

إن الظروف السياسية والإجتماعية والإقتصادية ، التي تسود البلاد تدعم تحركنا ، وتساعدنا على التحرك من مراكز القوة ، فقبيلة تغلب التي تعيش في جوارنا أظهرت ميولاً نحو دعوتنا ، ولقد علمت أن رئيسها حمدون العدوي صاحب قلعة ماردين ، طالب داعينا عمران في جهات ماردين أن يدعوني شخصياً لزيارة ماردين والإجتماع بأميرها ، فأجلت البت بأمر هذه الدعوى حتى انتهاء المؤتمر ، ويبدو أن صاحبنا هذا قد استاء من ملاحقة العلويين بعد فشل ثورتهم التي قادها محمد بن ابراهيم العلوي ، لذلك قرر الإتصال بنا لمعرفة رأينا بالقضايا المطروحة في هذه الظروف الصعبة القاسية في الوسط الإسلامي ، فهل يأذن مولانا بالإتصال معه ، لأننا اذا تمكنا من استمالته إلى جانبنا نكون قد حققنا كسباً سياسياً كبيراً ؟ نتمكن بواسطته من السيطرة على مناطق كبيرة .

والحمد لله وحده ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله الطاهرين ، الأئمة المهديين ، وسلم تسليماً ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ونعم المولى ، ونعم النصير .

ولما انتهى داعي حلب من كلمته ، التي قوبلت بالإستحسان ، أعلن الداعي حسان بأن المناقشات قد انتهت ، وأن الداعي عبد الله المبارك ، سيرد بكلمة مقتضبة على ما طرحه الدعاة ، فقال الداعي المبارك : في ما يتعلق بحاجة مصياف والقدموس وحماه إلى أموال إضافية ، أري أن يرفعوا كتاباً لمقر الإمامة ، وكحلٍ مبدئي لا مانع من

الإستعانة بأموال الدعوة في حلب ريثما تأتي موافقة الإمـام . أمـا ما طرحه داعي حلـب الشيخ فارس بخصوص اتصالاته ببنـي تغلـب ، فليبارك الله جهوده ، ويمنحه القوة ، ويسهـل له المهمـة ، فسر أيها الشيخ على بركة الله ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد أن انتهى المؤتمر تفرق الدعاة فتوجه كل منهم إلى منطقته ، أما عبد الله المبارك فقد أمر مرافقه نصر الدين أن يخرج القافلة ، وأن يسلك بها الطريق الصحراوي باتجاه سلمية ، وسيلحق به بعد أن يودع الداعـي حســان ، وعليه أن يكون حذراً فلا يعلن عن وجهـة سفره ، وإذا أحرجه أحد الأصدقاء فليقل له بأن وجهته حلب .

وكان من المتفق عليه أن يتوجه المبارك إلى حلب ، ولكنه غـير رأيه فجأة وقرر أن يتوجه إلى سلمية ، فأرسل رسالة على جناح الطير يبلغ فيها داعي سلمية بأنـه في طريقـه إليه ، وعليه أن يتخـذ كافـة الإحتياطات لاستقباله ، ثم ودع الداعي حسان الذي أصر على مرافقته إلى خارج البلدة ، ولكن المبارك فضل الخروج لوحده.وتبع القافلة ، فلحق بها على بعد عدة أميال ، حيث انضم إليها ، وواصلت القافلة السـير عبر الصحراء حتى وصلت إلى مشارف بلدة الرصافة التي بناها الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي في قلب البادية السورية وجعـل قصره فيهـا آية في الفـن المعماري الإسلامـي ، وكان يأتيهـا للراحـة والصيد .

ولما استولى بنـو العبـاس على الحـكم زالـت معالـم الرصافـة البزخية ، وغادرها معظم سكانهـا ، ولـم يبـق فيهـا إلاَّ آثـار القصر المهجور وحوله بعض بيوت الشعر يقيم فيها رجال البـدو الرحـل ، ففضل عبد الله المبارك أن يبتعد بالقافلة قليلاً عن البلدة باتجاه الجنوب

الغربي ، ويخيم في قلب الصحراء للراحة ، وحتى يخيم الظلام ، فيواصل السفر ليلاً ، توقياً من حرارة الشمس اللاهبة في النهار ، وحرصاً على كمية المياه التي يحملها معه حتى لا تنفد ، لأن المياه معدومة في تلك الأنحاء من البادية السورية .

ولما غابت الشمس وبدأ الظلام يرخي سدوله ، تابعت القافلة السير حتى بلغت بقعة من الأرض لا يميزها عن وسط البادية سوى عدد من أشجار النخيل . وكان الفجر يوشك أن يطلع ، وقد مسح بيده عتمة الليل ، فأخذت الأشياء يتميز بعضها عن بعض . فوقف عبد الله المبارك ينظر باتجاه سلمية ، ووقف مرافقه نصر الدين إلى جانبه شامخ الرأس صافي الضمير ، لاعتقاده بأن الرحلة سوف تنتهي قريباً بسلام ، فيريح نفسه من عبء المسؤولية الضخمة الملقاة على عاتقه ، وإذا بالداعي المبارك يأمره بمواصلة المسير لأنهم أصبحوا على مقربة من سلمية ، ولا بد من ظهور داعي سلمية أبو المعالي بن محمد في أية لحظة .

وقد صدق ظن المبارك ، فإن القافلة ما كادت تسير مسافة قصيرة يتقدمها نصر الدين للاستطلاع وكشف الطريق ، حتى أطلت من بعيد كوكبة من الفرسان على صهوات خيولهم ، فأشار نصر الدين إلى القافلة بالوقوف وتقدم مع بعض الغلمان حيث كمن خلف أحد الكثبان الرملية ينتظر وصول الكوكبة .

وما لبثت الكوكبة أن أصبحت على بعد عدة أمتار من مكمن نصر الدين ، فتبين له أنها تضم أربعة رجال ملثمين ومدججين بالسلاح الكامل ، فصرخ طالباً منهم الوقوف ، لأنهم مطوقون من كل جانب ، فأجابه أحد الرجال بعد أن وقفت الكوكبة ، ماذا تريد يا هذا ، نحن عابري سبيل إلى البادية ، للإشراف على أغنامنا ؟

فقال نصر الدين : انتسبوا وعرفوا بأنفسكم قبل أن نطلق سهامنا نحوكم !!

فقال أحد فرسان الكوكبة ، ويبدو أنه كبيرهم : نحن من سكان سلمية ، وقصدنا ملاقاة ضيوف من التجار قادمين لزيارتنا من المشرق ، فهل شاهدتم أية قافلة قادمة بهذا الاتجاه ؟

فقال نصر الدين : القوا بأسلحتكم جانباً وسأقودكم إلى مولاي لينظر في أمركم . فرفعوا أيديهم بعد أن ألقوا سلاحهم جانباً ، فجمع نصر الدين الأسلحة واقتاد الكوكبة إلى حيث مولاه الداعي عبد الله بن المبارك ، فلما أطلوا على القافلة ونظر المبارك في وجوه القوم وهم لا يزالون ملثمين طلب منهم أن يفكوا الألثمة ، فلما فعلوا عرف داعي سلمية أبو المعالي بن محمد فقال له : مرحباً بك يا أبا المعالي ! فنزل الجميع عن صهوات جيادهم وتقدموا من الداعي المبارك فقبلوا يديه ، وسلموا عليه ، وأثنوا على يقظة نصر الدين وحرصه ، ثم ساروا جميعاً باتجاه سلمية تتقدمهم الكوكبة التي جاءت مع أبو المعالي ، بينما أخذ أبو المعالي مكانه في القافلة إلى جانب عبد الله بن المبارك .

وبعد أن ساروا ساعة من الزمن ظهرت أمامهم سهول منبسطة خضراء على مد النظر تتخللها الحدائق الغناء المليئة بالأشجار الباسقة من مختلف الأنواع والأشكال ، وتجري في وسط هذه الأرض السندسية المياه الدافقة الحلوة النابعة من الأقنية الكثيرة الممتدة على طول الطريق . وما عتم أن ظهرت بلدة سلمية الجاثمة في قلب هذه السهول تضفي عليها آية من الجمال الخلاب تسر الناظرين ، وتفوح من سهولها روائح الزهور الندية من كل نوع ، ممزوجة بزقزقة الطيور وخرير السواقي ، وثغاء الماشية .

تأمل عبد الله المبارك هذا المنظر البديع الذي أبدعه الله سبحانه وتعالى ، وتكوكبت الأفكار في مخيلته ، فأحس بأن هذه البقعة سيكون لها شأن وأي شأن بالنسبة لمستقبل الدعوة ، وحماة الأئمة ، وانطلاق الدعاة إلى مختلف أنحاء العالم ، وشعر بأن سلمية هي المكان الوحيد الصالح لإقامة الدعوة لما تتمتع به من صفات طيبة ، ومناخ عظيم ، فصمم على مكاتبة الإمام في اليوم التالي لوصوله يطلب منه القدوم فوراً إلى سلمية مع أهل بيته ودعاته وحاشيته .

وواصلت القافلة المسير تحف بها الأشجار من كل جانب ، حتى أعلن الداعي أبو المعالي ، بأنهم أصبحوا على مسافة قريبة من المكان الذي أعد لنزولهم ، فأمر عبد الله المبارك مرافقه نصر الدين بأن يتوجه بالقافلة إلى المكان الذي أشار إليه أبو المعالي ، حيث ينزل الأحمال ، ويوافيه إلى الدار التي أعدت لإقامته . وتابع المسير برفقة أبو المعالي حتى دخلا في بستان كبير في وسطه دار فسيحة محاطة بسور عال من أشجار الصنوبر والسرو ، وعلى المدخل وقف حارسان يرحبان بالضيف الكبير . ولما وصلا أمام المدخل ترجلا عن دابتيهما فتقدم اثنان من الغلمان فأخذا الدابتين ، بينما دخل عبد الله المبارك وأبو المعالي إلى الدار . فقال أبو المعالي : هذه هي الدار التي أعددناها لإقامتكم يا مولاي وهي بعيدة عن الأنظار ، فيها كافة الوسائل المعدة للراحة ، فليتفضل مولاي بدخول جناحه ويرتاح قليلاً من وعثاء الطريق ، بينما أذهب لإبلاغ الجماعات عن وصولكم بالسلامة ، وسأعود في الوقت الذي تريدون !

فقال عبد الله المبارك : إنها دار جميلة مريحة كما أرى ، سأرتاح حتى صلاة العصر ، ولا تنس أن تبلغ نصر الدين بأنني أنتظره بعد الصلاة ، فاحضرا معاً إن شاء الله .

فقال أبو المعالي : إن سروري لا يوصف لأن الدار قد أعجبت مولاي ، ولقد كلفت الأخ غسان ليتولى خدمتكم ، بالإضافة إلى بعض الخدم والغلمان ، فإذا احتاج مولاي أية خدمة فليناديي على الأخ غسان الموجود أمام المدخل ، واستودعك الله الآن .

دخل عبد الله المبارك جناحه فخلع ثياب السفر واغتسل ، ثم أوى إلى سريره وحاول أن ينام ، ولكن الأفكار التي تكومت في مخيلته وقفت حائلاً دون أن يغمض له جفن ، وأخذت صور المستقبل تظهر واضحة جلية أمام ناظريه ، وتجسدت له الدعوة التي وهبها شبابه وكهولته وشيخوخته ، فبناها لبنة لبنة حتى أصبحت بأفكارها العقلانية ، وتنظيماتها الدعاوية ، كالطود الشامخ ، يشع نورها العرفاني في كافة أنحاء العالم الإسلامي ، فإذا ركزت دعائمها في هذه البلدة الهادئة ، واستقر الأئمة وكبار الدعاة فيها للعطاء والانتاج ، تحققت الأهداف ، وطبقت أهداف المدينة الفاضلة ، التي دعوا لها ، وبشروا بمبادئها المثالية .

من «سلمية» هذه البلدة الوادعة الهادئة ، العريقة في القدم ، الجاثمة على مدخل البادية الشامية ، سوف ينطلق الدعاة ليبشروا بالإخاء والمحبة ، وليزرعوا الأفكار العرفانية في مختلف أنحاء العالم ، كيف لا وهي واقعة في سهل كبير منبسط مترامي الأطراف ينتهي شرقاً بسلسلة جبال البلعاس ، وتشرف عليها من الجهة الغربية الشمالية تلال منبسطة ، ومن الناحية الشمالية تتصل بالبراري الممتدة نحو الأندرين ، ومن الجنوب يحدها المنبسطات الذاهبة إلى حمص .

ومما لا شك فيه أن هذه البلدة كانت ولا تزال محطة لتموين البدو والقوافل التي تأتيها من مختلف البلدان . لموقعها الجغرافي ووفرة مياهها

ومراعيها وحدائقها المبعثرة في قلب المروج الخضراء السندسية . فإذن هي حلقة اتصال بين المدن السورية الشاطئية وبين العراق والشرق ، فلماذا لا تكون أيضاً مركزاً لانطلاق الدعاة إلى المشرق والمغرب ؟ هذا هو السؤال الذي طرحه عبد الله المبارك على نفسه ، وأجاب عنه بقوله : لا بد من استكمال الدراسة ، والتشاور مع الداعي أبو علي داعي حماه وحمص ومع الداعي أبو المعالي ، فإذا قررا صلاحها ، أعلمت مقر الإمامة في الأهواز ، وطلبت من الإمام الحضور الفوري .

ولما أعلن المؤذن أن صلاة العصر قد آن أوانها نهض عبد الله المبارك من فراشه فارتدى ثيابه ، وخرج إلى غرفة الاستقبال ينتظر قدوم الداعي أبو المعالي ، وما هي إلاّ لحظات حتى دخل أبو المعالي يتبعه نصر الدين الذي كان يحمل معه خرجاً من الصوف وضع فيه الأموال والأوراق التي أمره المبارك عندما كانوا في الرقة أن يخفيها في أحد الأحمال . فسلما وجلسا ينتظران أوامر الداعي المبارك .

فقال لهما المبارك : لنؤدي صلاة العصر ، ثم نبحث في بعض الأمور الهامة . ووقف المبارك فاتجه نحو القبلة ووقف خلفه أبو المعالي ونصر الدين فأدوا الصلاة ، وشكروا الباري سبحانه وتعالى على ما أولاهم من نعم وتوفيق . ولما انتهت الصلاة قال المبارك مخاطباً نصر الدين : ضع الخرج وما فيه في غرفتي ، ثم حاول أن تنزل غداً صباحاً إلى السوق وتبيع ما لديك من بضائع ، لأن السوق التجاري يعقد غداً الخميس ويأتيه التجار من كافة المناطق ، وإذا سئلت من أين جئت بالبضاعة فقل من إيران . ثم التفت إلى الداعي أبو المعالي وقال له : المطلوب منك يا أبا المعالي قبل كل شيء أن تكلف الداعي أبو علي في حماه ليحضر فوراً أود الاجتماع به حينما يصل ، ثم ارسل رسالة على جناح الطير إلى مقر الإمامة في الأهواز اعلمهم بها عن وصولي مع

القافلة بسلام ، وإنني سأدرس الوضع ، وأجري الاتصالات اللازمة ، وسأخبرهم بتقرير خاص إنشاء الله . وبعد أن تنتهي من هذه الأمور عد إلينا لأننا نرغب في التباحث معك على انفراد .

وبالفعل عاد أبو المعالي بعد أن نفذ ما أمر به فوجد الداعي عبد الله بن المبارك بانتظاره ، وقد وضع أمامه خريطة لمدينة سلمية راح ينظر فيها ويؤشر على بعض المواقع بالقلم الأحمر . وينقل أسماء المواقع التي يؤشر عليها على ورقة خاصة .

فقال المبارك : أرغب أن تسرد على مسامعي كل ما لديك من معلومات تاريخية وسياسية واجتماعية عن سلمية . وخاصة ما يتعلق بأميرها وتجارها ، وأوضاع الجماعات فيها !!

فقال أبو المعالي : سلمية يا مولاي كما تعلمون بلدة قديمة كانت للنصارى ازدهرت في العهد الروماني حيث حفرت فيها الأقنية الكثيرة لتروي مساحات واسعة من الأراضي الخصبة . وفي العهد البيزنطي أصبحت مقر أبرشية مسيحية . وأصل اسمها مشتق من كلمة (سلم مائة) نسبة للمائة رجل الذين نجوا من خراب المؤتفكة ، فنزحوا إلى سلمية فعمروها وسكنوها وتحرفت الكلمة على مر الأزمان وانقلبت إلى سلمية ، بفتح أوله وثانيه وسكون الميم وياء مثناة من تحت خفيفة .

ولقد دمرتها الحروب في العهد العباسي ، وتنازعها الأمراء لموقعها الجغرافي ، ولما أخرج الخليفة العباسي من بغداد محمد بن عبد الله بن صالح ابن عمه قال له : إرحل عني ، واطلب لنفسك مدينة تبني وتسكن بها . وكان فيها أربعة وعشرون ديراً للنصارى ، فبنى عليها رسوماً وسكن بها مع عبيده ، وأخرج أهلها منها وبعث إلى الخليفة ببغداد يقول له : إني وقعت في مدينة في طرف الدنيا ، ولكن

أحب عمارتها فتأمر لي بالنداء في الأمصار والتجار أن يحضروا سوقها ـ يعني سلمية ـ حتى تعمر ، فجعل السوق يعمر ثلاثة أشهر لا يفتر عنه كل يوم ، فكان التجار ولا يزالون يأتون إلى السوق ويتسوقوا منه . وكما ترى يا مولاي فهي كثيرة الخيرات ، لذا يفضل التجار الذين يأتونها أن لا يفارقونها ، ويسألون أميرها أن يسكنوا بها ، فيأذن لهم ، فيقيمون ويوجهون بياعهم وعبيدهم يحملون إليها بضائعهم ، لذلك فإن البلدة أصبحت مقسمة للتجار الذين قدموا من بلخ ، والمدينة المنورة ، وحلب ، والرقة ، وفارس .

وأرى يا مولاي إذا قررتم اتخاذها دار هجرة أن نذهب إلى دار الإمارة ونقابل الأمير محمد بن عبد الله بن صالح ونطلب منه أن يسمح لك باعتبارك من كبار تجار البصرة أن تختار مكاناً تقيم فيه ، ولقد انتقيت لك موضعاً يمكننا أن نبني فيه عدة منازل بين الأشجار . والجماعات هنا يا مولاي يعمل القسم الأكبر منهم بالزراعة والتجارة وأحوالهم المادية لا بأس بها ، يزاولون نشاطهم الدعاوي بكل حرية ، ولدينا بعض الرجال في قصر الإمارة وفي الشرطة يأتوننا بالأخبار ويحصون كل التحركات ، ومنذ أن أمرتمونا في العام الفائت نقلنا مدرسة الدعاة إلى سلمية وأصبحت اليوم تضم عدداً ضخماً من الدعاة ، نوزعهم في كل عام على مختلف البلدان ، حسب إرشادات وتعليمات مولانا الإمام الحاضر .

قال عبد الله المبارك وقد ظهرت على وجهه علامات الرضى والارتياح : الآن توضحت الرؤية ، وكونت فكرة صحيحة عن سلمية ، وربما وقع اختيارنا عليها ، ولكن لننتظر قدوم الداعي أبو علي من حماه لنتشاور معه ، ثم نقرر .

قال الداعي أبو المعالي : الرأي ما ترونه يا مولاي ، ولدينا

متسع من الوقت للتفكير والدراسة ، ثم تتخذون ما ترون مناسباً ومفيداً .

فقال عبد الله المبارك : ألا تخبرني كيف تم خراب سلمية لآخر مرة في العهد العباسي ؟

فقال أبو المعالي : لقد جرت معركة في مرج الأخرم الواقع غربي البلدة سنة ١٢٢ هجرية ، بين عبد الله بن علي العباسي ، أول عامل للعباسيين في بلاد الشام ، وبين أبي الورد بن الكوثر الكلابي من قواد مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، وكان النصر حليف العباسيين ، فانهزم القائد الأموي ودخل البلدة فأشعل جنوده النار فيها ، وهدموا بيوتها ، ففر سكانها وتوزعوا في كل مكان ، حتى لم يبق فيها أحد . وظلت مهجورة خربة حتى جاءها كما أسلفنا ابن صالح العباسي فعمرها ، ويقال بأن الخليفة العباسي قد زار سلمية سنة ١٦٣ هجرية وهو في طريقه إلى بيت المقدس فأعجب بها . ولما عاد من رحلته دعا ابن صالح إلى بغداد وزوجه أخته .

فقال عبد الله المبارك : إذن أكثر سكان البلدة من آل صالح وأنسائهم ؟

فقال أبو المعالي : نعم يا مولاي فهم يملكون نصف البلدة ، وبني هاشم يملكون الربع ، وما تبقى يملكه بعض التجار والمزارعين .

فقال عبد الله المبارك : إذا وفقنا الله سنملكها كلها ونجعلها مدرسة فكرية كبرى يأتيها الناس للتزود بالعلوم والمعارف من جميع أنحاء العالم . لقد فاتنا الوقت يا أبا المعالي وأوشكت الشمس على المغيب ، فما هو برنامجنا لهذه الليلة؟

فقال أبو المعالي : هل يأمر مولاي بأن يلبي رغبة أساتذة مدرسة الدعوة فيسمح لهم بالمثول بين يديه للسلام والترحيب بقدومه ، فإذا

شاء مولانا دعوتهم الآن ؟

فقال عبد الله المبارك : لا بأس إن دعوتهم قبل أذان المغرب لنقيم الصلاة معهم ، ثم نتحدث إليهم قليلاً ريثما يحضر داعي حماه !

ولما خرج الداعي أبو المعالي لدعوة أساتذة مدرسة الدعوة ، أصبح عبد الله بن المبارك وحيداً لا يشاركه هذه الوحدة سوى نفسه وآلاف الصور التي تتزاحم في مخيلته عن مستقبل هذه البلدة إذا أصبحت داراً للدعوة ، وسرعان ما أخرج من جيبه الورقة التي حدد عليها المواقع التي اختارها لتكون منازل وبيوت يقطنها الدعاة ، ويسكنها الإمام وحاشيته وأتباعه من المؤمنين . وراح يدقق فيها بامعان ويضرب أخماساً بأسداس ، فتمثلت صورة واضحة المعالم أمام ناظريه لسلمية مقر الدعوة وهي تعج بالدعاة الكبار والصغار يعلمون الناس ، وينشرون مبادىء الدعوة ، والناس يستجيبون لدعوتهم زرافات ووحدانا ، وما عتم أن ظهرت على الورقة صورة الإمام في إطار زاهٍ مذهب وهو يشير إليه بأصبعه ويقول : أمض يا عبد الله ليباركك الله لقد قطعت شوطاً بعيداً من النجاح كعادتك في كل مهمة أنتدبك إليها ، إنها بلدة رائعة وروعتها في طيب أرضها وجمال بساتينها التي تفوح منها روائح البنفسج والزهور . ولم يشعر إلاّ والباب يطرق ويدخل منه نصر الدين ، وقد طفح وجهه بالبشرى والسعادة، فيقول لمولاه : لقد بعنا يا مولاي نصف البضاعة ، وحققنا بعض الأرباح ، ولولا حلول الظلام لانتهينا منها كلها ، وسأخرج غداً في ساعة مبكرة إلى السوق لبيع ما تبقى منها ، ولا أدري يا مولاي بعد أن أبيع البضاعة ماذا أفعل بالغلمان والدواب ، هل أبيعهم أيضاً أم أبقيهم؟

فقال له المبارك : احتفظ بالغلمان والدواب لأنك ستعود إلى

الأهواز ببضاعة أخرى ، وربما رجعت ثانية إلى سلمية . لم أقرر بعد ، فانتظر تعليماتي وأوامري على ضوء ما أتلقاه من أوامر ، وأجريه من محادثات !

قال نصر الدين : سمعاً وطاعة يا مولاي !

وخرج نصر الدين وما كاد يصل إلى الباب الخارجي حتى وصل الداعي أبو المعالي وبرفقته عدد من الدعاة الأساتلة في مدرسة الدعوة ، فدخل على عبد الله المبارك ، وطلب الإذن للدعاة ، فسمح لهم المبارك بالدخول عليه ، فدخلوا وسلموا على المبارك ثم جلسوا حيث أشار لهم بالجلوس ، وران على القاعة صمت عجيب لم يقطعه إلاّ صوت المؤذن وهو يعلن موعد صلاة المغرب ، فنهض المبارك من مجلسه واتجه نحو القبلة ، واصطف الجميع خلفه يؤدون الصلاة ، ويقدمون الولاء والطاعة للمبدع الحق.

ولما انتهت الصلاة جلس عبد الله المبارك في وسط القاعة والتف حوله على شكل حلقة الدعاة وهم ينظرون إليه بلهفة وشغف ويتأملون بشكله المهيب ، وقامته الفارعة المديدة ، ولحيته البيضاء الكثيفة التي كانت تتدلى على صدره ، فابتسم لهم المبارك وقال : يسعدني يا أولادي الروحيين أن أرحب بكم ، وأشكركم على هذه البادرة الطيبة ، ولا بد لي من التعبير عن مدى إعجابي بكم وبنشاطكم في حقل العلم والفكر والمعرفة ، جزاكم الله خيراً ، ومنحكم السعادة في الدارين .

اعلموا يا أبنائي بأن الدعوة بحاجة قصوى إلى المزيد من الجهود ، في حقل المعرفة ، وهي بحاجة ماسة لأمثالكم من الدعاة العلماء ، لنشر علوم أئمتنا الأطهار ، ولزرع بذور العقلانية في قلوب

المستجيبين ، فكونوا يا إخواني كما تعلمتم أوفياء للرسالة التي تحملونها ، وهي أنبل رسالة بالنسبة للدعوة ، وحفظ أحكامها ومراعاة سننها ، فالتعليم والتأديب والإفادة : من المنطلقات الرئيسية لبناء صروح المجتمعات العرفانية ، ورجاحة العقل ، وحسن الطاعة ، وسهولة انقياد المفيد لمستفيده ،والمرؤوس لرئيسه وسائسه ، من المناقب السامية التي تنقل النفس من حد القوة إلى حد الفعل ، حيث السعادة والهناء . فكونوا يا أبنائي قدوة في سلوككم وفي نشر علومكم ، وفي تعاملكم مع من يستجيب لدعوتكم ، واخلصوا في الدعاء لله في السراء والضراء . واعلموا يا أخوتي بأن حرية التفكير والرأي مصونان بالنسبة لنظام الدعوة ، وليس كثير عيب في مخالفة بعضكم بعضاً ، حول بعض الآراء العقلانية أو الإجتهادات العرفانية ، بشرط أن تبتعدوا عن الأصول ، وتتناقشوا حول الفروع ، لأن الأصول ثابتة وباقية وسرمدية ، أما الفروع فمن المستحيل اجتماع آراء العقلاء على رأي واحد كلهم في شيء واحد إنما يتفقون في الأصول ويختلفون في الفروع . فأما الإنسان الواحد فلن يعسر عليه أن يعتقد في شيء رأياً واحداً ، وأن لا يعتقد رأيين متناقضين .

وهذه المنطلقات تبين كيفية رجحان عقول العقلاء في تصرفاتهم في أمور الدين والدنيا ، وكيف يعرف ذلك منهم ، وأنتم أساتذة وعلماء أفضل من العقلاء . وأرفع منزلة ، فكونوا تجسيداً صحيحاً لمبادىء الدعوة وتنظيماتها العقلانية والله يصلحنا جميعاً ويباركنا ويرشدنا إلى سواء السبيل . والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا الكريم وآله الطيبين الطاهرين .

وعندما انتهى عبد الله المبارك من كلمته أعلن الدعاة عن استعدادهم لبذل النفس والنفيس في سبيل نشر الدعوة ، وبث

أفكارها العقلانية في كافة الأوساط ، كونهم مرتبطون بالعهد والميثاق الذي قطعوه على أنفسهم عندما استجابوا للدعوة . فوعدهم المبارك بالمساعدة المادية والمعنوية وأثنى على جهودهم في حقل التعليم .

ولما نهضوا استعداداً للخروج ، دخل القاعة داعي حماه وحمص أبو علي فسلم وجلس إلى جوار عبد الله بن المبارك ، بينما خرج جميع الدعاة الأساتذة ، ولم يبق في القاعة إلا المبارك والداعي أبو المعالي ، والداعي أبو علي ، الذي أخذ يستفسر عن صحة المبارك وأحواله ، ثم قال له بأنه كان في حمص عندما وصلته رسالة أبي المعالي على جناح الطير ، فجاء فوراً إلى سلمية وقد وصلها منذ لحظات.

فقال عبد الله المبارك : لقد استدعيتك يا أبا علي للتشاور معك في أمر انتقال مقر الإمامة من الأهواز إلى بلاد الشام ، فقد لمست خلال وجودي في الرقة ثم في سلمية بأن هذه البلدة تتوفر فيها كافة الشروط لتكون دار هجرة للدعوة . فما هو رأيك بالموضوع ؟

قال الداعي أبو علي : تعلمون يا مولاي بأنني منذ سنوات اقترحت أن تكون سلمية داراً للهجرة ، لما تتمتع به من خصائص اجتماعية واقتصادية واستراتيجية . ولكن مولانا حاضر إمام مع أنه أخذ الموضوع بعين الإعتبار أمرني بالتريث والإنتظار حتى يحين الوقت ، وأعتقد بأن الساعة قد أزفت ، فأنا موافق وسأذهب غداً إلى أمير البلدة أطلب منه الموافقة على بيعنا أرضاً لنبني عليها داراً تكون مقراً للدعوة .

فقال عبد الله المبارك : لا بد لنا من استشارة الإمام ، ولكن يمكنك اعتباراً من الغد أن تقابل الأمير وتقول له بأنه قد جاءنا ضيف من البصرة ، وهو تاجر كبير ، فأعجبته بلدة سلمية ويرغب بالإقامة

فيها ، فهل يأمر بالسماح لنا بابتياع قطعة أرض نبني عليها داراً له ، فإذا وافق ، سأدلك على المنطقة التي اخترتها فتبتاعها لنا أنت وزميلك الداعي أبو المعالي.

فقال أبو علي : الرأي رأيك يا مولاي ، فهل تسمح لي بأن أذهب الآن مع الداعي أبي المعالي لنوسط أحد دعاتنا المقربين من الأمير ليتدبر لنا موعداً معه صباح الغد؟

فقال عبد الله المبارك : رافقتكما السلامة ، ولكن عد إلينا يا أبا المعالي بعد انتهاء المهمة ، كوننا سنكتب رسالة نرغب أن ترسلها الليلة إلى الأهواز.

وبعد أن خرجا دخل عبد الله المبارك إلى غرفته ، وكتب رسالة إلى مقر الإمامة في الأهواز قال فيها بأنه قد اختار سلمية لتكون داراً للهجرة ، وأنه سوف يتخذ كافة التدابير لإيجاد دار تكون مقراً للدعوة . ولما عاد الداعي أبو المعالي سلمه الرسالة وأمره أن يبعث بها فوراً إلى الأهواز ، ثم أوى إلى مخدعه.

وفي اليوم الثاني استطاع الداعيان أبو علي وأبو المعالي أن يقنعا أميرسلمية بأن يسمح لضيفهما بأن يشتري أرضاً ويبني عليها داراً تكون مقراً له ، وقد رحب الأمير بهذه الفكرة وطلب منهما أن يزوراه في منزله مع ضيفهما في أي وقت يرياه مناسباً . ولما أبلغا المبارك بموافقة الأمير طلب منهما أن يبتاعا له فوراً دار أبو فرحة والأرض المحيطة به ، فابتاعاها له . ثم راح يعد العدة لإصلاح البيت ، وإقامة أبنية جديدة في الأرض المحيطة به. وما عتم أن وصلته رسالة من الأهواز بالموافقة على انتقال مقر الدعوة إلى سلمية ، وأن الإمام وحاشيته وأهله في طريقهم إليه.

وبالفعل خرج الإمام عبد الله بن محمد من الأهـواز ليلاً بزي التجار يصحبه غلامان ، وقبل خروجه أوصى ولده أحمد بن عبد الله بأن يتوجه في الليلة التالية مع أهل بيته وغلمانه إلى سلمية عن طريق الموصل-تدمر ، كما أمر دعاته الحرم بأن يـسيروا بعد ابنه بليلة واحدة باتجاه سلمية عن طريق دير الزور-الرقة ، وان يصحبوا معهم الكتب والأوراق ومـا خف حملـه . وكان خروجـه كما يستـدل من الوثائــق والنصوص الإسماعيلية عام ٢٠٨ هجرية .

ويبدو أنه جعل طريقه إلى سامرا حيث أقام فيها بعض الوقت ثم انتقل إلى سلمية بزي التجار ، وأخفى اسمه وصفته ولقبه .

الفصل الثالث

الحسين الأهوازي في سواد الكوفة

نعود إلى الداعي الحسين الأهوازي وقد تركناه وهو في طريقه إلى سواد الكوفة حيث كلف بمهمة نشر الدعوة فيها ، وتولي منصب داعي دعاة جزيرة العراق ، بعد وفاة داعي دعاة الجزيرة . ويقصد بالسواد رستاق العراق وضياعها التي افتتحها المسلمون في عهد الخليفة عمر بن الخطاب . وقد سمي بذلك لسواده بالزروع والنخيل والأشجار . وسواد الكوفة تعني الأراضي الخصبة التي تحيط بتلك المدينة ، وهو بالطبع جزء من سواد العراق.

ولقد كانت الكوفة منطَلَقاً للتشيع منذ اتخذها الإمام علي بن أبي طالب حاضرة لدولته ، ومنها كانت تنتشر الدعوة الشيعية إلى أنحاء العالم الإسلامي . والشيعة العلويين الذين تعرضوا لتنكيل العباسيين خلال القرن الثاني الهجري أصبحوا يحقدون على أبناء عمومتهم العباسيين ، ويترقبون الفرص السانحة للوثوب عليهم .

وبالفعل قاموا بثورة لاهبة في الكوفة سنة ١٩٩ هجرية بزعامة محمد بن ابراهيم العلوي المعروف بابن طباطبا. وكان من أشهر أتباعه وقواده أبو السرايا الشيباني الذي كان يعمل مع هرثمة بن أعين ، أحد كبار قواد المأمون ، ثم انشق عليه وقصد الجزيرة مع أصحابه ، وأخذ يعبث فيها فساداً ، ثم تقابل مع ابن طباطبا واتفقا على الإلتقاء بالكوفة عاصمة الشيعة ومركز انطلاقهم للقيام بالثورة ضد العباسيين .

ولما حط ابن طباطبا الرحال في الكوفة راح يدعو إلى الرضا من آل محمد ﴿ﷺ﴾ والعمل بالكتاب والسنة ، فبايعه أهلها ، وانضم إليه سكان السواد وقبائل البادية ، وجاءه أبو السرايا ومن معه من الرجال ، فألحق الهزيمة بالجيش العباسي . وما عتم أن توفي ابن طباطبا ، فاختار

الثوار قائداً علوياً آخر يقال له محمد بن محمد ليحل محله ، واستطاعوا أن يهزموا جيشاً عباسياً آخر ، وانتشروا في البلاد ، واستولوا على البصرة والأهواز وواسط ، وراحوا يدقون أبواب بغداد نفسها ، وقد أيد الكثير من أهل الشام والجزيرة الثوار .

ولم تخف حدة الثورة إلا بعد أن اتخذ المأمون العباسي من علي الرضا بن موسى الكاظم الذي تدور الدعوة باسمه ولياً لعهده سنة ٢٠١ هجرية ، فابتعد العلويون عن تأييدها ، فاستطاع القائد العباسي هرثمة بن أعين من إلحاق الهزيمة بجيش أبي السرايا وقتله في ربيع الأول سنة ٢٠١ هجرية .

وفي الوقت الذي فشلت فيه الثورة وتم القضاء على قادتها كان الداعي الحسين الأهوازي يودع زميله محمد بن حسن الوراق في البصرة بعد أن عادا سوية من الأهواز ويتوجه بزي الزهاد والدراويش إلى سواد الكوفة التي كان يعرفها شبراً شبراً ودسكرة دسكرة ، فقصد المسجد حيث يجتمع الحجاج القادمون من مختلف أنحاء العالم الإسلامي ، وجلس بعيداً عن الناس في إحدى الزوايا يقرأ القرآن تارة ويصلي تارة أخرى ، وبنفس الوقت ينظر في وجوه المصلين ويترقب أن تتاح له الفرصة ليتكلم مع أي شخص يقترب منه أو يتحدث إليه ، لأنه يعلم في قرارة نفسه بأن البلدة مهيئة لقبول الدعوة ، وان مهمته ستؤدى بسهولة ويسر ، بسبب فشل كافة الثورات التي قام بها العلويون ، وضعف ووهن الخلافة العباسية ، والأخطاء الكثيرة التي ارتكبها ثوار الشيعة فيما مضى ، لذلك اعتقد جازماً بأن المنطقة ممهدة ويمكن بذر بذور الدعوة فيها متى واتته الظروف .

وبينما كانت الأفكار تدور في مخيلته وهو يقرأ ويصلي ، جاءه أحدهم من طرف المسجد فحياه وجلس إلى جواره يستمع إلى التلاوة ، وينظر بإمعان في وجه الأهوازي الذي كان يتدفق هيبة ووقاراً ، تدلان

على زهده وتقشفه ، ويبدو أن الأهوازي قد عرف القادم دون أن يعرفه هو ، فاسترسل بالتلاوة دون أن يعيره أي اهتمام ، أو يرفع رأسه عن القرآن لرد التحية التي بادره بها القادم . نعم لقد عرف الأهوازي بأن الرجل الذي اقترب منه هو حمدان بن الأشعث الذي استجاب إليه عندما دعاه لأول مرة منذ خمس سنوات في أحد مساجد بغداد ، ولكنه لم يأخذ عليه العهد والميثاق في ذلك اللقاء بل تريث بعض الوقت ريثما يختبره ويدقق في ماضيه وحاضره .

ومنذ ذلك الوقت غاب عن أنظار حمدان بن الأشعث ولم يلتق به ولا مرة واحدة ، لأنه كان يتهرب منه ويزوغ عن ناظريه . أما الآن فقد قرر أن يتبسط معه في الحديث فيجادله ويناقشه فإذا وجد عنده الشوق والإستعداد للإستجابة ، فسيأخذ عليه العهد والميثاق ويصهره مع أتباعه في بوتقة الدعوة .

ولما انتهى من التلاوة والصلاة حاول أن يغادر المسجد ولكن حمدان بن الأشعث مسك بطرف جبته وقال له : تمهل أيها الشيخ ، لقد أعجبتني تلاوتك وزهدك وتقشفك ، ألم نلتق قبل الآن ؟

فقال الحسين الأهوازي وهو يتصنع عدم الإنتباه والإستغراب : شكراً لما أبديته نحوي ، ولكنني أود الإنصراف لقضاء حاجة في البلدة ثم أعود لتأدية صلاة المغرب ، فعسى أن ألقاك هنا!

فقال حمدان بن الأشعث وقد ظهر الغضب على محياه : لن أتركك قبل أن تجيب على سؤالي ، ألم نلتق قبل الآن ؟ فالتفت الأهوازي إليه وافتر ثغره عن ابتسامة عريضة وقال : بالطبع يا حمدان ، ألا تعرفني أنا الحسين الأهوازي!

ولما سمع حمدان بالاسم ، هجم على الأهوازي وراح يقبل يديه ويعانقه وهو يقول : لقد طالت غيبتك يا سيدي ، حتى أنني قلقت عليك ، ولا زلت أبحث عنك منذ خمس سنوات ، فلن أتركك بعد

الآن ولا لحظة واحدة ، فسأربط مصيري بمصيرك ، لأنك الوحيد الذي فتح مداركي على الأمور الماورائية والعقلانية ، وأرشدني إلى سواء السبيل !

فقال الأهوازي : أليس لك منزلاً تأوي إليه في هذه البلدة؟

قال حمدان : أنزل ضيفاً على أحد أصحابي ، ومنزله لا يبعد كثيراً من هنا !

فقال الأهوازي : إذن خذني إليه لنتحدث في بعض الأمور الهامة ، إذا كان صاحبك لا يعارض في وجود الغرباء !

فقال حمدان : إنه مثلي يا مولاي يحب آل البيت ، ويتوقع قيام قائمهم الذي سينشر العدل ، ويحق الحق .

وخرجا سوية من المسجد وسارا باتجاه البيت الذي ينزل فيه حمدان بن الأشعث. ضيفاً ولما وصلا ، طرق حمدان الباب ففتح له صاحب الدار ، ولما شاهد الشيخ الذي يرافق حمدان ، وما يظهر على محياه من زهد وتقشف ، دعاهما إلى الدخول ، واقتادهما إلى الغرفة التي يقيم فيها حمدان منذ وصوله من قريته النهرين . ولما جلسا أشار حمدان بن الأشعث إلى صاحب المنزل وقال له : هذا هو شيخنا وسيدنا الذي حدثتك عنه وعن ما جرى لي معه منذ خمس سنوات فتقدم يا أخي رضوان وسلم عليه ، فتقدم رضوان وانحنى بخشوع ورهبة أمام الشيخ وقبل يديه ، وقال : انني أرحب بك يا سيدي في منزلي المتواضع ، لقد زدتني شرفاً بتفضلك بزيارتي ، ولا يسعني إلا أن أشكر العناية الإلهية على هذه النعمة الكبيرة . وأقسم يا مولاي بأنك لن تبرح هذه الدار قبل ثلاثة أيام .

فابتسم الداعي الحسين الأهوازي وقال : بارك الله فيك يا أخ رضوان لما أبديته من كرم ونبل ، ولكنني يا بني لن أعدك بالبقاء أكثر من يوم واحد لأنني في عجلة من أمري وأرغب في التوجه غداً إلى قرية

النهرين ، حيث عزمت الإقامة فيها زاهداً متعبداً آكل من كسب يدي ، وأدعو للإمام الحاضر من أهل بيت النبي ، لأن عقول الناس هناك مهيأة تماماً لتقبل الدعوة ، ولن أتوانى عن إسعاد هذه المنطقة وانقاذها مما هي فيه من سوء حال .

فقال حمدان بن الأشعث وقد انبسطت أساريره وشعر بالسعادة القصوى : سأكون في رفقتك يا مولاي وسأنزلك في داري ، وأتولى خدمتك بنفسي ، ولكن ألا يستحسن أن تأخذ علينا العهد والميثاق قبل كل شيء ؟ فقال الداعي الأهوازي : كان بودي أن آخذ عليك العهد يا حمدان منذ التقينا لأول مرة ، ولكنني انتظرت حتى آن الأوان ، فتعال واجلس أنت والأخ رضوان لآخذ عليكما العهد والميثاق طالما ترغبون في ذلك عن حسن نية وإخلاص !

فتقدم حمدان بن الأشعث ورضوان فركعا على ركبتيهما أمام الحسين الأهوازي ، فباركهما وأخذ عليهما العهد والميثاق ، وأقسما الإيمانات المغلظة بأن يعملاً لنشر الدعوة بكل جد وإخلاص ، وأن يحافظا على أسرارها ويدافعا عن أفكارها بالنفس والنفيس ، حتى لو تطلب ذلك منهم التضحية الجسدية . ولما انتهيا من ترديد الميثاق قبلا يد الداعي الأهوازي فباركهما ودعا لهما بالتوفيق ، والسعادة ، وقال : لا بد لي وقد أصبحتما من المستجيبين للدعوة ومن عداد أتباعها الكثر الموزعين في شتى أنحاء العالم من إحاطتكما علماً بأن دعوتنا تقوم في الأساس على العلم والمعرفة ، وأن منطلقاتها الرئيسية هي في إصلاح المجتمع ، وتلبية رغبات الجماعات الإجتماعية والإقتصادية والعقلانية ، بالإضافة إلى الطاعة والإنقياد للإمام الحاضر الذي تقوم الدعوة باسمه ، لأن الله سبحانه وتعالى قد قال في كتابه الكريم : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم » وهذا يعني أن هناك ثلاث طاعات مفروضة على المؤمن ، ومقرونة بعضها ببعض ،

فلا تقبل واحدة دون الأخرى .

وأولي الأمر بالنسبة لنا أهل الدعوة هم الأئمة والحجج والأبواب والدعاة ، فهؤلاء وحدهم لهم علينا حق الطاعة ، لأن طاعتهم مقرونة بطاعة الله وطاعة الرسول ﴿ﷺ﴾ ، ومحبة أولي الأمر يجب أن تنصهر في طباع المؤمنين ، وتتركز في نفوسهم ، لما في ذلك من إحياء النفوس ، وإصلاح الأخلاق ، وصلاح الدين والدنيا ، فاحرصا على التمسك بهذا الأمر ، وتمسكا به كأنه مجبول في طباعكما ، ومركزاً في نفوسكما ، فترتقيا إلى ملكوت السماء ، وتسوحا في سعة الفضاء ، وتتنسما من رحيق الروح والريحان ، وتتنورا من نور النور ، كما قال الله تعالى : « الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية » . بلغكما الله أهدافكما ، وتمم أنواركما ، كما وعد أولياءه وأصفياءه من عباده ، ووفقكما الله وإيانا ، وجميع إخواننا ، إلى طريق السداد ، وهداكما وإيانا ، وجميع إخواننا ، سبيل الرشاد ، إنه رؤوف بالعباد .

فقال حمدان بن الأشعث : نعاهدك يا سيدي علي أن نحيا بروح للمعارف ، وتتفتح بصائرنا بنور الهداية ، ننصر الدين ، وننافح عن أخواننا المؤمنين ، وننشر العدل ، والصدق ، ولا نفشي الأسرار ، حتى لو فقدنا في سبيلها الأبصار ، نجاهد في سبيل الدعوة بصبر وثبات ، ونعمم بين الجماعات العدالة الإجتماعية ، ونعلمهم معالم الدين وطريق الآخرة ، ومصالح الدنيا . ونجسد لهم علوم الحقيقة ، وندلهم على حقائق الأشياء وكمية أجناسها ، وأنواع تلك الأجناس وخواص تلك الأنواع واحداً واحداً ، والبحث عن عللها . والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

وقال رضوان : لقد أصبح لكم يا مولاي في عنقي بيعة وعهد

وميثاق ، سأحافظ عليهما بعزم وهمة ، وبذل وعطاء ، ولن أتوانى في سبيل مصلحة المجموع عن التضحية بأعز ما أملك ، وسأكون يا مولاي صبوراً حليماً وقوراً شكوراً ، لا أضمر شراً لأحد من الخلق ، عدواً كان أو صديقاً ، مخالفاً كان أو موافقاً . والله على ما أقول شهيد . ولكن هناك أمر هام بالنسبة لنا يا سيدي أود من كل جوارحي أن أعرفه . حتى لا ندخل في متاهات من الجدل والنقاش في المستقبل ، من هو الإمام الحاضر ، ومن أي أولاد محمد بن إسماعيل ابن جعفر الصادق هو ؟ فقال الحسين الأهوازي بعد أن تحسس لحيته وركز عمامته على رأسه : لك كل الحق يا بني في طرح مثل هذا السؤال الهام ، المتعلق بركن أساسي من أركان الدعوة ، وهو معرفة شخص الإمام الحاضر الجسدانية ، وإلى أيهم من أولاد محمد بن إسماعيل ينتسب ، لأن هذا الأمر لا يزال سراً من أسرار الدعوة الذي نحافظ عليه خشية منا عليه في هذه الظروف العصيبة التي تمر بها البلاد . إنه يا رضوان عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، المنصوص عليه من قبل والده الإمام الراحل محمد بن إسماعيل حسب الأصول المتبعة في نظام الدعوة . لذلك فنحن نبشر به وننشر الدعوة باسمه ، وزيادة في الحيطة للحفاظ على حياته ، فقد تسمّى الدعاة الأربعة الحرم بنفس اسم الإمام الحاضر.

فقال حمدان بن الأشعث : لقد أخذنا علماً بالأمر . ونأمل أن نتحدث حول هذه الأمور الهامة في المستقبل ، وليس علينا إلاّ أن نخلد إلى الراحة بعد أن اطمئنت قلوبنا ، ونتناول طعام الغداء ، ثم نستعد للسفر صباح الغد إنشاء الله .

وبعد أن تناولوا طعام الغداء ، وأدّوا صلاة الظهر ، إستأذن حمدان بن الأشعث في الخروج إلى السواد لمقابلة صديق له قد تواعد وإيّاه على اللقاء منذ عدة أيام ، ثم يذهب إلى سوق البلدة لابتياع

بعض الاشياء ، وسيعود قبل صلاة المغرب ، فأذن له الحسين الأهوازي ، ثم أوى إلى فراشه ليرتاح قليلاً ، بينما دخل رضوان إلى أهل بيته وأبلغ زوجته بأنه قد وجد لقلبه راحة ، ولنفسه لذة ، ولصدره شفاء بعد أن جمعه الله بمن هداه إلى الحقيقة التي طال بحثه عنها .

فقالت له زوجته خديجة : الحمد لله الذي هداك إلى الطريق المستقيم ، ليزول القلق الذي يسيطر عليك منذ سنوات ، ولكن لِمَ هذه الأنانية المفرطة ، وأنا أعرفك جريئاً مقداماً طيّباً رفيقاً ، ألا تحسب حساب زوجتك التي شاركتك مشاعرك وأحاسيسك منذ أن ابتلاك الله بها ؟

فابتسم ابتسامة عريضة وقال : سأعرض أمرك وأمر الأولاد على سيدنا الشيخ قبل أن يغادرنا ، فعسى أن يأخذ عليكم العهد والميثاق كما أخذه علي وعلى صديقي حمدان بن الأشعث .

وقبل أن تختفي شمس ذلك اليوم وراء الأفق ويحل الظلام محل النور دخل رضوان على الداعي الحسين الأهوازي فوجده يصلي ويتلو القرآن بصوت هادىء جميل ، فوقف يستمع للتلاوة وقلبه مفعم بالإيمان العميق ، ولما سلم الداعي الأهوازي التفت إلى رضوان وقال له : قل لي يا أخ رضوان هل لك أولاد ؟

قال رضوان : نعم يا مولاي لي ولد في ربيع العمر يدعى علي وابنة أكبر منه بسنوات ، ولقد ألحّت علي زوجتي قبل قليل أن تأخذ عليها وعلى أولادها العهد والميثاق ، لأنهم يؤمنون بما أؤمن ، وينتظرون ما كنت أنتظره !

فقال الحسين الأهوازي : ما رأيك يا بني لو أخذت أنت نفسك عليهم العهد والميثاق ، لأنك من الآن وصاعداً ستتولى هذه المهمة لكل من يستجيب إليك؟

فقال رضوان : كان بودي أن أفعل ذلك ، ولكن زوجتي تتمنى أن يتم هذا الأمر على يديك ، لتكون البركة أعم وأشمل .

فقال الحسين الأهوازي : اذهب إليهم وادعوهم إلى هنا بعد أن تحكم إغلاق الباب من الخارج !

ولما سمع رضوان ما قاله الأهوازي ابتسم وخرج مسرعاً ، فأغلق الباب الخارجي . ودخل على زوجته وأولاده ، وطلب منهم أن يرافقوه إلى حيث يجلس الحسين الأهوازي ، لأنه وافق على تكريسهم ، بعد أن يتحدث إليهم ويختبر مدى صلاحيتهم للإستجابة.

وبالفعل سرعان ما ارتدوا أجمل الثياب ، وتبعوا رضوان إلى حيث يجلس الأهوازي ، الذي رحب بهم بعد أن قبلوا يديه وجلسوا بين يديه يحدقون بطلعته البهية ووجهه الطافح بالإيمان العامر بالزهد والتقوى ، وبعد الغور ، وعلو الهمة والفكر والرويّة ، فدخل بسرعة إلى قلوبهم ، وأحبّوا فيه الفطنة والذكاء الخارق الذي يشع من مقلتيه كأنه النور الخارق الذي اخترق أفئدتهم ، ففضلوا الصمت واطرقوا إلى الأرض تجنباً لالتقاء نظرهم بنظره .

ولم ينتبهوا من إطراقتهم حتى سمعوه يقول لهم بلسان فصيح ، ونطق عجيب ، يدل على الحب والمودة ، والرأفة والحكمة : يا أبنائي الأعزاء ، كونوا على بينة من أمركم قبل أن آخذ عليكم العهد والميثاق ، واعلموا أن على الإنسان أن يعرف نفسه ، ومتى عرفها تحققت له أمانيه ، وأحس بالسعادة القصوى ، وتنور بالبهاء الحقاني ، فصارت كل حركاته وسكناته عبادة وطاعة وفناء في ذات المبدع الحق.

والمبدع الحق يا أبنائي قد فرض على المؤمن الطاعة العمياء ، والإنقياد الكلي له وللرسول ولأولي الأمر ، الذي يعرفون تأويل آياته ، وأسرار ملكوته ، ويقولون : آمنّا به كل من عند ربنا. والمبدع كما

تصوره علوم الدعوة التي أنتـم مقبلـون على الإستجابـة لهـا هو نور الأنوار ، ومحض الوجود ، ومعدن الجود ، ومعطي الفضائل والخيرات والسعادات ، وهو باق أبداً سرمداً .

وقوانين الدعوة أعطت للمرأة كافة الحقوق التي نص عليها في القرآن ، وساوتها مع الرجل ، في المراتب والمناصب ، وعندما يكثـر عدد المستجيبين في هذه المناطق ، سنوجد مدارس لتخريج الداعيات المؤمنات ، وسنوجد لهن العمل في كافـة المجـالات ، لذلك أطلـب إليكم طلب العلـم والمعرفة ، والزهد والتقشف ، ومحبة إخوانكم كما تحبـون أنفسـكم ، وحافظـوا على أسرار الدعـوة ، وأعلنـــوا في كل المناسبات ولاءكم للإمام الحاضر ، واقتدوا فيه أثناء الصـلاة . والله يسدد الخطى ويطيب المسعى . ثم أمرهم أن يرددوا بعده نص العهد والميثـاق بعـد أن يضعـوا أيديهـم بأيدي بعض ، فرددوا القسـم ، وعاهدوا الله على الإخلاص والتفاني في خدمة الدعوة . فباركهم فرداً فرداً ، وودعهم حتى دخلوا إلى قسم النساء . ثم عاد برفقة رضوان إلى مجلسه .

فقال الحسين الأهوازي مخاطباً رضوان : إنني أشعر بالسعـادة لاستجابة أهلك ، وبودي لو تستشير ولدك علي إذا كان يوافـق على الذهاب إلى سلمية للدخول في مدرسة الدعاة لتلقي العلوم والمعارف ، باعتباره شاباً يؤهله سنه لمستقبل عظيم ، ونحن كما تعلم بحاجة للدعاة في هذه المنطقة ، وقد تستمر دراسته أربع أو خمس سنوات يخرج بعدها بمرتبة مأذون أو مكاسر .

فقال رضوان : أنا يا مولاي أرحب بهذا الإقتراح ، وسأحاول إقناعـه هذه الليلـة إنشـاء الله ، وأتمنـى يا مولاي من كل قلبي لو استطاعـت شقيقتـه علياء الإنتسـاب إلى مدارس النسـاء الـداعيات أيضاً !

فقال الحسين الأهوازي : لك وعدي يا بني بأنني سوف استشير قيادة الدعوة في الأهواز بخصوص علياء ، ولكن لا أضمن قبولها ، إنما إذا أوجدنا في منطقه السواد مثل هذه المدارس ، وهذا أمر محتم إنشاء الله ستكون علياء أول المنتسبات إليها ، وأنصحك يا بني بأن تتولى بنفسك في الوقت الحاضر تثقيفها وزرع المعارف في نفسها ، ريثما تستقر الأمور !

وبينما كانا يتجاذبان الحديث ، دخل حمدان بن الأشعث فحيا وجلس أمام الداعي الأهوازي ليقول له بأنه قد وفق في مهمته ، وقابل صديقه ، وتكلما طويلاً حول الدعوة وضرورة التكاتف لنشرها بين كافة الطبقات ، ولقد وافق زميله ، وطلب منه أن يستأذن له بالدخول على الشيخ الأهوازي ، لأنه يرغب بالإستجابة للدعوة ، وحلف اليمين .

فقال الأهوازي : لقد تسرعت قليلاً يا بني ، وكان الأجدر بك أن تنتظر بعض الوقت ، ولا تعلن عن وجودي في هذه المنطقة .

فقال حمدان بن الأشعث : إنه صديقي ورفيقي منذ الطفولة ، ولقد حدّثته عنك منذ اجتماعنا في المرة الأولى منذ خمس سنوات ، وأنا يا مولاي أثق به أكثر من ثقتي بنفسي وبرضوان ، وفعلاً تسرعت إذ كان من المفروض أن أصبر بعض الوقت ثم أستشيركم بالأمر . فالمعذرة يا مولاي ، وأعدك بأن لا أعود لمثلها في المستقبل .

فقال الأهوازي: لا بأس طالما الأمر قد وقع ، فحاول أن تأتي به بعد صلاة العشاء ، لنأخذ عليه العهد والميثاق ، والله الموفق .

وبعد أن أدوا صلاة المغرب خرج حمدان بن الأشعث ليعلم صاحبه الحسن بن محمد الكوفي بموعد لقائه مع الداعي الأهوازي ، ثم عاد وإيّاه في الوقت المحدد ، ودخلا على الحسين الأهوازي ، فتقدم منه الحسن بن محمد الكوفي وقبل يديه ، فأشار الأهوازي إليه ليجلس

أمامه ، ففعل . وران على المكان صمت رهيب ، راح الكوفي خلاله يحاول النظر إلى وجه الأهوازي ، ولكن بصره كان في كل مرة يحاول تركيزه يرتد كسيراً أمام النور الوهاج الذي كان ينبعث من عيون الأهوازي ، ويجسد الذكاء والفطنة ، والعزم والصرامة ، والرأفة والرحمة ، والزهد والتقشف ، وسرعان ما قطع الأهوازي هذا الصمت وقال : حدثني منذ قليل عنك ابن الأشعث ، وذكر رغبتك في الاستجابة لدعوتنا ، فوافقت على أن ألقاك مرغماً ، لأننا يا بني قد اعتدنا أن لا نقبل استجابة قبل أن نختبر طالبها ونعجم عوده ، ولكن ثقة ابن الأشعث بك ، وإصراره على ضرورة انضمامك إلينا ، جعلنا نوافق على الإجتماع بك ، هذه الليلة ، لأبحث وإياك هذا الأمر .

فالدعوة التي تود الإستجابة لها ، لا تضم بين صفوفها الغوغاء والجهلة ، أصحاب النفوس الميتة ، بل تقبل كل من تنبهت نفسه من نوم الغفلة ، وتنوّرت بنور الهداية ، فبصرت بعين اليقين الأنوار الملكوتية ، وتحققت أن لكل ابتداء انتهاء ، ولكل حياة فناء ، ولكل موت ونائم انتباه .

والمستجيب يا بني هو أول مرتبة من مراتب الدعوة ، فعليه أن يثبت بأقواله الصادقة ، وأخلاقه الجميلة ، وآرائه الصحيحة ، وأعماله الزكيّة ، والزهد والتقشف ، بأنه جدير بحمل الرسالة . فإذا كنت ممن تتوفر فيهم هذه المناقب ، فلا مانع لدي من قبول استجابتك ، ومباركة مسعاك ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

فقال الكوفي : كل ما ذكرته يا مولاي حق وصدق ، لا غبار عليه ، فلقد وقفت جسدي ونفسي وكل ما أملك من حطام هذه الدنيا الفانية في سبيل الدعوة ، وسأكون مخلصاً وفياً ، مطيعاً لكل ما يصدر

إلي من أوامر ، حتى لو كان فيها هلاك جسدي !

فقال الأهوازي : ضع يدك في يدي يا بني وردد على مسامع أخويك ما أقوله . فبسط يده ووضعها في يد الأهوازي ، الذي أخذ يتلو العهد والميثاق ، حتى وصل إلى قوله : والله على ما أقول شهيد ، والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وأهل بيته من الأئمة المهديين الطيبين الطاهرين . فلم يشعر الكوفي بالسعادة التي دخلت قلبه في تلك اللحظة كما أحس بها وهو يردد ما قاله الأهوازي ، فانفرجت أساريره ، وتفتّحت مداركه ، فراح يقبل يد الأهوازي ، والتفت إلى حمدان ورضوان وراح يعانقهما ، وهما يباركان له ، ويثنيان عليه .

وفي صباح اليوم التالي ودع الحسين الأهوازي رضوان وأهل بيته والكوفي ، وخرج يصحبه حمدان بن الأشعث باتجاه قرية حمدان بن الأشعث ، فوصلاها بعد صلاة الظهر ، ودخلا منزل حمدان الذي يقع في الجهة الشمالية من القرية ، فرحبت بهما زوجة حمدان وأولاده الأربعة ، وأنزلوا الأهوازي ضيفاً معززاً مكرماً ، وأفردوا له غرفة خاصة فرشوها بالأثاث البسيط كما طلب منهم الأهوازي ، ليتناسب مع زهده وتقشفه .

ولما أخذ الأهوازي قسطاً من الراحة ، دخل عليه حمدان بن الأشعث وقال له : إن لي يا مولاي إخواناً وزوجة وأربعة أولاد هل توافق على أن أصيرهم اليك لتأخذ عليهم العهد والميثاق ؟

فقال الأهوازي : يبدو أنك في عجلة من أمرك ، ألا يمكنك الإنتظار بعض الوقت؟

فقال حمدان بن الأشعث : العقول مهيئة ، والتربة صالحة

فلماذا الانتظار وقد أخذنا على أنفسنا عهداً بنشر الدعوة؟ .

فقال الأهوازي وهو يبتسم : لك ما تريد ، احضر الجميع قبل صلاة المغرب فنؤدي الصلاة سوية ، ثم نأخذ عليهم العهد والميثاق أن شاء الله .

وحضر أكثر من مائة شخص بينهم أهل بيت حمدان بن الأشعث وبعض النساء من جيرانه وأقربائه ، فسلموا على الداعي الحسين الأهوازي وجلسوا بشكل حلقة حوله ، ينظرون إليه وينظر إليهم ، وقد شعر بالسعادة التي لا توصف وقال لنفسه : لقد وفقنا الله بهذا الأخ النشيط المخلص ، وستكون هذه المجموعة من الرجال والنساء والأطفال نواة لحركة كبرى ستهز العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه .

ولما أذن المؤذن لصلاة المغرب انتظم الجميع صفوفاً خلف الحسين الأهوازي الذي وقف إماماً أمام الجميع ، وراح يتلو الصلاة ، ولما انتهى أخذ يقرأ بعض الآيات القرآنية بصوت رخيم أخذ بلب الجميع ، ثم خطب فيهم قائلاً :

إخوتي وأبنائي ، السعادة التي أشعرها اليوم ، لم أحسها منذ أن خرجت من مقر الإمام الحاضر بعد أن كلفني بتولي الدعوة في هذه المناطق ، حيث قال لي بالحرف الواحد : اذهب يا أهوازي إلى سواد الكوفة ، وادع لنا ، وبشر بمبادئنا ، لأن العقول مهيئة ، والتربة صالحة ومستعدة لقبول البذر فيها .

ولما جمعني الله بالأخ حمدان بن الأشعث انتابني شعور غريب ينبئني بأن النجاح سيكون حليفنا ، وسيكون لدعوتنا في هذه الجهات

شأن كبير ، وليس لي ما أقوله لكم إلاّ أن ترصوا صفوفكم وتوحّدوا كلمتكم لأنكم بعد أن آخذ عليكم العهد والميثاق تصبحون إخوة ، أجساماً متفرقة في نفس واحدة ، المرأة مساوية للرجل ، قد منحها قانون الدعوة ونظامها كافة الحقوق ، وفرض عليها الواجبات نحو منزلها وزوجها وأولادها .

ويسعدني إعلامكم بأنني سأطلب من مقر الإمامة غداً الموافقة على تعيين بعض الدعاة ليكونوا أساتذة ومعلمين في مدارس الدعوة التي سنفتح أبوابها قريباً ، وأطلب منكم الآن وبصوت واحد أن ترددوا خلفي العهد والميثاق بعد أن تتشابك أيديكم بعضها ببعض . وبالفعل تشابكت أيدي الجميع وأخذ الأهوازي يتلو العهد والميثاق وهم يرددون خلفه حتى انتهى إلى القول : والله على ما نقول شهيد . ثم قدم التهاني والتبريكات للجميع وأمرهم بالكتمان الشديد حرصاً على سلامتهم وسلامة الدعوة .

بعد أن غادر الجميع المكان ، اقترب حمدان بن الأشعث من الداعي الأهوازي وقال له : في القرية المجاورة لقريتنا يقيم صديق لي ميسور الحال ، له معرفة علمية وفلسفية لا يدانيه فيها إلاّ القليل من الحكماء ، أنوي يا مولاي أن أزوره يوم غد فعسى أن أوفق لإقناعه في الإستجابة لدعوتنا ، وإذا وفقنا الله وتمكنّا من إقناعه ، استطعنا بفترة قصيرة أن نسيطر سيطرة تامة على المنطقة بكاملها ، لما يتمتع به من مكانة سامية في النفوس ، فهل تأذن لي بالذهاب ؟ فقال الأهوازي : لم يمض على وجودي في هذه القرية سوى ثلاثة أيام وقد استطعت خلالها أن تقنع العديد من المواطنين فاستجابوا للدعوة بسهولة ويسر ، الا ترى معي لو تريثنا قليلاً بينما نرتب أمورنا وننظم جماعاتنا ، ونعلم الإمام بما تم على أيدينا ، ونستنير بإرشاداته وبركاته ؟

فقال حمدان بن الأشعث : الرأي رأيك يا مولاي ، ولكنني أفضل أن أسرع للإجتماع بهذا الصديق ، فقد يريحنا من الكثير من الجهد ، ويوفر علينا بعض الوقت ، ويساعدنا في التنظيم والقيادة !

فقال الحسين الأهوازي : لا مانع لدي من ذهابك غداً ، فليرعاك الله ويسدد خطاك ، وسأدخل غرفتي الآن لأكتب رسالة إلى قيادة الدعوة أعلمها بما حققناه من تقدم ، وبنفس الوقت أطلب الموافقة على تعيينك مساعداً لي ، وكبيراً لدعاة السواد ، كما سأطلب تعيين بعض المكاسرين والمأذونين من سكان السواد ليساعدونا فيما نحن قادمون عليه . إذهب يا أخي واختر لي من بين الجماعات مراسلاً ذكياً قادراً على حمل الرسالة إلى مقر الإمامة في الأهواز ، ثم رافقه إلى هنا لنسلمه الرسالة ونزوده بالتعليمات . ولكن قبل أن تخرج قل لي من هو هذا الذي ستذهب إليه غداً ، لقد نسيت أن تذكر لي اسمه .

قال حمدان بن الأشعث وقد تفتحت أساريره ، وعلت الابتسامة شفتيه : في الحقيقة ظننت أنني ذكرت اسمه ، ويبدو أن انشغال بالي ، وكثرة ما يتراكم في مخيلتي من أمور ، قد سبب لي السهو والنسيان ، إنه يا مولاي زوج شقيقتي وصهري عبدان بن الحسين القادري !

فقال الحسين الأهوازي : لقد سمعت بهذا الإسم ، وأعتقد بأنه كان طالباً للعلم في بغداد منذ سنوات ، وربما التقيت به في المسجد ببغداد بينما كان يخوض معركة من النقاش التأويلي في إحدى الحلقات ، وأعجبت بحسن تبصره ، وعلو همته ، وتيقظه ، وصلاحه ، وفصاحة منطقه ، وفطنته . إنه جدير بالإهتمام ، فبادر إليه واعرض عليه الإستجابة لدعوتنا ، ومتى وفقت سنوليه منصباً دعاوياً كبيراً ان شاء الله .

وبناء على تعليمات الحسين الأهوازي توجه حمدان بن الأشعث لزيارة صهره عبدان ، بعد أن اختار أحد ، رجاله وأرسله إلى الأهوازي حيث حمل رسالته إلى مقر الإمامة في الأهواز ، ولما دخل على صهره في داره وجده مشغولاً في القراءة والكتابة ، يحيط به عشرات المجلّدات والأوراق المبعثرة في كافة أنحاء الغرفة ، فلم يثنه لدخوله بل ظل جالساً على مقعده يبحث وينقب ، فتقدم منه حمدان حتى لمس كتفه فانتبه وحاول النهوض للترحيب به ، ولكن حمدان أسرع إليه معانقاً ومقبّلاً ، فطلب منه عبدان أن يجلس إلى جواره ، ولكنه بادره بالسؤال عن زوجته وأطفاله ، فأعلمه بأنهم في الداخل يغتسلون وينظفون المنزل .

فقال حمدان بن الأشعث : لا تستغرب يا صهري العزيز كيف جئتك في هذه الساعة المبكرة دون أن أعلمك مسبقاً كما جرت العادة عن زيارتي ، فالأمر الذي جئتك من أجله لا يحتمل التأجيل أو التسويف ، فالشيخ الذي حدثتك عنه منذ سنوات قد التقيته صدفة في جامع السواد ، وحاول التهرب مني ، ولكنني تعلّقت به فلم أتركه حتى علمت منه كل شيء واستجبت لدعوته مع صديقي رضوان وأهل بيته ، ثم دعوته للإقامة في منزلي بالقرية ، ولكنه حاول الرفض ، فأصررت عليه حتى قبل ورافقني إلى القرية منذ عدة أيام ، وخلال هذه الفترة القصيرة التي أمضاها في ضيافتي تمكنّا من استمالة ربع القرية من رجال ونساء وأطفال ، فأخذنا عليهم العهد والميثاق ، وأصبحوا من جملة الإخوان .

ولقد تذكّرتك مساء البارحة ، فقلت لنفسي لماذا لا أذهب إلى صهري عبدان وأشرح له الوضع ، فعسى أن يعاونا فيما نحن مقدمون عليه ، ولكن قبل أن أتوجه اليه يجب إبلاغ الشيخ بما عزمت عليه ،

وبالفعل بسطت الموضوع أمام الشيخ ، ولما ذكرت له اسمك ، قال بأنه سمع بك ، حتى إنه شاهد -منذ سنوات- في مسجد بغداد شخصاً يخوض نقاشاً تأويلياً في إحدى الحلقات ، فسأل عنه ، فقيل له إنه عبدان بن الحسين القادري . لهذا جئتك يا عبدان أطلب معاونتك ورأيك الصريح بما نحن قادمون عليه !

قال عبدان وقد قطب حاجبيه وانفرجت أساريره : إذن قد عاد شيخنا كما توقعت ، فلنسارع إليه ونتنوّر بأنواره الشعشعانية ، إنه يا حمدان رسول خير ومعرفة ، فسنأخذ بناصره، ونتتلمذ على يديه ، ولا مانع لدي من الرحيل هذه الساعة إذا شئت !

فقال حمدان بن الأشعث : ألا تصحب أهل بيتك معك ، فلربما طالت غيبتك ؟

قال عبدان : لا وقت لدينا الآن ، إنما يستحسن أن تدخل على شقيقتك وتبلغها ما عزمنا عليه ريثما أرتدي ثيابي وأجمع بعض الأوراق الهامة .

دخل حمدان بن الأشعث على شقيقته فقبلها ، وقبل أولادها ، ثم أعلمها بعزمه على المسير مع صهره عبدان إلى قريته للتشاور في بعض الأمور ، فإذا طالت غيبة عبدان ، فلتلحق به مع الأولاد ثم عاد إلى غرفة عبدان فوجده جاهزاً للمسير ، فخرجا واتجّها إلى قرية حمدان سيراً على الأقدام ، لأن المسافة بين القريتين قصيرة لا تتجاوز بضعة أميال . ولما دخلا على الحسين الأهوازي كانت الشمس في كبد السماء ترسل أشعتها البنفسجية على السهول المنبسطة في السواد فتزيدها رونقاً وبهاء ، ولم يكن الأهوازي كعادته يصلي ويتلو القرآن بل كان مستلقياً على فراشه يداعب النعاس جفنيه ويستسلم لإغفاءة

قصيرة ، ولكن سرعان ما نهض من فراشه عندما شعر باقتراب الخطو من باب الغرفة ، ولما فتح الباب وجد أمامه حمدان بن الأشعث وخلفه عبدان ، فدعاهما للدخول ، فدخلا ، وتقدم عبدان على الشيخ الأهوازي مسلماً ومعانقاً ومقبلاً يديه ، ثم جلسا حيث أشار إليهما الأهوازي ، وراحا ينتظرانه ريثما يرتدي جبته وعمامته ، ويعود إليهما .

ولما أصبحا وحيدين حاول عبدان أن يتكلم مع حمدان ، ولكن الكلام وقف في حلقه فأعياه الحديث ، وهو المحدث القادر على التكيُّف مع كل المناسبات ، وقد أدهشه منظر الحسين الأهوازي المهيب الذي يبعث الطمأنينة في النفس ، ويسيطر على الحواس والمشاعر ، وران على القاعة صمت عجيب ، قطعه الحسين الأهوازي عندما عاد إليهما بقامته المديدة ، ولحيته الكثيفة البيضاء التي كانت تتدلى برفق على صدره العريض ، فتزيده وقاراً على وقار ، وتجسد زهده وتقشفه ، فجلس إلى جوار عبدان وأمعن النظر في وجهه علّه يتمكن من استخلاص ما يدور في أعماقه من تفاعلات ، ويرتسم في مخيلته من أفكار ، ولما نظر عبدان في عيني الأهوازي المتوقّدة شعر كأن تيّاراً كهربائياً قد مسّ شغاف نفسه ، فارتد بصره كليلاً عاجزاً عن معرفة كنه هذا النور الذي يشع من مقلتي الأهوازي فيخطف الأبصار ،ويهز الجسد .

شعر الأهوازي بما اعترى عبدان من قلق ، فشاء أن يدخل الطمأنينة إلى نفسه فقال : سبق أن رأيتك يا عبدان منذ سنوات ، وأنت تناقش وتجادل بعض المشايخ حول بعض الأمور التأويلية ، فأعجبت بمنطقك السليم ، وبصدق نظرتك العلمية ، وشئت أن

أجتمع بك ، ولكن ظروفاً قاهرة حالت بيني وبينك، ولما ذكرني الأخ حمدان بك ، طلبت منه حالاً أن نلتقي ، وهكذا كان ، فأهلاً بك عالماً نحريراً ، وأديباً لامعاً ، وحكيماً عارفاً .

فقال عبدان وقد دخل الإطمئنان إلى نفسه ، وانفرجت أساريره : نظرتي يا مولاي إلى أمثال أولئك العلماء تختلف عن نظرة الناس إليهم ، فهم في نظري مرتزقة لا يعلمون إلا القشور ، إذ ليس بمقدورهم أن يسبروا أعماق الفكر والمعارف ، لاستخراج الجواهر الساطعة ، والدرر الثمينة، فالعلماء يا مولاي هم ورثة الأنبياء ، والأنبياء هم سفراء الله بينه وبين خلقه ، ينشرون العلوم على قدر أفهام المستفيدين منها ، فإذا مضت الأنبياء لسبلها ، خلفهم العلماء والحكماء ، وأهل المعارف ، وقاموا مقامهم ، ونابوا منابهم فيما كانوا يقولون ويفعلون ، ويدلون الناس على معالم الدين وطريق الآخرة ، وتوفير العدالة في المجتمعات الإنسانية ، الناهدة إلى التقدم والرقي .

وبصراحة أقول يا مولاي : إنني لم أجد في الأوساط العلمية المعروفة في بلادنا أي عالم تنطبق عليه هذه الشروط ، لذا فضلت الخلوة مع نفسي طوال هذه السنوات أبحث وأنقب ، وأخطط وأبني ، طبعاً على الورق ، المجتمع الذي أريده ، ولقد وجدت في مبادىء الدعوة وتنظيماتها وأفكارها العقلانية ، ومطابقاتها العلوية والسفلية ، خلاصي وخلاص المجتمعات الإسلامية المعذبة ، مما نتخبط فيه من متاهات اجتماعية واقتصادية وسياسية .

وكل ما أريده يا مولاي أن تأخذ بيدي وتساعدني على إنقاذ نفسي من موت الجهالة ، علني أتمكن من تشذيب هذا المجتمع

المفكك المضطرب ، وتوفير العدالة الإجتماعية ، ونشر المحبة والأخوّة والتعاون بين الأفراد ، ففي خلاص الفرد وإنقاذه خلاص المجتمع وإنقاذه .

فقال الحسين الأهوازي : تقدم يا بني وضع يدك في يدي وردد ورائي ما أتلوه من عهد وميثاق ، وثق بأننا قد وضعنا برامج ستطلع عليها في المستقبل ، إذا طبقناها في مجتمعنا ستكون بلسماً لجراحات الجميع .

وتقدم عبدان بسرعة فوضع يده بيد الحسين الأهوازي ، فأخذ عليه العهد والميثاق ، وعاهده على العمل سوية ، متضامنين متحدين ، وأبلغه بأنه اتخذه مساعداً له ، ونقيباً لجناح أيسر في القيادة ، لأن حمدان بن الأشعث قد منح رتبة الجناح الأيمن ، وقد باركه الإمام هذا اليوم وأطلق يده في العلم لما فيه مصلحة الدعوة ، كما أن الدّعاة الحرم قد فوضوا حمدان بن الأشعث بأخذ العهود والمواثيق من كافة المستجيبين ، وفوّضوني بتعيين مساعدين له في كافة القرى والدساكر ، كما كلّفوني بالاتصال بأحد دعاتنا الذين يعملون سراً بهذه المنطقة منذ سنوات طويلة ، ولكنني فضلت التريث قليلاً ريثما نعقد اجتماعاً ندرس فيه كافة الأمور ، فليباركك الله يا عبدان ويساعدك فيما أنت مقدم عليه .

فقال عبدان : أنوي يا مولاي أن آتي بأهلي وببعض الإخوان من قريتي لمبايعتكم حسب الأصول ، فما هو رأيكم ؟

فقال الأهوازي : يمكنك أخذ العهد والميثاق على أي انسان ، فلقد فوضتك ، وأطلقت يدك تفعل ما تريد ، وسأنفرد مع نفسي لبعض الوقت ، ثم نجتمع في الأسبوع القادم إن شاء الله .

وبعد أن خرج عبدان وحمدان من غرفة الأهوازي أراد حمدان أن يبقى عبدان عدة أيام ، ولكنه فضل أن يعود إلى قريته بسرعة لأن أمامه أعمالاً كثيرة يود إنجازها ، ووعد حمدان بالعودة القريبة ، فأذن له وودّعه إلى خارج القرية . ثم عاد إلى حيث يقيم الأهوازي ، الذي أطلعه على الرسائل التي وصلت من مقر الدعوة في الأهواز ، وأمره أن يعتني عناية فائقة بالحمامات التي وصلت من الأهواز وأن يكلف أحد الأتباع برعايتها ، لأنها مدربة تدريباً حسناً على حمل الرسائل ونقلها إلى مقر الدعوة عند الحاجة .

ويبدو من وقائع الأحداث أن الأهوازي لم يطلع حمدان على رسالة خاصة كانت قد وصلته مع بقية الرسائل التي تلقاها تأمره بالاتصال ببعض الدعاة القدامى في البحرين والسماوة وكلوازي لجمع المعلومات والبيانات الكافية عن أحوال هذه البلدان المختلفة ، ولتقوية الاتصالات بين كافة دعاة الجزيرة العراقية . لذلك نراه يعلم حمدان بأنه صمم على القيام برحلة إلى هجر وكلوازي تستغرق أسبوعاً ، فهو يوصيه بمواصلة النشاط ريثما يعود .

فقال له حمدان : لماذا لا أرافقك في هذه الرحلة ، أو على الأقل يصحبك بعض الإخوان؟

فقال الأهوازي : أفضل أن تبقى هنا مع الجماعات ، ولا أحتاج لمن يرافقني لأنني خبير في مسالك هذه المناطق ، ولدي عدد لا بأس به من الإخوان والأصدقاء !

وبالفعل غادر الأهوازي مقره في قرية النهرين متوجهاً إلى قرية صوان حيث يقيم الداعي مهرويه وابنه زكرويه ، بناء على رغبة الإمام عبد الله بن محمد بن اسماعيل الذي أمره بالتوجه إليهما ، والتحدث

معهما ، حول بعض الأمور الدعاوية المتعلقة بالسواد والبحرين والسماوة ، بأعتباره كبيراً لدعاة الجزيرة العراقية التي تشمل كل هذه المناطق.

والحسين الأهوازي كان على علاقة طيبة مع مهرويه وولده زكرويه ، فقد التقاهما عدة مرات قبل أن يصبح داعي دعاة الجزيرة العراقية ، وتجادل معهما كثيراً حول بعض المواضيع التأويلية ، وأعجب باخلاص مهرويه ، كما أحس بذكاء زكرويه ، ومهارته السياسية ، مع أنه لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره ، بينما كان مهرويه في الستين من عمره ، يتحلى بالأخلاق الحسنة ، والخصال الحميدة ، زاهداً متقشفاً ورعاً ، يكثر من الصلاة والصيام . ولما دخل على مهرويه في منزله رحب به ترحيباً كبيراً ، وأعلمه بأنه تلقى رسالة من مقر الدعوة في الأهواز تعلمه بقدومه ، وأنه يرحب به ، ويثني على جهوده التي بذلها في سواد الكوفة وما يحيط بها من قرى ودساكر ، ويعلن عن استعداده للتعاون معه في شتّى الحقول. فقال الحسين الأهوازي : ما يهمّني يا أخي ويهمّ قيادة الدعوة في الأهواز هو معرفة أوضاع المنطقة الإجتماعية والإقتصادية والسياسية ، ومدى رغبة الناس في الإنضمام إلينا ،وما هي الإجراءات التي يجب أن نتخذها لإنقاذ هؤلاء المعذّبين في الأرض ، على أسس من العدالة والمحبة والاخاء . كما أن القيادة قد أمرتني بالتعاون المطلق معك ومع ولدك زكرويه لنشر الدعوة في البحرين وقطيف، ولارسال المزيد من الدعاة القادرين إلى بني أسد وطيء، وبني كلاب وعقيل والخريبس، المقيمين في نواحي هجر. فما هو رأيك؟

فقال مهرويه : منذ أن اصبحت داعياً في هذه النواحي ، وعلى أيام مولانا الإمام محمد بن إسماعيل ، وأنا أوزّع الدعاة

على كافة القبائل المنتشرة في هذه النواحي ، ولقد وفقنا خير توفيق واصبح عدد الجماعات يتجاوز المائة الف من الرجال والنساء والأطفال ، وهم كما تعلمون فقراء معدمون ، لذلك اری ان نبدأ برفع مستوى معيشتهم ، عن طريق ايجاد نظام مالي دقيق مبني على العدالة والأنصاف ، هذا بالأضافة الى ضرورة معالجة مسألة الجهل المطبق في الأمور الفكرية ، والعلوم الدينية والشرعية . ولن يتم لنا ذلك الا اذا عممنا المدارس ، وزدنا عدد الدعاة الأساتذة ، ولدي دراسة اجتماعية واقتصادية يمكننا على ضوئها ان نعد نظامًا اجتماعيًا اقتصاديًا فاعلاً يأخذ بأيدي الجميع ، وسأضع هذه الدراسة بين يديك للنظر فيها مع بعض الدعاة الخبراء في هذا المجال ، ولا مانع لدي من ارسال ولدي زكرويه لأي مكان تختاره للمشاركة بالدراسة والبحث .

فقال الحسين الأهوازي : أنت تعلم يا مهرويه بأننا لا يمكن أن نقرر شيئاً قبل عرض الموضوع بكامله على قيادة الدعوة ، ومتى جاءتنا الموافقة يمكننا أن نفعل ما هو خير إن شاء الله ، ولكن هناك أمراً هاماً لا بد من بحثه يتعلق بنشاط الدعوة في البحرين وقطيف ، ويا حبذا لو وافقت على انتداب ولدك زكرويه ليقوم بجولة على تلك المناطق ليأتينا بالخبر اليقين ، ولينقل للجماعات لائحة بأسماء الدعاة الذين انتدبوا للدعوة هناك ، وسأمنح ولدك صلاحيات واسعة تخوله حق معالجة كافة المواضيع والمشاكل التي ستعرض عليه . أما أنا فسأذهب غداً إلى كلوازي ثم أعود إلى هنا لانتظار زكرويه حتى يعود ، وربما قابلت دندان في كلوازي لمطالبته ببعض المساعدات المادية لنوزعها بالتساوي على الجميع .

ولم يشعرا وهما يتجاذبان أطراف الحديث بزكرويه عندما دخل القاعة وهو يتدفق نشاطاً وحيوية ، ليقول لهما بأن طعام الغداء قد أعد ، وأن عمته الزهراء تنتظرهما ليشاركانها الطعام ، فنهضا من مجلسهما وتوجّها برفقة زكرويه إلى القاعة التي أعد فيها الطعام ، ولما دخلا وجدا شقيقة مهرويه الزهراء بانتظارهما وقد ارتدت أجمل الثياب ، ووضعت في جيدها عقداً من الأحجار الكريمة ضوؤه يخطف الأبصار.

والزهراء هي شقيقة مهرويه الوحيدة الباقية على قيد الحياة ، وهي عزباء في الثلاثين من عمرها ، تتمتع بجمال أخاذ ، رفضت أن تتزوج ، ووقفت نفسها لخدمة الدعوة ودراسة علومها ، حتى قطعت شوطاً بعيداً في مجال المعرفة ، وأصبحت حجة في العلوم التأويلية ، كما أنها وجهت اهتمامها للقضايا الاجتماعية ، وخاصة ما يتعلق منها بالمرأة وحقوقها وتربيتها ، وكانت الزهراء تعرف الحسين الأهوازي ، وله في قلبها مكانة خاصة رفيعة ، كيف لا وقد أشرف على قسم من تربيتها الدينية عندما كان في بغداد منذ سنوات .

ولما وقع نظر الأهوازي على الزهراء وهي في قمة جمالها وأنوثتها ، تذكر أيام بغداد، حيث كانا يلتقيان كل يوم في دار الدعوة لترضع العلوم والمعارف على يديه ، لكان عندما تدخل عليه يشعر بالسعادة ، ويتمنى لو أنها تبقى إلى جواره حتى نهاية العالم ، ولكنه لم يكن يجرأ على التصريح أو حتى التلميح بما يتفاعل في نفسه من إعجاب بالزهراء ، نظراً لمكانته العلمية وزهده وتقشّفه ، ولا يزال يذكر عندما دخلت عليه في أحد الأيام ، وبعد أن انتهى من الدرس والمناقشة ، فقالت له : يا سيدي هل تعطيني من وقتك بضع دقائق للإجابة عما يجول في خاطري من أفكار ؟

فقال لها : بكل سرور يا أختاه ، أنا على استعداد للإجابة على كل ما يتفاعل في أعماقك؟

فقالت : مضى على وجودي هنا أكثر من عامين، ولم تكلمني خلالها أو تبحث معي حول مركز المرأة في المجتمع الإسماعيلي وهل هي متساوية في الحقوق والواجبات مع الرجل ، مع أن نظام الدعوة يعطيني هذا الحق ، وكذلك القرآن الكريم ؟

فقال الأهوازي : هذه الأمور يا أختاه من البديهيات ولا حاجة لترددها ، طالما أنكن تتلقين العلوم بالتساوي مع الشباب ، وتتوصلن إلى نفس المراتب التي يتوصل إليها الذكور في تنظيمات الدعوة !

فقالت الزهراء : يدور في مخيلتي سؤالاً آخر يا سيدي وأخجل أن أطرحه عليك !

فقال الأهوازي : قولي يا زهراء ،لا حجاب فيما بيننا !

فقالت الزهراء : أظنك يا سيدي قد تجاوزت الخامسة والثلاثين فلماذا لم تتزوج حتى الآن ؟

فابتسم الأهوازي ابتسامة عريضة وقال : لقد وقفت نفسي وجسدي لخدمة الدعوة رغم أنه لا يوجد في نظامنا ما يمنع الزواج على الدعاة ، ولكنني رغبت في هذا زيادة بالزهد والتقشف!

فقالت الزهراء : وهل يجوز لي أن أفعل مثل هذا يا سيدي ؟

فقال الأهوازي : هذا عائد لك ولما يتفاعل في أعماقك ، ولكنني أنصحك بالعزوف عن أمثال هذه الأفكار !

فقالت الزهراء : لقد اتخذتك قدوة ونبراساً يا سيدي ولن

أتراجع عن هذا حتى أراك وقد عزفت عن حياة العزوبية وتزوجت ، والله على ما أقول شهيد.

فقال الأهوازي : ما هذا الذي تقولينه يا زهراء هل جننت حتى تجعليني قدوة في مثل هذه الأمور ! فأنا لم أعزف تماماً عن الزواج ، بل أنتظر حتى أجد من تستحق أن أكون زوجاً لها ، ولا أزال أنتظر وربما انتظرت حتى ما لا نهاية .

فقالت الزهراء : هذا هو قراري الأخير يا سيدي !

وبعد هذه المحاورة بخمسة أشهر تخرجت الزهراء من المدرسة وغادرت بغداد إلى قريتها ، بينما انشغل الأهوازي عنها بأمور الدعوة والتنقل المتواصل بين الأقطار ، ولم يشاهدها منذ تلك الفترة حتى جمعهما الله في هذا اليوم ، فتبين له بأنها لا تزال عند قسمها ، وأنها ازدادت جمالاً وأنوثة .

ولم يشعر الأهوازي إلاّ والزهراء تتقدم منه محاولة تقبيل يده ، ولكنه سحب يده بسرعة ، وبادرها بالسؤال عن صحتها وأحوالها ، فأجابته بأنها بخير وهي سعيدة جداً للقاء أستاذها ومربّيها . فقال لها الأهوازي : بارك الله فيك يا زهراء ، وجعل أيامك كلها هناء .

ولما انتهوا من تناول الطعام شاءت الزهراء أن تذكر الأهوازي بأيام بغداد وبقسمها بأن لا تتزوج حتى يتزوج ، فقالت وهي تبتسم : ما هي أخبارك يا سيدي ، هل تزوجت ؟ أم لا تزال مثلي عازفاً عن الزواج ؟

فقال الأهوازي : لا أزال أنتظر العروس ، ولكنها لم تأت حتى الآن ، وأظنها لن تأتي حتى قيام الساعة !

فضحكا سوية ، ثم شرب الجميع الشاي ، وخلال ارتشاف الشاي كانت الزهراء تنظر بعمق وروية إلى وجه الأهوازي علها تستطيع تفسير ما ارتسم على وجهه من تفاعلات وتعابير تدل على أنه يفكر بأمور لا تعلم كنهها لأنها اعتادت أن ترى على وجهه مثل هذه التعابير أيام كانا في بغداد ، فقطعت تفكيره وقالت : المرأة في مجتمعنا يا سيدي لها مطاليب وهي بحاجة ماسة إلى من يأخذ بيدها ويوصلها إلى حقوقها التي منحها إياها نظام الدعوة والقرآن الكريم ، فالمطلوب مساعدتها لأنها كما تعلم نصف المجتمع ، ولا أظنك تقبل أن يبقى نصف مجتمعنا مشلولاً ، فكلي ثقة بأنك سوف توليها اهتمامك الزائد ، وبأسرع وقت ممكن إن شاء الله .

فقال الأهوازي : قدّمي لي دراسة وافية مستفيضة عن حاجة المرأة ، والحلول الواجب اتخاذها لانقاذها مما تعانيه ، كي أرفع تلك الدراسة إلى قيادة الدعوة في الأهواز ، علهم يتخذون الإجراءات الكفيلة بإيصالها إلى حقوقها كاملة .

فقالت الزهراء : لقد أعددت هذه الدراسة منذ فترة ، وسآتيك بها فوراً ، وقبل أن تغادر هذا البيت .

ودخلت الزهراء إلى غرفتها فأخرجت الدراسة وقدّمتها إلى الأهوازي الذي طلب منها أن تتركه مع شقيقها مهرويه ، لرغبته في التحدث إليه على انفراد ، فغادرت الغرفة وأغلقت الباب خلفها ، ولما أصبح الأهوازي وحيداً مع مهرويه قال له : يا أخي أنت تعلم ما أقاسيه من الوحدة لعزوفي عن الزواج وقد أوشكت على الخمسين ، فأتقدم إليك خاطباً شقيقتك الزهراء على سنة الله ورسوله ، فإن رأيت أنني أصلح لها ، فسأكتب للإمام طالباً مباركة هذا الزواج؟

فقال مهرويه : أنت تعلم يا أخي مدى منزلتك عندي . وما أكنه لك من حب وتقدير ، فأنا من جانبي موافق بشرط أن نأخذ رأي الزهراء فإن وافقت ، فألف مبروك ، وستغمرني السعادة !

فقال الأهوازي: خذ رأيها يا أخي وبلّغني النتيجة قبل أن أغادر هذه القرية .

وبالفعل خرج مهرويه من الغرفة ، فنادى الزهراء ، ودخل وإياها إلى غرفة جانبية وعرض عليها ما طلبه الأهوازي ، ثم قال لها : لقد شعرت منذ عودتك من بغداد وعزوفك عن الزواج بأنك تخفين عني أمراً ، فلم أفاتحك بالموضوع ، لأن الأمر يتعلق بك بالذات ، ولا حق لي بالتدخل في شؤونك الخاصة ، أما وقد طلبك الأهوازي الآن للزواج فأرى أن تقبلي به ، لما في هذا الزواج من مصلحة لنا وللدعوة التي نبشر بها !

فقالت الزهراء : كنت يا أخي مصممة على أن لا أتزوج ، كوني وقفت نفسي لخدمة الدعوة ، أما وقد طلبني انسان يعز عليّ أن أرفضه ، فأترك الأمر بين يديك .

فقال مهرويه : هذا يعني أنك موافقة!

فقالت الزهراء : نعم انني موافقة ويسعدني أن أكون زوجة لكبير دعاتنا ، وبذلك أتمكن من رعايته والاعتناء به .

فقال مهرويه : إذن مبروك يا أختاه .

وتركها عائداً إلى الأهوازي حيث أبلغه قرار الزهراء ، وموافقتها على الزواج منه ،فانفرجت أساريره وحمد الله سبحانه وتعالى

على هذه النعمة . ثم طلب من مهرويه أن يقرأ الفاتحة ويفرض المهر الذي يريده ، فقرأ مهرويه الفاتحة ولكنه لم يذكر المهر ، فقال له الأهوازي : هل نسيت المهر الشرعي يا أخي ، فأجاب : المهر يفرضه الامام ، اما نحن فليس لنا ما نقوله ، ولا نطلب منك مهراً ، لأن الزهراء قد وهبتك نفسها وجسدها بلا مقابل ، فليوفقكما الله ، ويجعل كل أيامكما سعادة وهناء .

فقال الأهوازي : سأكتب لمولانا فور عودتي إلى مقري ، وعلى ضوء قراره ستتخذ كافة الترتيبات إن شاء الله تعالى .

واستأذن الأهوازي طالباً العودة إلى غرفته ، كونه يرغب بإنجاز بعض الأعمال الهامة المتعلقة بسفره غداً صباحاً إلى كلوازي ، فنادى مهرويه الزهراء ، ولما دخلت عليهما استقبلاها بابتسامات عريضة ، وأبلغها شقيقها مهرويه بأنها أصبحت خطيبة للأهوازي ، وهو يبارك هذه الخطوبة ، ويتمنى لهما كل هناء . فأطرقت الزهراء خجلاً ، ولم تفه بكلمة واحدة . وقطع عليها الأهوازي الصمت فقال : كل ما أرجوه أن يوفقني الله لإسعادك يا زهراء، لأن في سعادتك سعادتي وهنائي .

وطلب من مهرويه أن يصحبه إلى حيث يقيم ، فخرجا سوية بعد أن ودعتهما الزهراء إلى خارج المنزل والسرور يملأ قلبها ويسيطر على مشاعرها .

وعندما وصل الأهوازي إلى غرفته ، تركه مهرويه وحيداً ، ليأخذ قسطاً من الراحة ، ولكنه لم يستكن ولم يهدأ ، بل أخذ قلماً وورقة وكتب رسالة إلى الإمام عبد الله بن محمد يعلمه فيها بأنه قد خطب الزهراء شقيقة مهرويه ويطلب البركة ليتم عقد الزواج . ثم

أخذ ورقة أخرى كتب عليها تقريراً مفصلاً عن جولته ومدى نجاح الدعوة ، وإقبال الناس على الإستجابة لها زرافات ووحداناً ، وبنفس الوقت يطلب اتخاذ إجراءات سريعة لمساعدة الجماعات مالياً ليتمكنوا من النهوض من كبوتهم ، وتحسين أوضاعهم الإجتماعية المتردّية ، وسيذهب بنفسه غداً إلى كلوازي لطلب مساعدة مالية مستعجلة من الداعي محمد بن الحسين المعروف بدندان ، ليوزعها على الجماعات . ثم ختم الرسالتين ووضعهما داخل أنبوب يعلق عادة برجل أحد الطيور الزاجلة لينقله إلى قيادة الدعوة في الأهواز ، ثم استدعى مهرويه وأمره أن يسلم الأنبوب إلى الداعي صاحب برج الحمام ، ويطلب منه إطلاق أحد الحمائم فوراً ، ففعل مهرويه ما أمر به ، وانطلق الطير محلقاً في الأجواء حاملاً رسالتي الأهوازي .

وبعد صلاة فجر اليوم التالي انطلق الأهوازي بعد أن ودّع مهرويه متوجهاً إلى كلوازي فوصلها عند الغروب ، ودخل على دندان في منزله فرحب به ترحيباً حاراً ، وكاد أن يطير من الفرح ، كونه لم يصدق بأن الذي يراه أمامه هو أستاذه ومعلمه ومفيده الأهوازي ، وسرعان ما أفرد له في منزله غرفة خاصة تتوفر فيها كل وسائل الراحة ، وتتناسب مع مركزه السامي في الدعوة .

وبعد أن أخذ الأهوازي قسطاً من الراحة ، وأدى صلاة المغرب ، سأل دندان عن أحوال الجماعات في كلوازي ، وعن مدى النشاط التبشيري في القرى والدساكر المحيطة بها ، فطمّنه بأن الأمور سائرة سيراً طبيعياً ، وأن الأغلبية الساحقة من السكان قد استجابوا للدعوة ، وهم يؤدون الزكاة بالقسطاس ، ويساهمون بكافة النشاطات الاجتماعية والاقتصادية ، ولكن حاكم المنطقة قد شعر منذ فترة بهذا النشاط ، فكاتب الخليفة في بغداد مطالباً بالضغط لتصفية

الجيوب التي ينطلق منها الدعاة ، مما اضطرنا إلى زيادة التكتم والعمل بسرية تامة خشية أن يبطش بنا ، ويفرق صفوفنا .

فقال الأهوازي : عليكم بالتكتم الشديد ، والاستعداد للوقوف في وجه كل محاولة قد تتعرضون لها ، ولا يخفى عليك يا دندان بأن الخلافة أضعف من أن تقوم بأي عمل إرهابي لتفككها وكثرة المنشقين عليها ، وعلى العموم في الحذر والتكتم السلامة . وبهذه المناسبة أود أن أطلب منك مد يد المساعدة لأخوانك في السواد الذين يعيشون في فقر مدقع وحاجة ماسة للمال ، وقد عودتنا على الإحسان والصدقة ، وقد أنعم الله عليك بالمال الوفير ، والعيش الرغيد .

فقال دندان : أنا وما أملك من مال ومتاع تحت تصرفك وتصرف الدعوة ، فخذ من أموالي ما شئت بالإضافة إلى ما يترتب عليَّ من أخماس ونجوى .

فقال الأهوازي : ليجزيك الله خيراً ويبارك لك في مالك ومتاعك ، لما قدمته من هبات وتبرعات كان لها أكبر العون في رفع مستوى الجماعات، لن آخذ إلاَّ ما تجود به نفسك ، فلك وحدك الحق في العطاء .

فقال دندان : لك مني عهداً أقطعه على نفسي بأن أقدم لك ما يفي بالغرض ويسد حاجة الجماعات ، ولكن ألا تبقى في ضيافتنا بضعة اسابيع ؟

فقال الأهوازي : لا أستطيع البقاء أكثر من ليلة واحدة نظراً لظروف المنطقة السياسية ، خاصة وأنتم كما أخبرتني تحت الرقابة ، من قبل العباسيين ، سأتوجه غداً صباحاً إلى هجر ، ومنها أعود إلى

مقري في السواد ، وربما عدت إليك في مناسبة أخرى ، ولا أريد أن يعلم أحد بقدومي .

وفي صباح اليوم التالي وبعد أن أدى الأهوازي ودندان صلاة الفجر ، قدم دندان للأهوازي هبة مالية كبيرة جداً ، أخذها وسار نحو هجر حيث وزع قسماً منها بالتساوي على الجماعات ، وأجرى عدة اتصالات ، ثم عاد بالمال الوفير إلى قرية الصوان فوجد زكرويه بانتظاره الذي عاد من مهمته في البحرين ، بعد أن أجرى عدة اتصالات مع شيوخ الدعوة فيها وفي القطيف ، وقد أعجب جداً بالنشاط الدعاوي الذي يقومون به بين القبائل ، وفي القرى والدساكر ، وقدم للأهوازي تقارير تتضمن مشاهداته ، وحاجة الجماعات الملحة لرفع مستواهم المادي والمعنوي .

ولما اطلع الأهوازي على هذه التقارير شعر بارتياح عظيم ، وقدم لمهرويه قسماً من الأموال التي وهبها دندان ، وأمره أن يوزعها بالتساوي على الجماعات في القرى التابعة له ، واحتفظ بالباقي ليوزعه في السواد . وفجأة دخل الداعي صاحب برج الحمام في قرية الصوان وسلم الأهوازي أنبوباً كان قد وصله منذ لحظات وفيه رسالة من مقر الإمامة في الأهواز ، ففتح الأهوازي الأنبوب وأخرج الرسالة ، وكانت موجّهة إليه بالذات ، فقرأ :

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله ووليه أبي أحمد ، الإمام عبد الله بن محمد بن إسماعيل ، إلى داعي دعاتنا في الجزيرة العراقية ، عماد الجماعات ، وتاج الدعوة ، الحسين الأهوازي ، أدام الله تمكينه وعلوه ، وكبت حسدته وعدوه .

سلام عليك : فإن الإمام يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلي على جده المصطفى محمد ، خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين ، الأئمة المهديين ، وسلم تسليماً .

أما بعد : فإن الإمام الحاضر الموجود بما خصّه الله من مناقب الإمامة وعصمتها ، ومفاخر الإمامة وعظمتها ، وطيب سلالة النبوة والرسالة ، ورفيع ذروة المجد والجلالة ، يرفع أهل طاعته إلى أسنى مراتب العلاء ، ويختص دعاته الميامين ، الذين هم لسان دعوته ، وهداة أمته ، وباب حطته ، برعايته التي تحظيهم ، ويهديهم رضاه الذي ينجيهم ، ويواصلهم بدعواته المشفعة عند الله سبحانه ، ويبارك عليهم وعلى كافة المؤمنين بما يزلفهم لدى الله تعالى ، ويوسع لهم نطاق الرحمة والغفران ، ويسحب عليهم أذيال الرحمة والرضوان ، فضلاً يشمل به الأحياء والأموات ، ويدخلهم نعيم الجنات .

ولما كنت أيها الداعي سليل الدعوة ونجلها قد طلبت منا أن نبارك زواجك من السيدة الرشيدة السديدة الزهراء ابنة الحسين ، فإننا نزوجك منها على ما حضر من المال وهو مائة دينار عينا وخمسون ديناراً من لطائف وطيب وكساوى . ونباركُكما ، وكلنا ثقة بأنك ستجري على عادتك في حفظ جماعة رجال المؤمنين ، الذين بهم ثبتت قواعد الدين ، واشتمل عليهم اشتمال الأمهات على الأبناء ، لتخلص طاعتهم من شوب الأقذار ، وبالغ في الحث على بسط العدل في أكناف جزيرتك بسطاً تتناقل أخباره ، وتتألق في أقصى الديار أنواره ، وامنع لسان الظلم أن يقول ، وجائل الباطل أن يجول ، وأن يسار في الناس سيرة تدعو القلوب إلى محبتكم وموالاة إمامكم ، ويحسن معها تاريخ أيامكم .

هذه وصية الإمام فكن لها قابلاً بالسمع والطاعة ، باذلاً فيها نهيه الإستطاعة ، والله تعالى يهديك في اتباع أمثلته لأمثل الخليقة ، ويسلك بك مسلك من سقاهم غداً من صوب رحمته ، لما استقاموا على الطريقة ، إن شاء الله ، والسلام عليك ورحمة الله .

كتب في العشر الأول من هر صفر من سنة مائتين وستة .

الحمد لله وحده ، وصلى الله على جدنا ، محمد رسوله ، خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، وعلى آله الطاهرين ، الأئمة المهديين ، وسلم تسليماً ، وحسبنا الله ، ونعم الوكيل .

ولما انتهى الأهوازي من تلاوة الرسالة قبلها ووضعها على رأسه ثم سلمها لمهرويه وطلب منه أن يرى ما فيها من إرشادات وتبريكات ، بالإضافة إلى الموافقة على زواجه من شقيقته الزهراء ، على المهر الذي فرضه الإمام . فأخذ مهرويه الرسالة فقبلها ووضعها على رأسه ثم قرأها فسقطت الدموع من مقلتيه من شدة الفرح ، وتقدم من الأهوازي مهنئاً ومباركاً ، وقال : لا بد من تبليغ الزهراء أوامر الإمام لتعد نفسها للفرحة الكبرى ، ولا أدري إذا كنت ستدخل عليها هنا أم أنك ستأخذها إلى السواد ؟

فقال الأهوازي: استدع الزهراء يا مهرويه وسنبحث الأمر معاً بعد أن أدفع الصداق الذي أشار إليه الإمام !

توجه مهرويه إلى منزل شقيقته ، وطلب منها أن ترافقه بالحال إلى منزله ، لأن الأهوازي يريدها لأمر هام ، فارتدت أفخر ما لديها من ثياب وتطييت ، ورافقت شقيقها إلى حيث يقيم الأهوازي فدخلا عليه ، فرحب بهما وأوعز للزهراء أن تجلس أمامه ، وأخرج من جيبه كتاب الإمام فسلمه لها ، وطلب منها أن تتلوه ، وتقرر ما تراه مناسباً في

ضوئه .

ولما انتهت الزهراء من الاطلاع على مضمون رسالة الإمام علت وجهها ابتسامة تنم عن سعادتها وسرورها ، فقالت : كل ما أرجوه أن يوفقني الله لإسعادك ، والوقوف إلى جانبك في السراء والضراء ، وأعلن عن قبولي للمهر الذي فرضه الإمام !

فقال الأهوازي : بارك الله فيك يا زهراء وقدرني على إسعادك ، وتوفير الراحة والاطمئنان إليك !

وشاء مهرويه أن يقيم حفلة زفاف كبرى يدعو إليها الدعاة والجماعات من كافة المناطق ، ولكن الأهوازي فضل إقامة حفل صغير يضم العائلة فقط نظراً للرقابة الشديدة التي تفرضها الدولة على الجماعات ، وتحصي عليهم خطواتهم ، لمعرفة مدى نشاطهم واتصالاتهم . لذلك اتفق الجميع على أن يتم الزفاف فوراً وبعد تنظيم العقد الشرعي حسب الأصول المتبعة في الدعوة .

وبالفعل تم عقد الزواج في اليوم الخامس عشر من شهر صفر سنة مائتين وستة ، وفي اليوم التالي ودع الأهوازي مهرويه وولده زكرويه واصطحب عروسه الزهراء وتوجه إلى السواد ، حيث استقبله حمدان بن الأشعث استقبالاً يليق بمكانته وأنزله في دار استأجرها له حين بلغه نبأ عزمه على الزواج من السيدة الزهراء ، كما وجد في استقباله عبدان بن الحسين القادري وزوجته وأولاده .

ولما استقر به المقام في منزله الجديد دعا إليه حمدان بن الأشعث وصهره عبدان ، وسلّمهما المبلغ الذي خصصه لهما من أصل الهبة التي قدمها دندان ، وأمرهما أن يوزعاها بالتساوي على كافة الجماعات بدون استثناء ، وطلب منهما أن يزيدا نشاطهما في حقل الدعوة .

فقال له عبدان : الدعوة ناشطة بطبيعتها والناس يستجيبون لها بكثرة ، ولن يمر وقت طويل حتى يصبح جميع سكان السواد وما يحيط به من قرى ودساكر من المستجيبين ، لذلك أرى أن نعقد مؤتمراً سرياً للدعاة ندرس ما يجب اتخاذه من اجراءات لرفع مستوى الأتباع المادية والتعليمية ، ولدي بعض المشروعات التي تكفل رفع المستوى الإقتصادي والتعليمي.

ولقد تدارست هذه المشروعات مع حمدان ، وأجرينا بعض التعديلات التي تنسجم مع البيئة والأوضاع الاجتماعية ، والحالة السياسية التي تمسك بتلابيب الجماعات ، وتحد من نفوذهم .

فقال الأهوازي : يسعدني أن أسمع منك هذا ، وأعدك بأن أرفع مشاريعك إلى مقر الإمامة بعد الاطلاع عليها ، وكن على ثقة بأن الوقت قد حان لعقد المؤتمر الذي ألمحت إليه ، وسنوجه الدعوة لكبار دعاة الجزيرة ، بعد أن نطمئن على الحالة الأمنية ، ونتأكد بأن بمقدورنا عقد مثل هذا المؤتمر دون أن نتعرض للخطر والمواجهة من قبل من بيدهم السلطة ، وسأجري بعض التعديلات في كيفية توزيع الدعاة في كافة أنحاء الجزيرة حسب التعليمات والإرشادات السنوية التي تصلني عادة من مقر الإمامة ، ومتى وصلت هذه التعيينات سنحدد موعداً لعقد المؤتمر إن شاء الله .

الفصـل الرابـع

سلمية مقراً للدعوة ومركزاً لأنطلاق الدعاة

ذكرنا في الفصل الثاني أن الداعي عبد الله المبارك بعد أن قام بجولة في بلاد الشام ، وأجرى عدة اتصالات مع الدعـاة ، قرر أن تكون سلمية دار هجرة للدعوة ، وكتب إلى الأهواز يعلم الإمام عبد الله بن محمد بن إسماعيل بأنه وجد بعد الإتصالات والمشاورات التي أجراها بأن سلمية هي البلـــدة المؤهلة لتكون مقـراً للإمامـة ومكاناً لانطلاق الدعاة ، لما تتمتع به من مزايا استراتيجية واجتماعية واقتصادية ، ولبعدها عن العمران نظراً لوقوعها في قلب البادية .

ولما وصلت رسالة عبد الله بن المبارك إلى الأهواز توجه الإمام عبد الله بن محمد بعد أن غير ملامحه وتزيا بزي التجار إلى سامرا حيث أقام عند داعيها بعض الوقت ، ثم استأنف سيره باتجاه تدمر دون أن يعلم أحداً من دعاته عن وجهة سيره ، أو الأماكن التي سيتنقل فيها ، حرصاً على سلامتـه ، وخشية أن يعـرف من بيدهـم الأمـر مكان وجـوده ، فيجري عليه ما جرى على أشقائه وأقربائه وولـده من قتـل وسجـن وتعذيب .

وبالفعل وصل الإمام عبد الله بن محمد بن إسماعيل إلى سلمية سراً يرافقه خادمه فاستقبله عبد الله بن المبارك وداعي سلمية أبو المعالي وأنزلاه في الدار الذي ابتاعاه لسكناه من آل فرحة ، ووزع عبد الله المبارك في اليوم الثاني لوصول الإمام الرسائل بواسطة الحمام الزاجـل يعلم فيها كافة دعاة الجزائـر بأن الإمام قد وصـل إلى دار هجرتـه في سلمية ، وهو يتمتع بالصحة والعافية .

وبعد عدة أيام وصل أحمد بن عبد الله بن محمد بن اسماعيل إلى سلمية مع والدته وإخوته حيث نزلوا في الأماكن التي أعدت لهـم ، وكذلك وصل الداعي عبد الله بن ميمون والداعي عبد الله بن سعيد

والداعي عبد الله بن حمدان ، وبذلك اكتمل نصاب الدعاة الأربعة الحرم ، ليكونوا دائماً وأبداً في معية الإمام عبد الله بن محمد .

ويبدو من مجريات الأحداث أن داعي جزيرة فارس هرمز وولده مهدي قد فقدا الإمام في الأهواز فلم يعثرا له على أثر لا هو ولا ولده أحمد ولا دعاته الحرم ،فاستغربا الأمر ، وراحا يبحثان عن الإمام في كافة المناطق الفارسية ولكن محاولاتهما باءت بالفشل الذريع ، فقررا أن يتوجها إلى الري لاستشارة داعيها سرحان بن رستم في الأمر ، ولكن سرحان بن رستم أفاد بانه لا يعلم شيئاً ، مع أنه قد جهز أموال الزكاة التي تجمعت لديه ، وكان ينوي أخذها إلى الأهواز ، وهو يرى أن يجمع داعي الدعاة هرمز كافة أموال الجزيرة ، ثم يأتي مع ولده إليه ليذهبوا سوية للبحث عن المكان الذي استقر به الإمام ، فلعله بحاجة إلى المال . فأعجبت الفكرة الداعي هرمز ، فأرسل ولده مهدي وأمره أن يقوم بجولة على الجماعات ، ويأتيه بما يتمكن من جمعه من أموال ، بينما يكون بانتظاره في الري عند الداعي رستم .

وبعد أسبوع عاد مهدي بن هرمز ومعه مبلغ ضخم من المال ، حيث سلمه لوالده الداعي هرمز ، فطلب منه والده أن ينزل إلى سوق البلدة ، ويبتاع بعض العطور والبخور ، ويضعها في حمل دابتين ، ثم يعد نفسه للرحيل في صباح اليوم التالي. وكذلك طلب هرمز من الداعي سرحان بن رستم أن يستعد للسفر ، لأن المال الذي جاء به ولده مهدي قد أصبح في حوزته ، وأن ولده الآن في سوق البلدة يتبضع ، ويجهز الدواب والبضاعة .

فقال الداعي سرحان بن رستم : لقد جهزت كل شيء وأمرت ولدي عمران بأن يكون على أهبة السفر كوني قررت أخذه معي ليساعدنا في الطريق ، وليتولى بيع البخور والعطور ، ويدلنا على

مسالك الطرق .

فقال الداعي هرمز : إذن سنسير صباح اليوم التالي على بركة الله ، وسنقصد بلاد الشام إن شاء الله .

وبالفعل غادرت بعثة الداعي هرمز الري سالكة الدروب التي اعتاد أن يسلكها بائعي العطور والبخور ، وكانوا خلال مسيرهم يمرون على القرى والدساكر الممتدة بين إيران والعراق وبلاد الشام فيبيعون ما لديهم من بضائع ويسألون عن الإمام سراً ويعطون الناس صفاته وملامحه ، ولكن الإجابات كانت تأتي بالنفي وعدم مشاهدة الشخص الموصوف . وما زالوا يجدون السير حتى وصلوا إلى الموصل حيث نزلوا في خان البلدة لأخذ قسط من الراحة ، وللتشاور في أمر الدروب التي سيسلكونها عندما يجتازوا الحدود العراقية حتى لا يلفتوا اليهم الأنظار ، فلا يقعوا بأيدي العباسيين ، أو بعض اللصوص وقطاع الطرق .

ولما انفردوا مع أنفسهم قال الداعي هرمز : أرى أن نفترق قبل أن نجتاز بلاد العراق ، فيأخذ كل منا طريقاً يختلف عن الآخر ، فأنت يا سرحان تذهب مع ولدك عمران باتجاه الرقة ثم حلب وقراها ، وبعد أن تتجول في كافة قرى حلب تتوجه إلى حماه ومنها إلى سلمية . أما أنا وولدي مهدي فسنأخذ طريق تدمر ومنها إلى سلمية ، فإن وجدنا ضالتنا اتصلنا بكما عن طريق دعاتنا المنتشرين في أنحاء البلاد ، وكذلك أنتما إذا عثرتما على ما نبغيه اتصلا بنا بنفس الواسطة ، على أن يكون اللقاء في سلمية بعد شهر من تاريخ افتراقنا.

فقال الداعي سرحان بن رستم : نعم الرأي رأيك يا أخي ، وسأبذل أقصى جهودي للعثور على الشخص الذي نبحث عنه إن شاء الله .

وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي خرجت بعثة هرمز من الموصل حيث وقفت بأطراف البلدة ، فودعوا بعضهم البعض ، وسلك كل منهم طريقه المتفق عليه ،وسار في الاتجاه المحدد له، وبعد أن سار هرمز وولده مهدي مدة أسبوع متنقلاً في قلب بادية الشام ، يبحث بين القبائل والعشائر ، لم يجد أي أثر يدل على أن الإمام قد مر في تلك الجهات ، وواصل المسير حتى أشرف على تدمر ، وقبل أن يدخل البلدة التقى بفارسين ملثمين ، وهما بكامل أسلحتهما ، يقفان على بعد عدة أمتار من مدخل البلدة الشرقي ، فبادرهما بالتحية ، فردّا بأحسن منها ، ولكن أحدهما وكان يمتطي صهوة جواد أشقر ويعتمّ بعمامة بيضاء غطت وجهه تماماً ، قال للداعي هرمز وولده مهدي : إلى أين تذهبان في مثل هذه الساعة المبكرة ؟

فقال هرمز : نحن بائعان متجولان نحمل البخور والعطور لنبيعها في البادية ، وقد جعلنا طريقنا على هذه البلدة ، لنتزود بالطعام والماء ، ثم نرحل ثانية إلى البادية .

فقال الفارس : أتعرفان أحداً في تدمر ؟

فقال هرمز : نحن غريبان جئنا من فارس ولا نعرف أحداً!

فقال الفارس : ما دمتما غريبين يسعدني أن أستضيفكما في منزلي حتى تنتهيان من تأمين المؤونة !

فقال هرمز : إننا نقبل دعوتك يا أخي ، ونشكر لك كرمك وحسن استقبالك .

فالتفت الفارس إلى رفيقه وقال له : هيا بنا إلى المنزل قد عدلت عن الذهاب إلى الصيد هذا اليوم ، لأني قررت أن أستضيف هذين

البائعين في منزلي ، لأنهما كما يبدو من ملامحهما يحتاجان إلى المساعدة . ثم دعا الداعي هرمز وولده ليتبعاه ، فسارا خلفه يقودان دابتيهما . وقد اطمأن قلبيهما لهذه البادرة . ولم يكن منزل الفارس بعيداً عن مكان التقائهم عند مدخل البلدة الشرقي ، وما كادا يسيران بضعة أمتار حتى أطل عليهما في وسط الشارع بيت أبيض تحف به أشجار النخيل من كل جانب ، وتنبعث من حديقته الواسعة روائح الورود والرياحين ، فأشار إليهما الفارس أن يتبعاه إلى مدخل تلك الحديقة حيث نزل عن صهوة جواده وطرق الباب فخرج أحد الغلمان ، فلما رأى الفارس فتح الباب على مصراعيه مرحباً بسيده ، وقد بدا الإستغراب على محياه ، فقال له الفارس : خذ يا سليمان الفرس وادخلها إلى الإسطبل ، ثم عد لأخذ دواب الضيوف ، وقدم لهم الطعام والشراب . ثم التفت نحو الداعي هرمز وولده مهدي ودعاهما للدخول مرحباً بهما في منزله ، فدخلا وحاولا أن ينزلا الأحمال عن دابتيهما ، ولكن الفارس ، قال لهما : اتركا الأمر للغلام واتبعاني إلى دار الضيافة حيث تأخذان قسطاً من الراحة ، وتغتسلان من وعثاء الطريق ، وطول الرحلة ، وسأعود إليكما بعد قليل ، إن شاء الله .

وبالفعل تركا الدابتين وتبعاه إلى داخل المنزل ، فدخلا جناح الضيوف ليرتاحا . بينما دخل الفارس إلى جناح الحريم ليعد لهما الطعام .

ولما أصبح الداعي هرمز وحيداً مع ولده مهدي قال له : أعتقد يا مهدي بأن مضيفنا رجل موفور النعمة ، طيب السريرة ، كريم النفس ، له مكانة مرموقة بين أهالي البلدة ، وربما كان كما يحدثني قلبي من دعاتنا ، أو على الأقل ممن يعطفون على الدعوة . وسأحاول معرفة ذلك فور عودته إلينا . والذي أستغربه يا بني أن صاحبنا لم يمط

اللثام عن وجهه رغم دخولنا منزله ، ونزولنا في ضيافته ، مما جعلني أعتقد بأنه قد يكون معروفاً لدينا ، أو أنه أراد التخفي لعلة ما في نفسه !

فقال مهدي : مما لا شك فيه يا والدي بأن صاحبنا رجل طيب ، ومهذب ، وكريم الأخلاق ، ولكنني لا أدري لماذا لا يزال ملثماً ،ولم يعلمنا باسمه وشهرته ، فعسى أن يفعل هذا بعد عودته .

وبينما كانا غارقين في حديثهما ، وهما مستلقيان على سريريهما، إذ بالباب يقرع ويدخل منه رجل في شرخ الشباب ، عريض المنكبين ، حسن الصورة والهيئة ، أسمر الوجه ، كبير العينين ، فحياهما وسألهما إذا كانا قد اغتسلا، وأخذا قسطاً من الراحة ، وهل يرغبان في تناول الشاي ريثما ينتهي إعداد الطعام .

فقال هرمز وقد افتر ثغره عن ابتسامة عريضة : شكراً جزيلاً لك يا ولدي ، لقد وفرت لنا كل شيء ، ولكن نحب أن تعرفنا على هويتك ، ونسبك ، لنحفظ لك هذه البادرة مدى العمر ، ويسعدنا أن نشرب الشاي سوية ونتحدث في بعض الأمور .

فقال الرجل : حرصت على إخفاء شخصي لعلل وأسباب قد تعرفونها فيما بعد ، ولكن بعد أن ارتاح فؤادي لوجودكما ، قررت أن أعرفكما بنفسي ، فأنا منصور بن الشيخ محمود المطلق ، جاء والدي إلى هذه المدينة منذ خمسين عاماً قادماً من العراق هرباً من ظلم العباسيين ، فاشترى هذه الدار وعمرها وجعلها مركزاً لاستقبال الوافدين إلى بلاد الشام من العراق ، ومع مرور الأيام أصبحت هذه الدار مضافة يقصدها الإخوان فيقضون فيها عدة أيام، للراحة والاستجمام ، مجاناً على حساب صاحب الدار ،

الذي أنعم الله عليه بثروة ومكانة طيبة بين الجميع .

فقال هرمز : بارك الله فيه ، وزاده مالاً على مال ، ولكن ألا نستطيع رؤيته والتحدث إليه ؟

فقال منصور : أتمنى ذلك ، ولكن والدي سافر منذ عدة أشهر إلى مكان ما في سورية لا أعلمه ، وأظنه لن يعود قبل عدة أشهر ، فأنا أنوب عنه ، وأقوم مقامه ، فإذا كنت يا سيدي بحاجة إلى أية خدمة ، فأنا على استعداد لتلبيتها ، بشرط أن تصدقاني القول ، وتنتسبان ! وكونا على ثقة بأن ما تطلعاني عليه سيظل سراً فيما بيننا أحافظ عليه كمحافظتي على أهل بيتي وعرضي ، والله على ما أقول شهيد .

فقال هرمز : لقد عرفت والدك الشيخ ، إذ سبق أن تقابلنا في عسكر مكرم منذ سنوات ، فأنا يا ولدي الداعي الإسماعيلي هرمز بن مهدي بن زاهدان ، داعي الإمام في جزيرة فارس ، افتقدت الإمام عبدالله بن محمد بن اسماعيل في مقره بالأهواز، ولكنني لم أعثر عليه ، فعلمت بعد بحث وتفتيش بأنه توجه سراً إلى بلاد الشام ، لذلك طلبت من ولدي هذا ، وأشار إلى مهدي ، أن يصحبني في هذه الرحلة لنفتش عن الإمام ، وعندما خرجنا من فارس رافقنا داعٍ آخر وولده ولكنهما سلكا طريقاً غير هذا الطريق ،على أن نلتقي في مدينةسلمية بعد شهر .

وبهذه المناسبة أسألك عن الشخص الذي أبحث عنه ، هل مر على تدمر ، أم أنك تعرف أي شيء عنه ؟

فقال منصور وقد انفرجت أساريره : الآن عرفتكما وعرفت مقصدكما ، فأهلاً بكما ، فنحن إخوان ، والدار داركما ، وأنا

بتصرفكما ، أما الشخص الذي أشرت إليه فلا أعلم شيئاً عنه إذ كنت بعيداً عن البلدة ، عندما كان والدي مقيم فيها ، ولما أراد السفر طلب مني العودة لأنوب منابه ، وسأحاول سؤال بعض الإخوان والأصحاب عن ضالتكما !

فقال هرمز : سل والدتك يا بني إذا كانت على قيد الحياة ، فربما يكون صاحبنا قد عرج وهو في طريقه على والدك ، وأقام عندكم بعض الوقت .

فقال منصور : الوالدة موجودة في هذه الدار ، ولكنها لم تفارق حجرتها منذ سنوات ، حيث انعزلت عن الناس لتؤدي ما عليها من فروض وواجبات ، وسأبحث معها الأمر ، وآمل أن يوفقني الله فأطمئنكما .

خرج المنصور من دار الضيافة وتوجه إلى جناح الحريم فدخل على والدته في غرفتها ، فوجدها تصلي ، فانتظرها حتى انتهت من صلاتها ، فقبّل يديها ورأسها ، ثم قال لها : إن ضيفيَّ يا والدتي هما داعي جزيرة فارس وولده ، يبحثان عن صاحب لهما افتقداه منذ عدة أشهر في الأهواز فلم يجداه ، فقيل لهما بأنه غادر الأهواز سراً إلى بلاد الشام هرباً من رقابة العباسيين ، فهل تعرفين عنه شيئاً ؟

فقالت الأم : منذ ستة أشهر دخل عليَّ والدك الشيخ محمود وهو منبسط الأسارير على غير عادته ، وذكر لي أن ضيفاً عزيزاً على قلبه قد وصل من فارس وهو في طريقه إلى سلمية متخفياً ، ولم يشأ أن يذكر لي من هو ذلك الضيف ، ولا مركزه وصفاته ، بل اكتفى بالقول إنه المعلم الأكبر ، والنور القدسي الذي يرشد المؤمنين إلى الحقيقة ،

وطلب مني أن أكتم الأمر ولا أبوح به لأحد ، فأعتقد بأنه نفس الشخص الذي يبحثان عنه .

واعلم يا بني بأن والدك منذ أن غادرنا الضيف المذكور لم يستقر له قرار بل كان دائم التفكير ، يكثر من الصلاة والدعاء أناء الليل وأطراف النهار ، حتى أنه لم يستطع الصبر فكتب لك لتحضر ، ولما عدت من سفرتك ودّعني وانصرف إلى حيث لا أدري ، هذا كل ما أعلمه عن الموضوع . وما كادت الوالدة تصل بحديثها إلى هذا الحد حتى انفرجت أسارير منصور عن ابتسامة عريضة ، وغادر الغرفة مسرعاً إلى جناح الضيوف ، فدخل على هرمز وولده مهدي فقص عليهما القصة التي حدثته بها والدته فدخل السرور والانشراح على قلبيهما ، واستأذناه بالسفر إلى سلمية في صباح اليوم التالي ، ولكنه أبلغهما بأنه لن يسمح لهما بالسفر قبل أن يمضيا ثلاثة أيام في ضيافته ، حسب العادة المتبعة في بلاده ، وريثما يستكمل البحث والتحقيق عن الجهة التي قصدها صاحبهما بعد أن غادر تدمر ، فوافقا على البقاء ثلاثة أيام بعد إلحاح منصور .

ولم يهدأ منصور أو يستقر له قرار عند ضيوفه ، بل غادر المنزل إلى حيث منزل الداعي الإسماعيلي في بلدة تدمر الشيخ حامد بن علي الطريقي ، ولما دخل عليه وجده مشغولاً بتلاوة بعض الرسائل التي وصلته على جناح الطير ، فلما دخل عليه منصور أخفى تلك الرسائل ورحب به ، ثم أجلسه إلى جواره ، وقال له : ما هي أخبار الوالد يا منصور عساه بخير ؟

فقال منصور : لا يزال متغيباً عن البلدة ، ولا أدري أين هو ، ومتى سيعود ، وقد جئتك اليوم يا سيدي بشأن قضية تتعلق بضيفين من

التجار حلا في منزلي ، وهما يبحثان عن صاحب لهما يعتقدان بأنه مر في هذه الديار ، فهل تعلم شيئاً عن هذا الموضوع؟

فقال الداعي حامد بن علي الطريقي وقد قطب ما بين حاجبيه : هل ذكرا لك اسمه وصفته ؟

قال منصور : لا لم يذكرا اسمه بل ذكرا صفاته وهي كذا وكذا !!

قال الداعي الشيخ حامد: لا أعلم شيئاً ، ولا أذكر أنني رأيت إنساناً تنطبق عليه هذه الصفات .

قال منصور : يقول أحد الضيفين بأنه داعي جزيرة فارس ، غادرها باحثاً عن صاحبه تاجر البخور والعطورات ، وعلمت بأن صاحبه هذا من كبار الدعاة ، وله مكانة مرموقة بالدعوة ، خرج من فارس سراً دون أن يعلم أحد عن وجهته.

قال الداعي الشيخ : كل ما أستطيع قوله أنني لا أعلم عن المذكور أي شيء ، فبادية الشام واسعة ، وهي كما تعلم مليئة بالدعاة والمبشرين والتجار ، فانصحهما بمواصلة البحث ، فلعلهما يهتديان إلى صاحبهما . ويا حبذا لو توجها إلى داخل البلاد ، مثلاً إلى دمشق أو حمص أو حماه ، لأن هذه المدن أصبحت تعج بالعديد من الدعاة والمبشرين .

فودعه منصور وعاد إلى دار الضيافة حيث أبلغ الداعي هرمز وولده ما قاله له الشيخ حامد ، ولم يذكر لهما أن الشيخ حامد من الدعاة ، بل قال لهما بأنه صديق والده ووجيه من وجهاء تدمر. ثم نصحهما بأن يواصلا جولتهما باتجاه الداخل ، ويفضل أن يتجها إلى

حمص ، فوافقا على اقتراحه ، وراحا يستعدان لمغادرة تدمر صباح اليوم التالي بعد أن قضيا فيها ثلاثة أيام ، كانا خلالها معززين مكرمين .

ولما عولا على المسير سألهما منصور اذا كانا بحاجة إلى المال ، وأعرب عن استعداده لتقديم كل ما يلزم مهما في هذه الرحلة ، ولكنهما شكراه ، وأعربا عن امتنانهما وتقديرهما لحسن ضيافته ، ووعداه بالمرور عليه عندما ينجزان مهمتهما ويعودان إلى فارس ، وودعا منصور وانطلقا باتجاه حمص ، وما كادا يقطعان عدة أميال ، حتى وقف هرمز وقال لولده مهدي : ينتابني يا بني شعور غريب ، بأن الإمام قد مر وهو في طريقه إلى داخل بلاد الشام على تدمر ، وربما قضى فترة من الوقت فيها ، ولا أدري أين قضى هذه الفترة ولا بمن اتصل ، وفي رأيي أن نأخذ طريق سلمية . ونبحث فيها عن الإمام ، فإذا وجدناه نكون قد أنجزنا مهمتنا ، وفي حالة فشلنا نتوجه إلى حمص ومنها إلى دمشق ، فماذا تقول يا بني ؟

فقال مهدي : نعم الرأي رأيك يا والدي ، ولكن هل نعرف أحداً من سكان سلمية تثق به ، ويمكنك استشارته بالموضوع؟

فقال هرمز : أعرف أحد الدعاة وقد التقيته في الأهواز منذ سنة ، ولكن اسمه قد غاب عن مخيلتي في الوقت الحاضر ، وأظن بأنه كان ابو علي أو أبو احمد ، لا أدري ، فعسى أن أتذكره قبل وصولنا .

وواصلا المسير حتى غابت الشمس ، فدخلا قرية صغيرة ، فباتا عند شيخ البلدة ، وباعا في الليل بعض العطور والبخور ، ولما سألهما شيخ القرية عن وجهتهما أعلماه بأنهما يقصدان سلمية ، فأرشدهما إلى الطريق ، وقال لهما : إذا واصلتما السير ولم تعرجا على

بعض القرى فستصلان إلى سلمية بعد يومين أو ثلاثة أيام حسب سرعتكما .

وفي صباح اليوم التالي سلكا الطريق الذي أشار إليه شيخ القرية ، وبعد سير متواصل خلال يومين أطلت عليهما من بعيد التلال التي تحيط بمدينة سلمية من الجهة الشمالية ، فسرًا سروراً عظيماً ، وتابعا سيرهما وسط السهول المنبسطة والمروج المخضوضرة التي تنشر أريجها العطر فتكسبها آية من الحسن والجمال ، كأنها الجنة التي وعد الله بها المؤمنين ، وفي قلب تلك المروج التي تنساب على أجنابها السواقي ذات المياه العذبة ، كانت تقبع مدينة سلمية بمنازلها البيضاء وحدائقها الغناء المزروعة بكافة أنواع الفواكه والخضار .

ودخلا البلدة من الجهة الشرقية ، وسألا عن الخان الذي يبيت فيه الغرباء عادة ، فدلّهما أحد المارة عليه ، فقصداه واستأجرا لهما غرفة فيه ، وباتا تلك الليلة حتى صباح اليوم التالي ، حيث خرجا إلى سوق البلدة لبيع ما لديهما من بخور وعطورات .

وبينما كان الداعي هرمز وولده مهدي يعرضان ما لديهما من بضائع . ويحاولان الأستفسار عن الداعي الذي ذكر هرمز أنه يعرفه ، وسبق أن التقاه في الأهواز ، ولكنه يجهل اسمه وكنيته ، شاهد هرمز على بعد خطوات منه شخصاً يمر مسرعاً في السوق وبصحبته عدة أشخاص كانوا يحيطون به ويتهامسون في أمور لا يعرفها ، فترك ولده مهدي عند البضاعة وتبع ذلك الشخص بخطوات سريعة حتى لحق به ، فعرفه ، إنه الداعي الشيخ عبد الله المبارك ، فناداه ، فلما وقف المبارك والتفت خلفه ليستطلع الأمر ، هجم عليه هرمز معانقاً ومقبلاً والدموع تنهمر من مقلتيه . فقال له

المبارك : مرحباً بك يا هرمز ، متى وصلت وكيف أتيت ؟

فقال هرمز : إنها قصة طويلة يا مولاي سأرويها لك فيما بعد!

فقال المبارك : أين تنزل يا هرمز ، وهل جئت وحدك أم أن احداً أتى معك ؟

فقال هرمز : جئت مع ولدي مهدي ، وكنا نبيع بضائعنا في السوق فشاهدتك .

فالتفت عبد الله المبارك إلى أحد مرافقيه وطلب منه أن يصحب هرمز إلى حيث ينزل فيأتي به وبولده مهدي إلى بيته ، ليكونا في ضيافته ، وواصل المبارك السير ، بينما عاد هرمز إلى ولده مهدي مع الرجل الذي كلّفه المبارك بأن يرشده إلى منزله ، فوجد مهدي قد باع البضاعة لأحد التجار ، وهو ينتظر عودته ليقبض الثمن ، وبعد أن قبض هرمز ثمن البضاعة ، توجه مع ولده مهدي إلى منزل عبد الله المبارك برفقة الرجل ، ولم تكن الدار تبعد عن السوق إلاّ قليلاً ، أي لا يفصلها عنه سوى شارع واحد يبلغ طوله خمسماية متر.

ولما وصلا إلى الدار دخلا الجناح المخصص للضيوف ، فوجداه مليئاً بالناس من مختلف الطبقات ، وقد تحلقوا حول المبارك وهو يجلس على مقعد في وسط قاعة الاستقبال ، فسلما وجلسا في المكان الذي أشار إليه المبارك ، بينما تابع المبارك حديثه والناس يصغون لما يقوله هذا الداعي الكبير الذي ساهم في تأسيس دار الهجرة في سلمية وتركيز دعائم مدارس الدعاة العليا في سلمية ، فجلب لها عباقرة المدرسين من العلماء والفلاسفة والفقهاء ، واختار طلاب هذه المدارس من جميع أنحاء العالم الإسلامي ، من ذوي الكفاءات النادرة والذكاء الخارق ، والإخلاص المكين.

قال المبارك : تعلمون يا أولادي بأن الطاعة والتضحية ، هما ركنان أساسيان بالنسبة لقيام دعوتنا وانتشارها في جميع أنحاء العالم الإسلامي ، لذلك أنصحكم بالتمسك بهذين المبدأين لما فيهما من خير وسعادة في الدارين ، وأوصيكم بالمحافظة على أسرار الدعوة ، التنظيمية والعقائدية ، وأن تحبوا بعضكم البعض ، وترصوا الصفوف ، وأن تتجنبوا ما حرمه الله وما نهى عنه في كتبه. وبهذه المناسبة وقبل أن تنصرفوا إلى أعمالكم يسعدني أن أقدم لكم داعينا في فارس الشيخ هرمز وولده مهدي اللذين وصلا البارحة لزيارة بلدكم ، وللتعرف عليكم ، وطلب من الجميع أن يسلموا عليهما وينصرفوا ، ثم يعودوا في صباح اليوم التالي كالعادة.

وبعد أن سلموا على الداعي هرمز وولده مهدي انصرف الجميع ، ولم يبق في القاعة إلاّ هرمز وولده مهدي ،فطلب المبارك منهما أن يجلسا بجواره ، ليحدثاه عن أحوال الجماعات في فارس ، وعن المهمة التي جاءا من أجلها ، لأنه مرتبط بموعد ويرغب في الإنصراف بعد ساعة ، ولن يعود قبل صلاة المغرب ، أو ربما امتد غيابه حتى صلاة العشاء .

فقال هرمز : الجماعات بخير والدعوة ناشطة في كل الأنحاء ، والإقبال على الاستجابة لها كبير جداً ، كل ذلك بفضل نشاط الدعاة ، وقيامهم بواجباتهم خير قيام . أما يا مولاي ، فإن ما جعلني أترك مقري في فارس وآتي إلى سلمية ، هو اكتشافي منذ فترة اختفاء الإمام عبد الله بن محمد عليه السلام ، فبحثت عنه في كل مكان ولكنني لم أعرف عنه شيئاً ، ولاحظت خلال بحثي أن الدعاة الحرم أيضاً قد اختفوا مع عائلاتهم ، لذلك توجهت إلى الري وبحثت مع داعيها سرحان بن رستم بالأمر ، فانتهينا إلى قرار يقضي بأن نجمع أموال

الزكاة من كافة الجماعات ، ثم نقوم برحلة إلى بلاد الشام بحثاً عن الإمام ، وبالفعل خرجت مع ولدي مهدي ، وسرحان وولده عمران ، بزي التجار ، ثم افترقنا في الموصل فأخذ سرحان وولده عمران طريق الرقة ، بينما أخذت وولدي مهدي طريق تدمر ، وتواعدنا على الإجتماع هنا في سلمية . فهل لك أن تعلمنا عن مكان وجود الإمام لنقدم له ما لدينا من أموال ، ثم نعود إلى مقرنا في فارس ، أم أن ذلك سيبقى سراً حرصاً على سلامته ؟

فقال المبارك : أنت تعلم يا هرمز بأن تحركات الإمام ودعاته الحرم ، من الأسرار العليا المفروض المحافظة عليها ، فلا يعلم بها إلاّ هو ودعاته الحرم ، لذلك فضلنا عدم الإشارة إلى تنقلاته وتحركات دعاته ، أما وقد أصبحنا في مكان بعيد عن العيون ، نشعر بالطمأنينة والإستقرار ، فكن على استعداد للمثول بين يدي الإمام بعد صلاة العشاء هذا اليوم إن شاء الله. وأتركَكما الآن لتأخذا قسطاً من الراحة ، وتستعدا للقاء الإمام . ثم نهض المبارك وودعهما وخرج .

ولما أصبح هرمز وولده مهدي وحيدين عانق كل منهما الآخر عناقاً طويلاً مهنئين بعضهما البعض بالعثور على ضالتهما ، ثم دخلا غرفتهما فانتزعا الأحزمة التي ربطاها في وسطهما وأخرجا منها الدراهم الخاصة بالجماعات فأعادا عدها ثانية ، ونظّما جداول بها ، ثم وضعاها في مكان أمين ، واستلقيا على سريريهما ليأخذا قسطاً من الراحة .

* * *

عندما غادر عبد الله المبارك دار الضيافة توجه رأساً إلى قصر الإمام الذي بناه في وسط حديقة غناء تحيطها الأشجار المثمرة ، والورود والزهور من كل مكان ، فلما دخل على الإمام وجده مجتمعاً مع عبد الله ابن ميمون ، وعبد الله بن حمدان ، وعبد الله بن سعيد ، وهم

ينتظرون وصوله ، فقبل الأرض وجلس في مقعده المخصص ، ثم طلب السماح له بالكلام ليتحدث عن بعض الأمور الهامة فأشار إليه الإمام موافقاً .

فقال عبد الله المبارك : بينا كنت في طريقي إلى بيتي اعترض سبيلي وأنا مار في السوق داعينا في فارس الشيخ هرمز ، فسلم عليّ ، وحاول أن يتكلم ، ولكنني بادرته بالسؤال عن المكان الذي ينزل فيه ، وهل حضر وحيداً ، فأجابني بأنه قدم مع ولده مهدي ونزل في الخان منذ الليلة الفائتة ، وانهما في السوق يبيعان البضاعة التي جاءوا بها من فارس ، فأمرت مرافقي بأن يأتي بهما الى منزلي ، وسأكون بانتظارهما ، وتابعت طريقي إلى المنزل حيث كنت على موعد مع بعض الدعاة المشايخ الذين وفدوا من مصياف ، والقدموس ، والكهف كعادتهم في كل شهر .

وما عتم أن جاء هرمز وولده مهدي ، ولما انتهيت من الاجتماع بالمشايخ وانصرفوا ، طلبت من هرمز أن يحدثني عن سبب مجيئه ، فأخبرني بأنه فقد الإمام في الأهواز فلم يعثر عليه ، لذلك قرر هو وداعينا في الري سرحان بن رستم أن يخرجا مع ولديهما للبحث عن الإمام في بلاد الشام ، ولما وصلا إلى الموصل افترقا فسار كل منهما في اتجاه ، واتفقا على أن يلتقيا هنا في سلمية . واعلمني الشيخ هرمز بأن أحوال الجماعات في تقدم مستمر ، وانه جلب معه أموال الزكاة ، وبعض الهدايا من الجماعات ، وهو يطلب الأذن بالمثول بين يدي مولانا !

فقال الإمام عبد الله بن محمد وقد ظهرت على محياه علائم الاستغراب : لا أدري كيف علم بوجودنا هنا ، ونحن لم نعلم أي

انسـان عن وجهتنا ، وقد راعينا السرية التامة في تنقلاتنا . على العموم لا بأس سنستقبله ، هل حددت له الوقت ؟

فقال عبد الله المبارك : وعدته بأنني سأحـاول أن يكون بعـد صلاة العشاء هذا اليوم !

فقال الإمام عبد الله : حسناً فعلت يا مبارك ، بارك الله فيك ، هل من جديد غير هذا ؟

فقال عبد الله بن ميمون القداح : نعم يا مولاي ، هناك تقرير ورسائل وصلت من الداعي الحسين الأهـوازي ، لا بد من تلاوتهـا ومناقشتها لاتخاذ ما ترونه مناسباً من قرارات بشأنها ، لأن الأوضاع في جزيرة العراق تستحق كل اهتمام !

وتقدم عبدالله بن ميمون من المقعد الذي يجلس عليه الإمام عبدالله ابـن محمد فوضع التقـرير والرسائل بين يديه ، ثم عاد إلى مجلسه ، فتناول الإمام التقرير والرسائل ، وأمر الداعي عبد الله بن حمدان أن يتلوها على مسمع من الجميع ، ففعل ، ولما انتهت قراءة الرسائل سأل الإمام دعاته الأربعة الحرم عن رأيهم بمـا جاء فيهـا ، فقـال عبـد الله المبارك : الأخبار التي يحملهـا التقـرير تبشـر بالخـير ، وبمستقبـل نـير للدعوة في سواد الكوفة ، أما المطالب والاقتراحات فتستحق الدراسة بدقة وروية ، ويا حبذا لو تفضل مولانا فأمر أحدنا بدراستها والتعليق عليها ، ثم يقرر مولانا ما يراه مناسباً في جلسـة أخرى !

فقال الإمام عبد الله بن محمد : هل يوافق بقية الإخوان على هذا الرأي ؟

فأجـاب الجميع بالموافقـة ، عندهـا طوى التقـرير والرسائـل

وسلّمها إلى الداعي عبد الله بن سعيد بن الحسين ، وأمره أن يتولى دراستها بدقة ، ثم يقدمها ثانية في الجلسة القادمة إن شاء الله، وأعلن عن انتهاء الجلسة على أن تعقد في الأسبوع القادم . فانصرف الدعاة الحرم كل إلى منزلــه حيث كانــت تنتظــره المزيد من الاجتماعــات والإتصالات والدراسات ، حسب المهمات الملقاة على عواتقهم . أما الإمام عبد الله بن محمد فقد دخل إلى جناح الحريم ، ليأخذ قسطاً من الراحة .

وبعد صلاة العشاء مرّ عبد الله المبارك على ضيفه هرمز وطلب منه أن يرافقه للمثول بين يدي الإمام ، على أن ينتظره ولده مهـدي في الدار ريثما يعود ، ولكن هرمز حاول أن يصطحب معه ولده مهدي مدعياً بأنه يحمل الأموال والهدايا ، ولما لاحظ المبارك إصرار هرمز على اصطحاب ولده ، وافق مرغماً بشرط أن لا يسمح له بالدخول إلى غرفة الإمام إلاّ إذا استدعاه الإمام بالذات ، لأنه عندمـا طلـب له الأذن غاب عن باله ابنه مهدي . فوافق هرمز على هذا الشرط وخرج برفقة ولده مهدي وسارا إلى جوار المبارك ، حتى وصلوا إلى مدخل قصر الإمام فأوقفهم الحرس حتى أعطاهم المبارك كلمة السر فسمح لهم بالدخول إلى قاعة الإنتظار ، حيث جلس هرمز وولده مهدي ، بينما دخل المبارك إلى القاعة الخاصة بجلوس الإمام ، فاعلمه بأن هرمز قد حضر مع ولده مهدي الذي يحمل المال والهدايا ، فهل يسمح لهما بالدخـول عليه ، والمثول بين يديه ، فأجاب الإمام بالموافقـة ، فعـاد المبـارك إلى حيث يجلسان وأشار إليهما أن يتبعاه إلى حيث يجلس الإمام بانتظارهما .

فحاول هرمز أن يبقي ولده في القاعة كما وعد المبارك ، ولكن المبارك أعلمه بأن الإمام سيستقبلهما معاً ، فتبعاه وقد ملأت السعادة قلبيهما ، وأخذ الفرح بلقاء المحبوب منهما كل مأخذ ، فلم يشعرا إلا

والمبارك يقول لهما : سندخل من هذا الباب ، فاستعدا للقاء الإمام ، وفتح الباب على مصراعيه ودخل المبارك فقبل الأرض ثم أعلن عن وصول هرمز وولده ، وتنحّى جانباً ليمكنهما من الدخول ، فدخل هرمز وقبل الأرض بين يدي الإمام وتبعه ولده مهدي حيث فعل كما فعل والده ، فأشار إليهما الإمام أن ينهضا ويتقدما منه ، فبسط لهما يده فقبلاها والغبطة تملأ قلبيهما ، وقد انتابهما شعور خفي بالرهبة والخوف عندما نظرا في وجه الإمام لأول مرة ، فشعرا كأن تياراً كهربائياً قد تسلل من عينيه الواسعتين إلى قلبيهما فأدخل الطمأنينة إلى نفسيهما ، وحاول هرمز النطق ولكن الكلام وقف في حلقه ، فلم ينتبه إلا عندما قال له الإمام عبد الله بن محمد ، مرحباً بك يا هرمز ، كيف أحوال الجماعات، طيب الله سعيك ، وبارك فيك ؟

فقال هرمز : الجميع بخير يا مولاي يطلبون البركات والدعاء ، ويعلنون عن الطاعة والولاء ، وقد كلفوني بأن أنقل اليكم أموال الزكاة، وبعض الهدايا ، فهل يأمر مولانا بقبولها ؟

فقال الإمام : لقد أخبرني المبارك بكل شيء ، فانني أقبل بكل سرور ما قدمه الاخوان ، وأباركهم داعياً إلى الله أن يبارك لهم بأموالهم وأرزاقهم وأولادهم ، ويجنبهم كل سوء .

والتفت هرمز إلى ولده مهدي وأمره أن يخرج ما لديه من أموال وهدايا فيضعها بين يدي الإمام ، فانتزع المهدي عن وسطه زناراً من الجلد ، ففتحه وأخرج ما فيه من نقود ومجوهرات ووضعها أمام الإمام ، فأشار الإمام إلى المبارك بأن يأخذها ويحصيها ثم يسلمها إلى بيت مال الدعوة ، ثم قال مخاطباً هرمز : انزل يا هرمز مع ولدك في ضيافتنا حتى يأتي زميلك الداعي سرحان بن رستم ، فتعودان سوية

إن شاء الله، وسأزودكما بالتعاليم والإرشادات ، بالإضافة إلى الدعاء والبركات لكل الجماعات في جزيرة فارس .

فقال هرمز : أمرك يا مولاي ، ولكنني أنزل في ضيافة المبارك .

فقال الإمام : لا فرق يا بني كل البيوت على استعداد لاستقبالك ، فاعتبرها كأنها بيتك .

ونهض الإمام عبد الله بن محمد معلناً انتهاء المقابلة ، فقبل هرمز وولده مهدي يدي الإمام وخرجا من الغرفة ، وما كادا يصبحان في غرفة الانتظار حتى هجم كل منهما على الآخر يعانقه ويقبله مباركاً ومهنئاً بهذه المناسبة الكبرى ، والسعادة تملأ قلبيهما ، والحبور يأخذ منهما كل مأخذ وغادرا القصر بصحبة المبارك إلى حيث يقيمون .

* * *

ونعود إلى الداعي سرحان بن رستم وولده عمران ، فبعد أن غادرا الموصل باتجاه الرقة ، واصلا المسير سالكين الدروب المنعزلة البعيدة عن الناس والعمران ، وبينما كانا على بعد يوم واحد من الرقة ينزلان بجوار عين ماء يتناولان الطعام ، إذ بمفرزة من الجنود تطوقهما من كل الجهات ، وتطلب منهما تسليم أنفسهما ، وتنصحهما بعدم المقاومة لأنهما مطوقين . فرفعا أيديهما وأعلنا عن استعدادهما للتسليم ، فتقدم منهما رئيس المفرزة وفتشهما ، ثم طلب منهما أن ينتسبا ويقدما أوراقهما الثبوتية . ولما كانا لا يملكان أية أوراق تثبت شخصيتهما فقد زعما بأنهما بائعا عطورات وبخور قدما من فارس ليعتاشا من ثمن ما يحملان ، ولديهما أطفال صغار يتضورون جوعاً ، فهل يتركهما ليذهبا في سبيلهما وله الأجر والثواب عند الله .

فقال رئيس المفرزة : أتعرفان أحداً في هذه النواحي ، يمكنه إثبات شخصيتكما ؟

فقال سرحان وقد ترقرقت الدموع في عينيه : لا نعرف إلا الله الواحد القهّار ، وهو وحده الذي يستطيع إثبات شخصيتنا .

فقال رئيس المفرزة : لا بد من أخذكما إلى أمير الرقة ، ليفعل ما يراه مناسباً بحقكما .

فقال سرحان : كنا نرغب أن نعرج على بعض البيوت المنتشرة في البادية لنبيع بعض العطورات والبخور ، ولكن ما دامت إرادة الله تريد أن نذهب برفقتكم فلا مانع لدينا ، على أن تنتظرانا ريثما نؤدي الصلاة .

فقال رئيس المفرزة : لا بأس سنؤديها معاً ، ثم نرحل ! فالرقة لا تبعد عنا سوى مسير يوم وليلة .

وتوجه سرحان وولده عمران إلى القبلة وشرعا في تأدية الصلاة ، بينما وقفت المفرزة خلفهما وشاركتهما الصلاة ، وقد لاحظ رئيس المفرزة بأن سرحان يكثر من الركوع والسجود والتبتل ، حتى أنه صلى وولده أكثر من خمسين ركعة ، فاستغرب الأمر وقال لنفسه: لا بد أن يكون هذا الرجل صالحاً زاهداً ، أفنى عمره في العبادة والتقشف ، فماذا ينفعني إذا أخذته الى مركز الأمارة ؟ لا بد وأن الأمير سيكسب الأجر ويطلق سراحه ، وراحت الأفكار تتزاحم في مخيلته حتى سيطر عليه الخوف من الله ، لأنه سوف يتسبب بقطع رزق هذا الشيخ التقي الزاهد ، فقرر أن يطلق سراحه بعد أن ينتهي من صلاته ، ليذهب حيث يشاء .

ولما انتهى سرحان من صلاته وتبتله قال له رئيس المفرزة : لقد أطلت الصلاة أيها الشيخ فعلى أي مذهب تصلي ؟

فابتسم سرحان وقال : أصلي يا بني على مذهب الإسلام ، فمنذ أن تفتحت مداركي وأنا أكثر من الصلاة عسى أن يغفر الله لإخواني المسلمين ، الذين انقادوا وراء شهواتهم ، وتنكروا لما فرضه الله من زهد وتقشف ، واعلم يا بني بأنني دعوت لك ولزملائك ليسامحكم الله ويرشدكم إلى سواء السبيل ، فعسى أن يستجيب لدعائي وتوسلاتي .

فقال رئيس المفرزة : صدقت يا شيخنا ، وقدرنا الله على رد جميلك ، يمكنك أن تذهب حيث تشاء ، ويا حبذا لو قبلت دعوتي لاستضافتك في بيتي !

فقال سرحان : ليباركك الله ، ويسدد خطاك ، فدعوتك مقبولة ، ولكن اعذرني كوني أرغب في تصريف ما لدي من بخور وعطورات .

فقال رئيس المفرزة : رافقتك السلامة يا سيدي .

وتابع سرحان وولده عمران المسير باتجاه الرقة ، سالكين الدروب الغير مطروقة ومعرجين أثناء سيرهما على القرى ومنازل البدو الرحل ، ينا ديان على مايحملان من عطورات وبخور ، وبنفس الوقت يذكران أوصاف الإمام ، ويسألان إذا كان قد مر في تلك النواحي ، ولكن الإجابات كانت دائماً وأبداً بالنفي وعدم رؤيته ، ولما وصلا إلى أطراف مدينة الرقة وجدا بيتاً معزولاً عن بيوتات المدينة فقصداه حيث وجدا فيه عجوزاً عمياء تعيش في هذا المنزل على إحسان المحسنين ، فطلبا منها أن يبيتا ليلتهما أمام منزلها فرحبت بهما وعرضت عليهما المبيت داخل المنزل ، فلبّيا دعوتها وأنزلا بضاعتهما وربطا الدابتين أمام المنزل وقدّما لهما الطعام والماء ، ثم دخلا الغرفة فوجدا أن العجوز قد أعدت لهما الطعام فتناولاه ، ثم أخلدا للراحة والتأمل

والتفكير ، حتى غابت شمس ذلك اليوم فأدّيا الصلاة ، وانشغلا بالدعاء والتلاوة ، بينما خرجت العجوز لقضاء حاجة في نفسها ، ثم عادت بعد قليل وبرفقتها رجل أسمر اللون ، عريض المنكبين ، يبدو من مظهره أنه صاحب حظوة ومنزلة بين جماعته ، فسلم على سرحان وولده عمران ، ثم جلس بقربهما وراح يطيل النظر في وجهيهما ، فأطرقا الى الأرض وراحا يتلوان بعض الآيات القرآنية،بصوت جهوري رخيم ، فأظهر الرجل الاهتمام والإعجاب ، وأطرق منحنياً تقديراً وتبجيلاً للتلاوة ، ولما انتهيا ، قال لهما : من أي البلدان أنتما ؟

فقال سرحان : إننا بائعان جوالان ، خرجنا من فارس منذ بضعة أشهر لنبيع العطورات والبخور !

فقال الرجل : لا أعتقد بأن مهنتكما هي بيع العطور والبخور ، لأن التلاوة التي سمعتها منكما لا يحسنها إلا من كان متفقهاً بالدين وضليعاً باللغة العربية ، فقولا لي من أنتما ، وماذا جئتما تفعلان في هذه الديار ، ولا تخافا فأنتما في حمايتي وضيافتي ، واعلما بأن هذه العجوز هي والدتي وقد شاءت أن تعتزل الناس فقطنت هذه الدار !

فقال سرحان : إذا كنت تصر يا سيدي على معرفتنا ، بعد أن وعدتنا بالحماية ، فاعلم بأنني داعٍ من دعاة الإسماعيلية في الري ، وهذا ولدي عمران مأذون في الدعوة أيضاً ، خرجنا من الري لنبحث عن الإمام عبد الله بن محمد بن اسماعيل الذي اختفى من مقره في الأهواز منذ سنة ، ويقال بأنه يعيش متستراً في بلاد الشام ، فهل لك أن تخبرنا بعد أن سمعت قصتنا من أنت حتى نكون على بينة من أمرنا ؟!

علت الإبتسامة وجه الرجل وانفرجت أساريره فقال : أهلاً

بكما فأنتما في منزلكما وبين إخوانكما ، أنا داعي الرقة حسان بن سنان ، أخرج كل يوم في جولة في أطراف الرقة لتفقد الجماعات ، ثم أزور والدتي وأعود إلى منزلي ، أما الإمام الذي تبحثان عنه ، فهو موجود في دار هجرته بين دعاته وأتباعه ، فإذا شئتما معرفة مكانه فاتجها إلى حلب وقابلا داعيها الشيخ فارس بن ابراهيم فعنده الخبر اليقين ، أما أنا فلا أستطيع التكلم حول هذا الموضوع .

فقال سرحان : أعرف أسرار الدعوة ، وأعلم بأن الكتمان أمر رئيسي بالنسبة للدعاة ، سأواصل المسير إلى حلب ، وبالله المستعان ، بعد أن أبيع ما لدي من بخور وعطورات في سوق الرقة غداً إن شاء الله .

وودعهما الداعي حسان وانصرف ، بينما أخلدا للراحة والنوم ، حتى بزوغ شمس اليوم التالي ، فنزلا إلى سوق الرقة حيث باعا ما لديهما من عطور وبخور ، وركبا دابتيهما وأخذا طريق حلب ، فوصلاها بعد يومين ، فنزلا في أحد خاناتها ، ثم راحا يبحثان عن داعيها الشيخ فارس بن ابراهيم حتى وجداه في المسجد الكائن بجوار القلعة ، فسلما عليه وقدما نفسيهما وقصا عليه قصتهما منذ خروجهما من الري حتى وصولهما إلى الرقة واجتماعهما بداعيها حسان الذي طلب منهما أن يقابلاه ويسألاه عن الإمام ، فرحب بهما الشيخ فارس بن ابراهيم وأعلن عن استعداده لتقديم كل مساعدة لهما ، ولكنه لا يعلم بأي مكان يمكنهما العثور فيه على الإمام ، إنما عليهما أن يتوجها إلى المعرة ويقابلا داعيها ، فربما استطاع إرشادهما الى بغيتهما ، وحاول الداعي الشيخ فارس استضافتهما لعدة أيام ، ولكنهما اعتذرا وتابعا المسير إلى المعرة فوصلاها بعد يومين ، فسألا عن منزل الداعي منصور ابن علي الداديخي فأرشدهما أحد المارة إليه ، ولما طرقا الباب خرج

اليهما الشيخ منصور الداديخي ، فقدما إليه نفسيهما ، فرحب بهما وأدخلهما إلى منزله حيث قدم لهما الطعام والشراب ، ثم حدّثاه عن قصتهما وما قاله لهما داعي الرقة ، ثم داعي حلب ، وذكرا له بأنه لم يبق من المهلة التي اتفقا عليها عندما افترقا عن الداعي هرمز وولده مهدي سوى خمسة أيام ، فهل بامكان الشيخ الداديخي إرشادهما إلى مكان وجود الإمام ؟

فأطرق الداديخي مفكراً قبل الإجابة على هذا السؤال الخطير ، محاولاً إيجاد طريقة للتخلص منه ، كما تخلص داعي الرقة وداعي حلب ، فهو يعلم أين يوجد الإمام كونه قد مثل بين يديه منذ عدة أشهر وتلقى تعليماته وإرشاداته ، ولكنه لا يستطيع البوح بهذا السر الخطير ، فإذا دلهم على مكانه يكون قد خالف نظام التقية والمحافظة على الأسرار ، وهذا أمر لا يقبله على نفسه بأي شكل من الأشكال ، وإذا نفى معرفته بمكان وجود الإمام يكون قد خان الأمانة القاضية بالمحافظة على الإخوان ومساعدتهم بالنفس والنفيس ، فما عليه والحالة هذه إلاّ إيجاد طريقة للتخلص من هذا الموقف الحرج .

فقال الشيخ الداديخي : يمكنكما البقاء في ضيافتي ثلاثة أيام لأن المسافة من المعرة إلى سلمية مسيرة يومين فقط ، فخذا قسطاً من الراحة ، ثم انطلقا بعد ثلاثة أيام إلى حيث تواعدتما مع أخويكما هرمز وولده ، فعسى أن يكونا قد وفّقا في مهمتهما .

فقال سرحان : كيف نستطيع الراحة ، والقلق يسيطر علينا ، فيحرمنا لذة الاستقرار ، وثق يا أخي بأنه لم يغمض لنا جفن منذ خروجنا من الري ، فكيف تريدنا أن نرتاح ولا نعرف حتى هذه الساعة شيئاً عن الإمام ، إلاّ ما رمز إليه إخواننا في الرقة وحلب ، وها أنت

الآن تبخل علينا بما يريح فؤادنا ويسعدنا .

فقال الداديخي : تعلمان بأن أنظمتنا دقيقة جداً ، وخاصة ما يتعلق منها بالتقية والمحافظة على سرية تحركات الإمام والدعاة ، لذلك اعذراني إذا قلت لكما بأنني لا أعلم شيئاً عما تبحثان عنه ، وتسهيلاً مني لمهمتكما يمكنني تقديم كافة المساعدات المادية والمعنوية ، وإرشادكما إلى أسلم المسالك التي توصلكما إلى حيث تريدون !

فقال الداعي سرحان : هذه أمور نعرفها ونقدر لك موقفك تجاهها ، فدلنا على الطريق الذي يوصلنا إلى سلمية ، نكون لك من الشاكرين ، وما دامت المسافة بين المعرة وسلمية مسيرة يومين فقط فسنقبل دعوتك ونبقى في ضيافتك ثلاثة أيام ، نتعرف فيها على الجماعات ، ونستفيد من علومك الغزيرة !

فأفرد لهما الداديخي غرفة في منزله حيث قضيا ثلاثة أيام تعرفا خلالها على الجماعات ، واستمعا إلى عدة محاضرات ألقاها الداديخي وغيره من علماء الدعوة ، ثم انطلقا باتجاه سلمية ، فوصلاها في الوقت المحدد ، أي بعد مضي شهر من خروجهما من الموصل ، وقبل أن يدخلا البلدة وجدا مهدي في أنتظارهما على المدخل الغربي ، فاقتادهما إلى المكان الذي ينزل فيه والده الداعي هرمز ، فسلما عليه سلاماً حاراً ، وأبلغاه بأنهما لم يعثرا على ضالتهما ، فطمأنهما هرمز وأعلمهما بأنه قد وفق وعثر على الإمام ومثل بين يديه وسلمه الأموال والهدايا التي جاء بها من فارس ، ووعده الإمام بأنه سوف يستقبله مع الداعي سرحان فور وصوله ، ولا بد لي من إعلام سيدنا الداعي عبدالله المبارك عن وصولكما ليحدد لنا موعداً مع الإمام .

لم يتمالك سرحان أعصابه من شدة الفرح فتلألأت الدموع في

عينيه وهجم على هرمز معانقاً ومقبلاً ، وشاكراً الله سبحانه وتعالى على أن المهمة التي جاءوا من أجلها قد تكللت بالنجاح ، ثم جلس وسرد على مسامع هرمز كل ما جرى معه منذ فارقه في الموصل حتى وصل إلى سلمية ،فهنـأه هرمز بسلامة النجاة من الأخطار التي تعرض لها خلال رحلته ، والتفت إلى ولده مهدي وأمره أن يذهب إلى الداعي عبد الله المبارك ويبلغه بأن الداعي سرحان بن رستم قد وصل بخير وسلامة مع ولده عمران ، فانطلق مهدي إلى عبد الله المبارك وأبلغه بنبأ وصول الداعي سرحان ، فوعده المبارك بأن يبلغ الإمام ، ويحدد موعداً لمثول البعثة الفارسية بكاملها بين يدي الإمام ، فعاد مهدي إلى والده وأبلغه ذلك .

وبعد عدة ساعات دخل عبد الله المبارك على ضيوفه فسلم على الداعي سرحان وولده عمران ، وهنأهما بسلامة الوصـول ، وأبلـغ الجميع بأن الإمام عبد الله بن محمد قد حدد يوم غد بعد صلاة العصر موعداً للقاء البعثة بكاملها ، ثم سأل سرحان إذا كان يحمل معه مالاً أو هدايا مرسلة من قبل الجماعات لتقدم إلى الإمام ، فأجابه سرحان بأنه يحمل مبلغاً من المال جمعه من أموال الزكاة ، وليس لديه سوى قلادة مطعمة بالأحجار الكريمة مع خاتم من الياقوت بعثت بهما زوجته أسماء ليقدمهما باسمها إلى حرم الإمام ، كما وان ولده عمران يحمل جبة من الحرير المطرز بالذهب والفضة سيقدمها لنجل الإمام الأمير أحمد .
فقـال عبـدالله بن المبـارك : لا بأس ، جهـز ما لديك من أمـوال وهدايا ، واستعدا للمثول بين يدي الإمـام ، فلربمـا زودكم ببعض التعليمات والأرشـادات ، لتنقلوهـا إلى الجماعـات في فارس ، وبأمكانكم الخروج الى السوق ، او التجـول في بساتـين البلـدة ، والتمتع بخضرتها وعبـير ورودهـا وزهورهـا . وسأمـر عليكم غداً

حسب الموعد المحدد لأصحبكم إلى مقر الإمام ، والآن أعتذر لأضطراري لمغادرتكم لأني مرتبط ببعض الأعمال الهامة ، ثم ودّعهم وانصرف .

وبعد انصراف الداعي عبد الله المبارك عرض هرمز على رفاقه أن يقوموا بجولة في سوق البلدة ليبتاعوا بعض الهدايا للأهل والأصحاب ، ثم يتوجهوا إلى أطراف البلدة ليمتعوا أنظارهم بالخضرة والماء ، ويتنشقوا الهواء العليل ، الذي يدغدغ بلمساته السحرية البلدة من كل الجوانب . فوافقوا على هذا العرض وارتدوا ملابسهم وغادروا المنزل باتجاه السوق فابتاعوا الهدايا ، وأودعوها في أحد الحوانيت ريثما يعودوا من جولتهم في أطراف البلدة ، وخرجوا إلى الجهة الجنوبية من البلدة ، وساروا في وسط السهول المنبسطة على طريق تحف به الأشجار والورود والرياحين من كل الأطراف ، تنشر عبيرها مع النسيم العليل ، وكانت الطيور والعصافير تغرد بأنغامها الشجية وهي تتنقل من غصن إلى غصن ومن شجرة إلى أخرى ، فشعروا بالسعادة والهناء ، وانطلق مهدي وعمران يجريان أمام والديهما حتى وصلا إلى عين ماء تجري وسط السهول فتسقي مزروعاتها وتروي طيورها وحيواناتها ، فوقفا على حافتها ينظران إلى المياه الرقراقة وهي تسيل ببطء ودلال ، كأنها عروس في ليلة زفافها تخطو بخطوات بطيئة نحو عريسها ، وسط نقيق الضفادع وثغاء الغنم وتغريد الطيور . فقالا لبعضهما : انها روعة يا أخي كأنها الجنة بما حوته من مناظر طبيعية خلابة ، هنيئاً لقاطنيها ، وليباركها الله ويزيد غلالها ، ولما وصل والديهما جلسوا جميعاً على جوانب العين ، وراحوا يرتشفون من مياهها العذبة ويغسلون أيديهم ووجوههم ، ولما أوشكت الشمس على الأفول ، عادوا إلى دار الضيافة ، وقد أشرقت وجوههم ، وملأت السعادة قلوبهم ، فأدوا الصلاة جماعة ، ثم أخلدوا للنوم بعمق وارتياح بعد عناء يوم طويل .

ولما عاودت الشمس دورتها المعتادة مبشرة بقدوم يوم جديد ، بما ترسله من أشعة ذهبية على المروج الخضراء ، فتزيدها جمالاً على جمال ، نهض هرمز ورفاقه من نومهم ليؤدوا صلاة الصبح جماعة ، ويتناولوا طعام الافطار ، ثم يجلسوا في حلقة يتلون القرآن ويرفعوا أصواتهم بالدعاء لتتجاوب مع صياح الديكة ، وتغريد العصافير ، وثغاء الماشية ، وظلوا على هذه الحال حتى دخل عليهم قبل صلاة الظهر المرافق الخاص للداعي عبد الله المبارك نصر الدين ، فسلم عليهم ، ثم أبلغهم بأن سيده مشغول جداً اليوم ، وقد أمره أن يرافقهم إلى مقر الإمامة بعد أن يؤدوا صلاة العصر ، وسيجدون المبارك بانتظارهم في قصر الإمامة ، فليستعدوا لهذه المناسبة ، وسيعود في الساعة المحددة .

وبالفعل عاد نصر الدين قبل صلاة العصر فأدى الصلاة مع البعثة ، ثم رافقهم إلى مقر الإمامة ، فدخلوا قاعة الإنتظار حيث وجدوا الداعي عبد الله المبارك بانتظارهم ، فدخلوا جميعاً إلى الغرفة التي أعدت لجلوس الإمام ، فقبلوا الأرض ، وصوبوا أنظارهم إلى المقعد الذي يجلس عليه الإمام وقد ارتدى جبة حمراء موشاة بالخيوط الذهبية ، ووضع على رأسه عمامة خضراء يزينها شعار الدعوة الإسماعيلية المحلى بالأحجار الكريمة ، فأشار الى الداعي سرحان وولده عمران بأن يتقدما نحوه ، فتقدما وقبلا يديه ، فباركهما ورحب بهما ، وأجلسهما أمامه ، فقدما له ما يحملون من أموال وهدايا ، وطلبا منه البركة والدعاء . فباركهما ودعا لهما بالسعادة والهناء ، والتفت إلى الداعي هرمز وولده مهدي وأمرهما أن يجلسا أمامه على شكل حلقة ، لأنه يريد أن يتكلم ويزودهم بالتعليمات والإرشادات لينقلوها إلى الجماعات في فارس . ثم أشار إلى الداعي عبد الله المبارك

ان يأتي بالدعاة الحرم ليأخذوا مكانهم بجواره ، ففعل المبارك ما أمر به .

ولما اكتمل النصاب ، والتف الجميع حول المكان الذي يجلس فيه الإمام كأنه البدر الساطع ، والشمس المضيئة ، قال عليه السلام : بسم الله الرحمن الرحيم والعاقبة للمتقين ، والصلاة والسلام على جدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وعلى آله الطاهرين ، وسلم تسليماً .

أما بعد : فالحمد لله الذي جاد علينا بنعمه وتوفيقه ، وسدد خطانا لما فيه خدمة الجماعات وإرشادهم إلى سواء السبيل ، وإصلاح نفوسهم ونقلها إلى الكمال المطلق ، والهدف الأمثل ، فلم يخل زمان من قائم لهم يقيم منار الإسلام ، ويقوم دره الأنام ، ويروض الأرض بدائم الطول والانعام ، وإمام يهدي به من اتبع رضوانه سبل السلام ، احتجاجاً على الخلائق ، ونهجاً لطرق الحقائق ، وهداية بالعدل مؤذنة ، وبالتكليف مقترنة ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيي من حَيَّ عن بينة ، وصلى الله على جدنا محمد نبيه الذي شرع الدين ، ورفع منار اليقين ، وصدع بأمر الله تعالى وأعرض عن المشركين ، وعلى الأئمة الطاهرين ، الهداة المنتجبين ، وسلم عليهم أجمعين ، وقد وهبكم الله تعالى من صحة الإيمان ، وقوة البصيرة والإيقان ، ما جعلكم تعرفون بها نور الإمامة التي هي خلافة الله في الأرض ، وسلطانه لإقامة السنة والفرض ، وأنه لا قدرة للإنسان على أن يزيلها عن محرها وسننها ، أو يحيلها عن مقرها ومعدنها ، أو يفعل بها بحسب ما يقتضيه الشتات والآراء ، وترتضيه الشهوات والأهواء .

أبنائي الأعزاء أوصيكم بالجد والاجتهاد ، والتضامن والإخاء

والمحبة والإخلاص ، ثابروا على نشر دعوة الحق ومبادئها الخيرة المعطاء ، وما يواكب هذه الدعوة العقلانية من تفاعلات عرفانية ، تهذيب النفس الإنسانية ، وتنقلها من حد القوة إلى حد الفعل ، بالمثالية المطلقة ، والإيمان العميق ، والتضحية والطاعة الفعلية لأولي الأمر من الأئمة والدعاة .

وأوصيكم أيضاً بأن تكونوا كالآباء للجماعات ، فتعاملونهم كما تعاملون أولادكم الجسمانيين ، من عطف وحنو ومحبة ، وبلغوا الجماعات ، بأن الزكاة المفروضة عليهم ، تزكيهم وتطهر أعمالهم ، وتقربهم من رضى الله وتبارك عليهم لقوله تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ».

فإلى الجميع احملوا بركاتي الأبوية ، باعتباركم دعاتي الميامين ، ولسان دعوتي المنتجبين ، وهداة أمتي ، وباب حطتي ، أواصلكم بالدعاء وأبارككم وكافة الجماعات بما يوسع لكم نطاق الرحمة والغفران ، ويسبل عليكم الفضل والرضوان ، فضلاً يشمل به الأحياء والأموات ، ويدخلهم نعيم الجنات ، والله ولي التوفيق.

ولما انتهى الإمام من كلمته ، طلب الشيخ عبد الله بن ميمون الكلام ، فأجابه الإمام بالموافقة فقال : تعلمون يا مولاي بأن الدراسة قد بدأت في مدارس الدعوة العليا منذ خمسة أشهر ، ونحن بحاجة إلى بعض التلامذة النجباء الأذكياء ، فهل يأمر مولانا بأن نكلف الداعي هرمز وزميله سرحان بأن يختارا من يجدان فيهم الكفاءة للانتساب إلى هذه المدرسة ، وكم أود يا سيدي لو وافقا على ترشيح ولديهما مهدي وعمران ليكونا في تعداد طلاب المدرسة ، لأنني ألمس فيهما الذكاء الخارق ، والإخلاص التام ، مما يؤهلهما لاحتلال أهم المراكز ،

والفت نظرهما يا مولاي إلى ضرورة اختيار بعض الداعيات وإرسالهن إلينا . فقال الإمام وقد أمعن النظر بالشابين وبوالديهما : ما رأيكما بهذا الإقتراح يا هرمز وسرحان ؟

فقال سرحان : ليس لنا رأي يا مولاي ونحن في حضرتكم المقدسة ، فإذا شئتم أبقيناهما هنا للإستفادة والتعلم !

فقال الإمام : لا بأس ، اعتن بهما يا ابن ميمون . وأعلن عن انتهاء المقابلة ، ثم ودع هرمز وسرحان وباركهما بلمس رأسيهما، بعد أن قبلا يديه ، وخرج الجميع ، فعادوا إلى دار الضيافة ، وكان السرور يأخذ منهم كل مأخذ .

وفي اليوم التالي ودع هرمز وسرحان عبد الله بن المبارك وشكراه على حسن ضيافته واستقباله ، ثم ودعا ولديهما بالعناق الطويل ، وأوصياهما بالجد والإخلاص والطاعة العمياء ، وغادرا سلمية عائدين إلى مقرهما في فارس . بينما رافق مهدي وعمران الداعي عبد الله المبارك حيث أخذهما إلى الداعي المسؤول عن المدرسة العليا للدعاة ، وطلب منه أن يقبلهما في تعداد التلامذة ، ويفرد لهما مكاناً مريحاً لإقامتهما خلال مدة الدراسة التي هي ثلاث سنوات . ثم عاد عبد الله المبارك إلى مقر الإمامة للاطلاع على جدول الجلسة القادمة لمجلس الدعاة ، ولتسيير بعض الأمور المتعلقة بالدعوة ، وخاصة المطالب التي تقدم بها دعاة الجزائر في جميع أنحاء العالم الإسلامي ، ليتمكن من عرضها في الجلسة القادمة .

ولما دخل مكتبه وجد أحد وجهاء سلمية في انتظاره وهو الذي سهل له مهمة الإتصال بقصر أمارة البلدة ، عندما جاء سلمية منذ سنوات ـ يرافقه الداعي أبو المعالي ، فسلم عليهما وجلس بجوارهما

يستفسر عن سبب مجيئهما في مثل هذا الوقت ، فقال له الداعي أبو المعالي : لقد استدعانا صباح هذا اليوم الأمير محمد بن عبد الله بن صالح إلى قصره ، وأعلمنا بأن أحد الوشاة قد نقل إليه بأن التاجر البصري الذي سمح له بالإقامة في سلمية ليس بتاجر بل هو زعيم ديني كبير يمت بصلة النسب إلى آل البيت ، وهو مطارد من قبل العباسيين ، ولديه أموال كثيرة وخدم وحشم ونشاط كبير ، قد يلفت أنظار الخلفاء إليه ، وقد نصحه بأن يضغط على المذكور ليخفف من نشاطه ، لهذا استدعانا إليه ، فأكدنا بأن الرواية غير صحيحة ، والرجل صاحب تجارة كبيرة ولديه أصدقاء ومعارف كثر ، يزورونه في كل وقت ، فاطمأن باله ، وصرف النظر عما كان ينويه من إجراءات ، لهذا جئنا إليك ، لنحيطك علماً بالموضوع .

فابتسم المبارك وقال : لا بأس سنكون أشد حرصاً في المستقبل ، وأطلب منك أن تحضر غداً صباحاً وتأخذ بعض الهدايا لتقدمها للأمير ، وتدعوه لتناول طعام العشاء في منزلنا يوم الأحد القادم . فودعاه وانصرفا ، بينما جلس على طاولته ، وأخرج من مكتبه جدول أعمال الاجتماع المقبل ، وبعض التقارير والرسائل ، ليدرسها ويعلق عليها ، حتى تكون جاهزة لعرضها في الإجتماع ، وظل في مكتبه حتى ساعة متأخرة من الليل .

* * *

عقد اجتماع مجلس الدعاة برئاسة الإمام في الوقت المحدد ، ولما اكتمل العدد افتتحت الجلسة باسم الواحد الأحد ، ثم أخرجت كافة التقارير والرسائل التي أعدها الدعاة لتناقش في ذلك الإجتماع ، فطلب الإمام من الداعي عبد الله بن حمدان أن يعرض أمام المجلس تقرير الأهوازي ورسائله ، والدراسة التي أجراها بهذا الشأن ، فقدم

ما لديه من أوراق ، ثم قال : الحسين الأهوازي يا مولاي يبشرنا بأن الدعوة في السواد تتقدم باستمرار وإقبال الناس على الإستجابة كثير جداً ، بعد أن استطاع بما أوتيه من جلد وصبر أن يجلب إلى صفه أحد علماء السواد ، وهو عبدان ، بالإضافة إلى حمدان بن الأشعث وعائلته وأهل قريته بأجمعهم ، وكذلك أجرى الأهوازي اتصالات مفيدة مع مهرويه وولده زكرويه ، وهما من دعاتنا الأفاضل ، ثم أنه قام برحلة إلى كلوازي حيث قابل دندان وعرض عليه أوضاع الجماعات في السواد وأنهم بحاجة إلى المساعدة المادية ، فتبرع له بمبلغ كبير من المال ، فوزعه بالتساوي على الجماعات ، مما زاد الإقبال على الاستجابة فكثر عدد الأتباع . وبنفس الوقت يذكر الأهوازي بأنه أوفد بعثة إلى البحرين لإجراء الإتصالات مع آل الجنابي في البحرين والقطيف ، كما وان الأهوازي ينوي إجراء اتصالات مع صاحب الزنج لاستمالته . ووعد الأهوازي بأنه سوف يعلمنا بكل الإتصالات التي سيجريها . ولقد أرفق تقريره ورسائله بعدة مطالب ملحة يأمل في تنفيذها فوراً لما لها من فائدة قصوى بالنسبة للدعوة وللجماعات ، وهذه المطالب تتلخص بالأمور التالية :

١ ـ الموافقة على تعميم مدارس الدعوة التعليمية في كافة القرى والدساكر ، على أن تضم هذه المدارس نخبة من الشبان والفتيات ليتم إعدادهم ليكونوا دعاة في المستقبل ، على أن تكون مدة الدراسة سنتين .

٢ ـ تطبيق نظام الألفة والمشاركة في كافة المناطق لرفع مستوى الأتباع المادي والاجتماعي والاقتصادي .

٣ ـ زيادة الإتصالات مع البحرين والقطيف ، وهجر ، والسماوة ، وتوحيد كافة المناطق تحت قيادة واحدة .

٤ ـ إيفاد بعض الشبان والشابات إلى مدارس الدعوة في سلمية لإكمال دراستهم العقلانية.

٥ ـ إيفاد بعض الدعاة والداعيات لتولي نشر الدعوة والتدريس في مناطق السواد، والبحرين، وقطيف، وهجر.

٦ ـ ولما كان المال هو الشريان الحيوي بالنسبة للطبقات الفقيرة من العمال والمزارعين يأمل الأهوازي بمساعدة مادية كبيرة ليتمكن من النهوض بالدعوة.

ولما انتهى عبد الله بن حمدان من عرض مجمل مطالب الأهوازي جلس في مكانه بانتظار مناقشة هذه المطالب وإقرار ما يرونه مناسباً، انفرجت أسارير الإمام وظهر الحبور والفرح على محياه، فقال: ما هو رأيكم بهذه المطالب، وما هي الخطوات الواجب اتخاذها بشأنها؟

فقال عبد الله بن ميمون: انها مطالب محقة يا مولاي وأوافق على تلبيتها، على أن يطبق نظام الألفة الذي أعددناه منذ سنة وعندما كنا في الأهواز، أما المساعدة المادية فالمال متوفر لدينا ولا مانع من تخصيص ما يراه مولانا مناسباً.

وقال عبد الله المبارك: أنا أيضاً موافق، وثقتي بالحسين الأهوازي كبيرة، وسأحاول انتقاء بعض الدعاة والداعيات ليصار إلى إرسالهم إلى السواد، كما سأطلب من الحسين الأهوازي باعتباري المكلف بالإشراف على مدارس الدعوة في كل مكان ارسال بعثة من الشبان والفتيات للدراسة هنا، بعد أن يحدد مولانا عددهم.

وقال عبد الله بن سعيد بن الحسين: أنا موافق أيضاً يا مولاي.

فقال الإمام عبد الله بن محمد: إذن على بركة الله، قوموا

بتنفيذ هذه المطالب كل حسب اختصاصه ، واطلبوا من الأهوازي أن يراعي الدقة في تطبيق نظام الألفة ، وإذا ما طبق سيكون له شأن خطير ، وسيوفر العدالة بين الجميع ، ولا مانع لدينا لو أوفد عشرة أو ثمانية من الشبان والفتيات ليتابعوا دراستهم هنا ، واكتب يا عبد الله بن المبارك إلى دعاتنا في فارس وبغداد ، وحلب ، وحماه ، وحمص والشام ، لكي يتبرعوا بالأموال لمساعدة الأهوازي في تنفيذ مشاريعه ، وارسل له من بيت المال مجموع ما دخل بيت المال خلال هذا الشهر بما فيه المبالغ التي جاء بها هرمز وسرحان .

ولا تنسَ يا ابن المبارك عندما ترسل تعليماتنا وإرشاداتنا إلى داعينا الحسين الأهوازي أن تذكره بضرورة تحسين العلاقات مع السلطات الحاكمة ، ومحاولة بث العيون في كل دائرة ، والعمل على إقناع بعض أصحاب المناصب للاستجابة للدعوة ، وبذلك يضمن أخطار التآمر والمداهمة .

وأمر الداعي عبد الله بن ميمون أن يكتب إلى دعاة المدن السورية يبلغهم بأن الإمام سيقوم بجولة تشمل كافة المدن السورية للاطلاع على أحوال الجماعات ولاجراء بعض المشاورات والدراسات المتعلقة بالنواحي الاجتماعية والاقتصادية والاجتماعية ، ثم نهض من مجلسه معلناً انتهاء الجلسة على أن تعقد في الموعد المحدد . وفي حالة غياب الإمام يكلف الأمير احمد حجته بترأس الإجتماع والنيابة عن الإمام في كافة الأمور .

وقبل أن يغادر الإمام القاعة ، استوقفه عبد الله المبارك ، وانفرد به جانباً وقال له : لقد نفذنا أوامركم يا مولاي وبدأنا بحفر السرداب الذي أشرت إليه ابتداء من تحت شجرة الزيتون الواقعة إلى الجهة الشرقية من البلد في بستان آل فرحة وانتهاءً بقصركم العامر بجوار

البحرة ، على أن يتسع هذا النفق لدخول الجمال والبغال والحمير بأحمالها عليها ، وسيكون طوله خمسة عشر ميلاً .

فقال الإمام عبد الله بن محمد هامساً : متى ينتهي العمل؟

فقال عبد الله المبارك : اتفقت مع العمال بعد أن زدت أجورهم أن يكون الإنجاز بعد ستة أشهر على الأكثر .

فقال الإمام عبد الله : لا بأس ، ولكن حافظ على السرية التامة ، وابعد كل عامل لا ينتسب إلينا .

وغادر القاعة داخلاً إلى جناحه الخاص ، بينما تفرق الدعاة كل إلى عمله .

* * *

ولا بد لنا من الرجوع إلى الوثائق الاسماعيلية السرية لنعرف التاريخ التقريبي لتلك الفترة الغامضة ، فالنصوص تؤكد بأن هذه الوقائع جرت حوالي سنة ٢١٠ أو ٢١١ هجرية . لأن الإمام عبد الله بن محمد قد انتقل إلى دار البقاء حوالي سنة ٢١٢ هجرية، ومما لا شك فيه بأنها جرت قبل وفاته بعام أو عامين على وجه التقريب ،والله أعلم .

وبالفعل قام الإمام عبد الله بن محمد بن إسماعيل بجولته على المدن السورية ، فزار سراً دمشق ، وحمص ، وحماه ، ومصياف والقدموس واللاذقية وحلب والرقة ، محاولاً نقل الدعوة بمؤسساتها من دور التأسيس والتكوين ، وخلق المبادىء والأفكار إلى دور العمل والانتشار.

ولقد عقد عدة اجتماعات مع أقطاب الدعوة وزودهم بالإرشادات والتعليمات ، الناهدة إلى رفع مستوى الجماعات الاجتماعي والاقتصادي والعلمي ، كما أنه أوعز للدعاة للإهتمام برجال الدولة والمسؤولين في مناطقهم ، ومحاولة جلبهم عن طريق الإقناع أو الرشوة

أو أي واسطة يرونها مناسبة ، ولا يمانع الإمام من جانبه أبداً في بذل المال للوصول إلى الأهداف المنشودة .

ولما عاد الإمام إلى سلمية وجد الكثير من الأعمال الواجب قضائها والبت فيها بانتظاره ، وخاصة ما يتعلق بنشر الدعوة باليمن ومصر والمغرب ، والربط بين دعاة هذه البلدان والبلدان الأخرى ، بسلسلة من الإتصالات السرية ، والعلاقات الأخوية ، لذلك قرر بينه وبين نفسه أن يختار المزيد من الدعاة الأكفاء لتولي الدعاية في تلك البلدان ، على أن ينتقيهم بنفسه من خيرة الرجال المشهود لهم بالمقدرة والعلم والكفاءة .

ولما استقر بالإمام المقام في سلمية انكب على دراسة إضبارات كافة الدعاة ، ليختار من بينهم المجموعة التي قرر الاستعانة بها ، فوقع اختياره على الداعي أبو علي البازوردي ليكون داعياً له في مصر ، والداعي الحلواني وأبو سفيان ليكونا داعيان في المغرب ، ولكنه عجز عن إيجاد الداعي الكفء ليتولى الدعوة في اليمن ، فقرر الانتظار ريثما يقيض له الله من يتولى هذه المهمة .

وبالفعل عرض أسماء هؤلاء الدعاة الذين اختارهم على مجلسه ، فنالوا رضاء الجميع ، لذلك كلف عبد الله بن ميمون باستدعائهم والتشاور معهم ، ثم تقديمهم له ليصار إلى إرسالهم فوراً إلى الأماكن التي حددت لهم . ولقد تم استدعاء هؤلاء الدعاة من أماكن تواجدهم ومثلوا بين يدي الإمام عبد الله بن محمد ، فأطلعهم على نيته القاضية بارسالهم في بعثات دعاوية إلى مصر والمغرب ، لأن الأرض في تلك البلاد ممهدة ومعدة للزرع ، فما عليهم إلا الاستعداد والسفر الفوري لصالح الدعوة . وأمر الداعي عبد الله المبارك أن يزودهم بالمال والتعليمات ويسهل لهم مهمة السفر .

بعدما انطلقت هذه البعثة الدعاوية بأسابيع شعر الإمام عبد الله ابن محمد بانحراف يطرأ فجأة على قواه الجسدية ، مما جعله يخلد للراحة في منزله ، ولكن الأمور مع مرور الأيام ازدادت سوءاً ، فاستدعى إليه دعاته الحرم وأبلغهم ، بأن ساعته قد دنت ، والموت أصبح قاب قوسين أو أدنى منه ، لذلك يرى أن يأتوا بولده الأمير أحمد ليعهد إليه بالإمامة في حضورهم ، وما عليهم بعد ذلك إلا أن يبلغوا الجماعات بأنه أصبح الإمام بعد انتقال والده .

ولما حضر الأمير أحمد نص الإمام عبد الله عليه ، وسلم الأمر إليه،ولقبه بالوفي أحمد،ثم قبض ـ عليه السلام ـ بعد ثلاثة أيام ودفن في سلمية باحتفال مهيب ، وكانت وفاته سنة ٢١٢ هجرية .

الفصل الخامس

الثالوث المقدس ونظام الإلفة والإخاء

تركنا ـ في الفصل الثالث ـ الداعي الحسين الأهوازي وقد ركز دعائم الدعوة الإسماعيلية في سواد الكوفة ، وبذر بذورها في البحرين ، والقطيف ، والسماوة ، وبين قبائل بني أسد ، وبني عقيل ، وبني كلاب ، والخريس من سكان هجر ، ونظم سلسلة متصلة من التعاون بين كبار الدعاة في مختلف المناطق ، وقوى أواصر المحبة والأخوة والتعاون بين مهرويه وولده زكرويه من جهة وعبدان وحمدان بن الأشعث من جهة أخرى ، بالإضافة إلى زيادة التعاون مع آل الجنابي في البحرين وقطيف .

ولما تم له كل هذا التقدم ، كتب إلى مقر الإمامة في سلمية يطلب الموافقة على بعض المشاريع ، وتزويده بالمال اللازم لتحقيقها . وقد أشرنا في الفصل الرابع إلى موافقة قيادة الدعوة على طلبات الأهوازي ، وتخصيص مبلغ كبير من المال لتنفيذ هذه المطالب .

وعندما تسلم الأهوازي نظام الالفة والإخاء من مقر الدعوة في سلمية ، عكف على دراسته عدة أيام ، ثم أرسل دعوة بواسطة الحمام الزاجل إلى زكرويه بن مهرويه وإلى أبو سعيد الجنابي يدعوهما فيها لحضور اجتماع هام لكبار الدعاة ، كما استدعى إليه الداعي عبدان ، وحمدان بن الأشعث وأبلغهما عن موعد الإجتماع في قرية كلوازي لمناقشة بعض التقارير والأوامر التي وصلته من مقر الدعوة في سلمية ، ولإيجاد السبل الصحيحة لتطبيق نظام الالفة والاخاء الذي أمر بتطبيقه الإمام الاسماعيلي في مجتمعهم ، نظراً للحاجة الماسة ، ولمتطلبات

المجتمع في السواد ، وما يجاورها من القرى والدساكر .

وطلب منهما في الوقت نفسه أن يختارا عدداً من الفتيات والفتيان ليصار إرسالهم إلى مقر الدعوة في سلمية للانتساب إلى مدرسة الدعاة العليا ، على أن يكونوا من أصحاب المواهب والذكاء الخارق ، والنسب الصحيح ، والسمعة الطيبة .

وفي الموعد الذي حدده الأهوازي للاجتماع في كلوازي حضر كافة الدعاة المدعوين ، فافتتح الأهوازي الجلسة ، وعرض على المجتمعين الأوامر التي وصلته من سلمية ونظام الإلفة والإخاء ، طالباً من الداعي عبدان أن يتلوها على الأسماع ، ثم يبدون رأيهم فيها ، ليصار إلى تطبيقها في المجتمع الإسماعيلي .

وبالفعل قرأ عبدان رسالة الإمام الذي يبارك فيها جهود الأهوازي وإخوانه الدعاة، ويأمرهم بأن يتابعوا نشاطهم بسرية تامة بعيداً عن عيون السلطة ورجالها ، وبنفس الوقت يعين كل من الداعي زكرويه بن مهرويه ، وحمدان بن الأشعث ، وأبا سعيد الجنابي ، كمساعدين للأهوازي في مهمته ، بالاضافة الى عبدان الذي عين أميناً للسر ، والمكلف بالاشراف العملي على تنفيذ نظام الالفة والإخاء ، وتسجيل كافة التحركات الداخلية والخارجية .

أما نظام الالفة والإخاء فقد جاء ملبياً لحاجات الجماعة ، ولرغبة الدعاة إذا أحسنوا تنفيذه وتطبيقه ، ويمكن تلخيصه بما يلي :

١ ـ صهر كافة الجماعات من عمال وفلاحين وحرفيين وتجار في بوتقة واحدة ، هي بوتقة الدعوة الإسماعيلية .

٢ ـ السيطرة الفعلية وبالتدريج على كافة الأراضي والملكيات الزراعية والصناعية والتجارية وجعلها تخضع لإشراف مجلس الدعاة

الثلاثي.

٣ - يدفع كل مستجيب وعضو عامل في الدعوة اشتراكاً شهرياً قدره ديناراً واحداً ، بالإضافة إلى أموال الزكاة والفطرة .

٤ - تجمع هذه الأموال في خزانة الدعوة وتنفق بالتساوي على المشاريع الإجتماعية والعلمية والصناعية.

٥ - نشر العلم والمعرفة بين الجميع .

٦ - الدقة التامة في اختيار الدعاة والمبشرين ، وإيفاد المتفوقين منهم لمواصلة الدراسة العليا في سلمية .

٧ - تنمية الإخاء والمحبة بين الجميع ، ليصبحوا كعائلة واحدة متكاتفة متضامنة ، يتعاون بعضهم مع البعض الآخر في طلب صلاح الدين والدنيا .

٨ - تضحية الفرد الجسدانية في سبيل إصلاح إخوانه وتقويم اعوجاجهم وتقديم المساعدة لهم .

٩ - نشر العدل والمساواة والمحبة والإخاء والطاعة المطلقة لأولي الأمر من الدعاة .

١٠ - اعطاء المرأة الإسماعيلية كافة الحقوق ومساواتها مع الرجل ، وإشراكها في تنظيمات الدعوة .

١١ - العمل بسرية تامة ، وتجنب الإحتكاك مع الطوائف الأخرى .

تنفذ هذه التعليمات فور تلقيها ، تحت إشراف الدعاة الثلاثة الذين اختارهم الإمام لقيادة الجماعات وتأمين الحياة السعيدة للجميع بالتساوي وبدون تمييز أو تفضيل . والله ولي التوفيق .

ولقد أقر الجميع هذه المبادىء وعاهدوا الله على تنفيذها فوراً ، في كافة القرى والدساكر ، ثم تداولوا في أمر اختيار بعض الشبان

والفتيات ليرسلوا في بعثة إلى سلمية لدراسة الدعوة ، فوقع اختيارهم على الشبان والفتيات التالية أسماؤهم : ١ ـ الحسين بن زكرويه . ٢ ـ سعد بن الجنابي . ٣ ـ عيسى بن موسى . ٤ ـ حريث بن مسعود . ٥ ـ علياء بنت رضوان . ٦ ـ سعدى بنت دندان . ٧ ـ رقية بنت زكرويه . ٨ ـ ليلى بنت الجنابي .

وكلف عبدان بالإتصال بأماكن إقامتهم وإبلاغهم ضرورة الإستعداد للسفر فور تجمعهم في كلواذي ، ثم أمر الأهوازي بتوزيع الأموال المتوفرة لديهم على الفقراء والمساكين لرفع مستواهم المعيشي ، وتخصيص مبلغ من المال لتقديمه لعامل الكوفة من قبل العباسيين حتى لا ينتبه إلى نشاطهم ويتستر على تحركاتهم في المناطق التي سوف يطبقون نظام الألفة فيها . وشاء الأهوازي أن يقدم مبلغاً من المال لأبي سعيد الجنابي يستعين فيه في تحركاته ونشاطه، ولكن الجنابي رفض قبول أي مبلغ في الوقت الحاضر لأنه جمع ما فيه الكفاية من الجماعات . أما إذا وصلت دراهم أخرى فلا مانع من تخصيص بعضها لينفقها على الفقراء والمساكين .

وقبل أن ينفض الاجتماع أشار زكرويه إلى الرقابة الشديدة التي يتعرض لها أثناء تحركاته مما يحد من نشاطه ، خاصة وأن الظروف السياسية في هذه الأيام التي اضطرب فيها حبل الأمن ، بسبب استبداد الأتراك بالأمور دون الرجوع إلى الخليفة في بغداد ، تساعدنا على النشاط ، لذلك اقترح اعطائي مبلغاً من المال لتقديمه سراً إلى بعض المتنفذين من الأتراك ، فعسى أن يغضوا الطرف عنا فنزيد نشاطنا أكثر وأكثر . فمنحه الأهوازي مبلغاً كبيراً من المال ووعده بمبالغ أخرى في المستقبل إذا كان بحاجة إليها . ثم أعلن الأهوازي انتهاء الاجتماع ، فعاد كل منهم إلى منطقته ليبدأ في تنفيذ

نظام الإلفة والإخاء .

ولما تجمع الدعاة والداعيات الذين اختيروا للدراسة في سلمية في منزل الحسين الأهوازي ، وهم على أهبة السفر ، دعاهم الأهوازي إلى تأليف حلقة حول مقعده ، ليتمكنوا من سماع نصائحه التي سيزودهم بها قبل التوجه الى سلمية ، ففعلوا ، فقال لهم :

لقد اخترناكم يا أولادي لما نعهده فيكم من ذكاء نادر وطاعة عمياء وإخلاص متين وشباب متوثب ، فكونوا موضع ثقتنا ، أحبوا بعضكم بعضاً ، واعتبروا أنفسكم في عائلة واحدة ، وجسدوا الإيمان العميق ، والمحبة الخالصة ، ونكران الذات ، والطاعة العمياء . وستعودون إن شاء الله لتقودوا الجماعات لما فيه خير الدعوة ، وخدمة الإمام عليه السلام ، وإليكم مصاريف السفر حتى تصلوا إلى سلمية ، وزعوه على أنفسكم ، وسافروا في رعاية الله وتوفيقه .

خرج الدعاة الثمانية من منزل الأهوازي ، فركبوا خيولهم بعد أن غطوا وجوههم بعماماتهم حتى لايعرفهم أحد ، ولا يستطيع أن يفرق بين الشاب والفتاة ، وأخذوا طريق الموصل ، والأمل يداعب أحلامهم ، ويفتح أمامهم المستقبل . وما يحمله من مفاجآت قد توصل بعضهم إلى مركز القيادة والزعامة ، أو قد تؤدي إلى قتله واستئصاله . كان الحسين بن زكرويه يجد المسير وقد ركب جواداً أشقر اللون محجلاً من خيرة خيل والده زكرويه، وكانت زميلته ليلى بنت الجنابي التي كانت تتحدث همساً مع أخته رقية بنت زكرويه ، فإذا بفرسها تنطلق فجأة كأنها سهم أطلق على طريدة ، فاستنجدت ليلى برفاقها وهي تصيح بملء فيها : الحقوني لقد جفلت الفرس وستدق عنقي ، إن لم تتداركوها ، ودون تصميم أطلق الحسين بن زكرويه لجواده العنان بكل ما أوتي من قوة فطار كأنه

العقاب المنقض على فريسته ، فأدرك فرس ليلى وحاول أن يمسك بمقودها ، ولكنها زادت من سرعتها ، فلم تمكنه من اللحاق بها ، فحاول ثانية وثالثة حتى استطاع إدراكها ، فرمى بنفسه على رقبتها وأمسك بمقودها ، فخففت من ركضها ثم توقفت عن الجري ، فنزلت ليلى عن ظهرها وقد أنهكها التعب وشدة الخوف ، واستلقت على الرمال وهي تئن من شدة التعب ، فترك الحسين بن زكرويه رقبة الفرس وربطها إلى شجرة بلح ، واقترب من ليلى فرفع اللثام عن وجهها ، وإذ بها غائبة عن الوعي ، وقد أغمضت عينيها ، وأسبلت جفنيها فبدا وجهها الأصفر كأنه الشمس قبل الأفول وهي ترسل أشعتها البنفسجية لتعلن عن انتهاء دورتها ، وتلقي نظرة إشفاق وحزن على الكون وما فيه من موجودات . فانتابه شعور غريب لم يحس بمثله في حياته ، فنهض مسرعاً إلى جواده الذي كان يقف بجواره فأخذ قربه الماء ، وراح يمسح وجه ليلى بالماء حتى فاقت من غيبوبتها ، فنظرت حولها بخوف وألم ، ثم سألت الحسين : أين أنا وماذا حل بالفرس ؟! فأجابها بأنها بخير وهي مربوطة على بعد خطوات منها ، فأمعنت النظر في وجه الحسين بعمق فالتقت عيناها بعينيه ، فشعرت كأن تياراً كهربائياً قد صعقها ، وتسلل بلطف إلى أعماق فؤادها ، فابتسمت له شاكرة ، بينما راح يمسح جبهتها بمنديله المبتل بالمياه ويركز بصره في عينيها ، يفتش عن سر هذا الوميض الخفي الذي ينبعث منها ، وما هي إلا لحظات حتى وصلت بقية الخيول وقد أنهكها التعب والعطش ، لكثرة ما جرت في هذه الصحراء الرملية القاحلة ، فنزل الجميع عن خيولهم ، وربطوها ، ثم اقتربوا من ليلى وهي ما تزال على الأرض ، فساعدوها على الجلوس ، وتحلقوا حولها يستفسرون عن صحتها ، وعن كيفية وقوع الحادث ، فقالت : ربما رأت الفرس وهي تسير دابة أو حيواناً ما ، فخافت وأطلقت ساقيها بغتة إلى الريح ، على

العموم مرت الحادثة بسلام بفضل الله وبمساعدة الأخ الحسين بن زكرويه ، لقد كان جواده سريعاً جداً فاستطاع اللحاق بي ، وإنزالي عن ظهرها ، ولكنني غبت عن الوعي من شدة الخوف .

وبعد أن أخذوا قسطاً من الراحة وتناولوا طعامهم ، وارتاحت خيولهم ، واصلوا المسير بجد ونشاط ، وكان الحسين وهو يسير في المقدمة يختلس النظر إلى ليلى ليطمئن على وجودها بجواره ، ويحدث نفسه عن جمالها الفتان ، وعقلها المتفتح ، ويطلق لأفكاره العنان ، فيتصور نفسه يحدثها همساً عما يتكوم في مخيلته من أحلام وآمال ، ويسيطر على أحاسيسه من إعجاب بشبابها الغض وجمالها الخلاب الذي يبهر الأبصار ، ويأخذ بتلابيب القلوب ، إنها رائعة تستحق الإهتمام .

ويبدو أن ليلى كانت تشعر بنفس هذا الشعور ، فتنظر خلسة إلى الحسين وهو يمتطي صهوة جواده يخترق الصحراء بشجاعة وإقدام ، فتنزل من قلبها منزلة رفيعة ، لم تشعر بمثلها منذ ولدتها أمها ، فتساءلت عن نوع هذا الإحساس العجيب الذي سيطر على حواسها ، وعن كنه هذا الشعور الغريب الذي تسلل خلسة إلى أعماقها ، أهو الاعتراف بالجميل لأنه أنقذ حياتها ؟ أم هو الحب الذي قرأت عنه ، وسمعت رفيقاتها يتحدثن عنه ؟ أهذا هو العشق العذري الذي يقلق النفس ، ويضني الفؤاد ، ويقلب الليل نهاراً والنهار ليلاً ؟ وهمست مع نفسها قائلة :ولِمَ لا . .!! أليس الحسين هو الذي أنقذ حياتها ؟ أليس هو ذلك الشاب اليافع المغوار ، والشجاع المقدام،الجميل اللطيف ، الذي ينحدر من أسرة كريمة لها شأنها في الدعوة ؟ ألا يستحق أن تفسح له مكاناً في قلبها وعقلها إلى جانب العقيدة التي سيطرت على أحاسيسها ؟ ألا يكون له مستقبل ناصع في حقل الدعوة ؟ ثم تمتمت مع نفسها قائلة : لا أدري. . . لا

أدري. . . ما يخبئه لنا القدر وما تحمله لنا الأيام. !

ولم تنتبه ليلى عندما تقدمت منها شقيقة الحسين رقية بنت زكرويه ، مستفسرة عن صحتها وأحاسيسها ، بل ظلت صامتة تحاول رسم صورة واضحة لمستقبلها ، وتتذكر آخر كلمات قالها والدها أبو سعيد الجنابي وهو يودعها : انتبهي يا ليلى إلى دروسك ، وأطيعي ما يلقى إليك من أوامر ، وحافظي على سمعتك وشرفك ، وعاملي إخوانك بالعطف والشفقة والمحبة ، واذكرينا دائماً في رسائلك ، وواصلي العبادة والدعاء ، والله يوفقك .

فقالت لها رقية بنت زكرويه : ما بالك يا ليلى ؟ هل هناك ما يشغل تفكيرك ؟ أم أنك مريضة ؟ لماذا هذا الصمت والتجهم ، وقد عهدناك مرحة ، طيبة الحديث ، بارعة في استخلاص العبارات ونطقها؟!

فانتبهت ليلى لآخر كلمة قالتها رقية ، فانتابها الخجل وأطرقت حياءً ، ثم أجابتها بهدوء واتزان : لا شيء يا رقية ، انني أشعر بتحسن مستمر ، ولكن الرحلة أتعبتني قليلاً ، فأتمنى لو نرتاح قليلاً . فالتفتت رقية إلى رفاقها وطلبت منهم أن يختاروا مكاناً ليرتاحوا فيه ، لأن ليلى متعبة ، وبحاجة إلى الراحة . فقال شقيقها الحسين : أمامنا على مسافة ميل واحة خضراء كثيرة المياه سننزل عليها ، ونبيت ليلتنا ، فقليلاً من الصبر يا أختاه . وتابعوا المسير حتى أطلت عليهم الواحة من بعيد ، فاستبشروا خيراً ، وأطلقوا خيولهم خبباً حتى وصلوها ، فنزلوا عن صهوات جيادهم ، ونصبوا خيمتين واحدة للشبان وأخرى للفتيات ، وبدأوا في إعداد الطعام ، وكانت الشمس ترسل خيوطها الذهبية الشاحبة وهي تحاول أن تختفي وراء الأفق .

وما كاد الطعام ينضج ، ويصب في وعاء كبير ليلتف الجميع حوله ويباشروا تناوله ، حتى ظهرت من وراء التلال المحيطة بالواحة أربعة خيول مطهمة يعلو صهوتها فرسان أربعة ملثمين ، واتجهوا خبباً نحو غدير الماء ، فنادى الحسين بسرعة على رفاقه لكي يأخذوا أسلحتهم ، ويكمنوا وراء شجيرات البلح ، وبجوار الخيول ، ريثما يكتشفوا هويات القادمين ، ولكن الفرسان ما كادوا يصلوا على مسافة قصيرة من الغدير حتى ترجلوا عن خيولهم وتفرّقوا عن بعضهم ثم تمترسوا بالأرض ، وطلبوا من البعثة أن يلقوا السلاح ويسلموا أنفسهم ، وإلاّ قتلوهم جميعاً وأخذوا خيولهم وما لديهم من متاع . فنهض الحسين بن زكرويه من مخبئه وصاح فيهم قائلاً : خسئتم يا أعداء الله ، الويل لكم منا ، وهجم عليهم كالطود الشامخ ، وقد شهر سيفه ، وتبعه بقية الإخوان فأحاطوا باللصوص من كل جانب وأوسعوهم طعناً بالرماح ، وضرباً بالسيوف ، وكانت رقية تصرخ كاللبوة الهصور مشجعة ومؤازرة تضرب ذات الشمال وذات اليمين ، والفتيات الباقيات يتسابقن إلى الجهاد في سبيل الله .

وسرعان ما انكشف غبار المعركة ، عن اللصوص وهم مجندلين على الأرض يتخبطون في دمائهم ، فتقدم نحوهم سعيد الجنابي وكشف عن وجوههم ، فتبين له أنهم من الغلمان الأتراك الذين يخدمون الدولة العباسية ، فنادى على الحسين ابن زكرويه ، وأعلمه بأن القتلى هم من جنود بني العباس الفارين من الجيش ، الذين يعيشون بالنهب والسلب وقطع الطرقات ، فماذا نفعل بأجسادهم ؟

فقال الحسين : نحفر حفرة عميقة وندفنهم فيها ثم نهمي عليهم بالتراب ، فلا يعلم بهم أحد ، ونشد الرحال بعد أن نكمل العشاء ، ولكن ألا نأخذ رأي بقية الإخوان ؟

فقال سعيد : لا بأس ، أسرع قبل هبوط الظلام ، وفي حالة الموافقة ليحضروا بأجمعهم ويبدأوا الحفر!

وافق الجميع على هذا الرأي ، وحفروا حفرة كبيرة طمروا فيها اللصوص بأسلحتهم وثيابهم ، وتركوا خيولهم شاردة في الخلاء ، ثم تابعوا المسير بعد أن تناولوا طعامهم ، وتزودوا بالماء الذي يكفيهم لاجتياز البادية ، والوصول إلى العمران.

ثلاثة أيام بلياليها قضوها في الطريق لم يرتاحوا خلالها إلاّ مرتين ، ولم يغمض لهم جفن خشية أن يداهمهم الجند، أو قطاع الطرق ، حتى أنهكهم التعب ، وأضناهم المسير ، فقرروا أن يفتشوا وهم يسيرون في الصحراء عن مكاناً يأوون إليه ، ليرتاحوا قليلاً ، ويستطلعوا معالم الطريق . وما عتم أن ظهر لهم عن بعد بيت من الشعر تحيط به بعض الابل والأغنام ، فتوجهوا نحوه ، ولما وصلوا إليه خرج صاحب البيت فرحب بهم ، وأنزلهم ضيوفاً عليه ، فباتوا ليلتهم في ذلك البيت ، معززين مكرمين ، دون أن يسألهم صاحب البيت عن وجهتهم ، ولا حتى من يكونون ، لأن الضيافة العربية تقضي بأن لا يسأل الضيف ، قبل مضي ثلاثة أيام على وصوله .

ولما بزغ الفجر نهض الحسين من فراشه ، وأضرم النار ، وراح يعد قهوة الصباح ، بينما رفاقه يغطون في نوم عميق من شدة التعب . ولكن صاحب البيت الذي شعر بحركة داخل المضافة ، وشاهد لهيب النار ، وشم رائحة القهوة ، هب من فراشه مسرعاً ودخل المضافة ، فوجد أحد الضيوف قد أشعل النار وباشر في صنع القهوة ، فسلم عليه وجلس بجوار النار ، والاستغراب يسيطر عليه ، فقطع الحسين هذا الاستغراب حيث ابتسم وبادره بالسؤال عن الصحة والأحوال ، فرد صاحب البيت على الابتسامة بمثلها ، وقال : ظننت

بأن التعب سيجعلكم تنامون حتى منتصف النهار لذلك استغربت عندما شعرت بحركتكم داخل المضافة، فقلت لنفسي ربما كنتم بحاجة إلى أي خدمة، فدخلت عليكم .

فقال الحسين : لا يسعني يا أخي إلاّ أن أقدم لك شكري وشكر إخواني راجياً منه تعالى أن يوفر لك ولعائلتك السعادة والهناء ، ويسعدني جداً لو تكرمت باعلامي عن المسافة الباقية لنا حتى نصل إلى نهاية البادية السورية ، وهل طريقنا مأمونة من المخاطر إذا سلكناها نهاراً ؟

فقال صاحب البيت : تدخلون أطراف البادية بعد مسير يوم وليلة ، ثم تصلون إلى تدمر بعد يومين فقط ، والطريق الممتدة من هنا إلى تدمر قفراء خالية من السكان لا يوجد فيها سوى بعض بيوتات من الشعر المتناثرة هنا وهناك ، والدروب ليست آمنة ، لذا يجب اليقظة والانتباه ، والتزود بالماء الكافي لكم ولخيولكم ، لأن هذه الصحراء معدومة المياه ، لا يقيم فيها لا إنسان ولا حيوان ولا طير .

ولم ينتبه الحسين وهو يتجاذب أطراف الحديث مع مضيفه ، بأن هناك إنساناً آخر هرب النوم من عينيه ، وأمضى الليل مسهداً في فراشه يتأمل ويفكر ، ويرسم صورا ، ويعمر قصورا، ثم يهدمها ، ويبدأ من جديد ، كان يستمع إليهما بانتباه شديد . ولم يكن هذا الإنسان سوى ليلى، التي أخذت تتقلب في فراشها ، وتدمدم ، مما جعل الحسين يشعر بحركة داخل فراشها ، فلم يشأ أن ينادي صاحب الفراش ويسأله عما به ، خشية أن يعرف المضيف بأنها إمرأة ، لذلك فضل مواصلة الحديث ، ولكن ليلى نهضت من فراشها واقتربت من النار ، فسلمت وصبحت وجلست في الجهة المقابلة للحسين ، فردا

عليها الصباح ، ورحبا بها ، ثم ناولها الحسين فنجاناً من القهوة ، وأخذ يسألها إذا كانت قد نامت ما فيه الكفاية ، فأجابته بهزة من رأسها ، وابتسامة لطيفة من شفتيها ، فأحس بالحبور والسعادة ، وأجابها بابتسامة عريضة تجسد ما يتفاعل في أعماقه من مشاعر وأحاسيس .

وهنا اعتذر المضيف ، وخرج ليلقي نظرة على أغنامه وإبله ، فأصبحا وحيدين ينظر كل منهما إلى الآخر ، محاولاً اكتشاف ما في أعماقه من أسرار وتفاعلات ، وهما صامتين لا ينبسان ببنت شفة ، يسيطر عليهما الخجل ، والحب اللاعج الدفين ، ولكن الحسين تشجع ، وابتسم وقال : كيف حالك يا ليلى ، قلقت عليك جداً ، منذ رمتك الفرس ، وحاولت أن أعبر لك عن مشاعري أثناء الطريق ، ولكن وجود الاخوان حال دون ذلك ، فأنا يا ليلى عندما أراك لا أعلم ماذا ينتابني ، فأحس بالسعادة ، ويزداد خفقان قلبي ، هذا القلب الذي لم يرتجف في الشدائد أصبح ضعيفاً يخفق بعنف وحنان عندما يراك ، بماذا تفسرين هذه المشاعر ؟

فأطرقت ليلى حياء وقد احمرت وجنتيها ، ولم تقو على الإجابة ، فعاود الحسين السؤال للمرة الثانية والثالثة ، ولكن ليلى بقيت صامتة لا تجيب ، ولا ترفع رأسها من شدة الحياء ، فألحّ الحسين محاولاً أن يلمس يديها ، ولكنها ابتعدت عنه وهي تبتسم ، فشعر الحسين بما تنطوي عليه هذه الابتسامة من حب ووفاء ، فارتاحت نفسه قليلاً ، ولكنه عاود السؤال ، فتجرأت ليلى ورفعت رأسها حيث ركزت عينيها في عيني الحسين علها تستطيع الدخول إلى أعماقه ، وقالت : يا حسين يا رفيق الدرب ، وشريك العقيدة ، يا من وهبته فؤادي وحياتي منذ اللحظة التي رأيته فيها وهو يجري خلف فرسي

باندفاع غريب ، لينقذ حياتي ، فالشعور بيننا متبادل ، ولكنني أفضل الصمت خشية أن يشعر الاخوان ، وخاصة شقيقي سعيد بما يتفاعل في أعماقي ، وصدقني إذا قلت لك بأنني لم أشعر في حياتي بالسعادة التي أشعرها في هذه اللحظة !

فقال الحسين وهو يرتجف من شدة الفرح : عرفت هذا يا ليلى ولاحظته من خلال نظراتك التي كانت تتسلل إلى قلبي فتمسه مساً لطيفاً كأنها التيار الكهربائي ، أعاهدك يا ليلى أمام الله وفي صبيحة هذا اليوم المبارك بأن أكون وفياً مخلصاً حتى نهاية العمر ، وأعدك وعداً لا رجوع عنه ، بأنني سأكتب لوالدي فور وصولي إلى سلمية ليخطبك لي ، على أن يكون زواجنا بعد انتهاء دراستنا إنشاء الله ، فماذا تقولين يا ليلى ؟

فقالت ليلى : دع هذه الأمور الشكلية الشرعية للزمن يا حسين ، حتى لا نثير حولنا الأقاويل ، وثق بأنني منذ هذه اللحظة قررت أن أكون لك ، وسأنتظرك حتى لو استمر هذا الانتظار مدى العمر . وبسطت يدها فوضعتها بيد الحسين وتعاهدا على الإخلاص والوفاء .

وفي تلك اللحظة كانت الشمس قد بدأت تظهر من وراء الأفق وترسل أشعتها الذهبية على الكون لتبشر بولادة يوم جديد ، فنهضت ليلى من مجلسها ووقفت على مدخل المضافة تمتع نظرها بهذا المنظر الجميل ، الذي يأخذ بالألباب ، ويضفي على النفس آية من الروعة والحنان .

ولما دخلت أشعة الشمس إلى المضافة ، وأخذت تلسع بوهجها وجوه النائمين ، نهضوا من سباتهم ، واقتربوا من النار وراحوا

يرتشفون أكواب القهوة ، ويتحدثون بصوت جهوري عن الصورة الجميلة التي رسمتها أشعة الشمس على رمال الصحراء فزادتها احمراراً وتوهجاً ، بين ثغاء الغنم ، وصهيل الخيول ورغاء الإبل وفجأة دخل صاحب المضافة وهو يحمل طعام الفطور من الحليب والزبدة والقشطة ، فوضعه أمامهم ودعاهم لتناوله ، ولكنهم رفضوا الاقتراب من الطعام ، وقال له أحدهم وهو عيسى بن موسى : لن نتناول طعامك يا أخي قبل أن توافق على مطالبنا ، ففغر المضيف فاه متعجباً ، وقال : اعتدنا يا أخي أن لا نسأل ضيفنا ولا يجيبنا قبل مضي ثلاثة أيام ، ولن أجيب عليك قبل انصرام هذه المدة . فنهض حريث ابن مسعود من مجلسه ، وقبل لحية المضيف ، وقال له : أرجوك يا أخي أن تسمع ما نود قوله ، لأننا مجبرين على المسير إلى غايتنا ، ولا يمكننا الانتظار ثلاثة أيام ، فنحن مأمورون ، وليس علينا إلا الطاعة والتنفيذ ، فماذا تقول ؟

فقال المضيف : ما دام الأمر هكذا ، فكلوا ذبيحتكم ، ومع سلامة الله ، ولكن ألا نتعارف قبل أن ترحلوا ؟

فقال حريث بن مسعود : نحن جماعة من التجار الصغار ، نعمل في خدمة تاجر كبير ، أوفدنا بمهمة تجارية إلى بلاد الشام ، وحدد لنا موعداً للقاء أحد عملائه في مدينة حماه السورية ، فنخاف أن يمر الوقت المحدد ، فيغضب سيدنا . . !

فقال المضيف : تناولوا طعام الافطار ، وستحدث بعد ذلك ، ريثما تنضج ذبيحتكم فتتناولوها ، ثم نرى في قضية المسير إنشاء الله ، ولن نفعل إلا ما يرضينا ، ويرضي الله سبحانه وتعالى ! !

وبعد أن انتهوا من التهام طعام الافطار وغسلوا أيديهم ، التفوا حول القهوة ، وراحوا يتسامرون ، بينما توجه المضيف إلى غنمه فأخذ

منها ثلاثة خواريف فذبحها وسلخها وأمر زوجته بأن تعد للضيوف طعام الغداء ، ثم عاد إلى المضافة وجلس بجوار عيسى بن موسى وقال : اسمعوا يا إخواني وضيوفي ما أقوله لكم بصدق وصراحة ، طالما أصبح بيننا خبز وملح ، فرنت إليه أبصار الجميع يترقبون ما سيقوله المضيف ، وأضاف : هل تعتقدون بأنني بدوي ساذج تنطلي عليه مزاعمكم بأنكم تعملون في التجارة ؟ كلا وألف كلا . فلي من خبرتي ودقة ملاحظاتي ما يؤكد لي بأنكم لستم كما تدعون ، بل أنتم كما يتبين من أشكالكم ، وتصرفاتكم ، وأدبكم ، ولباقتكم ، من علية القوم ، ولكم مهمات سياسية ، أو دينية ، أو علمية ، فهل تصدقونني القول بعد أن أعرفكم بنفسي وأنتسب ؟

فوقع هذا القول موقع الصاعقة على رؤوس الجميع ، وراحوا ينظرون بوجوه بعضهم البعض وعلائم التعجب والاستغراب ترتسم على وجوههم ، فانبرى الحسين بن زكرويه بسرعة إلى الحديث فقال : يبدو أنك يا أخي قوي الملاحظة ، عليم بالهيئات ، صدقت وكذبنا ، كشفت وسترنا ، وليس لنا أهداف من وراء ذلك سوى التقية والاختفاء عن العيون ، للقيام بالواجب الملقى على عاتقنا ، فنحن يا أخي ثمانية من الدعاة الإسماعيلية ، نصفنا رجال والنصف الآخر نساء ، خرجنا من ديارنا تلبية لرغبة إمامنا ، باتجاه سلمية في بلاد الشام لنضع أنفسنا تحت تصرف الدعوة وقوادها ، فهل تصدقنا الآن ؟

وما كاد المضيف يسمع هذا القول حتى اعتراه الذهول ، وعجز عن النطق ، وانهمرت الدموع من عينيه ، لتحفر أخدوداً عريضاً على وجنتيه ، ثم هجم على ضيوفه يقبلهم واحداً واحداً بما فيهم النساء ، وهو يردد أحمدك وأشكرك يا رب ، لقد جمعتني أخيراً باحبائي وإخواني . أنا الداعي رباح بن سليمان بن محمد العوفي ، خرجت من

الموصل منذ سنة هارباً من أميرها بعد أن دس عليّ أحدهم بأنني أنشر أفكارا إلحادية ، وأبشر لمحمد بن اسماعيل ، فتجولت بالبادية متنقلاً بين القبائل ،حتى نزلت في هذا الموضع من ستة أشهر فاشتريت الجمال والغنم التي ترونها ، واستقدمت عائلتي ، وها أنا كما ترون أعيش كأنني بدوي ليست له أية صلة بالعمران ، أخرج بين الفينة والفينة فأتجول بالبادية وأبشر الناس بالدعوة وقرب ظهور المهدي من آل البيت.

هذه قصتي سردتها على مسامعكم ، فاسردوها بدوركم أمام دعاتكم ودلوهم على مكاني ، وعبروا لهم عن استعدادي لكل مهمة أكلف بها ، ولكن يا إخواني ألا تنتسبوا حتى أتعرف عليكم ؟

فقال سعيد الجنابي : نحن من آل الجنابي في البحرين ، ومن آل زكرويه بن مهرويه من السواد ، بالإضافة إلى آل موسى ، وآل مسعود ، وآل رضوان ، وجميعنا من الدعاة الاسماعيلية ، وأشار إلى الحسين فقال هذا الحسين بن زكرويه ، وهذه شقيقته رقية ، وهذا حريث بن مسعود ، وإلى جواره تقف الأخت سعدى بنت دندان ، وعلياء بنت رضوان ، أما هذه التي تقف بجواري فهي ليلى شقيقتي ، أما الشخص الذي يجاورك فهو عيسى بن موسى بن علي الأباضي ، فتذكرنا يا أخي واعلم بأننا لن ننساك أبداً .

وبعد أن أكلوا ذبيحتهم شدوا على خيولهم ، وساروا بالاتجاه الذي حدده لهم رباح ، وهم يثنون على كرمه وحسن ضيافته ، ولم يصادفوا في طريقهم المعزول عن عيون البشر أية متاعب حتى أطلوا على تدمر ، ومنها سلكوا الطريق الصحراوية المؤدية إلى سلمية ، ولما وصلوا إلى جبال البلعاس الواقعة على مسير يوم واحد من سلمية شاءوا أن يأخذوا قسطاً من الراحة ويباتوا ليلتهم بجوار غابة البطن التي

تكلل هامات جبال البلعاس ، فنزلوا عن صهوة خيولهم ، ونصبوا خيمتين ، وأشعلوا النار ليعدوا الطعام ، بينما طلب الحسين بن زكرويه من زميله سعيد الجنابي أن يرافقه في جولة صغيرة عسى أن يوفقا في اصطياد غزال ، أو بعض الطيور لتكون عشاء لهم ، ولكن ليلى اعترضت على خروج شقيقها في مثل هذه الساعة وقد أنهكه السفر ، وأتعبه طول المسافة ، فهو بحاجة ماسة إلى الراحة والاستلقاء ، لا إلى الصيد والتجوال . غير أن سعيدا صمم على مرافقة الحسين في جولة صغيرة يصطاد فيها ، ويستطلع معالم هذه الجبال الخضراء الشامخة في قلب البادية السوري . فرمقت ليلى الحسين بنظرة عتاب ، وعدم رغبة في خروجهما خشية أن يضلا الطريق ، أو يعترضهما اللصوص ، ثم عادت إلى رفيقاتها لتشاركهن في إعداد الطعام . بينما خرج الحسين وسعيد ، واتجها نحو الجبل ، فصعدا السفح ، وانحدرا نحو الوادي ، ولكنهما وقفا فجأة عندما شاهدا في الجهة المقابلة لهما من الوادي ساقة من الغزلان ترعى ، فاتفقا على أن يفترقا ، فينزل سعيد من خلف الهضبة ويدخل الوادي من الجهة الغربية ، ثم يحاول تخويف الغزلان عسى أن تنطلق نحو مخرج الوادي الشرقي محاولة الصعود إلى السفح ، فتجد الحسين بانتظارها ، وقد كمن لها بين الصخور ، فيصطاد منهم ما يقدّره الله عليه . وأسرع سعيد بالهبوط متسللاً من وراء الهضبة ، ولما وصل إلى مدخل الوادي الغربي صرخ بالغزلان ورماها بالحجارة ، فانطلقت نحو الشرق لتصعد إلى السفح ، ولما أصبحت على خطوات من المكان الذي يكمن فيه الحسين ، اختار من بينها تيساً كبيراً كان ينوء بثقل جسمه ، فهجم عليه وطعنه طعنة نجلاء وقع على أثرها يتخبط بدمه ، فنادى على سعيد ليعود أدراجه ، ويحمل معه التيس ، ولكن سعيد لم يجب ، فناداه ثانية وثالثة ورابعة ، ولكن نداءه ظل بدون إجابة ،

فاستغرب الأمر ، وراح ينظر إلى المكان الذي رآه فيه قبل أن ينقض على الغزال ، فلم يجده ، ولا شاهد أو سمع أية حركة في ذلك الاتجاه ، فقرر أن يترك الغزال في مكانه ويذهب ليفتش عن سعيد ، وهبط مسرعاً إلى الوادي بنفس الاتجاه الذي سلكه سعيد ، وهو ينادي عليه ، وظل سائراً حتى وصل الى المكان الذي رآه فيه ، وراح يلتفت ذات اليمين ، وذات اليسار وينادي عليه ، إلا أن نداءاته التي كان يرددها الوادي ، ذهبت أدراج الرياح ، فشعر كأن السماء قد سقطت على الأرض بما فيها من كواكب وأجرام ، فانشقت الأرض وابتلعته ، يا ترى أين ذهب ، شقيق ليلى ورفيق دربه ، فإذا عاد بدونه ، كيف يكون وقع النبأ على ليلى ، وقد نصحتهما بعدم الخروج ، إنه لموقف صعب ، فلا بد له من مواصلة البحث بدقة وحذر ، وسار بنفس الاتجاه الذي سلكته مجموعة الغزلان ، وما كاد يصل إلى منتصف الوادي حتى سمع أنيناً ينبعث من مكان ما في الناحية الجنوبية من الوادي ، فاتجه إليه ، وكان كلما سار عدة خطوات يزداد وصول الأنين إلى مسامعه أقوى وأشد ، فأسرع الخطى نحو المكان الذي ينبعث منه الأنين ، فلم يشعر إلا وقد أوشك على الوقوع في حفرة كبير ، فتوقف فوق الحفرة ونادى على سعيد ، فأجابه بصوت منخفض يدل على أن صاحب الصوت يتألم وهو في قاع الحفرة ، فقال له : هل أصابك مكروه يا سعيد ، كيف سقطت هنا ؟ فأجابه بصوت متقطع : سليم الحمد لله سوى بعض الخدوش ، ولكنني لا أستطيع الخروج لكبر الحفرة التي سقطت بها وأنا لا أدري بوجودها .. كانت مغطاة ، وأظنها قد حفرت خصيصاً لتكون فخاً للغزلان ، فأسرع يا حسين واطلب مساعدة الإخوان ، فليأتوا مع الحبال ، فأنا كما ترى سليم ، وليست بي أية كسور أو جراح خطيرة.

فقال حسين : ألا يمكنك أن تمسك بيدي إذا بسطتها لك؟

فقال سعيد: المسافة طويلة ، بيني وبينك ، فحاول أن تأتي بالاخوان والحبال ، ذلك أنفع وأجدى وأسلم.

ولما رأى الحسين أنه لا بد له من الاستعانة باخوانه، عاد مسرعاً نحو المكان الذي ينزلون فيه ، وقد أذهلته المفاجأة ، وسيطر عليه الحزن ، إذ كيف سيدخل المكان وحيداً بدون سعيد ، وماذا سيقول لليلى التي نصحتهما بعدم الخروج ، سيكون وقع المفاجأة عليها ضخماً ، ولن تغفر له هذه الهفوة ، ولم يشعر إلا وقد أصبح على مسافة قصيرة من المكان فنادى على عيسى وحريث وطلب منهما أن يحضرا الحبال ويأتياه بسرعة ، لأن سعيد قد سقط في إحدى الحفر المعدة لصيد الغزلان وهو سليم ومعافى. فخرج الجميع من خيمتيهما عندما سمعوا نداء الحسين ، وراحت ليلى تصرخ وتستغيث . . . واشقيقاه ، لقد نصحتك بعدم الخروج ، لعن الله الصيد والصيادين ، هل أنت سليم حقاً !!

وما هي إلّا لحظات حتى أسرع عيسى وحريث ومعهما الحبال ، وساروا عبر سفح الجبل باتجاه المكان الذي أشار إليه الحسين ، ولما وصلوا ، ربط حريث نفسه بالحبال ، وهبط إلى قاع الحفرة ، فربط سعيد ، وطلب من رفاقه أن يسحبوه ، ففعلوا ، ثم أعادوا الحبل ثانية فربط حريث نفسه فيه ، وأخرج من الحفرة ، وعمدوا إلى الخدواش التي أصيب بها سعيد فضمدوها ، ثم عادوا إلى المكان الذي ينزلون فيه، وعرجوا وهم في طريق العودة على الغزال فأخذوه معهم .

هذه الحادثة التي وقعت صدفة وبدون أن يحسب لها أي حساب فجرت في أعماق ليلى ورقية كل ما يحملانه من عواطف حب ووفاء ، وسببت لهما الحزن واللوعة والخوف ، لذا فانهما ما كادتا تريان سعيد وهو سليم معافى حتى غمرتاه بالقبل والعناق ، ووجّها نظرات العتاب

إلى الحسين ، ولكنها بعد أن اطمئن قلبيهما على سعيد ابتسمتا للحسين وعانقته رقية ، بينما دخلت ليلى مع شقيقها سعيد إلى الخيمة لتعتني به ، وتسهر على صحته. ولكن الحسين الذي لاحظ انفعال ليلى وغضبها ، دخل خلفها إلى الخيمة ليعتذر عما سببه لها من قلق ، وليقسم لها الايمان المغلظة بأنه لن يعود إلى مثلها ، ما دام على قيد الحياة ، فاطمأن قلب ليلى وابتسمت له دليلاً على الصفح والغفران . فخرج وهو يبتسم ، فنادى على حريث وطلب منه أن يساعده ليعدا الغزال ، ليكون جاهزاً على العشاء .

وفي صباح اليوم التالي واصلوا المسير باتجاه سلمية ، فعبروا الوديان والهضاب ، واجتازوا السهول الخضراء السندسية ، التي تلتف حول المدينة من كل جانب ، وهي عامرة بالمواشي والطيور وبالماء النمير ، الذي يجري في كل اتجاه ، فيروي البساتين والحدائق ، والأشجار والكروم. وعلى جانبي الطريق الذي يقود إلى البلدة تنتشر رائحة الزيزفون ، وعبير الورود والأزهار.

وأخيراً وصلت البعثة بالسلامة إلى سلمية ،فاستقبلها الداعي عبد الله المبارك استقبالاً حافلاً يليق بها ، ثم أمر داعي سلمية أبو المعالي ليعد لهم منزلين قريبين من مدرسة الدعاة ، ويفرشهما بأحسن الفرش ، ثم يجعل الفتيات في منزل ، والشبان في منزل آخر ، على أن يتولى خدمتهم بعض الغلمان للشباب والجواري للفتيات ، على أن تكون جميع النفقات على حساب الدعوة .

ونترك الآن البعثة توالي دراستها ، ولنعود إلى سواد الكوفة إلى حيث تركنا الثالوث المقدس ينشط من أجل تطبيق نظام الإلفة والإخاء ، ويبث الدعاة في كافة القرى والدساكر ليبشروا بالدعوة ، ومبادئها العقلانية ، مما أدى إلى ازدياد نقمة الطائفة السنية في تلك

المناطق ، وأصحاب التجارة والصناعة وكبار المزارعين ، فرفعوا أمر نشاط الحسين الأهوازي وحمدان بن الأشعث وعبدان بن الحسين القادري ، إلى الوالي ، فبعث ببعض الجند للإتيان بهم إليه ، ولكن الأهوازي ورفاقه علموا بنوايا الوالي فتواروا عن الأنظار ، وقصد كل منهم مكاناً اختفى فيه عن أعين الجند ، فعبدان قصد البحرين والتجأ إلى آل الجنابي ، أما حمدان بن الأشعث فقصد آل زكرويه واختفى عندهم . بينما سار الأهوازي باتجاه كلواذي ليتسلل منها إلى ايران ، ولكنه قبل أن يجتاز الحدود العراقية ، قبض عليه جماعة « الهيشم » أحد كبار الملاك في تلك المنطقة ، بتهمة تحريض الفلاحين ومنعهم من العمل ، لكثرة ما فرض عليهم من عبادات ، وسجنه في غرفة بقصره ، وكتب إلى والي الكوفة يعلمه بأن الأهوازي أصبح سجيناً لديه ، ولكن الأهوازي استطاع الهرب من سجنه ، واختفى عن الأنظار .

ولقد كان هرب الأهوازي من سجنه أعجوبة انتشرت في كافة المناطق كانتشار النار بالهشيم ، استغلها أتباعه وزعموا بأنها تدل على كراماته ومنزلته الرفيعة عند ربه . ولم يحدّ اختفاء الأهوازي وعبدان وحمدان من نشاط الجماعات بل زادهم نشاطاً ، وكثر إقبال الناس على الإستجابة لدعوتهم ، حتى اتسعت رقعتها وشملت مناطق كثيرة ، حتى قيل بأن تعداد الجماعات قد ازداد زيادة كبيرة . مما شجع زكرويه ابن مهرويه للتوسط لدى الوالي وتقديم بعض الهدايا والمال إليه ، ليصرف النظر عن ملاحقة الأهوازي وإخوانه ، حتى يعودوا إلى نشاطهم ، ولو كان هذا النشاط بصورة سرية .

وبالفعل عادوا إلى الظهور ثانية في السواد بعد أن هدأت الضجة التي قامت حولهم ، ليزاولوا نشاطهم الدعاوي بشكل منظم

ودقيق ، فأمر الأهوازي بشراء السلاح ، وفرض على كل فرد من الجماعات اقتناء قطعة منه ، مهما كانت أوضاعه المالية والاجتماعية لحماية أهله وممتلكاته ، فأدخلوا الرعب في قلوب من جاورهم من غير أتباعهم ،وحاولوا رفع أمرهم ثانية إلى الوالي ،ولكن الوالي لم يستمع إلى أي شكوى بحقهم ، متعللاً بأنهم ليسوا سوى جماعة من الفقراء لا يشكلون أي خطر على الدولة.

وتوجه بعض الناقمين الى بغداد ورفعوا أمرهم الى الخليفة ، وحذروه من النشاط الذي يقوم به الإسماعيلية في السواد وفي البحرين والقطيف وغيرها من المناطق ، ولكن الخليفة الذي كان مشغولا بكثرة الاضطرابات في مختلف أنحاء الخلافة ، وعدهم بدراسة الأوضاع ، ثم أهمل القضية بعد أن أحالها إلى والي الكوفة ، وطلب منه التحقيق فيها . ولكن الوالي الذي كان قد قبل الهدايا والرشوة من زكرويه أسدل على تحركات الاسماعيلية في تلك الجهات ستاراً من النسيان ، وكتب إلى الخليفة ينفي كافة المزاعم ، ويتهم الذين رفعوا الأمر إليه بأنهم ساخطون حاقدون متعصبون . فطوى الخليفة الصفحة رغم التحذيرات والإنذارات الكثيرة التي كانت ترفع إليه .

وفي أحد الأيام من عام ٢١١ هجرية عقد الثالوث المقدس الذي يتألف من أبو سعيد الجنابي وزكرويه وحمدان بن الأشعث اجتماعاً سرياً برئاسة الحسين الأهوازي ، ليتدارسوا أوضاع الجماعات ، ومدى نشاط الدعاة ، ولاختيار دار هجرة يبنونها ، ويلجأون إليها في الملمات ، وبنفس الوقت للإطلاع على الأوامر والمراسلات التي تلقوها بواسطة الحمام الزاجل من مقر الإمامة في سلمية.

ولما كان انتشار الدعوة بهذه السرعة الفائقة قد لفت أنظار الجوار

والطوائف الأخرى المناوئة ، فقد قرر الثالوث بعد دراسة الأوضاع من كافة جوانبها ، شراء المزيد من السلاح ، وبناء دار هجرة يتم تحصينها وحمايتها من قبل الجماعات ، وخصصوا مبالغ ضخمة جمعوها عن طيب خاطر من الإخوان لدفع ثمن السلاح ونفقات التحصين ، وكلف عبدان أمين سر الثالوث المقدس للإتصال سراً بوالي الكوفة والاتفاق معه على مبلغ معين يدفع له في مطلع كل شهر شريطة أن يغض الطرف عن النشاط الإسماعيلي في ولايته ، ويخبر عبدان عن كل إجراء يتخذه الخليفة بشأنهم .

وبالإضافة إلى هذا فوّض عبدان بأن يكتب تقريراً شاملاً عن النشاط الدعاوي ، وتحركات الدعاة ، ومدى الاستجابة للدعوة ، وعن سير نظام الإلفة وتطبيقه في كافة القرى والدساكر ، وخاصة عن نجاح هذا النظام في الأوساط النسائية ، وبين المزارعين والعمال ، الذين تعاونوا بكل جد ونشاط ، وأصبحوا أخوة متضامنين متكاتفين ، يبذلون أقصى جهودهم لانتشار الدعوة ، ومساعدة إخوانهم من الفقراء والمعوزين ، حتى أنه خلال هذه الفترة الوجيزة التي لم تتجاوز السبع سنوات ، لم يبق فقير ، ولا عاطل عن العمل بين الجماعات ، فالجميع يعملون ويداومون على العبادة ، ويؤدون الفرائض الدينية ، ويجمعون أموال الخمس والفطرة بانتظام ودقة .

ولا بد من لفت نظر الإمام إلى ضرورة اختيار بعض الدعاة المشهود لهم بالكفاءة والمقدرة ، وإرسالهم إلى السواد بأسرع وقت ممكن ، ريثما يتم تخريج بعثة السواد التي أوفدت كما أشرنا إلى سلمية لتلقي العلم . وبالاضافة إلى كل هذه الأمور طلب من عبدان أن يطلب من مركز الامامة في سلمية أن تزود سواد الكوفة ببعض الكتب

والأبحاث التي كتبها الدعاة ليتم تعميمها بين الجماعات ليتثقفوا بالثقافة الدينية .

ولما وصلوا في تعلماتهم إلى هذا الحد، قال عبدان : لقد انتهيت من وضع عدة كتب ، وبعض الأبحاث ، فهل تسمحون لي بنسخها وتعميمها على الجماعات؟

فقال الحسين الأهوازي : نحن لا نشك بمقدرتك العلمية ، وطول باعك في هذا الحقل ، ولكن في نظام الدعوة لا يجوز نشر أو نسخ أو تعميم أي كتاب أو رسالة أو بحث قبل عرضه على الإمام بالذات وأخذ موافقته ، فإذا رغبت فيما نوهت عنه ، فلا مانع من إرسال ما لديك من كتب وأبحاث ، إلى مقر الإمامة ، ليطلع عليها الإمام ، أو من يكلفه بذلك ؟

فقال عبدان : هذا هو الرأي السديد ، وسأقوم بارسال ما لديَّ من كتب وأبحاث ورسائل ، ولكن على دفعات إن شاءالله تعالى . كما وأنني سأكتب رسالة خاصة لابن أختي عيسى بن موسى الذي يتلقى العلم في سلمية ، ليحدث سيدنا عبد الله بن المبارك عن مؤلفاتي ، وليرجوه أن يطلع عليها بالذات إذا سنحت له الفرصة !

فقال أبو سعيد الجنابي : الذي أعلمه يا إخواني بأن هناك العديد من المفكرين والعلماء بين الدعاة ، أمثال أخينا ورفيقنا الداعي أحمد بن الحسين بن سعيد بن حماد بن سعيد بن مهران المعروف بدندان ، وهو من الفلاسفة الكبار الذين خدموا الدعوة ، وضحوا في سبيلها بالمال الكثير ، فهل نطلب منه أن يوافينا بما لديه من مؤلفات لنرسلها إلى مركز الإمامة؟

فقال الحسين الأهوازي : ولم لا . . إذا كان هو يرغب في ذلك ، لقد اطلعت على كتابه المختصر في الدعوات ، فوجدته من عيون الكتب ، وفيه من الآراء العقلانية ، ما يجعل القارىء يقف أمامه باعجاب وتقدير . وكذلك قرأت له أيضاً كتاب المثالية ، وكتاب الإحتجاج ، وهما بحق جديران بالمطالعة . ! !

فقال عبدان : سأكتب رسالة اليوم إلى دندان أعرض عليه الأمر ،وأطلب منه أن يوافينا بما يود أن يعرضه على مركز الإمامة من مؤلفات أو أبحاث !

وقال الحسين الأهوازي : قبل أن ننهي اجتماعنا هذا لا بدّ لي من إعلامكم بأنني قررت في ضوء النشاط الذي نبذله لنشر الدعوة ، وما أوجده هذا النشاط من ردة فعل لدى الخصوم والحكام الذين شرعوا في مراقبة كل تحركاتنا بين القرى والدساكر ، أن نختفي عن الأنظار ، ونجعل تحركاتنا وتنقلاتنا سرية حتى عن أقرب الناس إلينا . وقد فوضت بأعتباري داعي دعاة جزيرة العراق الأخ حمدان بن الأشعث لينوب عني في كافة الأمور المتعلقة بمنطقة السواد ، وينوب عنه في حالة غيابه عبدان ، وفوضت الداعي الأخ أبو سعيد الجنابي بأن يكون النائب الثاني في البحرين والقطيف وهجر ، وأطلقت يده لقيادة الجماعات والإشراف على كل كبيرة وصغيرة . كما أطلقت يد الداعي الأخ زكرويه بن مهرويه ليقوم مقامي وينوب منابي في بادية السماوة ولدى القبائل المتنقلة بين العراق وبادية الشام .

وسأختفي تماماً عن الأنظار ولن أظهر إلا إذا دعت الحاجة ، وسأكون قريباً جداً من مواقع الأحداث أراقب كل شاردة وواردة ،

ريثما تنجلي الأمور ، وتستقر الأوضاع ، هذه القرارات اتخذتها بناء على التعليمات التي وصلتني من مقر الامامة حرصاً على سلامتي وسلامة الدعوة ، وخشية الوقوع بيد الخصوم .

وطلب من الثالوث المقدس أن يضعوا أيديهم في أيدي بعض ويتعاهدوا على التكاتف والتعاون لما فيه مصلحة الدعوة وسعادة الجماعات . ثم انفض الاجتماع بعد أن ودع كل منهم صاحبه واتجه إلى المنطقة التي حددت له .

ولما وصل أبو سعيد الجنابي إلى البحرين استدعى كافة الدعاة من مناطقهم ، وطلب إليهم أن يرجعوا إليه في كل ما يتعلق بنشر الدعوة ، وتطبيق نظام الالفة والإخاء ، لأنه أصبح المرجع الوحيد المسؤول عن الدعوة في البحرين والقطيف وتوابعهما من القرى والدساكر ، على أن يعين من يساعده وينوب منابه ويشد أزره ممن يختاره من الدعاة لبلورة نظام الألفة وشحنه بطاقات عقلانية وسياسية جديدة مشبعة بالإيمان المطلق ، والطاعة العمياء ، لمواجهة الصراع بين المذاهب والأفكار في مجتمع البحرين ، وقال الجنابي : يا إخوتي وأبنائي ، يا من ضحيتم وأخلصتم في عملكم ، أناشدكم التعاون معي بكل طاقاتكم العلمية والسياسية ، لنوحد الصفوف ، وننشر اليقظة والوعي بين الجماعات ، ونجسد أحلامهم في العدالة والمساواة والمحبة ، فعلى الفرد المستجيب لدعوتنا أن يتنازل عما يملكه من أموال ومتاع لصالح الجماعة ، وعلى النساء المستجيبات أن يتبرعن بكل ما يملكنه من حلي ومتاع ، ويشاركن بالجهود الدعاوية والتنظيمية ، لذلك سأختار بعض الأخوات الداعيات ليتولين قيادة المنظمات النسائية ، ويشرفن على تقدم المرأة ونشاطها في كافة الحقول : الاجتماعية والصحية والتعليمية .

وسوف أصدر بعض التعيينات في فرصة قريبة تشمل كافة المناطق ، وسأختار من بينكم النواب والمساعدين ، كما سأطلب من مقر الإمامة بعض الدعاة المشهود لهم بالكفاءة والإخلاص ، على أن يكون من بينهم بعض الداعيات البارعات الذكيات ليعملن في الحقل النسائي .

واعلموا بأن الدين والعقيدة لخدمة المبدع سبحانه وتعالى وإصلاح أحوال الجماعات الاجتماعية والعلمية والاقتصادية ، لذلك أطلب إليكم جعل أهدافكم الدينية والعقائدية وسيلة لإسعاد الانسان وتحريره من الظلم والاضطهاد ، وإيجاد العدل والمساواة والأخوة الحقة بين الجميع ، لا فرق بين قومية وقومية ، أو عرق أو جنس ، طالما ينطلق الجميع من أرضية واحدة ، لهدف واحد .

ولا بد من إحاطتكم علماً بأن أحد الدعاة الحرم وهو عبد الله بن ميمون سوف يقوم بجولة قبل نهاية هذا العام على إيران وسواد الكوفة والبحرين ، وربما عقد اجتماعاً عاماً لكافة الدعاة في مكان يحدده بنفسه ، ولقد أحيطت زيارته بالكتمان الشديد حرصاً على سلامته ، ومن البديهي أن يرافقه بعض الدعاة ، لذلك آمل زيادة النشاط ، والاعتناء بالتنظيمات والترتيبات في حقل الأخوة والمحبة والوفاء .

أما الداعي زكرويه بن مهرويه فانه بعد أن وصل إلى مقره في قرية الصوار فقد استدعى إليه ولديه يحيى وأبو العباس وطلب منهما أن يدعوان إليه كافة الدعاة وبعض الوجهاء للتداول في بعض الأمور الهامة المتعلقة بنشاط الدعوة وضرورة انتشارها في كافة البوادي التابعة لهم ، وهناك بعض التعليمات والإرشادات التي وصلت من مقر الإمامة في سلمية سيطلع الجميع عليها . كما أخبر ولديه بأنه أصبح أحد

الدعاة الثلاثة الذين يقودون الجماعات ونائباً لداعي الدعاة الحسين الأهوازي ، ولقد منح صلاحيات واسعة ومطلقة لمعالجة كافة الأمور الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وتقدم آل زكرويه متوقف على ما يبذلونه من خدمات في سبيل الإمام والجماعات ، ومدى إخلاصهم وتضحيتهم في تحقيق كافة الأهداف والتمهيد لظهور الإمام في الوقت الملائم على رأس حركة إصلاحية شاملة ترمي إلى خلق مدينة أهل الحق التي يتمتع فيها الفرد بالرخاء التام.

وذكّر ولديه بأن أخاهم الحسين الذي يدرس في سلمية سيعود ليتولى أرفع المناصب ، وليشارك في القيادة والإرشاد ونشر الدعوة ، فليمهدوا لعودته بين النبط والقبائل المجاورة في السماوة وبادية الشام ، وليجمعوا الأموال والهبات من الأغنياء لشراء السلاح للدفاع عن النفس ، ولمساعدة الفقراء والمعوزين .

أما حمدان بن الأشعث النائب الثالث لداعي الدعاة فقد انضم اليه البقية الباقية من سكان السواد زرافات ووحداناً وأغلبهم من الإثني عشرية ، الذين كانوا من أخطر منافسي الدعوة ، بعد أن ملوا انتظار إمامهم الثاني عشر ، فوزع عليهم المساعدات المادية ، ووفر لهم العدالة الاجتماعية ، والمساواة ، ورفع عن الجميع الظلم والاستبداد ، فعاشوا متضامنين متحابين يتعاونون في السراء والضراء .

ولكن كل هذا النجاح الهام الذي حققه حمدان بن الأشعث لم يحد من طموحه ، ومن أهدافه الناهدة إلى التربع على عرش الدعوة في السواد وغيرها من البلدان المجاورة ، وقد شجعه على هذا الطموح صهره عبدان العقل المفكر ، والكاتب الملهم ، وأمين سر الثالوث المقدس أي القيادة الثلاثية المؤلفة من أبو سعيد الجنابي وزكرويه بن

مهرويه وحمدان بن الأشعث ، ولولا خوف حمدان بن الأشعث من نفوذ قيادة الدعوة في سلمية ، لوثب على الزعامة واغتصبها ، ولكنه كان دائماً وأبداً يعود إلى جادة الصواب ويبشر بالإمام المنتظر الذي سيظهر في الوقت الملائم ليتسلم الزعامة الفعلية .

ويبدو أن الحسين الأهوازي قد لاحظ هذا الطموح عند حمدان ابن الأشعث وصهره عبدان ، فحاول أن يحد منه باعتباره داعي دعاة جزيرة العراق المسؤول عن سير الدعوة وتنظيماتها في هذه المناطق ، فعقد اجتماعه الأخير الذي ضم الزعماء الثلاثة ، فمنح كل منهم صلاحيات واسعة في منطقته ، وغاب عن مسرح الدعوة في السواد متوارياً عن الأنظار ، ثم اختفت زوجته ولحقت به إلى جبال الطالقان حيث عاشا بعيدين عن مسرح الأحداث فترة من الوقت ، ثم غادر الحسين الأهوازي المنطقة بكاملها متوجهاً إلى سلمية بعد أن تلقى رسالة خاصة من مقر الإمامة تنبئه بانتقال الإمام عبد الله بن محمد بن اسماعيل واستلام ولده أحمد بن عبد الله بن محمد بن اسماعيل الإمامة من بعده حسب الأصول المتبعة في نظام الدعوة .

ولم يكن موقف حمدان بن الأشعث وعبدان هو الوحيد الذي ظهرت بوادره في مجتمع السواد ، بل كانت هناك بوادر طموح آخر بدأت تتبلور وتظهر بصورة سرية كصراع على النفوذ وتسلم القيادة في السواد والسماوة والبحرين والقطيف ، حيث عقد زكرويه بن مهرويه اجتماعاً عائلياً ضم أولاده وأنسباءه وبعض الوجهاء ، وطلب من المجتمعين أن يوجهوا رسالة خاصة إلى مقر الإمامة في سلمية يرشحون فيها زكرويه لمنصب داعي الدعاة في جزيرة العراق بديلاً عن الداعي الحسين الأهوازي الذي توارى عن مسرح الأحداث منذ فترة .

ولكن ولده يحيى بن زكرويه قال : ألا ترى يا والدي بأن إرسال مثل هذه الرسالة في هذا الوقت بالذات وقبل وصول الداعي عبد الله ابن ميمون يعتبر مخالفة للنظام الإسماعيلي وخروجاً على تعليمات الإمام ، لأننا حتى هذه الساعة لم نتبلغ أي شيء بخصوص الأهوازي الذي لا يزال المسؤول الوحيد عن سير الدعوة في جزيرة العراق ؟ وإن كان قد توارى عن الأنظار لضرورات أمنية ؟

فقال زكرويه بن مهرويه : عندما عقدنا اجتماعنا الأخير برئاسة الأهوازي منذ سنة تقريباً ، وأوكل الينا نحن الثلاثة الجنابي وابن الأشعث وأنا مهمة القيادة كنواب عنه ، داخلني الشك ، واعتقدت بأن الأهوازي قد أبعد عن مسرح الأحداث ، وربما انتدب إلى مكان آخر ، أو جمّد نشاطه ، وخشية أن يأتينا بديلاً عنه ، أو يعين أحد الثلاثة عوضاً عنه ، رأيت أن يرشحني الإخوان لهذا المنصب ، لأنني كما تعلم أنحدر من عائلة كانت منذ عهد الإمام محمد بن اسماعيل تبشر بالدعوة وتنشر أفكارها ، فجدك يا بني خدم ثلاثة من الأئمة وقبل أن يستجيب الجنابي وابن الأشعث للدعوة ، فماذا تقول لو تسلم أحدهما القيادة والزعامة بعد غياب الأهوازي؟

فقال أبو العباس بن زكرويه : أرى يا والدي أن نتريث ريثما يعود شقيقنا الحسين من سلمية فنتشاور معه بهذا الموضوع ، ولا أعتقد بأن مركز القيادة في سلمية سيتخذ أي إجراء من هذا النوع ، فعلينا أن نواصل نشاطنا الدعاوي والقيادي بنفس القوة التي عملنا فيها خلال هذه السنوات ، ولا ندع الشعور بتقصيرنا أو إهمالنا يتسرب إلى القيادة أو نفوس الجماعات ، ومتى حضر عبد الله بن ميمون سوف نرى ما يحمله في جعبته من أوامر وتعليمات .

فقال زكرويه : لا مانع لدي من الترقب والانتظار ، على أن نبدأ بالتخطيط منذ هذا اليوم لاستلام القيادة والزعامة ، لأننا أولى بها من غيرنا ، وسنظل على إخلاصنا للدعوة التي نشرناها بقوة في هذه البلاد !

وانفض الاجتماع بعد أن اتفق آل زكرويه على العمل بجد ونشاط في سبيل نشر الدعوة وزيادة المؤيدين لهم في كل تحركاتهم ، وأن لا يظهروا لحمدان ومؤيديه إلا المحبة والتضامن في حقل إنعاش الجماعات وإسعادهم .

ولما عاد عبدان في أحد الأيام إلى منزله وجد زوجته شقيقة حمدان ابن الأشعث قد انتابها مرض شديد ، ما لبثت أن ودّعت الدنيا ، فحزن عليها حزناً شديداً ، وانزوى في بيته يندب حظه العاثر ، ويشرف بنفسه على تربية ولديه ، وتخلى عن كل نشاط في حقل الطائفة ، مما لفت أنظار الجماعات ، فجاءه بعض الأصحاب معزين ومواسين ، وطلبوا منه أن يعود إلى نشاطه الدعاوي وستتولى بعض النسوة خدمة أولاده ، والإشراف على منزله بالتناوب . ولكنه اعتذر لهم عن عدم تمكنه من مغادرة المنزل لأنه شرع في كتابة كتابه البلاغ السابع ، ولن يخرج من منزله قبل إتمامه ، ليضمه إلى مجموعة مؤلفاته .

وقال له صديقه الداعي محمود البصري : هذا الخبر سأنشره بين الدعاة وخاصة أولئك الذين أعجبوا بكتابك المقصد وبرسالة الحدود ، ولكن ما رأيك يا سيدي لو بحثت لك عن امرأة تتخذها زوجة لك لتشرف على تربية الأولاد ورعاية المنزل لتتفرغ كلية للتأليف وللنشاط الدعاوي ؟

فقال عبدان : وهل بالإمكان إيجاد من تحل محل زوجتي

خديجة ، لقد كانت رحمها الله مثال المرأة المكافحة المؤمنة المتقشفة ؟

فقال البصري : عليك بابنة الداعي زكرويه بن مهرويه غصون ، فهي من خيرة النساء أخلاقاً وجمالاً وإيماناً !

فقال عبدان : أتعرفها يا بصري ؟

فقال البصري : عرفتها في إحدى الجلسات التي عقدتها في كلواذي لنساء البلدة ، وكانت آية في الذكاء والمنطق ، وأظنها تنطق بالشعر إن لم أقل شاعرة مبدعة !

فقال عبدان : ما رأيك لو تخطبها لي يا بصري من هذه الساعة ؟

فقال البصري : سأتوجه حالاً إلى زكرويه وأطلبها منه ، فعسى أن يوافق على تزويجك منها !

وبالفعل سار البصري إلى زكرويه وطلب منه أن يزوّج ابنته غصون للداعي عبدان ، على ما يراه من المهر ، فهو بحاجة إلى زوجة ترعاه ، وتشرف على تربية أولاده ، بعد وفاة زوجته !

أذهلت المفاجئة زكرويه فعجز عن الإجابة الفورية ، وأطرق يتأمل ويفكر ، ويسأل نفسه : انها فرصة العمر ، لماذا لا يكسب عبدان إلى صفه وهو العقل المفكر ، والحكيم المبدع ، الذي يعتمد عليه حمدان بن الأشعث ؟

وألح البصري طالباً الجواب ، فانتبه زكرويه وقد صمم على الموافقة فقال : هذا يشرفني ، ولكن ألا تمهلني حتى أستشير غصون ؟

فقال البصري : أدخل عليها يا أخي وابحث معها الأمر فأنا في الانتظار !

دخل زكرويه إلى جناح الحريم فاستشار ابنته غصون بالأمر ، فأظهرت عدم الرغبة في الزواج كونها وقفت جسدها ونفسها للدعوة ، ولكن زكرويه استطاع أن يقنعها بالقبول بعبدان زوجاً لها ، وعاد إلى البصري فأعلن عن مباركته لهذا الزواج بعد موافقة غصون وأهل بيته . وتم زواج عبدان بن الحسين القادري على غصون ابنة زكرويه في احتفال اقتصر على الأهل وبعض الأصحاب .

وبينما كان حمدان بن الأشعث جالساً في منزله غارقاً في التفكير حول مستقبل الدعوة ووجوده على رأسها بعد أن تزوج عبدان زميله ورفيقه بابنة زكرويه ، دخل عليه غلامه ليعلمه بوجود رجلين في الباب يطلبان مقابلته ، ويبدو أنهما من التجار الغرباء عن المنطقة . فأمره حمدان أن يسمح لهما بالدخول عليه فوراً ، لعلهما يحملان له بعض الأخبار من الحسين الأهوازي أو من مقر الدعوة في سلمية .

ولما دخلا عليه قدما له رسالة اعتمادهما كدعاة في السواد ، وأبلغاه بأن أحدهما يدعى رباح بن سليمان العوفي والآخر علي بن يعقوب ، فسلم عليهما ودعاهما للجلوس ، وراح يتحدث معهما حول بعض الأمور الدعاوية ، ثم أنزلهما في أحد المنازل المخصصة للدعاة ريثما يحدد لهما مجال نشاطهما .

الفصل السادس

النشاط الفكري وبعثة اليمن

وصل الحسين الأهوازي سراً إلى سلمية عام ٢١٣ هجرية ، فوجد أن الإمام عبد الله بن محمد بن إسماعيل قد توفي منذ سنة ، وأن الذي خلفه هو ولده أحمد بن عبد الله ، الذي وجه اهتمامه الزائد الى العلم والمعرفة ، والإشراف الفعلي على تصنيف الكتب والرسائل التي تبحث في مختلف العلوم العقلانية والماورائية .

ولقد شارك الدعاة والعلماء والفلاسفة الإسماعيلية في هذه النهضة وساهموا في تصنيف الرسائل العرفانية وجمعوا فيها من العلوم والحكم والمعارف الإلهية والفلسفية والشرعية ، وأبانوا فيها الفضائل النبوية ، ودلّوا على فضل الرسول ﴿ﷺ﴾ وعالي شرفه ، وما خصّه الله من المنزلة الرفيعة ، وفتحوا كل أبواب الحكمة المرتجة ، ما يعجز عن الإتيان بمثله كل الخلق ، إلا من اصطفاه الله تعالى من رسله ، وأمدّه بوحيه ، أو من كان من شجرة النبوة ، وأخذ الكتاب بقوة ، فاستخرج دفائنه ، واستثار كمائنه ، وأخذ علمه عن آبائه الطاهرين ، الآخذين له عن الوصي الذي تعلم من رسول الله ، ألف باب ، وانفتح له من كل باب ألف باب ، مما أنزله الروح الأمين على قلبه ، ليكون من المنذرين ، « وعرفت تلك الرسائل برسائل إخوان الصفا وخلان الوفا » .

ومن تعمق في دراسة تلك الرسائل ونظر إلى ما حوته من معارف عقلانية ، عرف أن تلك الثمرات الطيبة لا تحملها إلا شجرة النبوة ، وأغصان الإمامة ، ولا يكون إلا ممن خصّه الله بالتأييد والكرامة .

وهي اثنتان وخمسون رسالة في غرائب العلوم ، وفنون الحكم ، وطرائف الآداب ، وحقائق المعاني ، مقسمة إلى أربعة أقسام حرر كل قسم منها دعاة علماء ، وفلاسفة كبار ، وأدباء عظام : فمنها رياضية تعليمية ، ومنها جسمانية طبيعية ، ومنها نفسانية عقلية ، ومنها ناموسية إلهية .

ولقد لخّص الإمام بالذات هذه الرسائل برسالة واحدة سمّاها الرسالة الجامعة ، واعتبرها تاجاً لتلك الرسائل ، تتضمن الجوهر والحقائق ومعانيها ورموزها ، مستقاة ببراهين هندسية يقينية ، ودلائل فلسفية حقيقية ، وبيّنات علمية ، وحجج عقلية ، وأمور منطقية ، وشواهد قياسية ، وطرائق إقناعية لا يقف على كنهها ولا يحيط بحقائقها ، إلا من ارتاض وتحذق وعرف العلوم الماورائية ، لأنها منتهى الغرض وأقصى المبدأ ، ونهاية القصد ، وغاية المراد .

ووزعت تلك الرسائل في المساجد في كافة أنحاء العالم الإسلامي ، ولما وقع عليها الناس رفعوها إلى الخليفة العباسي المأمون ابن هرون ، فعلم أنه قد فشل في قطع حبل الإمامة ، فراح يتملق الطالبيين وسأل عن من يأتيه بكاتب تلك الرسائل ، ولكن الأمر ظل مستوراً ، تقية على صاحب الأمر .

في هذه الأجواء المشبعة بالعلم والمعرفة ، وصل الأهوازي سراً إلى سلمية فاجتمع بالداعي عبد الله بن ميمون القداح ، وشرح له الأوضاع في سواد الكوفة ، وبادية السماوة ، والبحرين وهجر ، وأحاطه علماً بأنه ترك خلفه عندما غادر كلوازي سراً ثلاثة نواب كل من منطقته ، وأنه تجول في بلاد فارس دارساً أوضاع الجماعات ، ثم عاد إلى سلمية وينوي أن لا يعود إلى السواد لأن السلطات تلاحقه في كل مكان ، وقد عممت أوصافه ، ووضعت جائزة كبرى لمن يرشد إليه . فرحب به عبد الله بن ميمون وأفرد له ولعائلته مكاناً خاصاً

ليقيموا فيه ، ووعده بالمثول بين يدي الإمام في أول فرصة.

ورغب الحسين الأهوازي أن يظل أمر وجوده في سلمية سراً من أسرار الدعوة ، حتى لا يصل خبر وجوده إلى العباسيين ، أو إلى أهل السواد الذين لا يعلمون عنه شيئاً ، ولا يعرفون أين ذهب ، وكيف اختفى؟!

طلب ابن ميمون من الأهوازي أن يغير ملامحه المعروفة ، ويرخي لحيته ، ولا يخرج من منزله إلا إذا اقتضت الضرورة ، وسيوكل بعض الغلمان بحراسته وخدمته ، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً ، وألح الحسين الأهوازي على عبد الله بن ميمون أن يسرع في تلبية كافة المطالب التي أرسلها من السواد ، وخاصة ما يتعلق منها بإرسال بعض الدعاة المشهود لهم بالمقدرة والكفاءة ليساعدوا على نشر الدعوة وتعميم الأفكار الإسماعيلية بين الجماعات عن طريق إلقاء الدروس والمجالس والمحاضرات ، كما سأله عن أحوال بعثة السواد التي أرسلت منذ عام ونيف لتلقي العلم في سلمية ؟

فقال عبد الله بن ميمون : أنت تعلم بأن هذه الأمور من اختصاص الداعي الأخ عبد الله بن المبارك ، ولكنني علمت بأن قيادة الدعوة قد أرسلت الداعي رباح بن سليمان العوفي ، والداعي علي بن يعقوب ، إلى السواد ، وهما من خيرة الدعاة ، وأشدهم علماً وإخلاصاً ، وقد أمرا بأن ينضما إلى حمدان بن الأشعث ، ويكونا تحت تصرفه .

أما بعثة السواد من الدعاة والداعيات ، فالمعلومات التي لدينا تدل على أنهم يتمتعون بقسط وافر من الذكاء ، ونشاطهم يدخل الطمأنينة إلى القلوب ، فأنا من جانبي أتنبأ لهم بمستقبل زاهر ، وسيكون لبعضهم إن لم أقل لجميعهم مستقبل مضيء ، لما يبذلوه من جهد ، في حقل المعرفة العقلانية ، وخاصة الحسين بن زكرويه ، وليلى

بنت الجنابي ، مع أنني لم أقابلها منذ فترة ، ولكن الداعي المشرف على المدرسة شديد الإعجاب بها . ثم سأل الأهوازي إذا كان يريد الاجتماع بأعضاء بعثة السواد ، ولكنه أجاب بالنفي لأنه يفضل أن يظل وجوده في سلمية محاطاً بالكتمان الشديد .

ويبدو أن الإمام أحمد بن عبد الله لم يكن موجوداً في سلمية عندما وصلها الحسين الأهوازي ، لأنه كان دائم الترحال يتنقل بين الجماعات في كافة أنحاء العالم الإسلامي ، لا يعرفه إلا كبار الدعاة ، حرصاً على سلامته وعملاً بنظام التقية ، لذلك وعد عبد الله بن ميمون القداح الحسين الأهوازي بأنه سوف يقدمه للإمام عندما تحين الفرصة ، وفهم من هذا الوعد بأن الإمام إما أن يكون مشغولاً في بعض الأمور الهامة ، وإما أن يكون في جولة تفقدية خارج المدينة ، لذلك فضل الإنتظار في المنزل الذي خصص له ، حتى يأتيه عبد الله ابن ميمون بالخبر اليقين .

ذكرنا أن الخليفة العباسي المأمون عندما اطلع على رسائل اخوان الصفا وخلان الوفا التي كانت توزع على المساجد أحس بأن وراء هذه الرسائل بعض العلويين من آل البيت لذلك عمد إلى الحيلة ، وراح يتقرب ممن يميلون إلى آل البيت ، عله يعرف منهم شيئاً عمن يكتب هذه الرسائل ويوزعها ، واتصل بالداعي الإسماعيلي الحسن بن موسى الترمذي وأخبره بأنه قرر أن يستعين بأحد علماء آل البيت ليكون ولياً لعهده يسلمه الخلافة متى وجد أنه أهل لها ، وسأل الداعي المذكور عن بعض العلوم الغامضة والإشارات والرموز الموزعة في بعض أي الذكر الحكيم ، ولكن الداعي اعتذر عن الإجابة وأخبره بأن الإمام الذي استتر من الظلم والتعسف هو وحده القادر على تبيان الحقائق ، فأظهر المأمون التوبة ، وطلب من الداعي أن يرشده إلى الإمام ليرد إليه الأمر ، ويدفع اليه الملك ، ويكون من

جملة خدمه .

فانخدع الحسن بن موسى الترمذي وانطلت عليه الحيلة ، فوعد المأمون بأنه سوف يرشده إلى الإمام في موعد آخر ، بعد أن أخذ عليه أكيد العهود والمواثيق ، وعاهده أن لا غدر ولا خيانة ، وتوجه الحسن ابن موسى الترمذي إلى مقر الإمامة وسرد على مسامع الإمام ما دار بينه وبين الخليفة المأمون من أحاديث وقال : لقد أعطاني يا مولاي المواثيق المغلظة إن عرفك وتأكد من هويتك سلم إليك الخلافة ، واعتبر نفسه خادماً لك وفي تعداد رجال حاشيتك .

فابتسم الإمام أحمد بن عبد الله ابتسامة عريضة وقال : هل تصدق يا ولدي أقوال هذا الجبار الذي لا يتورع عن ارتكاب الموبقات في سبيل الوصول إلى غايته ، إنه كاذب في عهوده ومواثيقه ، ولا يعقل أن تنطلي علينا أمثال هذه الحيل ، فاذهب وبلّغه بأنك لم تعثر على الشخص الذي اختفى عن الأنظار .

ولكن الداعي الحسن بن موسى الترمذي الذي انخدع بإيمانات المأمون وعهوده ألحّ في الطلب مؤكداً أن المأمون صادق في مواثيقه .

فقال له الإمام : إذا كنت ياولدي تثق به فاذهب إليه وعرّفه بأنك الإمام الذي يطلبه ، وأنك سترت نفسك عنه تقية وامتحاناً ليصفو قلبه ، ويظهر ما يدور بخلده ، فان أعطاك زمام أمره وأمّنك من سطوته وقهره ، رددت بدورك ما أعطاك إليّ ، وعرّفته تحويلك في اشارتك عليّ ، واعلم أنه في كل ذلك يمكر بك ، وسوف يقتلك بعد أن تعترف له بأنك الإمام المنشود . فودعه الداعي الحسن بن موسى ورجع إلى المأمون العباسي ، فأظهر المأمون الفرحة والسرور لقدومه عليه ، ورفع مقامه حامداً الله تعالى إذ رجع الية موفور الصحة .

وطلب المأمون أن يخلو لهما المجلس ، ثم قال مخاطباً الداعي : لقد أقلقني غيابك ، فما شعرت بالسعادة إلا عندما دخلت عليّ ، وإني لأرجو أن تكون خير دليل ، ينجيني في الآخرة من العذاب الأليم ، فحدثني عما فعلته ، ودلني على مكان الإمام من أبناء اسماعيل بن جعفر الصادق؟

فأعاد عليه الترمذي العهود والمواثيق ، فرددها معاهداً الله على الوفاء بكل حرف فيها ، فقال له الترمذي : إنني أنا الإمام الذي تود معرفته ، وإنما كتمت الأمر عنك ، لعدم ثقتي بعهودك ومواثيقك ، أما الآن وبعد أن وثقت بك ، فلا بد من إطلاعك على الحقيقة .

ولما كان الحسن بن موسى الترمذي قد أظهر من جزالة المنطق ، وسعة الإطلاع ، وقوة الحجة ، ما جعل المأمون يعتقد بأن ما يقوله الترمذي هو الحقيقة ، لأن هذا العلم والحكمة لا يمكن أن يكونا إلا في معدن النبوة ، والشجرة المباركة ، نادى المأمون على سيافه وأمره أن يضرب عنقه . فعلم الترمذي أن ما قاله له الإمام أحمد بن عبد الله هو الحق المبين ، فقال مخاطباً المأمون : لقد صدق مولاي عندما أنبأني بأنك من الماكرين الظالمين ، فلا حول ولا قوة إلا بالله . فعرف المأمون عند ذلك بأنه خدع ولم يصل إلى مراده وبغيته ، ومع هذا فقد أمر بقتل الترمذي .

هذه الحادثة كانت السبب المباشر لزيادة الحرص على سلامة الإمام أحمد بن عبد الله في إقامته ، وتنقلاته ، التي كانت تحاط بسرية تامة حتى عن أقرب المقربين ، ولا يعلمها إلاّ الدعاة الحرم ، وبزيادة هذا الحرص ازداد النشاط الدعاوي في كافة المناطق ، وكثر عدد المستجيبين للدعوة في كافة البلدان ، واستطاع العديد من الدعاة التسلل إلى المناصب الحساسة في مختلف الولايات والإمارات ،

والدواوين ، مما جعل قيادة الدعوة في سلمية تعرف كل ما يتخذ من إجراءات في حقها قبل تنفيذها وذلك بواسطة الدعاة العيون الذين توصلوا في بعض الأماكن إلى أرفع المناصب ، ونالوا ثقة الحكام والمسؤولين . هذا ما ساعد الدعوة على الإنتشار ، والدعاة على التحرك والتنقل بدون خوف أو وجل .

ظل الحسين الأهوازي في سلمية ما يقارب السنة وهو ينتظر أن تتاح له الفرصة للمثول بين يدي الإمام أحمد بن عبد الله ، ولكن الداعي عبد الله بن ميمون لم يبلغه خلال السنة بأن الإمام يرغب في مقابلته ، لذلك فضل الإنتظار لأنه يعلم بأن الإمام غير موجود في سلمية ، فلو كان موجوداً لما تأخر في طلبه ليطلعه على حقائق ما يجري في جزيرة العراق ، وعلى الخصوص في السواد والبحرين .

وخلال هذه السنة من الإنتظار توفي الداعي عبد الله بن المبارك لكبر سنه ، ثم تبعه بعد فترة الداعي عبدالله بن سعيد بن الحسين لإصابته بنوبة قلبية ، وسببت وفاة هذين الداعيين الكبيرين الحزن العميق في نفس الأهوازي الذي كان يقدرهما ويحترمهما ويرتبط معهما بصداقة طويلة تمتد في جذورها إلى أكثر من خمسة وثلاثين عاماً ، ولكن الموت حق ، وهذه إرادة الله التي لا تردّ ، فليس على الإنسان إلاّ الصبر ، لأن الجسد كالقميص يخلع عندما يبلى ، وتبقى الروح العارفة العاقلة ، لتعود خالدة إلى الكل الذي انبثقت منه .

وبينما كان الحسين الأهوازي غارقاً في تأملاته يستعرض الأحداث والوقائع التي مرت في حياته ، طرق باب منزله ، ودخل عليه الداعي عبد الله بن ميمون وهو منفرج الأسارير ليبلغه بأن الإمام بانتظاره ، ويرغب في مقابلته فوراً. فافتر ثغر الأهوازي عن ابتسامة عريضة تجسد ما يتفاعل في أعماقه من فرح وحبور ، وأسرع إلى ثيابه

فارتداها وسار مع عبد الله بن ميمون باتجاه مقر الإمامة . حيث دخلا على الإمام في مجلسه ، فقبل الأهوازي الأرض فأشار إليه الإمام أن يتقدم ليباركه ، وليجلس بين يديه ، ثم أشار إلى من كان في حضرته لينصرفوا لأنه يريد أن يخلو بالأهوازي ، فخرج الجميع إلا عبد الله بن ميمون الذي وقف على يمين الإمام .

وبعد أن أخذ الأهوازي مكانه بين يدي الإمام أطرق تقديراً واحتراماً ، فبادره الإمام أحمد قائلاً : أهلاً بك يا أهوازي في بيتك ، لقد خدمتنا خدمات كبرى سنسجلها لك على صفحات قلوبنا ، وثق بأنك ستظل موضع ثقتنا ، ومستودعاً لأسرارنا ، بارك الله فيك وأمد في عمرك ، ألا ترفع رأسك وتسرد على مسامعنا أخبار العراق والسواد والبحرين ؟

فرفع الأهوازي رأسه وحاول التطلع إلى وجه الإمام ولكن بصره ارتد كليلاً من شدة الاحترام وقال : لقد وقفت حياتي يا مولاي لخدمتكم بكل أمانة وإخلاص ، فأديت الأمانة التي عهد بها إليَّ والدكم طيَّب الله سراه ، ونشرت الدعوة بدقة ونظام ، ونفذت كافة التعليمات والإرشادات ، وها قد أصبحت دعوتكم في السواد والبحرين وبادية السماوة مزدهرة متقدمة بنظامها وقياداتها وتفاني الجماعات في سبيل ما يبذلونه من نشاط في نصرة الدعوة . هذا بالإضافة إلى دقة العمل في تطبيق نظام الالفة والإخاء ، وتعميم المحبة بين الجميع ، ونشر العدالة الإجتماعية بصورة تثير الإعجاب ، وتجسد نظرية أجدادكم بالمدينة الفاضلة ، أو مدينة أهل الحق .

ولولا شدة الضغط الذي تعرَّضت له أثناء وجودي في السواد ، لما اختفيت مع عائلتي ولجأت إلى حماكم ، ولا بد لي يا مولاي من

إحاطتكم علماً بما لاحظته في الإجتماع الذي عقدته مؤخراً لكبار دعاتنا في السواد والبحرين ، وهو التنافس الشديد بين كبار الدعاة على رفع مستوى الجماعات مادياً ومعنوياً ، بالإضافة إلى طموح البعض في الوصول إلى القيادة والزعامة ، فالذي أعتقده يا مولاي أنه ربما يؤدي هذا التنافس وذلك الطموح إلى اصطدام سري أو علني بين أولئك الدعاة . مما جعلني أضع ثلاثة نواب عني كل في منطقته حتى يتعاون الجميع في خدمة الدعوة والجماعات ، كما عيّنت الداعي عبدان أميناً ومستشاراً للدعاة الثلاثة ، وبذلك قطعت الطريق ولو مؤقتاً على كل خلاف قد يحصل في المستقبل .

فقال الإمام أحمد بن عبد الله : بارك الله فيك يا حسين لقد أحسنت العمل ، ولكن ألا ترى معي بأن نظام الألفة والإخاء الذي طبقناه في مجتمع السواد والبحرين بحاجة إلى بعض التطوير ليتناسب مع متطلبات الجماعات ، الاجتماعية والاقتصادية ، والعلمية ، باعتبار أن العدالة الاجتماعية التي ترتكز على أسس اجتماعية واقتصادية ، ومبادىء فلسفية ، ونظم متطورة وفق حاجات البيئة ، تقضي فوراً على استغلال الإنسان للإنسان .

والعدالة الإجتماعية يا بني لا تقفز إلى المجتمع بمجرد أن ينادى عليها ، وإنما تأتي اليه على مهل وفي تؤدة ، لأنها حريصة على نفسها من الإندفاع نحو قوم أغراب عنها وغريبة عنهم ، مما قد يدفعهم ولو عن غير قصد إلى الإخلال بشروطها ، والعبث بأسسها وتحويل جمالها قبحاً ، وحسنها دمامة .

وعلى هذا تكون العدالة الاجتماعية الصحيحة أسلوباً تدريجياً ونهجاً تطورياً يقوى على مر الأيام، وينمو ويترعرع بين الجماعات التي

تمارسه حتى يصير ذاتاً لهم يحفظونه بأعينهم ، ويفتدونه بأرواحهم .

والعدالة الاجتماعية الحقيقية بنظرنا لا تقوم أبداً على البطون الخاوية حيث يخضع المجتمع للاحتكار ، أو في جماعات تسيطر عليها البطالة وتكون عرضة للكوارث والأزمات . فمن الواجب أن نوجد نظاماً اقتصادياً متطوراً ينسجم مع نظام الإلفة ويؤيده ، ويوفر له الأسباب التي تجعل منه قوة فعالة تنظم علاقات الأفراد ببعضهم وبالدعوة ، وتضع الحلول للبطالة العمالية ، والصناعية والزراعية ، كما وأننا سنهتم بالمرأة فنعطيها حقوقها كاملة كما نص عليها القرآن الكريم ، ونشركها في كافة التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية . وقد كلفنا أحد الدعاة الخبراء بأمثال هذه الأمور لعمل نظام خاص بالمرأة الإسماعيلية ، وسنرسله إلى السواد فور اطلاعنا عليه وتصديقه . فعسى أن يوفقنا الله الى تحقيق كافة الآمال التي تتفاعل في أعماق المؤمنين المخلصين .

فقال الحسين الأهوازي : لقد أدخلت على قلبي السعادة ، بما نطقت به من حكم ، وأشرت إليه من معلومات . وبهذه المناسبة يؤسفني يا مولاي أن أبلغكم بأنه من المستحيل عليّ العودة إلى السواد بعد أن اكتشف أمري وعممت أوصافي .

فقال الامام أحمد بن عبد الله : أعلم هذا يا أهوازي ولا أكلفك بما لا طاقة لك بحمله ، فأين تريد أن أبعث بك داعياً ومبشراً لنا ؟

فقال الأهوازي : أشعر يا مولاي بالإعياء وانني بحاجة الى الراحة بعد أن بلغت ما بلغت من العمر !

فقال الإمام أحمد بن عبد الله : إذا كنت ترغب في البقاء هنا ،

فما رأيك لو عينّاك من دعاتنا الحرم بعد أن فجعنا الله بداعيين من دعاتنا الأربعة؟

فقال الأهوازي : هناك من هو أجدر مني لهذا المنصب يا مولاي ، فاسمح لي بالخلود إلى الراحة !

فقال الإمام أحمد بن عبد الله : طالما هذه هي رغبتك فلا مانع لدي ، وسوف نوفر لك كل رعاية إن شاء الله .

ونهض الإمام من مجلسه معلناً انتهاء المقابلة ، فتقدم منه الأهوازي وقبل يديه ثم خرج عائداً إلى منزله ليخلد إلى الراحة والهدوء ، وليتفرغ إلى التأمل والعبادة .

وبعد خروج الأهوازي أمر الإمام عبد الله بن ميمون القداح بأن يخصص راتباً شهرياً للأهوازي طيلة حياته ، وأن يرسل له غلامين يتوليان خدمته والسهر على راحته ، ثم طلب من ابن ميمون أن يستعد للقيام بجولة إلى جزيرة فارس والعراق لدراسة الأوضاع ، كما أنه أعلن رغبته في التوجه إلى دمشق ، ومنهما إلى طرابلس واللاذقية ومصياف حيث سيقضي بعض الوقت في مصياف ريثما يعود عبد الله بن ميمون من رحلته .

وبالفعل غادر عبد الله بن ميمون سلمية في اليوم الثاني يرافقه ولده أحمد بن عبد الله بن ميمون متوجهين إلى الأهواز عن طريق البصرة ، ولما وصلا إلى البصرة استقبلهما داعيها محمد الوراق الذي أكرم وفادتهما وأطلعهما على سير الدعوة في منطقته ، وسلمهما ما لديه من أموال الجماعات ، فزوّده عبد الله بن ميمون بالإرشادات والتعليمات ، وأمره أن يكون على اتصال دائم بدعاة السواد ، والسماوة والبحرين ، وأن يحرص على العمل بسرية تامة دون أن يلفت

إليه أنظار المسؤولين ، وأن يحاول تطبيق نظام الإلفة بين الجماعات ولو بصورة مبدئية ، لأن أوضاع الجماعات في البصرة تختلف عنها في السواد والبحرين .

وواصل عبد الله بن ميمون المسير حتى وصل إلى الأهواز في خوزستان ، فأمر داعيها أن يعلم دعاة السواد والبحرين بأنه في طريقه إليهم ، فليستعدوا لاستقباله في قرية كلواذي حيث سيعقد اجتماعاً يحضره الرؤساء الثلاثة حمدان بن الأشعث ، وأبو سعيد الجنابي ، وزكرويه بن مهرويه ، بالإضافة الى الداعي عبدان والداعي دندان . على أن تكون الرسالة المرسلة إليهم على جناح الطير وبالشيفرة حتى لا يكتشف معانيها أحد .

وانتقل عبد الله بن ميمون إلى جبال الطالقان حيث أجرى عدة اتصالات واعطى بعض الإرشادات والتعليمات . وجمع ما لديهم من أموال تخص الإمام ، ثم عاد إلى الأهواز ، وانتقل مع ولده أحمد إلى كلواذي متخفياً بزي الدراويش المتصوفة الذين يتجولون في البراري والقفار تقشفاً وزهداً في الحياة الدنيا ، فوجد في استقباله خارج القرية الثالوث المقدس ، وعبدان ودندان ، فانحنوا له إجلالاً وتقديراً وقبلوا يديه ، ثم رافقوه إلى الدار التي أعدت لاستقباله ، حيث أخذ قسطاً من الراحة ، وتناول طعام الغداء ، ثم حدد موعداً للاجتماع العام الذي يضم جميع الدعاة الذين وفدوا على كلواذي لهذه الغاية .

ولما دخل عبد الله بن ميمون إلى مكان الاجتماع وهو يرتدي جبة حمراء موشاة بالخيوط الذهبية وعلى رأسه عمامة خضراء نهض الجميع تقديراً له ، فحياهم رافعاً كلتا يديه مباركاً وهو يخترق الصفوف حتى وصل إلى المنصة التي أعدت له ، فأشار إلى الحضور ليجلسوا في

أماكنهم، ويصغوا لما سيقوله بانتباه شديد. فتقدم الداعي عبدان من المنصة وقبل يد عبد الله بن ميمون وطلب أن يأذن له بالكلام ليقدمه إلى الحضور ، فأشار إليه بإيماءة من رأسه ، فقال عبدان :

بسم الله الرحمن الرحيم والعاقبة للمتقين ، وبه ثقتي وعليه اتكالي .

الحمد لله الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذي أبدع الموجودات العلوية والسفلية ، وخلق المخلوقات ، وصور الصور الإنسانية والحيوانية ، وحرك الأفلاك والكواكب في مداراتها المقدرة لها في السماء العلوية ، لتدل على وحدته وقدرته الكمالية ، أسأله سبحانه وتعالى أن يصلي على سيدنا ونبينا محمد ، خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين ، الأئمة المهديين ، وسلم تسليماً .

أما بعد : فإن الباري جل ثناؤه جعل مناقبه السامية ، عند إمامنا الحاضر الموجود عائدة بإعزاز الجماعة، طالعة في آفاقها مطالع الأهلة ، شادة من أزر الإسلام والمسلمين ، حافظة لنظام الإيمان والمؤمنين ، كافلة بثبوت الإمامة في عقبه إلى يوم الدين ، فواجب علينا أن نشيد بأنبائها ، ونثني بآلائها ، ونشكر سيدنا ومولانا الداعي عبد الله بن ميمون على تجشمه مخاطر السفر ، وتنقله في القفراء والبراري والوهاد ليصل إلينا ، حاملاً الإرشادات المباركة ، والتعليمات المقدسة ، فله تقديرنا وإعجابنا ، ونرحب به بيننا ، سائلين المولى العلي القدير أن يمد في عمره ليؤدي المهمة التي أوكلت إليه ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

فالتهبت حناجر الحاضرين بالدعاء والثناء على الداعي عبد الله ابن ميمون ، الذي رد على التحية بأحسن منها وقال :

بسم الله الرحمن الرحيم ، وعليه اتكالي

أولادي وإخوتي الأعزاء .

لا أدري ماذا أقول بعد أن حلق الداعي عبدان بارك الله فيه في سماء المنطق السليم ، حتى فاق الأولين والآخرين ، ولكن لا بد لي من إبلاغكم بركات مولانا الإمام الحاضر ودعائه لكم ولأولادكم بالسعادة والتوفيق ، وهو لذكره السجود قد زودني بكافة الإرشادات والتعليمات التي من شأنها أن تأخذ بأيديكم وترفع من مستوى الجماعات الدينية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، إذا روعي في تطبيقها وتنفيذها الدقة ، والأمانة ، والإخلاص ، خاصة ما يتعلق منها بنظام الألفة وتطويره وفق أحدث الأساليب ، المأخوذة من كتاب الله ، وما تركه الأئمة الطاهرين ، صلوات الله وبركاته عليهم أجمعين .

لذا يجب عليكم الاستفادة من جميع طاقات المجتمع وصهرها في بوتقة الدعوة الاسماعيلية ، ونظامها الأخوي المستمد من واقع البيئة والمجتمع ومن تعاليم الأئمة المأخوذة مما جاء به القرآن ، وبما روي عن جدهم الرسول العظيم ، فنظام الالفة والمحبة الذي تطبقونه الآن بدقة وانتظام ، شاء مولانا أن يجري عليه بعض التعديلات لينسجم مع رغبة الطبقات العاملة في المجتمع من عمال وكسبة وفلاحين ، هذا بالإضافة إلى نظرة الإمام الخاصة إلى المرأة وضرورة منحها كامل حريتها ومساواتها بالرجل في كافة الحقوق والواجبات ،فهي في رأي مولانا عنصر هام وفعّال في المجتمع لها الحق بأن تتصرف بما تملك كما يوحيه اليها قلبها وعقلها ومصلحتها الشخصية ، متشحة بوشاح من الأخلاق والمناقب ضمن نطاق الأسرة الإسلامية .

فهذا هو يا أبنائي المجتمع المثالي الذي نريده لكم ، ويجب أن

يقوم على دعائم اجتماعية ثورية صحيحة ، ونظام مالي جماعي يوزع لمصلحة كافة الجماعات بالتساوي والعدل ، فتضامنوا يا أبنائي ورصّوا صفوفكم ، وأحبّوا بعضكم بعضاً ، وتسلحوا بالإيمان العميق ، والوحدة المصيرية الكاملة ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . ثم أمر الدعاة أن يعودوا إلى مراكز نشاطهم ، ويعملوا بجد واجتهاد . وطلب من حمدان بن الأشعث ، وأبو سعيد الجنابي ، وزكرويه بن مهرويه ، وعبدان ودندان أن يبقوا في أماكنهم بعد خروج الدعاة لأنه يرغب في التحدث اليهم على انفراد باعتبارهم من الدعاة القادة أصحاب المناصب الرفيعة في الدعوة ، وكل منهم مسؤول عن منطقة ، ولهم مسؤولية جماعية ثلاثية على كافة المناطق .

ولما خرج الدعاة تحلق الدعاة الثلاثة الكبار حول عبد الله بن ميمون ووقف عبدان إلى يمينه ودندان على يساره ، فقال موجهاً خطابه اليهم : باعتباركم من الدعاة القادة رأيت من واجبي أن أبلغكم بأن مولانا الامام الحاضر قد أمرني بأن أنقل اليكم بعض الأموال لتنفقوها بالعدل والسوية على نظام الالفة والإخاء الذي أشرفتم عل تطبيقه في مجتمعاتكم ، وقد قطع هذا النظام شوطاً بعيداً في مجال التقدم والازدهار ، ويرى مولانا أن تخصصوا قسماً من هذه الأموال لتنفقوها على تحسين أوضاع المرأة الإسماعيلية ومساعدتها في أعمالها الجماعية ، ويأمركم أن تفرضوا على كل فرد من الأفراد ديناراً واحداً يدفعه في كل شهر للصندوق العام ، على أن تنفق الأموال التي ستجمع لديكم لمساعدة الفقراء والمعوزين ، وإنشاء الصناعات الحرفية للجميع .

ومولانا يفوض كل منكم في منطقته تفويضاً شاملاً عاماً ، لقيادة الجماعات ، وتوجيه الدعاة ، حسب ما ترونه مناسباً لما فيه مصلحة الجماعات وازدهار الدعوة ، بالإضافة إلى المسؤولية الجماعية الثلاثية

عن الجزيرة العراقية نظراً لغياب داعي دعاة الجزيرة الداعي الحسين الأهوازي ، لهذا أوصيكم بالتكاتف والتضامن ورص الصفوف ، ومساعدة الجماعات على النهوض من كبوتهم ، وقيادتهم بالعدل والمساواة ، والشفقة والعطف . ثم نادى على ولده أحمد بن عبد الله بن ميمون ، وأمره أن يسلم ما لديه من أموال إلى الثالوث المقدس .

فقال حمدان بن الأشعث : اننا يا مولاي بحاجة قصوى إلى المزيد من الدعاة ، لوجود بعض النقص في بعض المناطق التابعة لنا ، وليس بمقدورنا الاعتماد إلا على أصحاب الكفاءات ، وذوي المقدرة العلمية ، والذكاء الخارق . ولا يخفى يا مولاي بأن النشاط الذي نقوم به قد لفت أنظار المسؤولين في السلطة ، ووتر أعصاب الخصوم ، وأثار الرعب والخوف في الجوار ، لذلك أقترح أن نخصص بعض هذه الأموال لشراء السلاح ، ولبناء دار هجرة نحصنها ونأوي إليها عند الحاجة لندافع عن أنفسنا وعيالنا .

فقال زكرويه بن مهرويه : ما قاله الأخ حمدان بن الأشعث ينطبق على كافة المناطق ، لذلك نصر يا مولانا على الاذن بشراء السلاح للدفاع عن أنفسنا ووجودنا في وسط هذا البحر الزاخر من الخصوم والأعداء ، ويا حبذا لو وافقتم على أن نفرض مبلغاً رمزياً نجمعه بالتساوي من الجميع ، ونخصصه لشراء الأسلحة وتحصين بعض القرى لنلجأ إليها عند الحاجة .

وقال أبو سعيد الجنابي : لقد أمرت جماعتي في البحرين منذ سنوات بشراء الأسلحة ، وتبرع بعض الموسرين من الجماعات بمبالغ لا بأس بها ، كما أن كل غني قد اشترى سلاحاً لعشرة أفراد ، أما المال فقد استخدمناه لبناء بعض التحصينات ، لذلك لا نحتاج إلى المال ،

ولدينا اكتفاء ذاتياً ، فليوزع هذا المال على جماعة السواد والسماوة . ولكننا بحاجة إلى الدعاة الأكفاء ، للتوعية والإرشاد .

فقال عبد الله بن ميمون : هذه الأمور نعرفها ولدينا المعلومات الكافية عنها ، لذلك أنصحكم بأن لا تحاولوا الاعتداء على أحد ، وحسنوا من علاقاتكم مع الجوار الخصوم والأصدقاء ، ولا ترفعوا السلاح بوجه أحد ، إلا إذا رفع في وجهكم ، وتصرفوا حسب ما يمليه عليكم ضميركم ووجدانكم ، ووفق المبادىء التي زرعت فيكم .

وقال عبدان : كنت يا مولاي قد رفعت إلى الإمامة بعض المصنفات طالباً الموافقة على تعميمها على الجماعات ، وحتى هذه الساعة لا أزال أنتظر الجواب . . !!

فقال عبد الله بن ميمون : اطلعنا عليها وعلى مؤلفات الأخ دندان لموافقتنا على تداولها وتعميمها بين الجماعات ، وقد كلفنا بعض التلامذة من الدعاة لنسخها ، فلا مانع من نشرها فهي جديرة بالاقتناء .

وقال دندان : سمعت يا مولاي كل ما قيل حول الدعاة والأسلحة ، لذلك أقدم مبلغ خمسة آلاف دينار هبة لتنفق على الوجه الذي يراه إخواننا مناسباً .

فقال عبد الله بن ميمون : بارك الله فيك وبأموالك يا دندان ، وسدد خطاك لما فيه الخير.

وبعد أن انفض الاجتماع انتقل عبد الله بن ميمون وولده أحمد إلى البصرة ومنها عاد إلى سلمية حيث وجد الإمام لا يزال في مدينة مصياف، فتوجه لمقابلته ، حيث عرض عليه كافة الأمور التي عرضت

له في رحلته ، وبشر الإمام بأن الدعوة سائرة إلى الامام بقيادة مخلصة وحكيمة . ولكن عبد الله بن ميمون لاحظ وهو يسلم على الإمام عند دخوله عليه بأن مسحة من القلق والحزن تسيطر على محياه ، وهو لا يزال في شرخ الشباب ، فسأل الإمام عن سر هذا الحزن والقلق . فقال الإمام : منذ فترة أشعر بانقباض وببعض الآلام تنتابني بين الفترة والفترة ، وقد عرضت نفسي على أحد الأطباء في دمشق فنصحني بالخلود إلى الراحة ، في منطقة جبلية يتوفر فيها الهواء العليل ، وها أنا كما ترى يا عبد الله ، صحتي ليست على ما يرام ، لذلك أطلب اليك أن تستدعي ولدي الحسين لأنص عليه بالإمامة ، وأسلمه الأمانة ، بحضورك وحضور بقية الدعاة الحرم .

فقال عبد الله بن ميمون : بعد عمر طويل يا مولاي ، فإذا كانت هذه إرادتكم فسأستدعيه فوراً .

واستأذن بالخروج إلى حيث صاحب برج الحمام فكتب رسالة وضعها في رجل أحد الطيور وأطلقه باتجاه سلمية ، وفي اليوم الثاني وصل نجل الإمام الحسين ، فاستقبله الداعي عبد الله بن ميمون وأدخله على والده الإمام أحمد بن عبد الله فقبل يديه وعانقه عناقاً طويلاً ، ثم جلس بين يديه ، ينتظر ما سيقوله له ، وقد ركز بصره في وجه والده يستطلع ما يجول في نفسه من تفاعلات ، وما يخفيه في أعماقه من معلومات ، حتى قطع عليه تفكيره وقال : لقد استدعيتك يا ولدي على جناح السرعة لأمر هام يتعلق بمستقبل الإمامة ومصير الجماعات ، فأنا كما تلاحظ منحرف الصحة وبحاجة إلى الراحة ، لذلك قررت أن أسلّمك الأمانة كما سلّمني اياها جدك ، وكلي ثقة بأنك ستحملها كما حملتها وحملها آباؤنا وأجدادنا من قبل بأمانة وإخلاص ، والتفت إلى عبد الله بن ميمون ، وأمره أن يحضر جبة الرسول ، وسيف ذو الفقار ،

وخاتم الإمام علي بن أبي طالب ، ولما حضرت الجبة والخاتم ، طلب من ولده الحسين أن يجثو على ركبتيه ، فألبسه الجبة ووضع الخاتم في أصبعه ، ثم وضع السيف على كتفه ، ونص عليه بالإمامة بحضور الدعاة الأربعة الحرم .

عاد الحسين بن أحمد بن عبد الله إلى سلمية بعد أن نص عليه كإمام للطائفة الاسماعيلية وبرفقته دعاته الحرم ، بينما ظل الإمام أحمد بن عبد الله مقيماً في مصياف للراحة والإستجمام ، فعمد فور وصوله إلى عقد اجتماع ضم كبار الدعاة والفقهاء والعلماء ، وعرفهم بأن الإمام أحمد بن عبد الله منحرف الصحة وقد نص عليه بحضور الدعاة الحرم ليكون إماماً من بعده ، وأمرهم أن يجعلوا هذا الأمر سراً ريثما يتم شفاء الإمام ، وأن يرجعوا اليه في كل شاردة وواردة اعتباراً من هذا التاريخ ، وشجّعهم على ضرورة بذل المزيد من النشاط في الحقل العلمي والأدبي والاجتماعي ، كما عينّ داعيين جديدين عوضاً عن الداعيين المتوفيين ، عبد الله بن المبارك ، وعبد الله بن سعيد .

ولقد وقع اختياره على أحمد بن عبد الله المبارك ليحل محل والده ، وعلى الحسين بن عبد الله بن سعيد ليأخذ مكان والده كداعٍ من الدعاة الحرم . وما عتم أن توفي عبد الله بن ميمون ودفن في سلمية باحتفال مهيب ، فعين الإمام الحسين بن عبد الله ولده أحمد ليحل محله ، وكان أحمد المذكور من كبار الدعاة العلماء ، أصحاب النفوذ في الأوساط العلمية ، ساهم مساهمة فعّالة في كتابة بعض الرسائل العقلانية .

وبعد ستة أشهر من وفاة عبد الله بن ميمون انتقل إلى جوار ربه أيضاً الداعي الحسين الأهوازي ودفن في مدينة سلمية في جامع البلدة

إلى جوار عبد الله المبارك وعبد الله بن ميمون . ولما كان الإمام أحمد بن عبد الله لا يزال يقيم في مدينة مصياف يعاني قسوة المرض الشديد الذي ألم به ، فقد كتب إلى ولده الحسين رسالة يدعوه فيها للقيام بجولة على الأتباع في بادية الشام وفارس والكوفة ، لتفقد أحوالهم وتزويدهم بالتعاليم والإرشادات.

فاستجاب الحسين لرغبة والده وخرج من سلمية باتجاه الموصل، ثم انتقل إلى البصرة ومنها إلى الأهواز ،ثم توجه إلى الكوفة لزيارة ضريح جده الوصي الإمام علي بن أبي طالب وولده الحسين في كربلاء ، فشاهده وهو يصلي ويتلو الدعاء أبو القاسم بن الفرج بن حوشب ،وهو من سكان الكوفة من بيت علم وتشيع ، قرأ القرآن وعلم الحديث والفقه ، وكان ممن يذهب إلى مذهب الاثني عشرية الذين يرون بأن المهدي سيظهر ويملأ الأرض عدلاً ، وينحلونه الأخبار المروية عن النبي ﴿ﷺ﴾ بأنه سيظهر بعد غيبته وينشر أمر دعوته . فلفت نظره وأعجب بطريقة تأديته للصلاة والدعاء . فانتظره حتى انتهى من صلاته ودعائه وخرج إلى ناحية النهر يتمشى ويرقب الشمس وهي ترسل خيوطها البنفسجية على المياه التي كانت تتدفق بلطف ودلال ، فحاول ابن حوشب الإقتراب منه ليكلمه ، ولكنه ارتد إلى الوراء تهيباً منه ، وجلس على حافة النهر فتوضأ وصلى ، ثم جلس يفكر ويستعرض ما مر به من أحداث ، وكانت صورة الرجل الذي شاهده بجوار ضريح الإمام علي ابن أبي طالب لا تفارق مخيلته ، ثم راح يتلو بعض آي الذكر الحكيم ، ويتابع بنظره الرجل وهو يمشي بجوار النهر حتى التقى بغلام فجلسا تحت شجرة النخل ، فقطع ابن حوشب التلاوة وراح يراقب الرجل والغلام بين يديه ، وما هي إلا لحظات حتى نهض الغلام من بين يديه وأقبل نحو ابن حوشب يمرح في مشيته ، فأنكر عليه ابن حوشب

ذلك إكراماً للرجل ، وإجلالاً له ، فلم يرد عليه الغلام ، فقال له ابن حوشب : من أنت يا فتى ؟ فقال الغلام : حسيني . فاستعبر ابن حوشب ، وقال: بأبي الحسين المضرج بالدماء ، الممنوع من هذا الماء . فلما سمعه الرجل نظر إليه ، ونادى على الغلام فهمس في أذنه كلمات لم يسمعها ابن حوشب ، ثم عاد الغلام إلى ابن حوشب ودعاه للجلوس مع الرجل ، فقام ابن حوشب من مجلسه وتوجه نحو النخلة حيث يجلس الرجل ، فسلم وجلس بين يديه وقد ركز بصره على وجهه فرأى الدموع تترقرق في مقلتيه . فقال له الرجل : من أنت الذي تذكر الحسين بما ذكرته ؟ فقال ابن حوشب : رجل من الشيعة . قال له : ما اسمك ؟ قال: الحسن بن فرج بن حوشب . قال الرجل : أعرف أباك من الشيعة الأثني عشرية . قال ابن حوشب : نعم . قال الرجل : وهل أنت على ذلك ؟ فسكت ابن حوشب ولم يجب على سؤاله . فقال له الرجل : تكلم يا هذا فأنا من إخوانك . فقال ابن حوشب : كنت على ذلك الى أن بطل الأمر في أيدينا ، وما أخرجني إلى هذا المكان إلاّ ضيق صدري لذلك ،ورؤيتي لك وأنت تصلي وتدعو بجوار الضريح . فقال الرجل : أرى فيك نباهة وقد سمعت تلاوتك فلم قطعت التلاوة ؟ فقال ابن حوشب : والله ، أيدك الله ، ما أسكتني إلا هيبتك . فقال الرجل : اقرأ كما كنت تفعل .

فبدأ ابن حوشب بالتلاوة من حيث وقف حتى وصل إلى « فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله » فأومأ الرجل بيده أن اسكت ، فسكت ابن حوشب ؛ فقال له الرجل : هل أنت ممن يقول بالعدل والتوحيد ؟ قال ابن حوشب : نعم ، هومذهبي ، قال الرجل : فمن أي وجه العدل أن تقتل نفس زكية بغير نفس ؟ إلا لقوله تعالى : فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً . فسكت ابن حوشب . فقال

الرجل : قل مالك تسكت ؟ فقال ابن حوشب : ماذا أقول ، والله لكأني ما قرأتها قط ، واني الى علم الوجه في ذلك لفقير ، فإن رأيت تعريض ذلك فعلت ؟ فقال الرجل : دون ذلك ستر رقيق ، قال ابن حوشب : ألا تكشفه لي ، جعلت فداك ؟ قال الرجل : يكون ذلك إذا أمكن ان شاء الله تعالى . وأخذ الرجل يتحدث في غير ذلك حتى إذا وقف على مكان الجواب فيه أخذ في غيره ، وابن حوشب يسأله الجواب الصحيح فيعده ، ثم تحرك الرجل للقيام فقال له ابن حوشب : يا سيدي أحب أن أعرف المنزل . فقال الرجل : لماذا ؟ فأجابه ابن حوشب : لاقتضاء وعدك ؛ فتبسم الرجل وقال : لعلنا أن نجتمع ههنا يوم غد إن شاء الله ، ومضى الرجل وترك ابن حوشب غارقاً في أفكاره .

ولما وصل الإمام الحسين إلى محل إقامته وجد أمامه رسالة تدعوه للحضور الفوري إلى سلمية ، فودع الداعي الذي كان ينزل ضيفاً عليه وعاد إلى سلمية ، حيث وجد أن والده الإمام أحمد بن عبد الله قد انتقل إلى جوار ربه ، وتم دفنه بناء على رغبته في قمة جبل مشهد الواقع غربي مدينة مصياف .

أما ابن حوشب فقد بكر في الحضور إلى المكان الذي التقى فيه بالرجل الغريب صاحب الهيبة والوقار عله يلقاه ليشرح له بعض الأمور الغامضة ، وجلس تحت شجرة النخيل حتى أرخى الليل سدوله دون أن يأتيه أحد ، فشعر بالندم الشديد أنه لم يتبع الرجل ويعرف مقره ، وراح يتردد على نفس المكان لأيام عديدة والقلق يسيطر عليه ، والغم يمسك في خناقه ، حتى رأى من بعيد الغلام الذي كان في صحبة الرجل ، فنهض من مجلسه ولحق به فأوقفه وسلم عليه ، ثم سأله عن الرجل ، الذي وعده بالإجتماع به في اليوم الثاني في نفس المكان

الذي التقيا فيه تحت النخلة ، وهو لا يزال يتردد على المكان من ذلك اليوم . فقال الغلام : لو وعدك ما أخلفك ، ولكن لم يكن في مخرج قوله وعد ثابت . قال ابن حوشب : فأين لي به ، فوالله لقد شغل صدري ما سمعت منه ؟ فقال الغلام : هيا بنا نجلس تحت النخلة ونتحدث قليلاً . فجلسا ، وتحدثا في مواضيع كثيرة ، فاستغرب ابن حوشب ما يتمتع به هذا الغلام من علم كثير . ولما حاول الغلام النهوض والمسير ، أمسك به ابن حوشب وقال له : والله لا فارقتك أو تكشف لي عن هويتك وهوية الرجل الذي جلست بين يديه .

وحاول الغلام المماطلة والتسويف ، ولكن ابن حوشب أصر على معرفة هوية الرجل ، وظلاً بين أخذ ورد حتى أخذ الغلام على ابن حوشب العهد والميثاق ، وعرفه بأن الرجل الذي جلس بين يديه هو امام الزمان ، وصاحب العصر والأوان ، وهو أي الغلام داعٍ من دعاته المنتشرين في كافة الأقطار والأمصار ، ووعده بأن يقدمه إلى الإمام عندما يعود إلى الكوفة بعد فترة فهو الآن يقوم بجولة على الجماعات في بلاد الشام ، ثم أرشده إلى منزله ، وطلب منه أن يزوره ساعة يشاء ، وودعه وانصرف .

وواصل ابن حوشب التردد على منزل الداعي علي بن محمود يتحدثان ويتبادلان الآراء والأفكار ، ويتناقشان في بعض القضايا الشرعية والفقهية ، حتى أبلغه الداعي علي بن محمود ذات يوم بأن الإمام قد وصل إلى مقره في سلمية ، وهو يرغب بالإجتماع به ، فما عليه إلا أن يستعد للسفر في اليوم التالي ، ولما سمع ابن حوشب ما قاله الداعي كاد يطير من شدة الفرح ، وشعر بأن السعادة التي افتقدها مدة طويلة قد بدأت تباشير عودتها تسيطر على حواسه ، فودع الداعي علي ، وتوجه إلى منزله حيث ودع أهله وأخذ طريقه باتجاه سلمية ،

فوصلها بعد أسبوع من المسير المضني في بادية الشام القفراء .

وعندما دخل على الإمام الحسين بن أحمد بن عبد الله في قصره رحب به ترحيباً حاراً وقربه إليه ، وخصص له مكاناً لائقاً ينزل فيه خلال مدة إقامته في سلمية . وكان ابن حوشب في كل يوم يحضر مجلس الإمام فيكتسب المزيد من المعارف ، ويعرفه بقرب ظهور المهدي ، ويشير في أحاديثه بأن البيت يماني ، والركن يماني ، والدين يماني ، ولن يقوم الأمر إلا من قبل اليمن .

وقال الامام الحسين يوماً لابن حوشب : يا أبا القاسم : هل لك في الغربة في سبيل الله ؟ فأجاب ابن حوشب : الأمر لك يا مولاي ، فالذي تأمر به أنفذه . فقال الإمام الحسين : أصبر يا أبا القاسم ، كأني برجل قد أقبل إلينا من اليمن ، وما لليمن إلا أنت . فقال ابن حوشب : أستعين بالله على ما يرضيك يا مولاي .

وبعد فترة من الزمن وصل إلى مقر الإمامة في سلمية الداعي علي ابن الفضل قادماً من اليمن ، فاستأذن بالدخول على الإمام الحسين ، وحدّثه عن أوضاع اليمن وأحواله وملوكه وزعمائه ، وأجاب على كل سؤال سئل عنه بدقة وإسهاب . فاستدعى الإمام الحسين ابن حوشب ، وقال له : يا أبا القاسم هذا الذي كنا ننتظره ، فما هو رأيك في الذي عرضته عليك في أمر اليمن ؟ قال ابن حوشب : يا مولاي أنا على ما قلت لك ، والأمر اليك . قال الامام الحسين : اعزم على اسم الله فوالله ليظهرن الله أمرك ، ولتصدرن الدعاة إلى آفاق الأرض . ثم سأل علي بن الفضل إذا كان يعرف عدن لاعة ، فقال له : يا مولاي عسى أنك أردت عدن أبين . قال الإمام الحسين : لا إنما اسأل عن عدن لاعة . فقال ابن الفضل : لا أعرفه . فقال الإمام الحسين موجهاً

كلامه إلى ابن حوشب : إلى عدن لاعة فاقصد ، وعليهـا فاعتمد ، ففيها تظهر دولتنا ، ومنها يكون أمرنا ، ومنها يفترق دعاتنا . وقـال لعلي بن الفضل : إني مرسل أخاك هذا داعياً إلى اليمن وأنت معه ، فهو بحر علم فانظر كيف تصحبه ، وودعهما ودعى لهما ، فانصرفا عنه متوجهين إلى اليمن بعد أن زودهما بالمال اللازم لهذه الرحلة .

الفصل السابع

حب . . طموح . . عودة إلى السواد

ذكرنا في الفصل الخامس بأن بعثة السواد والبحرين المؤلفة من ثمانية دعاة قد وصلت إلى مقر الدعوة في سلمية ، وأفرد لها منزلين متقاربين لإقامة الدعاة خلال مدة الدراسة التي هي ثلاث سنوات ، وأشرنا إلى بداية الحب بين الداعي الحسين بن زكرويه ، والداعية ليلى بنت الجنابي ، وتعاهدهما على الزواج بعد التخرج من مدرسة الدعاة العليا .

وقد شعرت بهذا الحب الذي ولد في الصحراء بين هجير البادية اللافح وشمسها المحرقة رقية شقيقة الحسين بن زكرويه فباركته وشجعت الحسين على المضي فيه ، لأن ليلى بنظرها تستحق كل عطف وحب وحنان ، فهي فتاة ذكية طيبة تنحدر من عائلة عريقة اتصف رجالها بالكرم والشجاعة وحسن الخلق ، وهي من جانبها تتمنى من صميم قلبها أن تصبح ليلى هذه الفتاة الجميلة ذات السمعة الطيبة ، والأخلاق السامية زوجة لشقيقها الحسين لتوفر له السعادة والهناء ، وليعملا جنباً إلى جنب في سبيل نشر الدعوة وتعميم أفكارها العقلانية ، وكم من مرة تأملت ليلى أثناء الطريق وهي تحلق خلسة بالحسين وتتنهد من قلب مقروح عامر بالإيمان والحب اللاعج الدفين ، كما أنها لا تنسى شقيقها الحسين وهو يختلس النظر إلى ليلى أثناء الطريق ويبتسم بين الفينة والفينة ليلفت نظرها إلى أنه قد وهبها قلبه وحبه وإخلاصه .

ولما حاولت أن تستدرج ليلى إلى البوح بما يكنّه قلبها تجاه الحسين ابن زكرويه ، لم تنكر بأنها تميل إليه ، وتعجب برجولته وشجاعته وإقدامه ، وتعتبره تجسيداً للغيرة والشهامة العربية ، ولكنها أخفت عليها ما يتفاعل في قلبها من حب بدأ ينمو ويترعرع منذ اللحظة

الأولى التي غادروا فيها السواد ، حتى أصبح الحسين بالنسبة لها كل شيء .

أما الحسين فقد اعترف لشقيقته رقية بكل شيء، بحبه من النظرة الأولى لليلى وهي تمتطي صهوة جوادها كأنها الفارس المغوار الذي لا يهاب الموت ، وازداد هذا الحب إشعاعاً وتألقاً يوم استطاع أن ينقذها عندما جفل بها الجواد وجرى يسابق الريح فتبعها بلا شعور وأنقذها من موت محقق. كل هذه الأحداث كانت تستعرضها رقية بمخيلتها وهي جالسة إلى جوار ليلى في منزلها في سلمية تطيل النظر في وجهها وشعرها الطويل الأسود الذي كانت تداعبه وتسرحه أمام المرآة .

فقالت رقية : هل أنت سعيدة؟ وهل أعجبتك سلمية بحدائقها الغناء وهوائها العليل المشبع بروائح الزهور الندية ؟ أم أنك تتخيلين نفسك في قصركم بالبحرين ؟

فابتسمت ليلى ابتسامة عريضة نابعة من فؤادها المكلوم وقالت : أشعر بالسعادة يا رقية ، ولا أدري سبباً لسعادتي ، ربما كانت من شدة شغفي وإعجابي بهذا الجو البديع ، وما لمسته من إخلاص مدير المدرسة ، وحدبه وعطفه علينا نحن الداعيات ، وربما كانت لأسباب داخلية خارجة عن إرادتي ، على كلٍ أنا سعيدة ، وسعيدة جداً يا رقية .

فردت رقية الإبتسامة بمثلها ، واقتربت من ليلى وأخذت المشط من يدها وراحت تداعب به شعر ليلى وتقول : إنك رائعة يا ليلى ، من أين جئت بكل هذا الجمال ؟ وبهذا الشعر الناعم الطويل ؟لو كنت رجلاً لارتميت الآن على قدميك أبثك لواعج حبي وهيامي ، أما وقد خلقني الله فتاة مثلك ، فلا بد من أن أعتبرك جزءاً لا يتجزأ من نفسي

وجوارحي فانت بالنسبة لي أكثر من صديقة ، وأقرب من شقيقة . فأجابتها ليلى وقد رمقتها بنظرة خاطفة ملؤها الحنان والحب : أحبك يا رقية أكثر من نفسي وأهلي وكل شيء في هذا الوجود ، وأتوسل إليه تعالى أن لا يفرقنا في المستقبل ، أي بعد أن نعود إلى ديارنا ونصبح من الداعيات المرموقات .

فقالت رقية وقد ضمت ليلى إلى صدرها : إنك تغالين يا ليلى ، هناك انسان آخر تحبينه أكثر مني وأنا أعرف ذلك ، ولكنك تكتمين هذا الحب ، وما أسباب سعادتك وفرحك إلا من ذلك الحب .

فصدرت عن ليلى ضحكة عفوية وقالت : لقد أصبت الهدف يا رقية ، فليساعدني الله ويقدرني على إسعاد من تذكرين ، لأنه أصبح يسيطر على نفسي وتفكيري ، فأينما اتجهت وكيفما سرت لا أرى أمامي إلا وجهه الصبوح ، ونظرته الثاقبة .

ولم يشعر إلا وباب الغرفة يطرق وتدخل عليهما زميلتهما علياء بنت رضوان ، فتقول لهما : لقد حان وقت الذهاب إلى المدرسة فما بالكما تلهيان بالأحاديث ، أسرعا بارتداء ثيابكما لأن سعدى تنتظرنا في الحديقة مع شقيقك الحسين يا رقية ، فهيّا بنا ننطلق إلى المدرسة .

وما هي إلا لحظات حتى كانت ليلى ورقية تلقيان التحية الصباحية على الحسين ورفيقتاهما سعدى ، ثم خرجوا جميعاً ، وساروا باتجاه المدرسة على طريق تحف بها الورود والرياحين والأزهار من كافة الجوانب ، والطيور تصدح بأنغامها الملائكية لتزيد الجو روعة وبهاء ، فشعر الحسين وهو يسير الى جانب ليلى بنشوة كبرى لم يشعر بمثلها في حياته ، وراح يمتع نظره بالخضرة وبالمياه الجارية على جنبات الطريق

تبشر بموسم زاهر وغلال وفيرة، ولم يشعر بيد ليلى وهي تمتد بلطف وحنان إلى كتفه لتهزه هزاً ناعماً لطيفاً، فالتفت إلى ليلى والتقت نظراتهما بحنان وعطف، فقال لها هامساً: أيعجبك هذا المنظر يا ليلى؟

فابتسمت بنشوة واعتزاز: إنني سعيدة جداً يا حسين، وأكاد أظن نفسي في الجنة بين الملائكة وفي وسط الحور والولدان، انها مدينة رائعة، كأنها قطعة انفصلت عن الجنة في أحد الأيام، سعيد من له فيها موطىء قدم يا حسين. لقد دخل حبها إلى قلبي فعزف على أوتاره أنشودة الحب والوفاء والإخاء.

فقال الحسين: بدأنا بالفلسفة والعقلانيات، ألا تفكري بأمور حياتية جسمانية أخرى؟

فقالت ليلى وقد قطبت حاجبيها: نحن هنا لتعلم العقلانيات والروحانيات وليس من أجل التحدث بالأمور الحياتية الزائلة، فلو أهملنا هذه الأمور لما أصبح لحياتنا قيمة أو معنى!

قال الحسين: معك حق يا ليلى، ولكن ألا نغتنم الفرصة لنقول ولو كلمة واحدة حولنا نحن الإثنين، وحول مستقبلنا بعد أن نعود إلى السواد؟

قالت ليلى: هذه أمور سطحية وقشور لا تستحق أن نوقف حياتنا عليها، فنحن طلاب علم وحقائق، ومتى وصلنا إلى الحقيقة وسبرنا أعماق الماورائيات، هانت علينا الأمور.

قال الحسين: كوني على ثقة يا ليلى بأنني اتبنى نفس أفكارك، وأبذل المستحيل من أجلها، ولكن ما أشعر به من حب يسد عليّ كافة

المسالك ، ويكبّلني بقيود لا طاقة لي بحملها.

قالت ليلى : أبادلك نفس المشاعر والأحاسيس وأعاهدك ثانية بأن أكون وفية وصادقة في حبي ، فانتبه يا حسين وفكر في الدعوة التي وقفنا أنفسنا من أجلها ، فعلى أكتافنا سوف نبني مستقبل الدعوة وننشر علومها. . !

ولم يشعرا إلا وقد أصبحا أمام مدخل الدار التي أعدت لتكون مدرسة للدعاة ، فدخلا مع الداخلين ، وانتظما في صفوف الطلاب ، حتى دخل الداعي المعلم فسلم وجلس على المرتبة المخصصة له ، وأشار بيده إلى الطلاب ليأخذوا أماكنهم ، ويستعدوا لسماع ما سيقوله لهم ، في مناسبة افتتاح الدورة الجديدة ، وقال :
بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله فالق الحبة ،وبارىء النسمة ، ومنوّر الظلمة ، ومجلي الغمة ، الذي برهان قدرته جلي ، ونور وحدانيته مضيء ، ووعده بنصر أوليائه مأتي ، وصلى الله على خير نبي جعل أجره على أمته فيما نصبه لهم من أعلام هدايته المودة في قرباه وذوي لحمته ، فمن منعهم المودة فأجر ممنع ،وحقه ضيع ، وأمره بدل ، وحكمه عطل ، حتى ولج الحق في أستار كتمانه ، وبح الباطل في عتوه وعدوانه ، وعلا بأحزابه وأعوانه. وسيجلي الله ليله ، ويبدد شمله ، وينصر الحق وأهله ، ليحق الحق ، ويبطل الباطل ، ولو كره المجرمون . وينعم في حسن ثوابه المنعمون ، في جناته المكرمون .

وصلى الله على رسوله المختوم به الأنبياء المرسلون ، الآتي بشهاب قبس من عالم القدس يصطلي به المصطلون ، محمد المجموع إلى ميقاته الآخرون والأولون . وعلى وصيه المرتضى ، وسيفه المنتضى ،

وخير قاض في شريعته قضى ، وذكره الذي توعد بضنك المعيشة من كان عنه معرضا ، وعلى الأئمة من ذريته الذين بولائهم ينال الله الرضا ، وعلى إمام عصرنا أحمد بن عبد الله بن محمد بن اسماعيل المزيد من التحية والسلام .

أولادي وبناتي وإخوتي ، معشر المؤمنين الصادقين العارفين الزاهدين ، نفعكم الله بولاء أوليائه ، وبرأكم من العيب بالبراء من أعدائه ، لا شيء إلا ما أنتم به متمسكون ، ولا كرامة إلاّ ما تملكون ، أما ترون أن عقود المشكلات لكم محلولة ، وحقائق الديانات لكم معقولة ، وان أيديكم اليها مبسوطة ، وأيدي خصومكم مغلولة ، فما لي أحس في وجوه بعضكم الوهن والفتور ، ونفوس هؤلاء على ما يبدو ميتة من العجز والقصور ، فَلِمَ لا تعملون بجد ونشاط ، وتتمسكوا بالعروة والرباط ، وتؤمنوا بموجبات الشرع والعقل ، وتطيعوا إمامكم الذي سيشهد عليكم يوم الفصل ، أنتم بناة الدعوة ، ودعائم القوة ، فخصصوا كل أوقاتكم ، لسبر أعماق العلوم ، ومعرفة حقائق العقول والنجوم ، فالجماعات بحاجة اليكم ، للاستفادة من علومكم ، فواصلوا الليل والنهار ، وقفوا متعبدين للواحد القهار .

ولا بد لي في هذه المناسبة ، من أن أرحب بالإخوان الدعاة ، والأخوات الداعيات ، الذين جاءوا من كل حدب وصوب ، للتزود بالمعارف والعلوم ، وطئتم سهلا ، وحللتم أهلا . فقدموا أنفسكم لإخوانكم وأخواتكم أثابكم الله وسدد خطاكم .

فنهض الحسين بن زكرويه ، وطلب أن يؤذن له بالكلام فقال : سيدي ، إخواني ، أخواتي . لقد أصاب سيدنا في حديثه لب

الموضوع ، وعزف بكلماته البليغة على أوتار القلوب ، لذا فاننا نعاهده أمام الله بأننا سنكون موضع ثقته ، ننهل من العلم ، ونسبر أعماق المعرفة ، ونؤدي الطاعة والولاء ، آناء الليل وأطراف النهار والله على ما أقول شهيد.

يسعدني ويشرفني أن أقدم لكم أفراد بعثة السولد والبحرين ، وهم : سعيد الجنابي وشقيقته ليلى الجنابي ، عيسى بن موسى ، حريث بن مسعود ، علياء بنت رضوان ، سعدى بنت دندان ، وأخيراً أنا الحسين بن زكرويه ، وهذه أختي رقية بنت زكرويه .

فصفق له الجميع ، وشكره الأستاذ الداعي على كلمته الرقيقة ، ثم قال : الدراسة العليا في نظام الدعوة يا أولادي وبناتي تشمل علم الحقائق العرفاني ، لأن الداعي الذي يصل تدريجياً إلى هذه المدرسة يكون قد قطع مراحل عديدة اطلع خلالها على علوم كثيرة ، منها الشرعية والتأويلية ، والفقهية ، والأدبية . ولم يبق عليه إلا الرشف من ينابيع الحقيقة ، والكشف عن جوهر الوجود والموجودات ، ومعرفة الحدود العلوية والسفلية ، والغوص في أعماق علم التوحيد والتجريد والتنزيه ، وما يتضمنه هذا العلم من مطابقات علوية وسفلية ، وإشارات ورموز ، ومحركات كواكب وأفلاك وأجرام ، وبدء ومعاد ، ومثل وممثول ، وباطن وظاهر .

هذا بالإضافة إلى علم الرياضيات ، والطبيعيات ، وعلم النفس ، والجواهر والأعراض ، والعلل والمعلولات ، والهيولى ، والصورة ، والانبعاث والابداع . ولقد قسمنا هذه المعارف على ثلاث مراحل بمدة الدراسة في كل مرحلة سنة واحدة ، يحصل خلالها الطالب على شهادة تشير إلى أنه قد اجتاز المرحلة الأولى أو الثانية ، ومتى أنهى

المرحلة الثالثة منح شهادة التحصيل العالي ، وعين داعياً إقليمياً يرأس اثني عشر داعياً محلياً ، وتجيز له هذه الشهادة أن يصبح داعي دعاة جزيرة أو جزيرتين .

أولادي وبناتي ،

نصيحتي لكم أن تطالعوا ما صنفه بعض الدعاة الأول ، بإمعان وروية ، إلى جانب المواضيع التي ستلقى اليكم في هذه المدرسة ، واساتذتكم دائماً على استعداد لارشادكم إلى سبل الحق ، والمعرفة . فأستودعكم الله ، وإلى اللقاء في الدروس القادمة ، إن شاء الله . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . ثم أشار اليهم بالانصراف على أن يعودوا كل يوم ما عدا الخميس بعد الظهر ، ويوم الجمعة .

تأبطت ليلى ذراع رقية بعد خروجهما من المدرسة وسارتا باتجاه المنزل يحدوهما الأمل الكبير ، وتملأ جوارحهما الغبطة والسرور ، وبعد صمت استمر عدة دقائق وهما يحثان الخطا باتجاه المنزل قطعت الصمت رقية وقالت : مالك واجمة يا ليلى تتفاعلين مع أفكارك ، وتسرحين بتأملاتك ، ألم تعجبك المدرسة ، وطلابها وطالباتها وأساتذتها ؟

فابتسمت ليلى ونظرت الى رقية بحنان وقالت : على العكس يا رقية ، أشعر بالسعادة والغبطة لما سمعته وشاهدته في المدرسة ، هذه الدار الشامخة التي تطاول السماء بشموخها ، والتي سينطلق منها الدعاة والمبشرون إلى كل ناحية من أنحاء العالم ليعلموا الناس ، ويكشفوا لهم عن طريق الحق ودروب المعرفة ، شعرت بإيماني يزداد ، ويقيني يضرب جذوره في أعماق نفسي ، فأحلق سابحة بين الكواكب والأفلاك أسبر أعماقها وأكشف عن جواهرها ، النور الذي شاهدته يا

رقية يشع من جبين الأستاذ أنار بصيرتي وفتح مداركي ، سأخصص كل ثانية من عمري للبحث والتنقيب لكشف كل الأمور الغير مرئية بالنسبة لبني البشر ، ولولا ما في قلبي من حب يعلم الله ما مقداره لشقيقك الحسين لطلقت الدنيا وما فيها ووقفت نفسي لخدمة العقيدة التي أؤمن بها ، ولكن هذه مشيئة الله ، وهذا قدري .

فقالت رقية : من أين أتيت بهذه الأفكار يا ليلى ؟ إنك رائعة ، وروعتك في منطقك العقلاني السليم ، وألفاظك الرقيقة الناعمة ، ولا أخالك عندما تصبحين داعية وتتكلمين بين الجماعات إلا وقد سيطرت على جوارحهم ومسست شغاف قلوبهم ، فانقادوا اليك كالأعمى الذي يتبع دليله ومرشده ، ستكوني يا ليلى زوجة رائعة ومثالية توفرين الهناء والسعادة لأخي الحسين.

فأجابت ليلى هامسة : هذا ما رضعته وأنا صغيرة من ثدي أمي مع الحليب ! ونشأت عليه ، فأصبح جزءاً لا يتجزأ من نفسي ومشاعري .

قالت رقية : قبل أن نصل إلى البيت ويأتي الرفاق لا بد لي من إطلاعك على بعض ما يسيطر على مشاعري ، ألا نجلس قليلاً تحت شجرة من هذه الأشجار المزروعة على جانبي الطريق ؟

قالت ليلى : لا بأس، لدينا الكثير من الوقت ، ولكنني أخشى أن يفتقدنا شقيقك الحسين فيقلق علينا.

قالت رقية : تعالي نجلس تحت شجرة الجوز تلك ، ولن يستغرق جلوسنا طويلاً .

فاجتازتا عين الماء الجارية على جانب الطريق ، وجلستا في ظل

شجرة الجوز تتجاذبان أطراف الحديث وراحت رقية تسرد على مسامع ليلى قصتها ، فقالت : قصتي يا ليلى تبدأ منذ التقت عيني بأخيك سعيد عندما ودعنا أهلنا وسرنا باتجاه سلمية ، فمنذ ذلك اليوم تسلل حبه إلى قلبي فدغدغ أوتاره وعزف عليها أوفى النغمات ، وأخلص الألحان ، وحاولت خلال رحلتنا أن استميله ، ولكن كل محاولاتي تبخرت مع رمال الصحراء وشمسها المحرقة ، فلم يعرني أي اهتمام ، بل ظل طوال الطريق يناديني يا أختاه افعلي كذا وقولي كذا ، مما جعلني أندفع بقوة في حبي بدون أن أعبأ بصده ، عسى أن يأتي يوم يبادلني فيه نفس الشعور والأحاسيس،ولكن ذلك اليوم لا يزال بعيداً ، وبعيداً جداً ، فلم يعد بامكاني الصبر يا ليلى ، أكاد أنفجر ، فماذا تقولين يا أختاه ؟

فضحكت ليلى ضحكة عريضة ، وقالت : كلّميه يا رقية وحاولي أن تدخلي إلى قلبه بروية وهدوء ، أخي سعيد رقيق الشعور ، مؤمن وإيمانه عجيب غريب لا يفكر إلاّ بالدعوة ونشر عقائدها والطاعة الغير محدودة لإمامنا الحاضر ، وهو لا يفكر مطلقاً بالحياة الدنيا يقضي كل أوقاته بالعبادة والمطالعة ، والتخطيط لمستقبل الدعوة في البحرين وهجر والقطيف ، فأنا من جانبي لا أجرؤ على مفاتحته بالموضوع خشية أن يكتشف علاقتي بشقيقك الحسين.

فقالت رقية بانزعاج وتأفف : سأفاتحه بالموضوع تلميحاً ، فإذا شعرت من جانبه بأي ميل إليّ ، أو شعور عاطفي ، لن أتوانى عن البوح له بما يتفاعل في أعماقي.

فقطبت ليلى حاجبيها ، وضغطت على شفتيها وقالت : لنعد إلى البيت قبل أن يشعر بغيابنا أحد الإخوان . ثم أمسكت بيد رقية

ونهضتا، وأخذتا طريقهما إلى البيت، حيث وجدتا الجميع بانتظارهما، وقد التفوا حول مائدة الطعام التي كانت قد وصلتهم من دار الدعوة . ولاحظت ليلى خلال تناول الطعام نظرات رقية الحزينة التي كانت تسلطها بين الفينة والفينة إلى شقيقها سعيد ، ولكن سعيد منهمك بتناول الطعام لا يعيرها أي اهتمام، فأشفقت عليها وراحت تختلس النظرات المليئة بالحب والوفاء لحبيبها وزميلها الحسين ؛ وتراقب اللقمة وهو يدفعها في فمه بكل هدوء واتزان ويبادلها النظرات بعطف وحنان . مما أدخل السعادة الى قلبها فراحت تأكل بنهم ، وتسبح في بحر من الأفكار ، فتصورت نفسها وقد عادت إلى البحرين ، ثم جاءها الحسين خاطباً ، فوافق ذووها ، فعاد بصحبتها إلى السواد ، حيث ضمهما سقف واحد وجلسا سوية يلتهمان الطعام ويستعرضان ذكريات الدراسة والسنوات التي قضياها في سلمية ، فأمسكت عن الطعام ، وحمدت الله على نعمه ، ثم غادرت المكان فلجأت إلى غرفتها واستلقت على فراشها فأحست بالنوم يداعب أجفانها ويطبق أهدابها .

ولم تشعر ليلى برقية عندما دخلت الغرفة وتمددت في فراشها وأخذت تنتحب بصوت خفيض وقد غطت وجهها لتخفي سيل الدموع الذي راح ينساب بلطف على المخدة ليروي عطشها ، ويطفيء ظمأها، هذه المخدة التي احتضنت رأس رقية لم تعرف الحزن بحياتها ، ولم تغرق في بحر من الدموع كما غرقت به اليوم ، لأنها لا تزال طفلة صغيرة ولدت في نفس اليوم الذي وصلت فيه رقية إلى سلمية ، ولم يسبق لها أن احتضنت رأساً مليئاً بالأفكار والتأملات كرأس رقية ، لقد سعدت المخدة عندما استقبلت رأس رقية ، وشعرها الناعم للمرة الأولى فأحست يومها بالسعادة والهناء ، ولكنها

في هذه المرة تستقبل نفس ذلك الرأس الجميل ، وقد هوى عليها بشدة وحزن ، وراحت الدموع تنساب بغزارة لتبلل جفافها ، وتروي يبوستها ، فتساءلت المخدة ، وقد تفتحت مسامها وارتوت عروقها : ما بال رفيقتي اليوم لقد أغدقت عليَّ من كرمها ما يكفيني لعدة أسابيع ، حتى أنني أكاد أغرق في هذا البحر الثائر من الدموع ، يكفي اليوم فقد شبعت وارتويت .

فتحت ليلى عينيها عندما سمعت نحيباً بجوارها ، وألقت نظرة خاطفة على سرير رقية ، فاكتشفت أن مصدر النحيب يأتي من سريرها ، فقالت بصوت منخفض : رقية . . رقية . . ما بالك تبكين ؟ فلم تجب رقية بل ازداد نحيبها حتى كاد أن يسمع خارج الغرفة ، فنهضت ليلى مسرعة من فراشها ورمت بنفسها على رقية ، فنزعت الغطاء عن وجهها وقالت : لماذا البكاء يا رقية ؟ هل حدث ما يوجبه ؟ هل كلمت سعيد وصدّك ؟ أم ماذا هناك ؟ بربك كفي عن البكاء وحدّثيني ؟

فجففت رقية دموعها وقالت بصوت خفيض كسير يجسد ما يتفاعل في أعماقها من أحزان ، ويتكوّم في فؤادها من جراحات : أبكي يا ليلى بلا سبب ، لا أدري لماذا أبكي ؟ ولا كيف أبكي ، ولا متى بدأت البكاء ، لأن ما أفعله خارج عن إرادتي ، فعندما كنا نتناول الطعام ، كنت أختلس النظر إلى سعيد ، ولكنه لم يعرني أي اهتمام بل ظل جامداً كالصقيع يلتهم طعامه غير عابىء بما يدور حوله ، وكاد الجميع أن ينتبهوا لنظراتي ، ففضلت الانسحاب بعد خروجك ، وها أنا كما ترين أنتحب بلا سبب . . !

قالت ليلى وقد وضعت يدها على رأس رقية لتخفف من

أحزانها : سأكلم سعيد في أول فرصة ، فكفّي عن البكاء ، وهذا وعد أقطعه على نفسي. . !

ما كادت ليلى تنطق بهذه الكلمات حتى ضمّتها رقية إلى صدرها وراحت تقبلها بعنف وحنان وتقول : شكراً لك يا ليلى ، لقد أدخلت السعادة إلى قلبي ، بارك الله فيك ، وأسعدك ، الآن اطمأن قلبي.

ولم تستطع ليلى الاختلاء بشقيقهاسعيداً رغم مضي عدة أسابيع على وعدها لرقية ، لأن سعيد كان دائماً مشغولاً بالمطالعة والصلاة والزيارات الليلية لحلقات العلم التي كانت تعقد في أغلب المنازل ، مما تعذر عليها مشاهدته إلا في المدرسة أو في قاعة الطعام إذا جاء لتناوله ، فهو لا يأوي إلى فراشه إلا في ساعة متأخرة من الليل ، وينهض من نومه مع الفجر ليؤدي الصلاة ، ثم يتوجه إلى المدرسة ، وقلّما يلتقيان.

لذلك صممت على التحدث إليه في المدرسة وتحديد موعد للاجتماع به في أي مكان يشاء ، وحسب ظروفه الخاصة ، ولما التقت به ، وهو يهم في دخول قاعة الدراسة استوقفته وقالت : أخي سعيد أرغب في التحدث اليك بعد خروجك من المدرسة ، فهل تنتظرني لأرافقك إلى المنزل؟

فقال لها سعيد: لا مانع لدي ولكنني مشغول طوال اليوم ، ألا يمكن تأجيل ذلك إلى صباح الغد ؟

فقالت ليلى : إذا كانت هذه رغبتك يا أخي فلا مانع أن نلتقي غداً فور خروجنا من المدرسة ، فنتمشى إلى البيت وحيدين نتجاذب أطراف الحديث .

قال سعيد : على بركة الله ..إلى اللقاء صباح الغد إن شاء الله .

ويبدو أن سعيداً قد صمم على لقاء شقيقته ليلى ليعرف ما في نفسها من خفايا تود التحدث اليه بشأنها ، فالتقاها حسب الموعد المتفق عليه ، وسارا بخطى وئيدة على طريق المنزل تحيط بهما الأشجار والزهور من كل جانب. فقال سعيد : ما وراءك يا ليلى ، قولي لقد شغلت بالي ؟

قالت ليلى وقد تصنعت ابتسامة رقيقة : منذ وصولنا إلى سلمية ألاحظ يا أخي سعيد بأن سلوكك قد تبدّل، تجاهي وتجاه إخوانك من الدعاة والداعيات ، فأصبحت تنطوي على نفسك ، قليل الكلام ، كثير التأمل والتفكير ، حتى إذا صدف والتقينا على مائدة الطعام ـ وهذا نادر ـ أجدك واجماً مقطب الجبين ، تسبح في تأملاتك ، مما جعل بعض الأخوات يلاحظن نفس الملاحظة ، فلفتن نظري ، وطلبن مني أن أسألك في أية دوامة من القلق أو الوجوم تسبح ، وعن ماهية التيارات التي تتقاذفك ؟ قل لي يا أخي بصراحة ، أنا أختك ، وشقيقة روحك ، ماذا تخفي وراء هذا الشرود ؟

فابتسم سعيد لأول مرة منذ وصل سلمية ، ابتسامة صفراء كالحة ، تجسد كل ما يتكوكب في مخيلته من أحاسيس ومشاعر ، وقال : تعلمين يا ليلى بأننا عندما غادرنا موطننا في البحرين ، عاهدنا والدنا على الوفاء بالتزاماتنا تجاه الدعوة التي نعتنقها ، لذلك صممت أن أكون وفياً لعهدي ، محافظاً على وعدي ، فوقفت وجودي ومصيري للعلم والمعرفة والعبادة ، وتركت بقية الأمور الحياتية جانباً ، فأنا يا أختاه لا أفكر إلاّ بهذا الكون المترامي الأطراف ، وما فيه من موجودات علوية وسفلية ، أبدعها المبدع سبحانه وتعالى من أجل سعادة البشر ، ولتكون دليلاً على وحدانيته وقدرته .

لهذا أتأمل وأفكر وأبحث وأنقب عن حقائق هذه الموجودات ، وكيفية وجودها ، وما الغاية من وراء هذا الوجود البديع الذي يأخذ بالألباب ، ويسيطر على المشاعر ، وخاصة لو نظرنا بعين الواقع والحقيقة الى العلل والمعلولات الكامنة وراء هذا الوجود .

ولقد احتلت هذه الأمور في نفسي وتفكيري مكان الصدارة ، فلم يعد بامكاني إيجاد الوقت للتحدث الى الناس في أمور أخرى تتعلق بالحياة الدنيا ومشاكلها التي لا تنتهي . فاعذريني يا أختاه . . ! !

قالت ليلى : كلانا يا أخي سعيد يسير على نفس الطريق ، وتنتابه نفس الأحاسيس والمشاعر ، ولكن الفرق بيننا هو كيفية اختيار الدروب الواجب سلوكها للوصول إلى الهدف ، فإذا عزلنا عن مقومات الحياة الاجتماعية ، وانغمسنا كلية بالتيارات العقلانية الماورائية ، بعيدين عن المجتمع وعلاقة الفرد فيه ، باعتبار أن الفرد جزء لا يتجزأ من المجتمع ، فهو بأمس الحاجة إلى المجتمع ، كما أن المجتمع بأشد الحاجة إليه ، أصبحنا انطوائيين تتحكم بوجودنا الأنانية وحب الذات. فأرجوك يا أخي أن تخفف من غلوائك ، وتخالط زملاءك وزميلاتك ، لتنمي روح الإلفة والمحبة ، في مجتمعنا هذا .

قال سعيد وقد بدأت تباشير الارتياح ترتسم على وجهه : سأفكر بالأمر ، ولكن ما الداعي لكل هذا ؟

قالت ليلى : هل ترغب أن أجيبك على سؤالك بصراحة ؟

قال سعيد : عهدي بك صريحة وجريئة وصادقة ، فلا أدري إذا كان قد حدث لك ما يبدل هذه المناقب.

قالت ليلى : أنت تعلم يا أخي مدى صداقتي لرقية وحبي لها ، فهي التي لفتت نظري إلى سلوكك ، وطلبت مني أن أحدثك بالأمر . . ! !

قال سعيد: آه . . آه . . عرفت الآن لماذا كانت رقية تراقبني باستغراب ، وترمقني بعطف وحنان ، كلما التقت نظراتنا بطريق الصدفة . . سأحاول يا ليلى . . أعدك بأن أحاول . .

ولما وصلا إلى مكان إقامتها ودّعها وانصرف لارتباطه بموعد ، وهو يردد قول الشاعر :

بذلت لعراف اليمامة حكمه وعراف نجد إن هما شفياني
فما تركا من سلوة يعرفانها ولا رقية إلا بها رقياني
فقالا : شفاك الله! والله ما لنا بما ضمنت منك الضلوع يدان

وظلت ليلى ترقبه حتى ابتعد عن المنزل ، فأسرعت إلى غرفتها حيث وجدت رقية مستلقية على سريرها وقد صوبت بصرها على النافذة المجاورة لها تراقب الطيور وهي تتنقل وتغرّد على شجرة اللوز المجاورة لها ، فغمرتها بسيل عارم من القبل وقالت لها : بشراك يا رقية ، لقد كنت مع سعيد وحدّثته عن كل شيء ، عن انعزاله وانطوائه ، وعزوفه عن الالتقاء بالأخوة والأخوات ، فأظهر تجاوباً معي ووعدني بالعودة إلى الانصهار في بوتقتنا الاجتماعية .

قالت رقية وقد فغرت فاهها : هل حدثته عني وعن حبي وولهي؟

قالت ليلى : كلا لم أذكر له الموضوع علانية ، بل لمّحت وأشرت ورمزت ، ويبدو أنه فهم القصد ، فابتسم وردد بعض

الأشعار التي يفهم منها أنه على علم بما بينكما من عواطف ، فمهمتي الآن قد انتهت ، وجاء دورك يا رقية . . .

قالت رقية : ليكن الله في عوني ، جزاك الله عني كل خير ، سأحاول أن أتسلل إلى قلبه ، فعسى أن أوفر له السعادة والهناء .

وما ان بلغنا هذا الحد من الحديث حتى دخل عليهما الحسين بن زكرويه ، فسلم على ليلى وسألها أين كانت بعد انتهاء المدرسة ، ومن صحبها في طريق العودة ؟

قالت ليلى : جئت بصحبة أخي سعيد الذي شاء أن يحدّثني ببعض الأمور العائلية الخاصة .

قال الحسين : لا بأس . . . جئت لأبلغك يا رقية بأنني تسلمت اليوم رسالة من السواد من الداعي عبدان يطلب فيها أن أراجع الداعي عبد الله بن المبارك بشأن كتب أرسلها إلى مقر الإمامة للموافقة على تعميمها ، كما وإني سأتوجه يوم الجمعة القادم إلى حمص بصحبة بعض الإخوان من دعاة حمص الذين تعرفت عليهم ، تلبية لدعوتهم ، ولن أتأخر في العودة ، فهل ترغبين في مرافقتي يا أختاه ؟

قالت رقية: كلا أنا جد متعبة ، ولا يمكن أن أترك ليلى لوحدها . . !!

قال الحسين : لماذا لا ترافقنا ليلى أيضاً؟

قالت رقية : لدينا بعض الدروس والمراجعات ولا يمكن أن نخرج من المنزل ، لترافقك السلامة يا أخي . . !

ولما خرج الحسين ابتسمت رقية وركّزت نظرها في وجه ليلى ، تستطلع ما يجول في خاطرها من أفكار ، فلاحظت تباشير السعادة

ترتسم على محياها ، وتحاول بقدر طاقتها أن تخفي مظاهر هذه السعادة ، فقالت رقية : لماذا تحاولين يا ليلى إخفاء السعادة التي ارتسمت على محياك عندما دخل الحسين ؟ ألست سعيدة بهذا الحب يا ليلى ؟

قالت ليلى : ولماذا لا أكون سعيدة والحسين يتفقدني في كل مناسبة ، لقد أصبح يا رقية جزءًا لا يتجزأ من ذاتي ، فاليوم الذي لا أراه فيه ، أشعر بالقلق وخيبة الأمل . إن قلبي يا رقية الذي أجده كالمرآة تتراءى فيه حقائق الأشياء ، لا ينبض نبضة واحدة ، ولا يخفق خفقة واحدة ، إذ لم يتمتع بمشاهدة الحسين ، وسماع صوته الحنون. إن اسمه يجري على لساني في كل لحظة ، وصورته الجذابة الحلوة ترتسم بدقة على صفحات صدري ، فأجد نفسي عندما أخلو اليها ، كالطير الجميل يغرد أعذب الألحان في يوم ربيعي مشمس.

قالت رقية : كم مضى علينا في سلمية يا ليلى؟

قالت ليلى : تسعة أشهر بالتمام والكمال ؟

قالت رقية : الزمن يتحرك بسرعة ، والأيام تسرع الخطى ، وشقيقك سعيد يظن نفسه خارجاً عن دورة الزمن ، وبعيداً عن تقلبات الأيام ، فمن أية طينة جبل هذا المخلوق العجيب بتصرفاته ؟

قالت ليلى : لا أود أن أسمع شيئاً عن تصرفاته بعد الآن ، إلا عندما تتمكنين من استمالته اليك ، فعسى أن تتحقق أحلامك في المستقبل القريب .

وسارت الأمور على منوال واحد ، أصبح روتينياً بالنسبة لرقية وليلى ، ففي الصباح يذهبن إلى المدرسة ، ويعدن فور انتهاء الدراسة

إلى البيت ، حيث يعكفن على المطالعة ومراجعة الدروس والمحاضرات ، وقلما يخرجن في نزهة يوم الجمعة بين البساتين والمروج الخضراء السندسية ، بصحبة الحسين .

أما سعيد الجنابي شقيق ليلى فقد غير من سلوكه بعض الشيء وأصبح يتردد على ليلى في غرفتها فيجدها مع رقية ، فيتحدث إليهما بعض الوقت ، ثم يخرج لمواصلة الدراسة والبحث والتنقيب ، وفي إحدى الزيارات لشقيقته دخل الغرفة الخاصة بها فوجدها خالية إلا من رقية التي كانت مستلقية على سريرها تقرأ في كتاب بين يديها ، فحياها وسألها عن ليلى ، فأجابته بأنها خرجت إلى السوق بصحبة علياء بنت رضوان لشراء بعض الحاجات، وستعود قريباً ، فحاول الخروج ولكن رقية دعته إلى الجلوس وانتظار ليلى حتى تعود ، وقدمت له كرسياً ليجلس عليه . فجلس وبدأت حمرة الخجل تظهر على محياه رويداً رويداً ، ولاذ بالصمت المطبق ينظر إلى المرآة التي كانت معلقة على حائط الغرفة .

ولكن رقية عندما لاحظت ارتباكه وخجله ابتسمت بدلال وقالت : ما بالك يا أخ سعيد مرتبكاً ، أتخجل كونك معي في غرفة واحدة ؟

قال سعيد بصوت متقطع : لا شيء . . من قال لك بأنني أخجل من وجودي معك في غرفة واحدة ؟ فنحن إخوان ولا حاجب بين الأخوة . ! فقط أفكر كعادتي في كل دقيقة من عمري. . !!

قالت رقية : ألا تترك هذا التفكير لحظة وتعطيني هذه اللحظة لأتحدث إليك فيها طالما نحن وحيدين ؟

فاطمأن بال سعيد وابتسم : لك كل وقتي يا رقية فهاتي ما

عندك كلّي آذان صاغية . !

قالت رقية : حدثتني ليلى عما دار بينكما من أحاديث منذ فترة ، وذكرت لي أنك رددت بعض أبيات من الشعر عندما غادرتها ، فهل تبين لي عن قصدك من وراء ذلك ؟

قال سعيد وقد شعر بالراحة ، والاطمئنان ، وهدوء الأعصاب ! ماذا يهمك لو عرفت النوايا والأهداف؟ هل تدخل هذه للمعرفة بالعقلانيات الماورائية ، أم أن لك أهداف أخرى؟

قالت رقية : فسر سؤالي كيفما يحلو لك ، ولكنني أنهد إلى معرفة خفايا نفسك . . !

قال سعيد : إنك لطيفة يا رقية وذكية رغم علاّتك الكثيرة ، ومع هذا سأقول لك بصراحة بأنني أشعر منذ فترة طويلة بميل إليك ، ولكنني أخفي هذا الميل بسبب صفاتنا الدينية ، وتربيتنا البيتية ؟

قالت رقية : قلها من زمان يا سعيد ، لماذا كل هذا التردد والخجل ، أنا أحبك وأميل اليك منذ أن التقينا لأول مرة ، ولكنني عندما لاحظت عدم اهتمامك وانشغالك بالبحث والتنقيب، قلت لنفسي ربما كان هذا الحب من جانب واحد ، فحاولت النسيان طوال هذه المدة ، ولكن بدون جدوى ، حتى أفضيت بما يتفاعل في حنايا نفسي إلى شقيقتك ليلى ، وكان منها ما تعلمه ولا حاجة بي إلى ترداده .

قال سعيد : ليكن حبنا يا رقية روحياً ينبع من أعماقنا ، حتى يسهل لنا الباري سبحانه من أمرنا رشداً ، عندما نعود إلى بلادنا ، وأعاهدك بأن أكون مخلصاً وفياً حتى النهاية .

قالـت رقيّة : ليكن ما تريد يا سعيد ، وليقدرنـي الله على إسعادك .

وفجأة فتح باب الغرفـة ودخلـت ليلى، وهـي تتأبط رزمـة ، وبعض الزهور ، فصعقتها المفاجأة ، وراحت تنهال على شقيقها سعيد بالسؤالات عن أسباب غيابه المستمر ، وكيف جاءت على باله اليوم ، ومتى كان وصوله إلى الغرفة ؟ فأجابها وهو يتصنع ابتسامة رقيقـة: أولاً ليس لدي الوقت للزيارات لأنني مشغول بالدراسة ، ثانيا : كنت في طريقي إلى الجامع لتأدية الصلاة فحاولت أن أراك . ثالثا : وصلت منذ نصف ساعة تقريبا ، ولما حاولت الانصراف دعتني رقية لانتظارك في الغرفة ، ولما كان لدي بعض الوقت حتى يحين موعد الصلاة ، جلست كما ترين أنتظر وصولك . . !

قالت ليلى : هل حدد موعد الامتحان لهذا العام ؟

قال سعيد : أعتقد أنـه سيكون يوم السبت القادم ،وربما استمر اسبوعان ، على كل حال أنا مستعد لإجرائـه هذه اللحظة . . !!

قالت رقية : لقد أنهينا دراسة البرنامج منذ أسبوع .

قال سعيد : إذا كنتما بحاجة إلى الاستفسـار عن أي موضوع فأنا على استعداد لأنني أحفظ كافة المواد غيباً . . ؟ .

فأجابته ليلى بالنفي ، فودعهما وانصرف على أمل اللقاء القريب في فرصة أخرى .

ولما خرج سعيد ، أغلقـت ليلى باب الغرفـة ، وتطلعـت إلى رقية ، وقالت : كيف وجدت سعيد بعد هذه الخلوة الغير متوقعة ؟

قالت رقية : لقد تفاهمنا على كل شيء بفضل مساعيك السابقة ، فلا أعرف كيف أشكرك يا ليلى !! .

كانت نتيجة الامتحانات مشجعة جداً ، فتصدر لوائح الناجحين والناجحات الحسين بن زكرويه ،وسعدى بنت دندان ، واحتل المرتبة الثانية بين الرجال سعيد الجنابي ، وبين الفتيات شقيقته ليلى ، ولم يرسب أحد من الدعاة أو الداعيات ، بل نجح الجميع بامتياز ، وأغلقت المدرسة لمدة شهر واحد ، ريثما يستعد الطلاب لمواصلة الدراسة في عامهم الثاني.

واغتنم الحسين بن زكرويه فرصة العطلة ، فقام بجولة على حمص ، ودمشق ، واللاذقية ، وحلب ، حيث أمضى خمسة وعشرين يوماً متنقلاً بين الأصدقاء ، والجماعات ، يدرس شؤونهم ، ويختبر مراكز قوتهم ، ويتعرف على الدعاة المسؤولين عن قياداتهم.

واستطاع خلال هذه الجولة الخاطفة أن يكون العديد من الصداقات ، ويطلع على المزيد من المعلومات ، التي قد يحتاجها في المستقبل ، فيما إذا أصبح مسؤولاً عن الدعوة في السواد ، أو غيرها من المناطق التي سوف يعين فيها . لأن الحسين بن زكرويه منذ عيّن داعياً في السواد بعد أن درس العلوم والمعارف في مدارس السواد ، وطموحه إلى تسنم القيادة والزعامة لا يحد ، ولا يمكن أن يثنيه عنه أي مخلوق . لذلك نراه بعده أن اختير ليكون في تعداد بعثة السواد للدراسات العليا يشعل هذا الطموح ناراً حامية ، فيعمد إلى التمهيد لما يجول في خاطره من مخططات فيقوي علاقاته مع الدعاة الطلاب في المدرسة ويدرس الأوضاع في الأماكن التي يقيم فيها الجماعات ، ويزيد من نشاطه وتحركاته مع مرور الأيام ، فأصبح بعد مرور عام على وجوده في سلمية

محط أنظار الجميع يحبونه ويقدرونه ، ويستشيرونه في أكثر الأمور ، ولم يكن الحسين بن زكرويه خمولاً كسولاً يقف عند هذا الحد ، وهو الشاب الذي يتمتع بحيوية غير محدودة ، وذكاء نادر عجيب ، فقد زاد من نشاطه واتصالاته على مختلف الأصعدة ، ومع كل هذا لم يهمل دروسه ، فكان في الطليعة دائماً ، مما أثار فضول الكثيرين ، وباتوا يتساءلون عن السر الكامن خلف طموحه وهمّته العالية ، ونشاطه الدائم . كما أنه لم يهمل حبيبته ليلى ولا لحظة سوى عندما تضطره الظروف للتغيب عن البلدة أثناء العطل والأعياد ، حيث يلبي دعوات إخوانه من الطلاب ، فيزور مدنهم ويتعرف على ذويهم ودعاتهم القادة .

ولم يزعج نشاط الحسين ليلى ، بل على العكس كانت تشجعه وتأخذ بيده ، وتقدم له كل ما تستطيعه من مساعدات .

وتصدر الحسين قائمة الناجحين في السنة الثانية ، فازداد إعجاب الأساتذة والمعلمين به ، وتنبأوا له بمستقبل حافل ، وأطلعوا قيادة الدعوة على نشاطه وتحركاته ، ومدى الثقة التي يتمتع بها بين زملائه وإخوانه من الدعاة ، مما يبشر بمستقبل زاهر لا يحد ، فهو حسب رأيهم أهل للقيادة والزعامة ، لأنه يتمتع بكافة الشروط والمناقب ، التي تؤهله لهذا المنصب .

ولما انتهت السنة الثالثة والأخيرة كان الحسين قد قطع شوطاً بعيداً في علاقاته الاجتماعية ، وكون لنفسه بين الجماعات والأساتذة والدعاة مكانة ممتازة ، وصداقات متينة ، ملؤها الثقة المتبادلة ، والأخوة الحقة . خاصة بعد أن ترأس قائمة الناجحين وحصل على الشهادة بدرجة امتياز .

وقبل أن يعد نفسه للعودة إلى السواد مع أعضاء البعثة ، شاءت قيادة الدعوة أن تقيم لأعضاء البعثة حفلة وداعية تكريمية برعاية الإمام الحسين بن أحمد بن عبد الله ، لتزود أعضاء البعثة بالإرشادات والتعليمات التي تدلهم على الطريق الصحيح في القيادة والإرشاد ، وترسم لهم صورة واضحة عن أهدافهم في المستقبل .

وأرادت قيادة الدعوة أن تكون الحفلة خاصة ببعثة السواد فقط ، لا يحضرها سوى الإمام ودعاته الحرم ومدير مدرسة الدعاة ، لذلك عين مكانها في قصر الإمامة ، وحدد وقتها ليلة الإثنين ، وقبل رحيل البعثة بطريق العودة إلى السواد بسبعة أيام.

حضر أعضاء بعثة السواد بالوقت المحدد ، ودخلوا إلى القاعة التي أعدت لاستقبالهم ، وأخذوا الأماكن التي أعدت لهم ، وجلسوا ينتظرون حضور الإمام الحسين بن أحمد بن عبد الله ، وما عتم أن أعلن الداعي مدير المدرسة عن وصول الإمام فنهض الجميع واحنوا رؤوسهم خشوعاً لمقدمه ، فأشار إليهم بالجلوس ، ثم أخذ مكانه في المقعد الذي أعد له ، وجلس على يمينه ويساره دعاته الأربعة الحرم ، ورنت أبصار أعضاء البعثة اليه تتمتع بهيبته المهيبة ، وبجلاله الأخاذ ، وكانت أبصارهم ترتد خاضعة مهيبة عندما تصطدم بالأنوار المنبعثة من وجهه المنير.

وصمت الحضور بانتظار ما سيقوله الإمام الحسين بن أحمد بن عبد الله ، الذي أمر باشارة من يده الداعي المدير بأن يحضر الشهادات واللباس الخاص بالدعاة ، والذي يتألف من الجبة الحمراء الموشاة بالخيوط الذهبية والعمامة الخضراء ، ثم يشرع بتقديم أعضاء البعثة حسب الأسماء ، ليسلمهم الشهادة والجبة والعمامة بنفسه.

وبعد أن أعد الداعي المدير الشهادات واللباس نادى على الأسماء ، فكان الحسين أول المتخرجين فتقدم من المنصة التي يجلس عليها الإمام فقبل الأرض بين يديه ، فوضع الإمام يده على رأسه وباركه ، بينما تقدم الداعي المدير وألبسه الجبة ووضع العمامة على رأسه وصافحه مهنئاً ، ثم تبعته ليلى الجنابي ، وشقيقها سعيد ، ثم بقية الدعاة والداعيات ففعلوا كما فعل الحسين ، وعادوا إلى أماكنهم .

ولما أعلن الداعي المدير عن انتهاء أعضاء البعثة ، وقف الإمام الحسين بن أحمد بن عبد الله وقال :

بسم الله الرحمن الرحيم وعليه اتكالي وبه ثقتي .

الحمد لله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي أنعم عليكم يا أولادي بهذه الرتبة العالية ، والمكانة السامية ، وكل ما أطلبه منكم أن تخلصوا للرسالة الملقاة على عاتقكم ، وتطيعوا أولي الأمر منكم ، وتسهرون على راحة الجماعات ، وتطبيق الإرشادات والتعليمات ، وكل ما آمرهم به أن تتضامنوا وتتكاتفوا لتنفيذ رغباتنا في تطبيق نظام الإلفة والمحبة ، والتمهيد بالسر والعلانية لإيجاد دولة أهل الخير التي نبشر بها ، ونعمل لأجلها ، لأن دولة أهل الخير يا أبنائي وبناتي يبدأ أولها من أقوام أخيارفضلاء يجتمعون في بلد واحد ، ويتفقون على رأي واحد ، ودين واحد ، ومذهب واحد ؛ ويعقدون بينهم عهداً وميثاقاً بأنهم يتناصرون ولا يتخاذلون ، ويتعاونون ولا يتقاعدون عن نصرة بعضهم بعضاً ، ويكونون كرجل واحد في جميع أمورهم ، وكنفس واحدة في جميع تدابيرهم ، وفيما يقصدون من نصرة الدين وطلب الآخرة ، لا يبغون سوى رحمة الله ورضوانه عوضاً . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد أن غادر الإمام المكان ، عادت البعثة إلى مكان إقامتها وراح أعضائها يعدون العدة للعودة إلى السواد ، ومنها يتفرقون على الجماعات حسب التعليمات التي سوف يتلقونها من مقر الإمامة فيما بعد . .

وفي الوقت المحدد غادرت البعثة بكاملها سلمية ليلاً باتجاه الموصل ، ومنها واصلوا المسير إلى السواد ، فوصلوها عند المغيب حيث وجدوا بانتظارهم الثالوث المقدس الذي رحب بهم وهنأهم بسلامة العودة إلى بلادهم ، ومنحهم إجازة لمدة شهر حتى يزوروا أهلهم وذويهم ، ثم يعودوا إلى « كلوازي » ليتلقوا أوامر توزيعهم ، ومهماتهم الجديدة .

الفصل الثامن

انتشار الدعوة في اليمن وبعثة المغرب

قلنا في الفصل السادس بأن الاختيار قد وقع على الداعي الحسين بن فرج بن حوشب ليكون داعياً في اليمن ، فتوجّه من سلمية بصحبة الداعي علي بن الفضل بناءً على رغبة الإمام الحسين بن أحمد ابن عبد الله بن محمد بن اسماعيل ، وتنفيذاً لأوامره ، وتعلياته وإرشاداته . وقبل أن يترك الحسين بن فرج بن حوشب بن زادان الكوفي سلمية ، قال له الإمام الحسين : إلى عدن لاعة فاقصد ، وعليها فاعتمد ، فمنها يظهر أمرنا ، وفيها ثغر دولتنا ، ومنها تفترق دعاتنا ، أجمع المال والرجال ، والزم الصوم والصلاة والتقشف ، واعمل الظاهر ، ولا تظهر الباطن ، وقل لكل شيء باطن . وإن ورد عليك ما لا تعلمه فقل لهذا من يعلمه ، وليس هذا وقت ذكره . ثم أوصاه برفيقه علي بن الفضل فقال : هو شاب قريب عهد بالأمر ، فانظر كيف تسوس أمره . وخاطبهما معاً بقوله : أبعثكما إلى اليمن تدعون الى ولدي هذا وأشار إلى ولده عبيد الله المهدي الذي كان غلاماً صغيراً لا يتجاوز العاشرة من عمره . فسيكون له وللذريته عز وسلطان ، وإن الله عز وجل قسم لليمانيين ألا يتم أمر في هذه الشريعة إلا بنصرهم .

وخرج الداعيان من سلمية بعد أن زودهم بيت الدعوة بالمال اللازم لرحلتهما إلى الكوفة ومنها إلى القادسية ، ولما خرجا من القادسية أوجسا خيفة لما هما مقدمان عليه ، فسمعا حادياً يقول :

يا حادي العيس مليح الزّجرِ بشر مطاياكَ بضوء الفجرِ

فسرهما ما سمعا واستحسنا ذلك الفأل ، وواصلا سيرهما إلى

مكة المكرمة ، فوصلاها حين قدوم الحجاج من اليمن . فأديا مناسك الحج وتابعا السير جنوباً حتى وصلا إلى غلافقة ، وهي بندر مدينة زبيد على ساحل البحر الأحمر. ثم افترقا بعد أن اتفقا على أن يتصل كل واحد منهما بصاحبه ليتعرف أحواله ، فاتجه ابن حوشب إلى مدينة الجند ، وكانت غايته عدن لاعة لأنها كما قال له الإمام الحسين بن أحمد : أقوى لأمرك وأمضى لناموسك.

ووصل ابن حوشب الى عدن لاعة عن طريق بعض تجار هذه المدينة من بني موسى ، كان قد تقابل معهم في عدن أبين ، ولما وصل عدن لاعة أخبره من بها من أهل الدعوة أن الداعي أحمد بن عبد الله ابن خليع كان قائماً بالدعوة فيها ، ولكن الأمير ابن يعفر قبض عليه وأودعه السجن ، وقد توفي منذ عهد قريب في سجنه ، فنزل ابن حوشب في دار من دور الداعي ابن خليع ، وتزوج ابنته ، وتقلد مقاليد الدعوة هناك ، أما علي بن الفضل فقد اتجه الى بلاد يافع الجبلية بالقرب من الجند.

نهج الداعيان ابن حوشب وعلي بن الفضل منهجاً واحداً في نشر الدعوة في بلاد اليمن ، وقد اتخذا الدين وسيلة لنشر نفوذهما . فأظهر كل منهما الزهد والتقشف والصلاح عملاً بوصية الإمام الحسين بن أحمد ، إليهما ، كما تظاهر كل منهما بالتفقه في الدين ، والتضلع في المذاهب الإسلامية ، وكانا يأمران بالمعروف ، وينهيان عن المنكر. فمال إليهما كثير من أهل اليمن ، وأقبلوا عليهما من كل فج ، وخاصة بعد أن أظهرا دعوتهما علناً بعد وصولهما إلى اليمن بثلاث سنوات . فأصبح لكل منهما جماعة كبيرة ، تخلص له الإخلاص كله.

وبعد أن قوي نفوذ كل منهما في جهته ، عمل على جمع أموال الزكاة ، لصرفها على تحسين أوضاع الجماعات الاجتماعية

والاقتصادية ، وشراء الأسلحة للدفاع عن النفس ، فبلغت أخبارهم مسامع أمراء اليمن ، فاستعدوا لمواجهة هذا التيار الجارف من أتباع الدعوة الإسماعيلية ، الذي بدأ يهدد كيانهم بالخطر الشديد . كأنه الوباء المخيف .

وجا من أبلغ الداعي ابن حوشب بأن اسحق بن طريف يستعد لمهاجمته على رأس جيش جرار ، فطلب ابن حوشب من أتباعه أن يجمعوا له مبلغ ألف دينار ليستعد بواسطتها للدفاع عن الجماعات ، فقدمها له خمسة من وجهاء الدعوة ، فاستعد بها ، وصعد عبر محرم وتحصن فيه مع خمسين رجلاً من كبار الجماعات ، فشن عليهم اسحق ابن طريف غارة قتل من الجماعات اثني عشر رجلاً . فضاق الأمر على الجماعات ، فاجتمع مشايخ الدعوة بابن حوشب وسألوه حسن النظر والتدبير لهم لحماية أرواحهم وممتلكاتهم .

فقال ابن حوشب : لا بد لنا من اختيار بعض الأمكنة الحصينة المنيعة نلجأ جميعاً اليها وندافع عنها بكل ما نملك من إمكانيات ، فاختاروا لنا مكاناً نلجأ اليه ونحصنه ونحميه .

قال الشيخ أحمد بن علي العرجي: لدينا الكثير من المواقع المنيعة في هذه الجهات ، فاختر أحدها حتى نلجأ إليه .

قال ابن حوشب : قبل أن اختار المكان ، أرى أن ترتبوا لي اجتماعاً سرياً مع سلاطين همدان ، وبعض مشايخ بني العرجي لأبحث معهم أمر اختيار بعض الأماكن المنيعة الخاضعة لنفوذهم لنلجأ اليها ، ونداقع عن أنفسنا فيها ، وربما تمكنت من إقناعهم بواسطة المال ، لأن المال شريان حيوي بالنسبة لكل مخلوق ، يغذيه بالخيرات ، ويجنبه الفقر والعوز . . !

فأجابه الشيخ أحمد بن علي العرجي قائلاً : سأرتب لك اجتماعاً عاجلاً في بيتي مع سلاطين همدان ، وبعض أقربائي من آل العرجي ، إن شاء الله هذا المساء .

وبالفعل اجتمع ابن حوشب بسلاطين همدان ، فاتفق معهم على أن يضعوا تحت تصرفه بعض الأماكن الجبلية المنيعة ، الخاضعة لنفوذهم لقاء مبلغ كبير من المال دفعه لهم ، ثم دفع مبلغاً آخر لبني العرجي لقاء مساعدتهم، وحماية بعض الجماعات القاطنين بجوارهم ، واستعمال بعض الحصون المنيعة في بلادهم اذا اقتضى الأمر.

وجمع ابن حوشب أتباعه وأنصاره واستولى على جبل الجميعة بكامله ، ثم هاجم بيت ريب ، وهو رأس مسور ثلاث مرات ، حتى استولى عليه ، وحشد أتباعه فيه ، وراح يهدد بقية القلاع والحصون المنتشرة في تلك البلاد . مما أثار غضب رؤساء الدويلات ، فأشعلوا نار الحرب في وجه ابن حوشب وأتباعه . ولكن ابن حوشب بما أوتي من الذكاء الخارق وحسن القيادة والحنكة والدهاء استطاع أن يسجل الانتصارات المتوالية ، فاتسعت رقعة الأماكن التي يسيطر عليها ، وامتد نفوذه كثيراً ، حتى شمل أغلب أنحاء اليمن .

ولما علم الإمام الحسين بن أحمد بما حققه ابن حوشب من انتصارات ونفوذ لقبه بالمنصور باليمن ، ومنحه رتبة داعي دعاة وفوضه بالقيادة الدينية والسياسية والاجتماعية ، مما شجع ابن حوشب على الإستيلاء على جبل مسور من أعمال صنعاء ، ودخل الحصن وبرفقته ثلاثة آلاف مقاتل ، فحصنه من جديد وبنى فيه داراً للهجرة يلجأ اليها الجماعات وقت الحاجة . ومع مرور الأيام أصبح جبل مسور قاعدة حربية تنطلق منها الحملات العسكرية والدعاوية إلى الجهات

المجاورة .

واستمر ابن حوشب يحوز المعاقل ، ويحتل المدن والقرى ذات المواقع الستراتيجية الهامة ، فأقبل الناس إليه طوعاً وكرهاً ؛ ودخل كثير من بني يعفر وملوك حمير في الدعوة طائعين مؤمنين بما تحمله من مبادىء سامية ، ومعارف عقلانية مثالية .

وكان ابن حوشب رغم الحروب الكثيرة التي يخوض غمارها على اتصال دائم ومستمر بمقر الإمامة في سلمية ، يزودها بالمعلومات عن انتصاراته وتحركاته ، ويتلقى التعليمات والارشادات التي تنير له دروب التقدم والانتصار. فقويت في أرض اليمن دعوته وعلت كلمته ، فاستعمل لأول مرة الطبول والرايات في المعارك التي يخوضها في أنحاء البلاد. وكان ابن حوشب دائماً يخطب في الجماعات ويحضهم على الجهاد في سبيل الدعوة وإمامها المهدي الذي بشر به النبي صلى الله عليه وسلم ، وكثيراً ما كان يردد في أحاديثه قائلاً : والله ما أخذت هذا الأمر بمالي ولا بكثرة رجالي ، وإنما أنا داعي المهدي الذي بشر به النبي .

وكان الناس عندما يسمعون كلامه ، ويفهمون حقيقة دعوته ، ينتقلون إليه بأموالهم وأولادهم ، ويدخلون في دعوته ، ويؤدون البيعة والطاعة لإمام الوقت . ولم يقف نشاط ابن حوشب عند هذا الحد ، بل أرسل جيشاً قوياً لمساعدة زميله الداعي علي بن الفضل وفك الحصار عنه حينما طوق في مخاليف البيض من أعمال تهامة .

ولا بد لنا من الإشارة إلى أن الداعي علي بن الفضل قد سلك نفس الطريق التي سلكها ابن حوشب ، فبنى الحصون المنيعة ، واحتل سرور يافع وغيرها من المناطق ، وجمع أموال الزكاة من

الجماعات ووضعها في أماكن منيعة حصينة ، واهتم باطلاق الدعاة للتبشير في كل مكان ، وجاءه الناس زرافات ووحدانا، فعاهدوه على الإخلاص والطاعة ، وأقسموا يمين الولاء للإمام الذي تروج باسمه الدعوة ، فاشتد أزره ، واتسع نفوذه ، وازدهرت دعوته .

واستمر ابن حوشب يحقق الانتصارات وينشر الدعوة بجد ونشاط ، ويبني أسس دولة أهل الخير ، حتى أصبح الجزء الأكبر من اليمن خاضعاً لنفوذه ، مما أدخل السرور إلى نفسه ، فأرسل بعض الهدايا مع وفد اختاره بنفسه ليقدمها إلى الإمام ويبشره بما حققه الله من انتصارات في اليمن على يد الداعي ابن حوشب.

ولما وصل الوفد اليمني إلى سلمية ، وقدم الهدايا إلى الإمام الحسين بن أحمد ، سرسروراً عظيماً وقال لابنه المهدي : هذه أول ثمرة أيامك ، وبركة دولتك ، وتمثل بقول الشاعر :

الله أعطاك التي لا فوقها ... وكم أرادوا منعها وعوقها
عنك ، ويأبى الله إلا سوقها ... اليك حتى طوقوك ، طوقها

وشبه الداعي ابن حوشب بفجر الدعوة الذي مهد لشمسها بالظهور ، وباركه وخلع عليه الألقاب الكبيرة ، وأطلق يده في كافة المناطق التي احتلها في اليمن . وأوفد الداعي شبيب بن محمود ليكون تحت إمرة الداعي ابن حوشب، وليعده ، ويدربه ، ويعلمه ، حتى يرسل في مهمة خاصة إلى السند .

لم يكن الداعي شبيب بن محمود حديث العهد بالدعوة ، أو مستجيباً ينهد إلى أرفع المناصب ، بل كان داعياً ذكياً عارفاً ، وشاعراً مجيداً ، تخرج منذ خمسة عشر عاماً من مدارس الدعوة في الأهواز ،

واختص بعلم اللغات ، ودراسة الأشكال والهيئات البشرية ، فأجاد التحدث بطلاقة باللغة الفارسية والعربية والهندية ، والافرنسية ، والروسية ، كما أحسن التكلم بلغات البربر، وبعض القبائل الإفريقية ، تعلم كل هذه اللغات وأجادها وهو لا يزال في شرخ الشباب لا يتجاوز الثلاثين من عمره ، كان الداعي المسؤول عن كافة المراسلات التي تجريها قيادة الدعوة مع الدعاة والجماعات في جميع أنحاء العالم الإسلامي ، وكان الإمام يعتمد عليه كثيراً عندما يكلفه بمهمات خطيرة وهامة . لذلك أوفده إلى اليمن ليكون في معية ابن حوشب ، فقد يحتاجه في بعض الأمور المتعلقة بعلاقاته مع الخارج .

ولما وصل الداعي شبيب بن محمود إلى اليمن ومثل بين يدي ابن حوشب ، رحب به وخصص له داراً مريحة للسكن ، وعينه مشرفاً على العلاقات الخارجية ، ومدرساً لعلم الهيئة والفراسة في مدارس الدعوة التي أوجدها ابن حوشب في اليمن ، واستقدم لها أصلح المربين ، وأجود المعلمين ، كما انتسب اليها العديد من المستجيبين والمستجيبات ، ومع كل ما وفره ابن حوشب لهذه المدارس ، لا تزال في طور الطفولة ، إذا قورنت بمدارس الدعوة في سلمية ، ورغم الحروب والمشاكل الكثيرة التي اجتاحت اليمن ، فقد نمت هذه المدارس بسرعة عجيبة حتى أصبحت بعد خمسة أعوام من وجودها تضاهي أكبر الجامعات المعروفة في زماننا ، وكانت بمثابة الفجر الذي طلع على اليمن فأنار سهولها وجبالها ومدنها ، فعمت الثقافة العقلانية كافة القرى والدساكر ، ونشط الدعاة يبشرون بالخير ، وينشرون العلم والمعرفة في كل مكان .

وهكذا بطرفة عين واغماضتها أصبحت اليمن قاعدة لانطلاق الدعلة في كافة أنحاء العالم الإسلامي ، فأرسل الداعي الهيثم ابن

حوشب إلى السند حيث استجاب اليه الكثير من أهلها ، وأوفد الداعي أبا محمد عبد الله بن العباس إلى مصر ، ووزع الدعاة على اليمامة ، والبحرين ، والهند ، وفارس ، والمغرب .

على هذه الصورة الزاهية من النشاط والعلم والمعرفة والتبشير أصبحت اليمن في ظل الدعوة الإسماعيلية قلعة قوية للصمود والتصدي . لذلك لا نستغرب إذا وجدنا ابن حوشب يعين الداعي شبيب بن محمود مدرساً لعلم الهيئة والفراسة في مدارس الدعوة المنتشرة في كل مدينة من مدن اليمن الكبرى .

ولقد وزع الداعي شبيب بن محمود أوقاته على تلك المدارس بالتساوي ، فكان كل يوم يحاضر ويلقي مجالسه في إحدى المدارس ، ثم ينتقل بعد الظهر إلى غيرها ، وفي الليل يلقي مجالسه في جامع البلدة أمام كبار الدعاة والعلماء ، وفي أغلب الأحيان ، كان ابن حوشب ومجلس دعوته يحضرون هذه المجالس . وكانت السؤالات والإستفسارات تنهال عليه في كل مجلس من مجالسه ، فيجيب عليها بايجاز منطقي سليم ، وذكاء نادر ، وتصوير يتسم بالواقع والحقيقة . مما جعله بسرعة يحوز على ثقة الجماعات ، ويكسب ودّهم ، فهم يثنون عليه ، ويفتخرون بسعة اطلاعه ، وقوة حجته . وسرعان ما اصبح اسمه على كل لسان ، مما جعل الطلاب يتهافتون على سماع محاضراته ، زرافات ووحداناً ، ويلهجون بالثناء والاعجاب على ما يقدمه من معلومات ، جيدة السبك ، قوية الحجة ، سهلة الفهم ، كثيرة التركيز .

وكانت أشد المعجبات به الداعية رباب بنت علي الهمداني ، وهي طالبة في السنة الأولى من دراستها العقلانية ، جميلة ، جذابة ، ذات قوام ممشوق ، وقدٌّ ميّاس ، لا تتجاوز العشرين من عمرها ،

ذكية ، كثيرة الملاحظة ، قوية المنطق تنقاد اليهـا التعابير والكلمات انقياداً عجيباً ، تحب المجادلة ، والمناقشة ، في مناسبة وغير مناسبة ، وكل ما تنهد إليه من وراء مناقشاتها أن تحرج من يناقشها أمام الطلاب وتظهر ضعفه أمام قوتها . وكان أغلب الأساتذة يتجنبون الخوض معها في أي موضوع تطرحه وتحاول إثارة الجدل حوله ، حتى لا يحرجوا أمام الطلاب ، وتكون رباب هي المنتصرة .

ولما دخل الداعي شبيب بن محمود قاعة المحاضرات لأول مرة ، وانطلق في محاضرته كالسيل العارم يجرف في طريقه كل شيء ران على القاعة صمت عجيب ، وركزت رباب بصرها وبصيرتها على الداعي الذي أبهرها بمنطقه السليم ، وسلاسة أسلوبه في التحدث ، ومعالجة الموضوع الذي يتكلم عنه من كافة الجوانب ، فلم يترك ثغرة تنفذ منها رباب لتجادله وتناقشه . مما أثار إعجابها ، وقربه جداً إلى نفسها ، وراحت تتأمله محاولة معرفة ما يخبئه وراء نظراته الثاقبة التي تدخل إلى القلب بسرعة جنونية لا عهد لها بمثلها مطلقاً ، فيرتد بصرها عاجزاً عن فهم هذا النوع من الدعاة العباقرة .

وعندما انتهى الداعي شبيب من القاء محاضرته ، طرح الموضوع للمناقشة وطلب من الطلاب أن يبدوا آراءهم في الموضوع الذي عالجه ، وهو على استعداد للإجابة على كل سؤال . ولكن الجميع صمتوا ولم يتفوه أحدهم بكلمة واحدة ، ولم يطرح عليه أي سؤال ، حتى رباب التي اعتادت إثارة الجدل والمناقشات في مثل هذه المناسبات صمتت ، وراحت تراقب تحركات الداعي شبيب وهو يتنقل ببطء بين المنصة ، وصفوف الطلاب ، والطالبات ، ولم تشعر عندما خرج الجميع من القاعة بعد أن أعلن الأستاذ عن انتهاء المحاضرة ، بل ظلت مسمرة في مكانها ، تطلق لأفكارها العنان ، وترسم في مخيلتها

أجمل صورة لمعلمها الجديد الذي سيطر على مشاعرها وأحاسيسها.

ومع مرور الأيام، وكثرة المحاضرات، وفي موجة الإعجاب العارمة بنوعية هذا الداعي الكبير، تحوّل إعجاب رباب بنت علي الهمداني إلى حب جارف عظيم، سيطر على كل خلجة في فؤادها، فباتت تنتظر موعد محاضراته بفارغ صبر، لتكون أول الداخلين إلى القاعة، حيث تجلس بجوار المنصة، وتطلق لتأملاتها وأفكارها العنان..!

وفي إحدى المحاضرات لاحظ الداعي شبيب ما يرتسم على محيا رباب من وجوم، فقطع محاضرته وقال: أنت.. أيتها الطالبة.. ما لي أراك واجمة قلقة؟ ما اسمك؟

قالت رباب بعد أن انتبهت من وجومها: أنا يا أستاذ..!!

قال الداعي شبيب: نعم أنت.. ما اسمك.. ولماذا أنت شاردة بأفكارك لا تعيرين ما أقوله أي اهتمام؟

قالت رباب: اسمي يا سيدي رباب بنت علي الهمداني! من جبل مسور!

قال الداعي شبيب: لماذا أنت شاردة بأفكارك، ألم يعجبك ما أقوله؟ أم أن هناك ما يقلق بالك؟

قالت رباب: بالعكس يا سيدي كلي آذان صاغية، وباستطاعتي أن أردد كل كلمة قلتها...!

قال الداعي شبيب وهو يتصنع ابتسامة رقيقة: لا بأس، هذه المرة الأولى التي أخطىء فيها في فراستي، مع أنني عالم الفراسة الأول

في الدعوة . وواصل القاء محاضرته ، ولكنه كان بين الفينة والفينة ، ينظر خلسة إلى وجه رباب ، فيلمس البراءة ، والطيبة ، والجمال الأخاذ الممزوج بالقلق والوجوم ، فيزداد إعجابه بها . وعندما انتهت المحاضرة ، وحاول الداعي شبيب مغادرة القاعة ، استوقفته رباب وقالت : سيدي أرغب في التحدث إليك على انفراد ، فهل تعطيني قليلاً من وقتك الثمين .

توقف الداعي شبيب ، وقال : لا بأس يا رباب ، ولكنني مشغول جداً هذا اليوم ، ولدي محاضرة في جامع صنعاء بعد قليل ، هل يمكن تأجيل حديثك حتى صباح الغد ؟

قالت رباب : إذا كانت هذه رغبتك يا سيدي ، فلا مانع لدي ، ولكن أين ألقاك ؟

قال الداعي شبيب : سأكون هنا في غرفتي قبل موعد القاء المحاضرة بنصف ساعة ، ألا يكفي هذا الوقت لحديثك ؟

قالت رباب : ربما لا يكفي الزمان كله ، ولكنني سأكون بانتظارك يا سيدي . . !

وصل الداعي شبيب إلى مدرسة الدعاة في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي فوجد الطالبة رباب بانتظاره أمام غرفته ، فسلم عليها ودعاها للدخول . وأجلسها على كرسي بجوار طاولته ، وقال : لدي الآن المزيد من الوقت لسماع ما تودين قوله ، فهاتي ما عندك يا رباب ؟

قالت رباب : يدور في مخيلتي يا سيدي عدة سؤالات تتعلق بما تضمنته بعض مجالسك ، وكان بودي أن أناقشك فيها أمام الطلاب

والطالبات ، ولكن لظروف خارجة عن إرادتي ، قررت أن أوجه اليك بعض الأسئلة ، بشرط أن لا تسألني عن ماهية تلك الظروف التي وقفت حائلاً بيني وبين توجيه تلك الأسئلة في قاعة المحاضرات . . !!

قال الداعي شبيب وهو يتفرس في وجه رباب عله يكتشف ما يتفاعل في أعماقها وتود عدم البوح فيه : لتطرحي ما يدور بخلدك من استفسارات فأنا أستمع . . !!

قالت رباب وقد علت وجنتيها صبغة حمراء شفافة ، زادتها جمالاً على جمال : افرض يا سيدي أنك تريد استرعاء انتباه شخص ما ليس على التحديد ، فماذا تفعل من أجل ذلك؟

قال شبيب : سؤال وجيه ، أستغرب كيف يصدر عن إنسانة ذكية مثلك ، إذ كان المفروض أن تعرفي الإجابة عليه غريزياً ، ففي غرفة الصف مثلاً يلجأ الأستاذ أو المعلم إلى وسائل معروفة لاسترعاء الانتباه ، ومنها الوعد والوعيد ، أو الحاجة والحرص على العلامة ، ومنها الجوائز أو العقوبات ، أو غيرها من وسائل استرعاء الانتباه .

ولكن يا رباب في الحالات والأوضاع التي تكون فيها الأفاعيل والانتباه حرة ، مثلاً كيف يمكن أن تسترعي الفتيات انتباه الفتيان اليهن ؟ وهذا باعتقادي ما رميت اليه من وراء سؤالك ، أي كيف يسترعي الذكر انتباه الأنثى التي يعجب بها ؟ والجواب على سؤالك هذا حدده علم الفراسة بعوامل كثيرة يبديها الذكر لاسترعاء انتباه الأنثى ، بموجب شروط تشتمل على صفات المثيرة المميزة ، وعلى العوامل التي تتوقف على الفرد نفسه . ومن هذه العوامل على سبيل المثال لا الحصر : التغيير أو التضاد ، وهو حركة في اتجاه ما : من مكان إلى مكان ، من الغياب إلى الحضور ، من الأحمر إلى الأخضر ، من المتحرك إلى

الثابت ، وبتعبير آخر فان أي شيء يكون جديداً أو غير متوقع هو تغير من نوع ما وهو يسترعي الانتباه .

الحجم : فالشيء الكبير الضخم يسترعي الانتباه أكثر من الشيء الصغير . إنما ليس الحجم إلا عاملاً واحداً من عوامل تتداخل فيما بينها وتحدد اتجاه الانتباه.

السيطرة : وتعني أن المثيرات الأشد تسيطر على المثيرات الأضعف . ومثال ذلك أن الأصوات العالية تسيطر على الأصوات المنخفضة ، والألوان الزاهية البرّاقة ، تسيطر على الألوان القاتمة الكامدة .

التكرار : إذا تكرر مؤثر ضعيف عدة مرات يؤثر اكثر واشد من مؤثر قوي يكرر مرة واحدة فقط .

الحال العضوي : أن المثير الذي يسيطر على الأنتباه أكثر من سواه هو المثير الأوثق صلة بالحالة العضوية في تلك اللحظة .

الاهتمامات : الناس يختلفون اختلافاً بيّناً في انتباههم إلى نفس المثير ، وذلك على اعتبار أن اهتمامات إنسان ما ، مثل حاله العضوي ، تشد انتباهه إلى أمور خاصة.

الاحتكاك الشخصي : إن توجيه الكلام إلى شخص معين تسميه يسترعي انتباهه وانتباه الناس إليه. وكذلك حين تتحدثين إلى شخص بمفرده فان نظرك إلى عينيه وتوجيهك الخطاب أو السؤال مباشرة اليه ، يحمله على مبادلتك الشيء نفسه . فهل فهمت الآن جوابي يا رباب ؟

ابتسمت رباب بطريقة عفوية من كل جوارحها وقالت : يكفيني يا سيدي ما سمعته، فقد حفرت كلماتك التحليلية في أعماق نفسي ، فشكراً لك ، واستأذن بالأنصراف!

قال الداعي شبيب : أنا في خدمة طلابي دائماً ، وخاصة العقلاء الأذكياء منهم ، فإلى اللقاء يا رباب في المستقبل القريب ، وكلي أمل بانك سوف تطرحين مسائل أخرى أشد تعقيداً . . !

قالت رباب وقد نهضت تستعد لمغادرة الغرفة : أعلم ذلك يا سيدي ، وسأحاول أن أستوعب كل محاضراتك في المستقبل إن شاء الله . فودّعته وخرجت وقد ازداد وجومها وتجمعت آلاف الصور أمام مخيلتها ، وراحت تسأل نفسها وهي تتمشى في باحة المدرسة : يا ترى ماذا تعني إجاباته العلمية المليئة بالرموز والإشارات ؟ هل شعر بما أحس به بين جوانحي من حب دفعني لأن أطرح عليه هذا السؤال المحرج عن كيفية استرعاء انتباهه هو بالذات إلى ما يتفاعل في أعماقي؟ أم أنه اعتقد بأن سؤالي له صفة علمية فقط فأجاب عليه هذه الإجابة الواضحة المقتضبة ؟ ورددت بينها وبين نفسها : لا أدري. . لا أدري . . ودارت في دوامة من التأملات والأفكار القلقة . .

أما شبيب بن محمود الذي وهب حياته للدعوة والعلم والمعرفة ، لم يشعر في حياته بمثل ما يشعر به في هذه اللحظة التي أغلقت رباب خلفها الباب ، وتركته وحيداً مع الأفكار التي بدأت تتكوكب في مخيلته ، فتتقاذفه تارة نحو الشمال وأخرى نحو الجنوب ، فلا يشعر بوجوده ، بل تراءت أمامه عشرات الصور ، وارتسمت في مخيلته آلاف الرسوم ، وأخذت ترن في أذانه كلمات رباب الناهدة إلى مس شغاف قلبه الذي لم يعرف الحب في حياته ، فتساءل وهو يرنو ببصره خارج النافذة : ماذا تقصد رباب من وراء استفسارها مني بالذات عن كيفية استرعاء انتباه شخص ، هل كانت تهدف من وراء ذلك استرعاء انتباهي؟ أم أن هناك انسان آخر غيري تود استرعاء انتباهه؟ لا أدري. . . . لا أدري. . . ستكشف الأيام ما يجول في أعماقها. . . ولم يسمع صوت آذن المدرسة وهو يقول له : يا سيدي لقد دخل

الطلاب إلى القاعة وهم بانتظارك! . حتى رددها للمرة الثانية ، فانتبه من وجومه ، وقال له : طيب . . . أنا قادم . . . .

وسارت الأيام ببطء ورتابة على منوال واحد ، فلا رباب تجرأ على البوح بما يتفاعل في أعماقها من حب وإعجاب ، ولا الداعي شبيب يحاول التقرب إليها أو استمالتها ، ولكنهما كانا في كل يوم يلتقيان في قاعة المحاضرات فيتبادلان النظرات الطويلة التي تجسد ما في كيانهما من حب وإعجاب متبادلين.

ولكن رباب على المدى الطويل عيل صبرها وازداد وجومها وقلقها ، فقررت بينها وبين نفسها أن تغتنم أول فرصة سانحة ، لتشرح لأستاذها ومعلمها بصراحة ما تحسّه نحوه من حب وإعجاب. وسنحت لها الفرصة بعد أربعة أشهر من لقائهما الأول ، حيث التقت صدفة الداعي شبيب بينما كان يهم بدخول غرفته في المدرسة ، فاستوقفته ، وحيّته بحياء ودلال ، وقالت : ألديك بعض الوقت يا سيدي ؟

قال الداعي شبيب : ماذا وراءك يا رباب ؟ هل هناك سؤالات أخرى ؟ لدي ربع ساعة تفضلي بالدخول . وفتح باب الغرفة وولج إلى داخلها فتبعته رباب وجلست حيث أشار إليها ، وقالت : سأكون بغاية الصراحة معك يا سيدي ، فلا لف ولا دوران ، ولا رموز ولا إشارات ، بقصد استرعاء انتباهك ، ولفت نظرك ، إنني معجبة بك ، وهذا الإعجاب قد تحوّل مع الأيام إلى حب جارف أقض مضجعي ، وجعلني أقضي أكثر لياليَّ مسهدة أفكر فيما إذا كنت تبادلني هذا الحب ، أم أنه حب من طرف واحد ؟

قال الداعي شبيب وهو يتبسم : عرفت هذا يا رباب منذ طرحت سؤالك لأول مرة ، وكيف لا أعرف وأنا كما تعلمين مختص بعلم الفراسة ؟ ولكن مركزي العلمي ، ورتبتي في الدعوة ، حالتا

دون مفاتحتك في الموضوع ، فأنا أبادلك نفس الأحاسيس والمشاعر ، وقد عاهدت نفسي على أن أخطبك من أهلك فور انتهاء الدراسة ! إذا لم يكن هناك ما يحول دون زواجنا . ! "

قالت رباب : لقد أدخلت السعادة إلى قلبي ، وخلصتني مما أعانيه ، فلك عهدي بأن أكون مخلصة وفية إلى الأبد ، ولكن لا بد من إعلامك بأن عقبات كثيرة ستقف في طريق زواجنا ، منها ما يتعلق بالعادات والتقاليد في بلادنا ، ومنها ما يتعلق بالفرق الاجتماعي والوظيفي ، لذلك أرى أن ننتظر قليلاً حتى تزول تلك العقبات ، بفضل التنظيمات الجديدة التي أدخلها سيدنا ومولانا ابن حوشب على مجتمعنا . "

قال الداعي شبيب بن محمود : الحب الصادق يا رباب لا يستطيع أي انسان أن يقف في طريقه ، فاطمئني . ثم تشابكت أيديهما وتعاهدا على الوفاء والإخلاص ، وودّعته وانصرفت على أن يلتقيا كلما سنحت لهما الفرصة .

* * *

ولنعد إلى نشاط الداعي ابن حوشب لبناء الدولة الإسماعيلية في اليمن ، وإلى مجموعة من الدعاة التي وصلت من سلمية وفارس لتلقي العلم في مدارس الدعوة في اليمن ، وكان على رأس هذه المجموعة الداعي أبو عبد الله الشيعي الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا ، وهو من كبار الدعاة العقلاء العلماء أصحاب الدين والورع والأمانة والنزاهة ، أرسله الإمام الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل إلى اليمن للتدرب على يد ابن حوشب وقال له عندما ودّعه وهو يهم بمغادرة سلمية : « امتثل سيرته ، وانظر إلى مخارج أعماله ، ومجاري أفعاله ، فامتثلها ، واعمل بموجب إرشاداته ،

واستمع إلى نصائحه ، انه عالم نحرير ، وسياسي قدير ، وحكيم خبير ، أكسبته الأيام حسن التدبير ، وقوة التفكير . فأقام أبو عبد الله الشيعي عند ابن حوشب ، يشهد مجالسه ، ويخرج معه في غزواته لا يفارقه ، حتى آن أوان إرساله إلى أرض المغرب ، فأرفقه بداع آخر هو ابن أبي الملاحف ، الذي ما لبث أن عاد لمرض والدته ، فأرسل ابن حوشب مكانه ابراهيم بن إسحق الزبيدي.

والجدير بالملاحظة أن ابن حوشب كان قد أرسل منذ فترة إلى المغرب الداعيان الحلواني وأبا سفيان ، ولما علم بوفاتهما ، استدعى أبو عبد الله الشيعي وقال له : إن أرض كتامة في المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان ، وقد ماتا ، وليس لها غيرك ، فبادر ، فانها موطأة ممهدة لك ، فازرع فيها بذور الدعوة ، واسق هذه البذور حتى تنمو وتثمر ، فيأتي صاحب البذر ليقطف الثمر.

غادر أبو عبد الله الشيعي اليمن متوجهاً إلى مكة لتأدية فريضة الحج ، وقد زوّده ابن حوشب بما يحتاجه من المال. فلما حطّ الرحال في مكة ، سأل عن حجاج المغرب من كتامة ، واجتمع بهم ؛ فسمعهم يتحدثون بفضائل آل البيت ، فحدثهم في ذلك وزاد القول في مآثر أهل البيت ومناقبهم ، وندد بالذين اغتصبوهم حقهم بالخلافة والقيادة . ثم نهض بقصد الانصراف ، ولكن مشايخ كتامة أصروا عليه ليبقى في ضيافتهم ، لما أظهره من مقدرة علمية ، ورجاحة عقلية . ولكنه أصر على المضي في سبيله بعد أن وعدهم بزيارة أخرى قريبة ، فطلبوا منه أن يزوروه في مكان إقامته ، فأجابهم إلى ذلك. فأخذوا يترددون عليه ويسألونه عن مقصده ، فذكر لهم أنه يرغب في زيارة مصر لتفقد معالمها والاطلاع على ما حوته مكتباتها من علوم ومعارف. فعرضوا عليه أن يرافقهم حتى يصلوا إلى مصر. فأجابهم إلى طلبهم ،

فسروا بصحبته ، ورحلوا جميعاً من مكة .

وكان أبـو عبـد الله الشيعي كلما نزلـوا في مكان للراحـة ، يحدّثهم ، ويشرح لهم بعض المسائل الدينية الغامضة ، ويظهر لهم من العلم ما لا عهد لهم بمثله ، فتعلقوا به وأجمعوا على محبتـه ، وأظهـر خلال الرحلة من الورع والزهد والتقشف ما أذهل عقولهـم ، وحير أفكارهم ، وعلى الرغم من كثرة الصلاة والعبادة كان يغتنم كل مناسبة ليسأل مشايخ كتامة وحجاجهـا عن أحـوال بلادهـم ، وعـن مبلـغ طاعتهم لأميرهـم ، فكانـوا دائماً يجيبونه بأن ليس لأميرهـم عليهـم طاعة ، لأنه بعيد عنهم مسافة عشرة أيام،والأتصالات بينهم وبينه شبه مقطوعة - فلما وصلوا مصر شاء أبو عبـد الله الشيعي أن يودعهـم ويشكرهم على عطفهم وحسن معاملتهم له خلال الرحلة ، فشق على مشايخ كتامة فراقه ، وسألوه عن حاجته بمصر؟ فقال: ليس لي بها حاجة إلا ما ذكرته لكم من طلب العلم والمعرفة.

فقال أحد المشايخ : لماذا لا تسير معنا فبلادنا أرحب ، وأنفع لك ، وأطوع لأمرك ، ونحن أعرف بحقك ؟

فأجاب أبو عبد الله الشيعي : لقد قررت الإقامة في مصر بعض الوقت ثم أعود إلى بلادي ، وليست لي رغبة في التوجه إلى المغرب على الأقل في الوقت الحاضر . ولكن المشايخ الكتاميين لم يقتنعوا بإجابة أبو عبد الله الشيعي ، فألحوا عليه ، حتى أجابهـم إلى المسير معهـم ؛ فاستأنفوا السير حتى أصبحوا على مقربة من بلادهم كتامة ، فخـرج أصحابهم لأستقبالهم باحتفال مهيب على صهوات الجياد المطهمة ، ولما شاهـدوا أبـو عبـدالله الشيعـي بوقـاره ، وحسـن هيبته ، وجلال منظره ، سأله قوم منهم أن ينزل بضيافتهـم ، وأعلنـوا عن

استعدادهم للقتال دونه ، فسألهم أبو عبد الله الشيعي عن مكان فج الأخيار ؟ فتعجبوا من هذا السؤال الذي لا يخطر على بالهم ، إذ لم يكن رفاقه في الرحلة قد ذكروه له ، فأجابوه بأنه عند بني سليمان . فقال لهم : إليه نقصد ، ثم نأتي كل قوم منكم في ديارهم ، ونزورهم في بيوتهم ، فأرضي بذلك الجميع . وساروا إلى جبل يقال له : « ايكجان » وفيه فج الأخيار ، فقال أبو عبد الله الشيعي عندما دلّوه على مكان فج الأخيار : هذا فج الأخيار ، وما سمي إلا بكم ، لقد جاء عن لسان النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، أن للمهدي عليه السلام هجرة يبتعد فيها عن الأوطان ، ينصره ويؤيده في هجرته الأخيار ، وهم قوم اسمهم مشتق من الكتمان، فأنتم كتامة ، وبوجودكم في هذا الفج ، سمي فج الأخيار.

ولما تسامعت القبائل بهذا النبأ ، أتوه من كل مكان ، فعظم أمره ، وقوي نفوذه ، فكشف عن قصده ، وخاطب قبائل كتامة والبربر الذين التفوا حوله قائلاً : أنا صاحب البذر الذي أخبركم به أبو سفيان والحلواني ، فازدادوا حباً له ، وعظم قدره عندهم . (وسنأتي على ذكر نشاط أبو عبد الله الشيعي وفتوحاته في المكان المخصص لهذه الغاية) .

لنرجع إلى أجواء اليمن الداكنة الملبدة بغيوم الحرب ، وسُحب النزاعات ، والاقتتال ، والصراعات المتواصلة بين القبائل والمذاهب ، على النفوذ والسيطرة ، لنحدد معالم نفوذ الدعوة الاسماعيلية في وسط هذه الأجواء الصاخبة ، ومدى نفوذ ابن حوشب بعد أن حقق انتصارات هائلة في كافة المعارك التي خاض غمارها ، معتمداً على شجاعة أتباعه وتضحياتهم في سبيل توسيع رقعة البلاد التي احتلوها ، ولولا ردة الداعي علي بن الفضل عن الدعوة ، وخروجه عليها ،

لكانت اليمن بكاملها قد خضعت لنفوذ الدعوة الاسماعيلية .

ومع أن خروج الداعي علي بن الفضل قد سبب بعض الاضطراب في صفوف الجماعات ، ولكنه لم يؤثر على كثرة إقبال الناس للاستجابة إلى الدعوة .

هذا بالإضافة إلى الخطة السريعة التي نفذها ابن حوشب ، واستطاع بواسطتها أن يقضي على الداعي علي بن الفضل ويشرد أتباعه في كل مكان ، ويعيد الثقة بنفسه ، وبالدعوة التي يعمل لها ، رغم تألب كافة القوى ضده ، ومحاولاتهم المتكررة للقضاء عليه .

وبعد أن هدأت ثورة علي بن الفضل بعد مقتله ، استقرت الأمور ، وخيم السلام بعض الوقت على اليمن ، وازداد إقبال المستجيبين على الانتساب لمدارس الدعوة ، فتخرج منهم دعاة كبار علماء وزعوا بمعرفة ابن حوشب على مختلف أنحاء العالم .

وفي أحد الأيام بينما كان الداعي ابن حوشب جالساً في مجلسه يستقبل وفداً من دعاة عدن والسند ، الذين وفدوا عليه لاستشارته في بعض الأمور الدعاوية ، ولمطالبته بأن يزودهم ببعض الدعاة الذين تخرجوا حديثاً من مدارس الدعوة ، دخل عليه الداعي شبيب بن محمود ، وطلب منه أن يجتمع به على انفراد لأسباب خاصة وهامة ، فأمره أن ينتظر ريثما يخرج الوفد ، وينفض الاجتماع .

ولما خرج الوفد وأصبح مجلس ابن حوشب خالياً ، نهض ابن حوشب من مجلسه ، ودخل إلى غرفته الخاصة التي اعتاد أن يستقبل فيها الدعاة ، واستدعى الداعي شبيب إليه ، حيث سأله عن حاجته ، فأجابه قائلاً : تعلمون يا سيدي بأن مدارس الدعوة معطلة بمناسبة

انتهاء السنة الدراسية ، لذلك أطلب نقلي إلى خارج اليمن لأسباب خاصة . . !

فقطب ابن حوشب حاجبيه وقد ظهرت مسحة من الغضب على وجهه وقال : أنت تعلم يا بني بأنه لا يمكننا الاستغناء عنك ، وعن خدماتك في حقل التعليم والترجمة ، فما هي الأسباب الداعية لطلب النقل؟

قال الداعي شبيب : قلت يا مولاي أسباب خاصة لا يمكن البوح فيها ، وأصرّ على طلبي.

قال ابن حوشب : لن أنظر في طلبك قبل أن أعلم الأسباب ، فأنا يا ولدي شبيب لا تخفى عليّ خافية.

قال الداعي شبيب : ما دمت يا مولاي تصرّ على معرفة الأسباب ، فاعلم بأنني منذ أسبوع تقدمت إلى الأخ علي الهمداني طالباً يد ابنته رباب لتكون زوجة لي على سنة الله ورسوله ، ولكنه رفض طلبي مدعياً أن لها أولاد عمّ يرغب في تزويجها إلى أحدهم ، تمسكاً بالتقاليد العائلية المعروفة باليمن.

ولما قلت له بأن نظام الدعوة الاسماعيلية قد أعطى المرأة الحق لاختيار زوجها ، حسب رغبتها ، وليس لأحد الحق في إجبارها على الزواج ممن لا تريده ، أجابني بأنه لا يستطيع الخروج على تقاليد البلاد خشية أن يغضب خروجه الأهل والأقرباء .

لهذا جئت يا مولاي عارضاً الأمر عليك ، فإما أن تساعدني على هذا الزواج وإما أن ترسلني خارج البلاد.

قال ابن حوشب : كيف تعرفت على رباب يا شبيب؟

قال شبيب : كانت تلميذة في مدرسة الدعاة ، فتعرفت عليها أثناء إلقاء المجالس ، وهي فتاة ذكية مهذبة ومؤمنة . . !

قال ابن حوشب : أصدقني القول يا شبيب هل بينكما أية علاقة ، غير علاقة الطالبة والمعلم؟

قال شبيب : بصراحة ياسيدي، هناك إعجاب متبادل فقط . . ! . .

قال ابن حوشب : دع الأمر لي حتى أجد لكما مخرجاً من هذه المشكلة الشائكة . . ! . .

قال شبيب : لك ما تريد يا مولاي . ثم قبل يده وانصرف.

أما الداعي ابن حوشب فقد أرسل في طلب علي الهمداني بعد خروج شبيب من غرفته ، ولما مثل علي الهمداني بين يديه ، سأله باستغراب وقال : هل طالعت نظام الإلفة والإخاء الاسماعيلي يا علي؟

قال علي الهمداني : نعم قرأته يا مولاي؟

قال ابن حوشب : ما رأيك به يا علي ؟

قال علي الهمداني : إنه يا مولاي من أحسن الأنظمة التي وجدت من أجل إصلاح المجتمعات الإنسانية . !

قال ابن حوشب : طالما تعتبره من أحسن الأنظمة ، فلماذا تخالف نصوصه ولا تعمل بها ؟

قال علي الهمداني وقد بدأت علائم الخوف تظهر على محياه : أنا يا مولاي ؟ معاذ الله . . !

قال ابن حوشب : أجل أنت يا علي . . .

قال علي الهمداني : كيف . . ومتى كان ذلك يا مولاي؟

قال ابن حوشب : لا تتجاهل يا علي ، كان ذلك عندما تقدم الداعي شبيب لخطبة ابنتك رباب فرفضت طلبه ، زاعماً بوجود تقاليد تحول دون ذلك ، دون أن يدور في خلدك بأن نظام الدعوة قد أجاز للمرأة حق اختيار زوجها ، ولا يحق لأي انسان أن يجبرها على الزواج رغماً عنها.

قال علي الهمداني : لقد فعلتها يا مولاي مجبراً لأن ابن أخي يريدها زوجة له.

قال ابن حوشب : هل استشرت الداعية رباب في الأمر؟

قال علي الهمداني : ليس من تقاليدنا أن نستشير المرأة لأنها بنظرنا ناقة ولو هدرت . .

فثارت ثائرة ابن حوشب عندما سمع هذا القول الذي يشبه التحدي ، وقال : هذا رأي رجعي لا يتفق مع مبادىء الدعوة التي تعتنقها ، لذلك آمرك أن تحضر ابنتك رباب فوراً إلى مجلسي ، وتستشيرها بحضوري ، فإن وافقت على الزواج من الداعي شبيب زوّجناه إياها ، وإن رفضت ، وفضلت اختيار ابن عمها زوجته إياها على سنة الله ورسوله.

وما كاد ابن حوشب يتم كلامه حتى خرج علي الهمداني بسرعة إلى منزله ، ثم عاد مع ابنته رباب إلى مجلس ابن حوشب ، فأخذا مجلسهما بين يديه ، فنظر ابن حوشب إلى وجه رباب يستطلع ما تخفيه وراء هذه السحابة القاتمة من الوجوم التي ترتسم على جبينها الناصع

البياض ، ثم سألها قائلاً : يابنتي يا رباب ، محافظة مني على حقوقك المرتبطة بحقوق المرأة الاسماعيلية ككل ، رأيت أن أستدعيك باعتبارك من خريجات مدارس الدعاة العليا لأستشيرك بحضور والدك ، حول قضية تتعلق بك بالذات ، فماذا تقولين ؟

قالت رباب وقد ظهرت علائم الارتياح على محياها : إنني على استعداد لإجابتك بصدق وصراحة يا مولاي .

فابتسم ابن حوشب ، وقطب جبينه ، ثم قال : تعلمين يا رباب بأن أحد دعاتنا العلماء ، الذين حازوا على ثقتنا التامة قد خطبك من والدك ، الذي رفض طلبه ، متذرعاً ببعض العادات والتقاليد التي كانت معروفة في اليمن قبل استجابة أهلها للدعوة الاسماعيلية .

ولما كان نظام الدعوة الاجتماعي يعطي للمرأة كامل حريتها في اختيار زوجها بدون ضغط أو إكراه ، ويجيز لها اعطاء رأيها بصراحة ، أود معرفة رأيك حول هذا الموضوع؟

قالت رباب : هل يمنحني مولاي بعض الوقت للتفكير؟

قال ابن حوشب : القضية عرضت على والدك منذ عدة أسابيع ، وأظن بأن هذا يكفي للتفكير . . !!

قالت رباب : إذا كان طالب الزواج يا مولاي هو الداعي شبيب ابن محمود فأنا موافقة بكل جوارحي ! ! . .

فنظر ابن حوشب في وجه علي الهمداني وقال : ها قد سمعت رأي ابنتك بصراحة ووضوح فماذا تقول؟

قال علي الهمداني : ما دامت قد أعطت رأيها بصراحة فأنا أوافق وأبارك هذا الزواج ، بشرط أن يعرض الأمر على أشقائي وإخواني . . !

قال ابن حوشب : هذا عائد لك ، فشاورهم ، وعد الينا غداً لنبحث في أمر المهر ، ونحدد موعد الزواج . .

قال علي الهمداني : سأفعل هذا اليوم إن شاء الله ، وسأحضر في الموعد الذي ذكرته يا مولاي .

فنهض ابن حوشب من مكانه معلناً انتهاء الأجتماع . فخرج علي الهمداني وابنته رباب ، وغادرا دار ابن حوشب باتجاه منزلهما. أما ابن حوشب فقد استدعى اليه الداعي شبيب بن محمود وأبلغه بأن والد الداعية رباب قد وافق على زواجه من ابنته، وعليه أن يحضر غداً لتحديد المهر وموعد الزواج .

وما كاد شبيب يستمع إلى ما قاله ابن حوشب حتى غمرته فرحة كبرى أحس معها بأنه قد ملك الدنيا وما فيها من موجودات ، فشكر لابن حوشب جهوده ، ووعده بأن يكون زوجاً صالحاً وفياً باذن الله .

أما علي الهمداني فانه اجتمع إلى أخواته وأشقائه ، وحدثهم عن اجتماعه بالداعي ابن حوشب ، وأنه قد وافق على زواج ابنته رباب من الداعي شبيب بن محمود بعد أن أعلنت رباب عن موافقتها بحضور ابن حوشب ، وسألهم عن رأيهم في الموضوع؟

فوافق الجميع ، وباركوا هذا الزواج ، إلا ابن شقيقه الحسن ،

فقد رفض الأمر الواقع واعترض على هذا الزواج مدعياً بأن رباب ابنة عمه ، وهو أولى بها من الغرباء ، ولن يسمح لهذا الزواج بأن يعقد مهما كلفه الأمر . . !

قال علي الهمداني : اعلم يا بن أخي بأن نظام الدعوة قد ألغى كافة العادات والتقاليد التي كانت معروفة في بلادنا ، ومنح المرأة حق تقرير مصيرها، لذلك فان اعتراضك لا موجب له، لأن رباب قد أعطت رأيها بهذا الموضوع ، وإذا بقيت مصراً على رأيك بعد أن وافق الجميع ، فسأرفع الأمر للداعي ابن حوشب، ليرى ما سوف يتخذه من إجراءات . .

قال حسن : ارفع الأمر لمن شئت ، فلن أتخلىّ عن رباب حتى لو أجبرت على التخلي عن الدعوة ، وكافة أنظمتها.

قال محمد الهمداني وهو والد حسن : إذا واصلت عنادك يا بني ، ونفذت ما ذكرته الآن سوف نتبرأ كلنا من تصرفاتك ، ونعلنها عليك حرباً شعواء ،فقم وقبل يد عمك علي ، وبارك هذا الزواج . . !

فاحمرت عينا حسن ، وظهر الغضب الشديد على محياه ، وغادر المكان وهو يهدّد ويتوعد .

ولم يلبث علي الهمداني بعده طويلاً حتى غادر المكان مسرعاً وتوجه رأساً إلى مجلس ابن حوشب ، وقصّ عليه ما دار في الاجتماع العائلي الذي عقده من أحاديث ، وأعلمه بأن جميع أفراد العائلة قد باركوا هذا الزواج ، ما عدا ابن شقيقه محمد الذي هدد وتوعد ، ثم توارى عن الأنظار ، لذلك يأمل أن يكون الداعي شبيب حذراً في تنقّلاته وتحركاته حتى لا يقع ما لا يحمد عقباه .

فقال ابن حوشب : لا بأس ، هل نقرأ الفاتحة ونحدد النقد طالما الجميع قد باركوا هذا الزواج ؟

فأجابه علي الهمداني : لا مانع لدي يا مولاي. . . !

فاستدعى ابن حوشب الداعي شبيب بن محمود ، وأبلغه بأن الجميع قد وافقوا على زواجه ما عدا حسن بن محمد الهمداني ، لذلك يمكنه أن يستعد للزواج بعد أن يحدد بالاتفاق مع والد العروس المهر ووقت الزفاف.

قال شبيب : إنني أفوضك يا مولاي بأن تحدد المهر الذي يليق برباب لأنها تستحق كل شيء.

فقال ابن حوشب : أبسط يدك يا شبيب وضعها في يد عمك الهمداني لنقرأ الفاتحة ونحدد المهر.

فبسط الداعي شبيب يده ووضعها في يد والد رباب ، فأخذ ابن حوشب قطعة خضراء من القماش لف بها اليدين المتشابكتين وقال : باعتباري مسؤولاً دينياً عن الجماعات ، وقد خولني الإمام إجراء عقود الزواج ، على الطريقة الإسماعيلية، فانني أزوج الداعي شبيب بن محمود ، من الداعية رباب بنت علي الهمداني ، على ما حضر من المال وهو خمسمائة دينار عيناً وخمسمائة أصنافاً من لطائف وطيب وكساوى. فليباركهما الله ويجعل أيامهما مليئة بالسعادة والهناء.

وبدأت الاستعدادات للزواج ، تجري على قدم وساق ، وراح الداعي شبيب بن محمود يتردد يومياً على منزل رباب ليبحث معها الترتيبات المتعلقة بعقد القران. بينما كانت رباب تتابع مهمتها كداعية تعقد الاجتماعات وتلقي المجالس والمحاضرات ، وغالباً لا تعود إلى

منزلها إلا في ساعة متأخرة من الليل ، فتأوي إلى فراشها منهوكة القوى.

وفي ساعة متأخرة بينما كانت عائدة إلى منزلها بعد خروجها من أحد الاجتماعات النسائية ، وقبل أن تصل إلى مدخل الدار بعدة أمتار التقت ابن عمها الحسن ، فحاولت أن تسلم عليه ، ولكنه سرعان ما استل خنجره من وسطه وانهال على جسدها طعناً وتمزيقاً ، وهي تولول وتصرخ ، حتى وقعت في وسط الشارع وهي تتخبط في دمائها ، بينما أطلق الحسن ساقيه للريح وولى الأدبار . وسمع بعض المارة صراخ رباب فحملوها إلى منزلها وهي تعاني سكرات الموت .

ولما طلع الصباح جاء شبيب بن محمود إلى منزل رباب كعادته ليتفقدها ، فعلم بما حدث لها ليلاً على يد ابن عمها الحسن ، فأقسم أن ينتقم لها ، ولو قضى عمره باحثاً عن الحسن في كل بقعة من بقاع الأرض .

وبالفعل عاد الداعي شبيب إلى منزله ، فبدل ثيابه ، وتسلح بمدية قاطعة ، وضعها في وسطه ،وغادر صنعاءميمماً شطره نحو القرى والدساكر التي تحيط بالبلدة من كل جانب ، يبحث وينقب علّه يهتدي إلى المكان الذي لجأ إليه حسن بن محمد الهمداني . ولكن جميع الجهود التي بذلها باءت بالفشل ، فلم يستطع الاهتداء إلى مكان حسن ، ولا وجد خلال تنقلة المتواصل من أرشده إليه .

ولما شعر بالتعب الشديد ، وهو يسير على الطريق الممتدة بين صنعاء وجبل مسور ، شاء أن يلجأ إلى إحدى المغائر ، أو إلى ظلال بعض الصخور الضخمة الشامخة المترامية على جانبي الطريق يعشعش فيها البوم والصقور ، وتتصارع على جنباتها الأفاعي السامة

والوحوش. ولكنه خاف أن تلدغه أفعى ، أو يفترسه وحش ، أو تواجهه عصابة من اللصوص التي تتواجد عادة في تلك النواحي . فواصل المسير ، حتى أنهكه التعب ، وأوشك على السقوط ، فلجأ إلى ريف صخرة كبيرة وجلس في ظلاله ليأخذ قسطاً من الراحة ، وما لبث أن غط في ثبات عميق ، لم يصحُ منه إلاّ عندما اقترب منه أحد المارة ، وحاول كشف الغطاء عن وجهه . فنهض مذعوراً ، وانتضى خنجره استعداداً للدفاع عن نفسه وقال : من أنت . . وماذا تريد؟

قال الرجل : عابر سبيل ، شاهدتك ملقى على الطريق ، فظننت أنه قد حدث لك شيء ، فجئت لمساعدتك . .

قال شبيب بن محمود : انتسب وإلا أغمدت هذا الخنجر في قلبك . . !!

قال الرجل وقد رفع اللثام عن وجهه : أنا الحسن بن محمد الهمداني من سكان صنعاء . . !

فأذهلت المفاجأة شبيب ، وكاد أن يغمى عليه ، عندما علم أن الشخص الواقف أمامه هو نفسه من يبحث عنه للانتقام منه ، فقال : لقد ساقك قدرك إليّ يا حسن ، فيا ثارات زباب ، ووجه له طعنة نجلاء أصابته في كتفه ، فتراجع قليلاً إلى الوراء واستل خنجره ورد الطعنة بأحسن منها فأصاب شبيب في عنقه ، وتشابكا بالأيدي ، وتبادلا الطعنات حتى سقطا معاً على الأرض مضرّجين بدمائهما ، وزحف شبيب على بطنه باتجاه جثة الحسن وراح يكيل لها الطعنات من قلب مقروح حتى أخمد أنفاسه . وحاول النهوض والعودة إلى الطريق العام ، ولكن الدماء أخذت تنزف من جراحه بغزارة ، حتى كوّنت بحيرة صغيرة من الدماء ، فزحف على بطنه عدة أمتار وهو يئن

ويستنجد ، وما لبث أن فارق الحياة .

ولما عثر على جثتيهما في اليوم الثاني ، دفنا في نفس المكان ، ثم أقامت رباب بعد اندمال جراحها على البقعة التي دفن فيها شبيب ضريحاً ، لا يزال قائماً ومعروفاً لدى العامة حتى اليوم . وظلت رباب على وفائها وإخلاصها لذكرى الداعي شبيب حتى توفاها الله بعد عشرة أعوام فدفنت بجوار شبيب تنفيذاً لوصيتها .

أما الداعي ابن حوشب فقد ضرب مثلاً رائعاً للولاء والإخلاص ، ذلك لأنه رفض أن يعينّ أحداً من أبنائه لرئاسة الدعوة في اليمن ، عندما شعر بدنو أجله ، بل ترك الباب مفتوحاً أمام الإمام المهدي لاختيار من يراه مناسباً ، وقد قال في وصيته لولديه : « قد أوصيتكما بمبدأ الأمر فاحفظاه ، ولا تقطعا الدعوة فنحن غرس من غرسها ، ولولا ناموس الأئمة وما دعونا به إليهم ما صار الينا من الملك ما قد نلناه ، فعليكما بمكاتبة القائم منهم ، وأوصيكما بطاعة المهدي حتى يرد أمره بولاية أحدكما ، ويكون كل واحد منكما عوناً لصاحبه .

الفصل التاسع

الصراع في السواد والبحرين

لم يكن انتشار الدعوة الإسماعيلية وتنظيماتها السرية والاجتماعية في كل من سواد الكوفة والبحرين سهلاً ميسوراً كغيرها من الدعوات والمذاهب ، التي كانت تزدهر تارة ، وتخبو أخرى ، نتيجة العوامل والظروف التي كانت تمر بها ، بل كان انتشارها محفوفاً بالمخاطر ، مليئاً بالحفر والأخاديد والدماء.

ورغم ما اعترض سبيلها من عقبات ، وأريقت من دماء ،فقد استطاعت أن تزدهر بسرعة ، بفضل التخطيط المنظم ، والدقة التامة في التنفيذ ، إلى جانب العمل السري المرتّب ، والانطلاق الدعاوي السريع في أماكن تواجد الشيعة العلويين ، وفي أوساط الطبقات الفقيرة المعوزة من العمال والفلاّحين . ومما لا شك فيه بأن دعاة الإسماعيلية قد استفادوا كثيراً من اضطراب أحوال الخلافة العباسية ، وفساد الإدارة فيها ، فازداد نشاطهم ، وادخلوا عنصر المرأة بين الدعاة ، مما حدى بالمناوئين والخصوم والسلطات الحاكمة إلى ملاحقتهم في كل منطقة من مناطقهم ، ولكن هذا الضغط زادهم تصميماً وتركيزاً وتضحية ، فأثاروا الخوف والرعب في كافة المناطق ، ولقبوا أنفسهم « المؤمنون المنصورون بالله والناصرون لدينه والمصلحون في الأرض » وامتد نشاطهم حتى شمل بغداذ والبصرة وبادية الشام ، وحقّقوا انتصارات عديدة على المستويات العسكرية ، والسياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، وأقاموا دولة تسودها العدالة والمثالية ، في كل مقوماتها ، فأصبحت الأمل المرتجى للفئات الفقيرة المظلومة ، لأنها تجسد أحلامهم ، وتوفّر لهم العدل والمساواة ، والعيش الكريم.

ولا بد أن يرافق هذا الازدهار السريع للدعوة الاسماعيلية في السواد والبحرين ، صراع طويل على السلطة ، وتسلم القيادة والزعامة ، بين الدعاة والقادة من جهة ، وبين الخلافة العباسية من جهة أخرى ، التي حشدت كل قواها لإيقاف تيار الدعوة الجارف ، وللحد من نشاط كل من تحدثه نفسه بالثورة على السلطة .

ورغم الضغط العباسي الشديد ، فقد شقت الدعوة بقيادة الثالوث المقدس ، المؤلف من أبو سعيد الجنابي ، وحمدان بن الأشعث ، وزكرويه بن مهرويه طريقها بنجاح وأمان ، حتى بلغت الكمال ، وأصبحت مدارسها الفكرية ، وتنظيماتها الاجتماعية والاقتصادية قدوة يقتدي بها كل ناهد إلى العدل ، والمساواة ، والإخاء الحقيقي . ولا يزال نظام الإلفة والمحبة الذي طبّقه دعاة الإسماعيلية على مجتمعهم في كل من السواد والبحرين مضرب المثل للعدالة الإجتماعية التي بشر بها الإسلام ، ورفع لواءها الأئمة الأطهار من أهل بيت النبوة .

هذا التقدم والانتشار الذي استطاعت تحقيقه الدعوة الاسماعيلية في السواد والبحرين ، أثار في وجهها الحساد والخصوم فحاولوا الوقوف في وجه تيارها الجارف ، ولكنهم عجزوا عن مقاومتها فكرياً وعسكرياً ، فقرروا أن يعمدوا إلى حرب الدس ، ونشر الإشاعات ، وإطلاق التسميات الملفقة الكاذبة الهادفة إلى تشويه السمعة ،وتحريض الغوغاء .

ولم يكن المقصود بإطلاق التسميات إلاّ الإساءة إلى الدعوة الاسماعيلية وتحقير أتباعها ، ومثل هذه الأمور يعرفها كل من يدرس التاريخ الإسلامي ، وما فيه من صراعات سياسية ودينية ، أدت عواملها وتفاعلاتها إلى إخفاء الكثير من المناقب ، وإظهار المزيد المزيد

من المساوىء بهدف إبعاد الناس عن المذاهب الدينية ، والتيارات السياسية المناوئة للسلطة . وفي اعتقادي لم يكن لقب « قرامطة » الذي أطلق عمداً على الإسماعيلية في السواد والبحرين ، إلاّ فرية من أكبر الفريات التي عرفت في العصر العباسي ، وراح الكتاب والمستشرقون يفسرونها ويحلّلونها حسب أهوائهم ، وهي ليس لها أي وجود مادي أو حسّي ، إنما أطلقها خصوم الإسماعيلية في دمشق عندما عجزوا عن الوقوف في وجه الفتوحات الإسماعيلية تحقيراً لهم ، بقصد تشويه سمعتهم ، وإبعاد المسلمين عنهم . وفي رأيي أن كلمة « قرامطة » لم تطلق على الإسماعيلية إلاّ بإيعاز عباسي بهدف حماية الخلافة ، وإبعاد خصومها عن مسرح الحياة العامة .

***

ذكرنا في الفصل السابع من هذا الكتاب بأن بعثة السواد والبحرين التي كانت تتلقى العلم في سلمية قد عادت إلى موطنها بعد انتهاء الدراسة ، فمنح أفرادها مهلة شهر يقضونه بين أهلهم بعد غياب استمر ثلاث سنوات ، ثم يعودوا إلى « كلوازي » ليصار إلى توزيعهم على الجماعات ، ليزاولوا خدماتهم الفعلية . ولما عادوا من إجازتهم استقبلهم الداعي عبدان في مكتبه باعتباره أميناً عاماً لمجلس الدعاة الثلاثي ، وزوّدهم بالتعليمات والإرشادات المتعلقة بمهمتهم الجديدة . ثم قرأ عليهم أمر توزيعهم على الأماكن الخاصة بهم ، وهي كما يلي : الداعي الحسين بن زكرويه داعياً مساعداً لوالده زكرويه في السماوة وبادية الشام. الداعي سعيد الجنابي مساعداً لوالده في البحرين . الداعي عيسى بن موسى يوضع تحت تصرف الداعي عبدان . الداعي حريث بن مسعود معلماً مشرفاً على مدرسة الدعوة في كلوازي. الداعية رقية بنت زكرويه رئيسة الفرع النسائي في

السواد ، الداعية ليلى بنت الجنابي معلمة مشرفة على مدرسة الدعوة للبنات في البحرين ، الداعية علياء بنت رضوان داعية متجولة للنساء في السواد ، الداعية سعدى بنت دندان مشرفة على النشاط النسائي التعاوني في السواد .

وبعد أن قدّم عبدان التهاني للجميع طلب منهم الالتحاق في مراكزهم فوراً ، وأوصاهم بالجد والسهر على تعميم الأفكار الاسماعيلية ونشرها بدقة وسلاسة بين الجماعات ، باعتبارهم عناصر شابة مثقفة ينتظرهم مستقبل لامع . ثم طلب من الحسين بن زكرويه أن يخلو به بعض الوقت ، قبل أن يلتحق بمركزه ، ليعالج معه بعض الأمور الهامة المتعلقة بمنصبه الجديد . ولما انفرد عبدان بالحسين بن زكرويه سأله عن الحسين الأهوازي ، وهل شاهده في سلمية ، فأجابه بالنفي ، وأنه لم يسمع أو يعلم عنه شيئاً .

قال عبدان : لقد غادرنا الأهوازي منذ سنوات ، ولا نعلم أين توجه ، ومنذ تلك الفترة ونحن نسأل عنه ، فلا نجد الجواب الشافي لما يتفاعل في قلوبنا من حب دفين ، وإخلاص مكين لهذا الداعي الكبير ، فيا ترى أين هو الآن ، وهل لا يزال على قيد الحياة؟

قال الحسين بن زكرويه : هل أخذ زوجته معه عندما غادر البلاد ؟

قال عبدان : استدعاها سراً إلى الأهواز ، ولم نعد نسمع عنهما شيئاً .

قال الحسين بن زكرويه : ربّما كلف بمهمة أخرى في بعض البلدان . !

قال عبدان : هذا جائز ، وعادة تجري مثل هذه الأمور بصورة سرية جداً ، لا يعلمها إلا الإمام بالذات أو دعاته الحرم . ثم سأل الحسين عن الإمام إذا كان قد شاهده أو مثل بين يديه ؟

قال الحسين بن زكرويه : أنت تعلم بأن الإمام دائم التنقل لا يستقر في مكان حرصاً على حياته ، ومع كل ما يحيط تنقلاته وتحركاته من أسرار ، فقد شاهدته مرتين المرة الأولى عندما وصلنا إلى سلمية ، والمرة الأخيرة عندما ودّعنا بعد أن أنهينا دراستنا . . !

قال عبدان : هل يمكنك يا حسين أن تصفه لي ، وتحدد ملامحه بالضبط ؟

قال الحسين : هذا أمر مستحيل يا عبدان ، إذ ليس بمقدور أي مخلوق أن يستطيع وصف الإمام وتحديد ملامحه ، لأن الإنسان عندما يحاول تركيز بصره على وجهه ، يرتد بصره خاسئاً ذليلاً ، بتأثير الأنوار المنبثقة منه ، والتيار المنبعث من عينيه والذي يصعق القلوب ، بالإضافة إلى الوقار والجلال والهيبة التي تبدو واضحة جلية في كافة تصرفاته . . !

قال عبدان : لا أشك في هذا ، وهذه من معالم الإمامة الصحيحة ، فلك عذرك يا حسين .

وبعد هذه المحاورة السريعة ، ودّع عبدان الحسين ، وألح عليه أن يراجعه دائماً حول جميع الأمور والمشاكل التي قد تعترض سبيله في مهمته الجديدة .

ولما خرج الحسين بن زكرويه ، توجه عبدان فوراً إلى منزل الداعي حمدان بن الأشعث وسرد على مسامعه كل كلمة قالها الحسين بن زكرويه : وأضاف قائلاً : إنني غير مطمئن يا حمدان ، وأرى أن

يذهب أحدنا سراً إلى سلمية ، ويقابل الإمام ، وبنفس الوقت يبحث عن مصير سيدنا الحسين الأهوازي ويسأل لو اضطر الإمام بالذات عنه ، فماذا ترى يا حمدان؟

قال حمدان بن الأشعث : الرأي ما تراه يا عبدان ، ولكن هل يمكن لأحدنا أن يتغيب عن السواد ، ولا يشعر به أحد ؟

قال عبدان : يدّعي المرض ، أو الخلوة مع نفسه للتفكير والتأمل ، أو أي عذر آخر . . !

قال حمدان بن الأشعث : لماذا لا نختار أحد الدعاة المخلصين لنا ونكلّفه بهذه المهمة الخطيرة ؟

قال عبدان : فكرة جيدة ، واقتراح صائب ، ولكن أين هو هذا الداعي ؟

ابتسم حمدان بن الأشعث وقال: إنه هنا في منزلي يأخذ قسطاً من الراحة ، بعد أن وصل من رحلة طويلة كلّفته القيام بها. . !

قال عبدان : هل يمكنني أن أعرف اسمه ؟

قال حمدان بن الأشعث : ولم لا . . إنه صديقك وصديقي ابن مليح . .

قال عبدان : لقد أصبت الهدف يا حمدان ، فلماذا لا نعرض عليه الأمر ونرسله فوراً ؟

قال حمدان بن الأشعث : لك ما تريد يا عبدان سأستدعيه فوراً .

وحضر ابن مليح ودخل على حمدان بن الأشعث وعبدان ، فسلم عليهما ، وجلس في مقعده ، فشرح له حمدان بن الأشعث الموضوع من كافة جوانبه ، وطلب منه أن يستعد للسفر فوراً ، ولكن ابن مليح طلب مهلة يوم واحد للتفكير والتأمل ، قبل أن يعطي رأيه في الموضوع . فوافق حمدان على منحه هذه الفرصة ، ولكن عبدان اعترض على ذلك وقال : لا أرى لزوماً للتأمل والتفكير لأننا درسنا الموضوع بدقة وإمعان ، فتوكل على الله يا بن مليح . . .

قال ابن مليح وقد ظهر الاستغراب على محياه : لماذا السرعة يا سيدي ، فالأمر ليس بغاية الخطورة؟

قال عبدان : أنا أحس في داخلي بأن الأمر على غاية من الخطورة ، ونحن بحاجة ماسة لإلقاء بعض الأضواء عليه ، ليطمئن بالنا ، وترتاح ضمائرنا . . .

قال ابن مليح : زيادة يوم واحد ، أو نقص يوم واحد ، لن يؤثر على الموضوع .

قال حمدان بن الأشعث متدخلاً في الحوار : لقد منحتك الفرصة ، وأعتقد بأن عبدان قد تخلّ عن معارضته بعد هذا الحوار المجدي . .

فوافق عبدان مرغماً ، وخرج عائداً إلى مقره لمواصلة أعماله كالمعتاد ، ثم عاد في اليوم الثاني إلى منزل حمدان بن الأشعث ليعرف جواب ابن مليح ، ولما حضر ابن مليح ، كانت تبدو على محياه علائم القلق والاضطراب ، مما يشير إلى أنه قضى ليلته ساهداً مفكراً لم يغمض له جفن . فسأله عبدان عن القرار الذي اتخذه بشأن المهمة التي كلّف بها بأجاب برزانة وهدوء : اعفني من هذه المهمة يا عبدان ، إنني

عاجز عن القيام بها ، لأني أشعر بضعف عام ينتابني بين الفينة والفينة ، والطريق طويل ومتعب . . . فظهرت علائم الاستياء على وجه عبدان وقال منفعلاً : لماذا يا بن مليح ، أليس لنا عليك حق الطاعة ؟

قال ابن مليح : أعلم هذا ، ولكنني لا أستطيع القيام بهذه المهمة ، فابحث عن غيري ، أو قم بها بنفسك . . .

ثم نهض محاولاً الخروج ، فاستوقفه حمدان بن الأشعث وقال : اجلس يا بن مليح واعتبر نفسك في حلٍّ من هذا الأمر ، ولكن ابن مليح اعتذر وغادر المكان غاضباً لا يلوي على شيء .

ولما أصبح حمدان بن الأشعث وعبدان وحيدين ، قال حمدان بن الأشعث : رأي ابن مليح ينطبق على الواقع والحقيقة ، فليس لهذه المهمة غيرك يا عبدان ، لأنك متى وصلت إلى سلمية استقبلك الإمام ورحب بك ، أما ابن مليح فقد يستغرق انتظاره فترة طويلة ، وربما لن يتمكن من مقابلة الإمام ، فيعود بخفي حنين. . .

قال عبدان : سأدعي بأنني في خلوة مع نفسي أصنف بعض الكتب ، وسأتوجّه غداً بإذن الله إلى سلمية ، عملاً بقول القائل : ما حكّ جلدك مثل ظفرك .

قال حمدان بن الأشعث : على بركة الله يا عبدان. . .

وغادر عبدان السواد ، بعد أن أشاع في أوساط قيادة الدعوة بأنه سيخلو مع نفسه لمدة شهر أو شهرين ، يضع خلالها بعض الرسائل العلمية والفلسفية ، وعرج في طريقه على البصرة حيث قابل سراً الداعي محمد الوراق ، صديق الحسين الأهوازي الحميم ، وسأله عن

أخبار الحسين الأهوازي ، فابلغه بأنه لا يعلم عنه شيئاً منذ فترة طويلة ، وهو بغاية الشوق لسماع أخباره .

ونترك الداعي عبدان وهو في طريقه إلى سلمية ونعود إلى قرية كلوازي في السواد لنستمع إلى ما يدور من أحاديث بين الداعي زكرويه ابن مهرويه وولده الحسين بن زكرويه ، بعد خروجه من مقر عبدان ، ودخوله على والده ليضع نفسه تحت تصرفه باعتباره أصبح داعياً مقيماً في السماوة ، يتلقى التعليمات والإرشادات من والده ، أحد الأقطاب الثلاثة المسؤول عن منطقة السماوة وبادية الشام .

ويبدو من مجريات الأمور ومن وقائع الأحداث التي جرت بعد مقابلة الحسين بن زكرويه لوالده زكرويه بن مهرويه ، أن الحسين قد ذكر لوالده ما دار بينه وبين عبدان من أحاديث حول الحسين الأهوازي وإمام الزمان ، فاستغرب زكرويه هذه التصرفات من عبدان وراح يفكر بالغاية الكامنة وراء تلك الاستفسارات ، علّه يهتدي إلى الأسباب التي حدت بعبدان لطرح مثل هذه الأسئلة على ولده الحسين . . وولده بالذات الذي يمت بصلة النسب إلى الحسين الأهوازي . . . .

عشرات من السؤالات طرحت نفسها أمام مخيلة زكرويه ، ولكن الإجابات عليها كانت واضحة كوضوح الشمس في رابعة النهار ، غير سؤال واحد ظلّ بلا جواب لتعلّقه بأسرار الدعوة ، وتحركات الدعاة الكبار من مكان إلى مكان .

ورويداً رويداً بدأت الصورة تتوضح في ذهن زكرويه ، فراح يتساءل : هل من الممكن أن يتسرب الشك إلى نفس عبدان وهو الداعي الكبير ، والعقل المفكر ، بشخصية إمام الزمان ؟ يا ترى ما

هي الدوافع لهذا الشك إذا فرضنا وجوده ؟ وهل هناك من يشارك عبدان هذا الشك ؟ ويجيب على كل هذه الأسئلة الغامضة، بقوله : لا أدري. . . . لا أدري. . . . هدانا الله جميعاً إلى سواء السبيل .

وغرق زكرويه في تأملاته حتى قطعها عليه ولده الحسين قائلاً : سيدي . . سيدي . . أرغب في التحدث اليك بأمر خاص يقلق تفكيري . . . فانتبه زكرويه وقال : قل يا حسين ماذا هناك ؟

قال الحسين : بعد أن أكملت تعليمي ، وتسلمت مرتبتي أرغب في الزواج يا سيدي . !

فابتسم زكرويه وشعر بالسعادة ، وقال : ألا يمكنك يا بني أن تنتظر حتى يتزوج شقيقك الأكبر يحيى ؟

قال الحسين : إذا كان ذلك ضرورياً فلماذا لا نتزوج سوية ، وتكون الفرحة فرحتين ؟

قال زكرويه : أصبت يا حسين ، ولكن قل لي من هي العروسة التي اخترتها يا بني ؟

فابتسم الحسين وقال : إنها داعية مثلي ، عرفتها ونحن في طريقنا إلى سلمية ، إنها رائعة يا والدي. . !

قال زكرويه وقد بادله الابتسامة بمثلها : إبنة من هي يا حسين ؟

فأجاب الحسين : إنها ليلى بنت الحسين بن بهرام الجنابي يا والدي. . !!

قال زكرويه : عرفتها يا بني ، لقد أحسنت الاختيار ، إذ سبق أن حدثتني شقيقتك رقية عن سلوكها وأخلاقها وعلمها وإيمانها ،

وسأطلبها لك عندما ألتقي بوالدها في نهاية الشهر ، ولكن ألا نبحث عن عروس أخرى لشقيقك يحيى ؟

قال الحسين : هناك داعية أخرى كانت من زميلاتنا في سلمية ، لا تقل جمالاً وأدباً وإيماناً عن ليلى ، فما رأيك يا سيدي لو أرشدنا يحيى إليها ، فيذهب لزيارتها ؟

قال زكرويه : قل لي من هي أجيبك على سؤالك . . !

قال الحسين : إنها علياء بنت رضوان يا سيدي ، وأظنك تعرفها وتعرف والدها .

قال زكرويه : كيف لا أعرفها يا بني إنها رائعة وروعتها في سلوكها وأخلاقها وجمالها ؟ ثم أضاف : اذهب فوراً إلى يحيى ورافقه لزيارة علياء ، وسنرى ما سنفعله بعد هذه الزيارة .

وذهب الحسين إلى شقيقه يحيى وطلب منه أن يرافقه لزيارة إحدى زميلاته في الدراسة ، وتوجّها معاً إلى منزل الداعية علياء ، ولما طرقا الباب لم يرد عليهما أحد . فظنا أنها خارج المنزل تقوم ببعض الزيارات العائلية ، فحاولا العودة ، وما كادا يسيران عدة خطوات حتى ظهرت علياء من رأس الشارع وهي تسرع الخطى وقد وضعت تحت أبطها بعض المصنفات والكتب . فلما شاهدت الحسين ابتسمت وقالت : اعذرني يا أخي كنت في زيارة لبعض النسوة ، ثم فتحت الباب ودعتهما للدخول ، فدخلا إلى قاعة الضيوف ، وجلسا يستعرضان بعض المشاكل الخاصة بالدعوة ، وبما يجري داخل المؤسسات النسائية من نشاط وتنظيم . ثم استأذنت علياء لتقدم لهما الشاي ، ودخلت إلى المطبخ ، فنظر الحسين إلى شقيقه يحيى وقال : ما

رأيك بعلياء يا أخي ، هل أعجبتك ؟ قال يحيى وقد لمعت عيناه : إنها محدثة بارعة ، وذكية ، وجميلة ، ولكن لماذا هذا السؤال يا حسين ؟

قال الحسين : هل تتمنى أن تكون زوجة لك ؟

قال يحيى : كل إنسان في الوجود يتوق إلى زوجة تتمتع بنفس أخلاقها ومناقبها . . !

قال الحسين : إذن سنخطبها لك إذا لم يكن لديك أي مانع . . .

قال يحيى : سأكون سعيداً لو تحقق هذا الحلم ، ولكن على ما يبدو أنها قد وقفت نفسها للدعوة ، وليس لديها أي رغبة بالزواج . . .

قال الحسين : أصمت يا أخي ، لقد جاءت بالشاي . . .

وبعد أن ارتشفا أكواب الشاي ، ودّعاها وانصرفا ، وهما يلهجان بالثناء العاطر على عواطفها النبيلة ، وأخلاقها العالية . ثم دخل الحسين على والده وأبلغه بأن يحيى قد أعجب بعلياء ويوافق على طلب يدها ، فوعده زكرويه بأنه سيطلبها من والدها رمضان في أول فرصة ، ولكن هل يضمن بأن علياء ستوافق بدورها على أن تكون زوجة ليحيى ؟

قال الحسين : هذا ما لاحظته أثناء زيارتنا ، ولا بد من استشارتها أيضاً ، وهذا يقع على عاتق والدها .

قال زكرويه : لا بأس . . سوف نرى غداً إن شاء الله . فمال الحسين على أذن والده وقال هامساً : ومتى نذهب إلى البحرين يا والدي ، لأنني بغاية الشوق إلى ليلى ، ولا يمكن أن أنتظر حتى قدوم

والدها ؟

فقال زكرويه : إذا كنت في عجلة من أمرك سنشد الرحال غداً أو بعد غد على الأكثر .

فأجاب الحسين : ما رأيك يا سيدي لو سبقتك وذهبت بعد ظهر هذا اليوم ؟

قال زكرويه : لا مانع لدي. . . فاذهب برعاية الله .

ودخل الحسين إلى غرفته ليبدل ثيابه ويغادر البلدة ، فدخلت عليه شقيقته رقية فجأة ، فوجدته يعد العدة للسفر ، فسألته مستغربة : إلى أين يا حسين ؟

فأجابها : إلى حيث السعادة والهناء والحب . . إلى ديار ليلى . . .

قالت رقية : وما المناسبة يا حسين ؟

قال الحسين وهو يبتسم : سأطلب ليلى من والدها ؟

قالت رقية : أأنت مجنون يا حسين ، هل تذهب وحيداً لتطلبها ؟

قال الحسين : سيلحق بي والدي بعد يومين ليخطبها لي من والدها ؟

قالت رقية : ولماذا هذا التكتم ؟ ألا تأخذني معك ؟إنني بغاية الشوق لزملاء الدراسة. . .

قال الحسين : لماذا لا ترافقين والدك ، وربما والدتك أيضاً ؟

فاغرورقت عينا رقية بالدموع ، وغادرت الغرفة ، بينما جمع الحسين ثيابه ، وتمنطق بسلاحه ، وأخذ فرسه ، وسار باتجاه البحرين ، فوصلها بعد ثلاثة أيام ، حيث استقبله الحسين بن الجنابي وولده سعيد استقبالاً حاراً يليق بمكانته كداعٍ من دعاة الاسماعيلية ، وكزميل دراسة لسعيد ، وأنزلاه ضيفاً في قصرهما ، معززاً مكرماً في جناح خاص.

ولما انفرد الحسين بزميله سعيد سأله عن أحواله ومدى نشاطه ، ثم سأله بحياء عن أحوال شقيقته ليلى . فأجابه سعيد بأنها بخير ولكنها خارج البلدة تجري بعض الإتصالات في الأوساط النسائية ، وسترأس اجتماعاً كبيراً لنساء البلاد يعقد غداً ، وربما عادت فور انتهاء ذلك الاجتماع ، فلو كانت هنا لما تأخرت عن استقبالك يا حسين . . . انها دائماً تتحدث عنك وعن شقيقتك رقية ، وكانت ترغب في زيارتكما ، ولكن ظروفها حالت دون ذلك . .

قال الحسين : لقد فكرت شقيقتي رقية بالقدوم معي ، ولكنني طلبت منها أن تأتي مع والدي الذي عول على زيارتكم في الأيام القليلة القادمة.

قال سعيد : هل أخبرت والدي بأن أباك سيزورنا قريباً ؟

قال الحسين : كلا . . لم أجد الوقت لإبلاغه ذلك ، فأترك الأمر اليك . . ولكن هناك أمر هام أود إطلاعك عليه يا سعيد باعتبارك صديقي وأخي ، قبل أن يصل والدي وشقيقتي رقية .

قال سعيد : تكلم يا أخي فكلي آذان . . .

قال الحسين : أنت تعلم يا سعيد بأنني أحب الصراحة ،

وطرق الموضوع ، دون لف أو دوران، حتى ولا مقدمات . جئتكم خاطباً راغباً في يد شقيقتك ليلى ، فبماذا تنصحني يا أخي ؟

فقهقه سعيد وأجاب : غريب . . غريبٌ والله اتفاق النوايا ، وتوارد الأفكار ، منذ فترة ليست ببعيدة طلبت من ليلى أن تزوركم في دياركم لتخطب لي شقيقتك رقية ، فطلبت مني أن أعرض الأمر على والدي أولاً . . . وكنت عازماً على بحث الأمر معه اليوم ، ولكن وصولك لزيارتنا فجأة جعلني أصرف النظر عن الموضوع حتى تنتهي زيارتك . .

قال الحسين فرحاً : إذن سنجري عملية تنقلات بين الداعيات ، تذهب ليلى إلى السواد ، وتعين رقية في البحرين . أليس هذا جميلاً يا سعيد . ؟

واتفقا على بحث الموضوع عندما يصل زكرويه بن مهرويه إلى البحرين ويلتئم الشمل ، وتكون ليلى قد عادت من رحلتها ، ودخل أحد الغلمان فجأة وطلب من سعيد أن يذهب إلى والده الذي يريده لأمر هام ، فودع الحسين ، وتوجه إلى مجلس والده حيث وجده وحيداً يقرأ رسالة كانت قد وصلته من أحد الدعاة في القطيف ، يطلب فيها أن يزوده بأوامره بشأن الأموال التي جمعها من الأتباع على حساب نظام الإلفة والإخاء .

ولما دخل سعيد طلب منه أن يأمر داعي القطيف بانفاق تلك الأموال على مساعدة العائلات الفقيرة ، ويحتفظ بقسم منها لشراء الأسلحة ، وإقامة التحصينات ، استعداداً للطوارىء .

وبعد أن أنجز سعيد المهمة التي كلفه والده بها ، تقدم من

والده وهمس في أذنه ، قائلاً : علمت يا سيدي بأن زكرويه بن مهرويه في طريقه إلينا ، وبرفقته كريمته رقية ، وربما وصل في هذين اليومين ، ألا نستعد لاستقباله ؟

قال الحسين بن الجنابي مستغرباً : من قال لك هذا ؟

قال سعيد : هذا سر أطلعني عليه الحسين بن زكرويه ، وطلب مني أن أتركه مفاجأة . . .

قال الحسين : لا بد من استقباله استقبالاً يليق بمركزه ومكانته . . .

قال سعيد : ليس هذا ما أردت أن أقوله لك يا سيدي ، بل هناك أمر هام وخاص بالنسبة لي ، يتعلق بمستقبلي ،ومصيري . . !

قال الحسين : هيّا قل ما تريد يا سعيد . . وأوجز ، فخير الكلام ما قلّ ودلّ . .

قال سعيد : لي مطلب واحد يا سيدي ، وهو أن تخطب لي رقية ابنة زكرويه . . .

قال الحسين : مطلب حق . . ولكن ألا ترى معي بأن مفاتحة ضيفنا بمثل هذه الأمور لا يجوز ، خاصة وهو ضيفنا ، لأن التقاليد العربية تقضي أن نذهب إليه في دياره ونطلبها منه . .

قال سعيد : أعرف هذا يا سيدي ، ولكنني رغبت أن ألفت نظرك فقط ، فإذا وجدت الفرصة سانحة فاطلبها منه ، وكم أكون سعيداً لو تحقق هذا الحلم .

قال الحسين : خبرني يا ولدي هل هناك شيء من هذا القبيل

وراء زيارة الحسين ووالده زكرويه ؟

فابتسم سعيد وقال : لا أعلم يا سيدي . . . ربما . . . لا أعرف . . . نحن لم نتحدث في مثل هذه الأمور.

وعادت ليلى في اليوم الثاني لوصول الحسين ، ولما علمت بوجود الحسين بن زكرويه ضيفاً في قصر والدها ، طارت من الفرح ، وأحست بقلبها يخفق بشدة ، فاتجهت رأساً إلى الجناح الذي يقيم فيه الحسين ، فدخلت عليه وسلّمت ثم جلست تسأله عن أحواله وأحوال شقيقته رقية ، ومدى نشاطها في حقل الدعوة ومؤسساتها ، وقد شعر الحسين بالسعادة القصوى ، وهو يجيب على أسئلة ليلى باقتضاب ، ويسألها عن أحوالها وأحاسيسها ومشاعرها .

ولما أعلمها بأنه جاء لطلب يدها من والدها ، أصعقتها المفاجأة وقطبت جبينها وقالت : بهذه السرعة يا حسين ؟ ألا تفكر بما ألقي على كاهلي من مهمات دعاوية وتبشيرية ، بالإضافة إلى الإشراف على شؤون المرأة وقيادتها ؟

قال الحسين : هذه المهمات لن تنتهي ، أليس لأنفسنا علينا حقاً ، ما دمنا نعمل في الحقل العام باندفاع ونشاط ؟ لن أغادر هذه الديار قبل أن تصبحي زوجة لي ، لا أقبل أي اعتذار ، ولا أرضى عن أي تأخير ، فإذا سئلت عن رأيك في الموضوع ، أجيبي بصراحة ، وجسّدي ما يتفاعل في أعماقك . . .

قالت ليلى : إذا كنت تصر على ذلك ، فلا مانع لدي بشرط أن تبادلني برقية . . .

قال الحسين : بحثت موضوع رقية مع شقيقك سعيد ،

وسيكون كل شيء على ما يرام عندما يصل والدي . . .

ولما وصل زكرويه بن مهرويه مع عائلته ، خرج آل الجنابي لاستقباله ، وأنزلوه ضيفاً معززاً مكرماً في قصر الدعوة ، وخصص له أبو سعيد الجنابي بعض الغلمان المعروفين بالنباهة والذكاء لخدمته ، كما أقيمت الحفلات التكريمية على شرفه ، حضرها كبار القادة والدعاة والزعماء .

وبعد أن انتهت مدة الضيافة وهي ثلاثة أيام ، طلب زكرويه أن يجتمع بأبي سعيد الجنابي على انفراد ليحدثه ببعض الأمور الخاصة ، قبل أن يعود إلى بلاده . . .

ولما انفردا في غرفة من غرف القصر ، بدأ زكرويه حديثه قائلاً : إنك تعلم يا أخي أبا سعيد بالعلاقة المتينة التي تشدّنا إلى بعضنا ، وحتى تزداد أواصر هذه العلاقة متانة وقوة ومنعة ، جئتك طالباً يد ابنتك ليلى لتكون زوجة لولدي الحسين ، وأنت يا أخي أعلم مني بماهية الحسين ، وذكائه الحاد ، وشخصيته القوية المهيبة ، وما ينتظره من مستقبل زاهر ، فماذا تقول ؟

قال أبو سعيد الجنابي : يعلم الله ما مقدار منزلة ولدك الحسين من نفسي ، وما أحسّ به نحوه من حب ، ولكن نظامنا كما تعلم لا يجيز لنا الموافقة على مثل هذه الأمور دون استشارة صاحبة العلاقة ، فهل تعطيني فرصة حتى أستشير ليلى ؟

قال زكرويه : ليس لدي مانع . . وأنا في الانتظار . . .

ودخل أبو سعيد الجنابي إلى جناح الحريم ، حيث وجد ليلى وشقيقاتها ووالدتها مشغولون باستقبال زوجة زكرويه وابنتها رقية ،

فنادى على ابنته ليلى ، وانفرد بها في غرفة جانبية وقال : تعلمين يا ليلى مدى حبي لك ، إذ أنني أفضلك على جميع شقيقاتك وإخوتك ، لأنك أقربهم إلى قلبي ، وكم يعزّ علي أن تغادري هذا البيت الذي ولدت وترعرعت فيه ، ولكن هذه سنة الحياة يا بنيتي ، لقد طلب يدك الآن زكرويه بن مهرويه لتكوني زوجة لولده الحسين ، فما هو رأيك ، قوليه بصراحة ، وقبل أن اعطي كلمتي ؟

قالت ليلى : أعرف الحسين يا والدي حق المعرفة ، فهو أبعد الدعاة صيتاً ، وأغزرهم مادة ، وأحسنهم أخلاقاً ، وأحدهم ذكاءً ، لذلك أوافق على أن أشاركه الحياة ، حلوها ومرّها ، بشرط أن يوافق زكرويه على تزويج ابنته رقية من شقيقي سعيد ، لتكون الفرحة فرحتين ، ولتحل رقيّة محلي في الإشراف على نشاط المرأة في البحرين . .

عاد أبو سعيد الجنابي إلى زكرويه بن مهرويه وأبلغه موافقة ليلى على الزواج من ابنه الحسين ، على أن يوافق زكرويه على زواج ابنته رقية من سعيد ، فرحب زكرويه بهذا العرض ، وطلب من أبو سعيد الجنابي أن يرسل في طلب الحسين ورقية للتشاور في الأمر . فاستدعى الجنابي أحد الغلمان وأمره أن يذهب إلى دار الضيافة ويطلب من الحسين بن زكرويه أن يحضر لمقابلة والده ، كما كلفه بأن يعرج وهو في طريق العودة على جناح الحريم ويبلغ رقية بأن والدها بحاجة إليها .

ولما دخل الحسين وشقيقته رقية على زكرويه حاول الجنابي الخروج ليترك لهم الفرصة للحديث ، ولكن زكرويه رجاه أن لا يغادر الغرفة ، وقال مخاطباً ولديه : يسعدني أن أزف إليكما بشرى سارة ، وهي أن ليلى ووالدها قد وافقا على الزواج ، بشرط أن توافقي يا رقية على أن تكوني زوجة لسعيد الجنابي ، فماذا تقولين ؟

قالت رقية : إذا كانت سعادة أخي وليلى تتوقف على موافقتي فانني موافقة بكل جوارحي وأحاسيسي .

قال زكرويه موجهاً كلامه لولده الحسين : اسرع يا ولدي ، وجئنا بليلى وسعيد ، لنقرأ الفاتحة . . !

طار الحسين فرحاً مسروراً ، كالعصفور الذي أطلق من قفصه ، فحلق في الأجواء حراً طليقاً يغرد أشذى الأنغام ، وما لبث أن عاد وبرفقته ليلى وسعيد، فوقف الجميع أمام زكرويه والجنابي وقد أطرقوا خجلاً وحياء ، فقال زكرويه : تقدم يا حسين وضع يدك بيد ليلى ، لنقرأ الفاتحة ، ونبارك لكما بالزواج ، والتفت إلى الجنابي ، وقال : قل لولدك سعيد ليضع يده بيد رقية ، واقرأ الفاتحة وزوّجهما بسنة الله ورسوله يا أخي . . .

وتم عقد القران حسب الأصول المتبعة لدى الإسماعيلية ، وأقيمت الأفراح في كافة أنحاء البلاد ، لمدة أسبوع . وبعد انتهاء الإحتفالات عاد آل زكرويه إلى كلوازي وبصحبتهم الداعية ليلى بنت الحسين الجنابي . ثم عقد قران يحيى بن زكرويه على الداعية علياء بنت رضوان بعد ثلاثة أيام من عودة زكرويه إلى مقرّه . وعاش الجميع بهناء وسرور ، حتى بدأت الاصطدامات المسلحة بين جماعات الإسماعيلية ، وجنود الخلافة العباسيّة .

وانطلقت الشرارة الأولى لنزاع طويل استمر سنوات طويلة ، عندما حاول الجنود العباسيين إلقاء القبض على زكرويه بن مهرويه تنفيذاً لأوامر الخليفة العباسي ، لأنه يدعو إلى إمام مستور ويحرّض الجماعات على الإخلال بالأمن ، وينشر الكفر والإلحاد بين المواطنين ، ويجمع الأموال ، ويفرض الأتاوات على المزارعين والعمال والصناع .

واستطاع زكرويه أن يتوارى عن الأنظار ، ويراقب من مخبئه كافة الأحداث التي تجري في السواد والسماوة وبادية الشام ، وتمكّن أولاده الحسين ويحيى وأبو المعالي ، من إبعاد الجنود عن السواد بعد أن حقّقوا انتصارات حربية في المعارك التي خاضوا غمارها ، وامتد نفوذهم إلى بادية الشام ، حيث استجاب لدعوتهم أكثر القبائل ، وامتد نشاط أولاد زكرويه إلى بغداد ، ووصلت جهودهم إلى الذروة في بادية الشام ، عندما عجز الطولونيون الذين كانوا يحكمون بلاد الشام عن الوقوف في وجه نشاطهم الملحوظ ، وأنصارهم الكثر . فأخذت دعوتهم تتسرب إلى أغلب المدن العراقية والفارسية ، وأصبح لأولاد زكرويه جيشاً قوياً قوامه أكثر من مائة ألف مقاتل ، استطاع أن يحقق انتصارات رائعة على الحملات العسكرية العباسية ، فهزم الحملة التي أرسلها الخليفة المكتفي العباسي بقيادة شبل في ناحية الرصافة ، وواصل يحيى بن زكرويه انتصاراته على حامية المدن واحدة أثر أخرى .

واستطاع الحسين بن زكرويه أن يحقق انتصارات كبيرة في بادية السماوة ويهزم الجيوش التي كانت تشن عليه الغارات في كل مناسبة ، ولكنها كانت ترتد مدحورة مهزومة ، مما أقلق مضاجع العباسيين ، الذين وجّهوا قواهم للقضاء على الحسين وأتباعه ، وخرج الخليفة بنفسه على رأس جيش جرّار ، ولكنه ما لبث أن عاد مهزوماً مدحوراً تجاه الضربات القاسية التي تلقّاها من الحسين .

وبعد أن ملأت انتصارات آل زكرويه الدنيا ، وأصبحت حديث الناس ، انضوى تحت لوائهم الكثيرين من الناس ، حتى أصبح عددهم يتجاوز المليون شخص ، فحاولوا غزو الكوفة ، ولكنهم ارتدوا عنها ، وفتحوا قرية الصوار ، وهاجموا القادسية ،

ودحروا الجيوش العباسية التي كانت تحاول تطويقهم للقضاء عليهم ، المرة تلو المرة ، واستطاعوا أن ينشروا الخوف والرعب في كافة المناطق ، وهدموا عدة مدن ، وقتلوا كثيراً من أهلها ، وانضم إلى آل زكرويه بعض الجنود وقواد السرايا بعد الهزيمة التي لحقت بالجيش العباسي ، فساد الفزع في بلاد العراق ، عندما شاهدوا فلول هذا الجيش ، وقد رجعت إلى الكوفة في حالة يرثى لها ، حفاة عراة ، مضرجون بالدماء .

ولم تكن الحرب التي اشعلت ضد آل زكرويه هي الحرب الوحيدة التي اشترك فيها الاسماعيلية ، بل كانت هناك حروب أخرى جرت في البحرين وخاض غمارها آل الجنابي ، فسجّلوا انتصارات رائعة واحتلوا مواقع كثيرة .

ففي الوقت الذي كانت فيه الجيوش العباسية تهاجم آل زكرويه وأتباعهم في السواد والسماوة وبادية الشام ، كان أبو سعيد الجنابي يشن هجوماً مركزاً على مدينة هجر عاصمة بلاد البحرين ، وبعد حصار استمر سنتين استطاع الاستيلاء ، عليها ، ثم اتخذ من الإحساء عاصمة لدعوته ، فبسط نفوذه في الجزيرة العربية ، وأقام دولة وراثية في بيت الجنابي يعاونهم في الإدارة والقيادة مجلس دعاة منتخب .

ولقد وضع هذا المجلس القوانين والأنظمة ، وأوجد نظاماً عسكرياً قوياً ، مما أثار مخاوف الخليفة العباسي ، فأرسل إلى البحرين جيشاً جراراً بقيادة العباس بن عمرو الغنوي ، فهزمه الجنابي ، ووقع القائد بالأسر ، وامتد نفوذ آل الجنابي إلى القطيف والطائف ، وقدموا المساعدات المادية والعسكرية إلى آل زكرويه في حروبهم مع العباسيين .

ويبدو من الوقائع التاريخية أن حمدان بن الأشعث لم يشترك

اشتراكاً فعلياً في الأحداث حتى أنه لم يقدم المساعدات لآل زكرويه في السماوة والبادية ، كما أنه تأخر عن مؤازرة آل الجنابي في حروبهم بالبحرين والجزيرة العربية .

مما أدى إلى استياء آل زكرويه وآل الجنابي من مواقف حمدان بن الأشعث ، فكونوا فيما بينهم تحالفاً ثنائياً قوياً خاض الحروب بضراوة وشجاعة غير محدودة .

الفصل العاشر

انقسام الدعوة في السواد

عاد عبدان من سلمية بعد غياب استمر عدة أشهر ، قابل خلالها الإمام الحسين بن أحمد بن عبدالله وبحث عن أخبار الحسين الأهوازي ، وأجرى اتصالات مع كبار الدعاة الذين يكونون قيادة الدعوة العامة . وزاره حمدان بن الأشعث في منزله لتهنئته بالعودة ، وللاستفسار عما جرى له في رحلته ، ولسؤاله إذا كان قد قابل إمام الزمان ، وعرف أخبار الداعي الحسين الأهوازي .

ولما أصبحا وحيدين بعد خروج الزوار قال عبدان : وصلت سلمية بعد أن قطعت الصحراء القاحلة ، وتعرضت للجوع والظمأ ، فنزلت ضيفاً في دار الدعوة ، ثم مثلت بين يدي الإمام بعد ثلاثة أيام من وصولي ، ولما دخلت عليه وجدته شاباً في مقتبل العمر ، لا تنطبق أوصافه على الأوصاف التي ذكرها لنا الأهوازي ، فسألته من يكون ؟ فأجابني بأنه الإمام الحسين بن أحمد بن عبدالله بن محمد بن إسماعيل ، وقد تسلّم الإمامة من والده الإمام أحمد بن عبدالله منذ شهر ونيف بعد وفاته ، والنص عليه حسب الأصول المتبعة ، أمام الدعاة الأربعة الحرم ، ولاحظت أيضاً بأن الدعاة ليسوا كما أشار إليهم الأهوازي فداخلني الشك ، ولا أزال حتى هذه الساعة تحت سيطرة هذا الشك . .

أما الحسين الأهوازي فقد علمت بأنه توفي منذ سنوات ، ولما سألت عن زوجته ، بلغت بأنها غادرت البلاد إلى فارس ولا يعلمون شيئاً عنها ، مما جعلني أعتقد بأن أمراً ما قد حدث في أوساط القيادة ،

وربما كان من يدّعي بأنه إمام الزمان ، ليس سوى أحد الدعاة قد اغتصب الإمامة ، وقتل دعاته الأربعة الحرم ، ولا تزال هذه المسألة تشغل تفكيري ولا أجد لها تفسيراً غير ما ذكرته .

قال حمدان بن الأشعث وقد علت وجهه مسحة من الوجوم : طالما الأمر هو على ما ذكرت ، لماذا لا نعقد اجتماعاً يضم كبار الدعاة ونناقش القضية بكامل ملابساتها ؟

قال عبدان : أخشى يا حمدان من ردة فعل ، قد تؤدي إلى تفكّك الدعوة وانقسامها. . . !

قال حمدان : ماذا نفعل إذن؟

قال عبدان : ننتظر حتى تنجلي الأمور ، ونشيع سراً بأن الإمام قد قتل وأن أولاد ميمون القداح قد استولوا على كافة المقدرات. . .

قال حمدان : مادام هذا رأيك ، فلنبدأ منذ هذه اللحظة. . . !

وبدأت الإشاعات تنطلق رويدا رويداً حتى عمّت السواد ووصلت إلى أسماع آل زكرويه ، فاستغربوا الأمر ، وأجروا عدة اتصالات لمعرفة المصدر الذي أطلق تلك الإشاعات ، فعلموا بأن عبدان هو الذي يروج لها في الأوساط الاسماعيلية، لذلك استدعى زكرويه أولاده الثلاثة الحسين ويحيى وأبا المعالي ، وتشاوروا فيما بينهم ، ودرسوا الموضوع من مختلف جوانبه ، فاتخذوا قراراً يقضي بأن يجروا اتصالاً مع عبدان ليناقشوه في الموضوع ، وانتدبوا عنهم الحسين ابن زكرويه ليقوم بهذه المهمة ، وتوجه الحسين بن زكرويه إلى منزل عبدان واجتمع وإياه على انفراد ، وسأله عن مصدر هذه الإشاعات التي انتشرت بالبلاد وسببت القلق في أوساط الجماعات ، فقال عبدان : ذهبت سراً إلى سلمية ، وقابلت الإمام الحسين بن أحمد بن عبدالله فوجدته يخالف الصفات التي ذكرها الداعي الحسين

الأهوازي ، فسألته عن شخصية الإمام التي وصفها لنا الداعي الحسين الأهوازي وحدد ملامحها ، فأجابني بأن الشخص الذي أشار إليه الأهوازي هو والده وقد توفي بعد أن نص عليه ، فخرجت من عنده وأنا غير مصدّق لما يقول ، خاصة وأن أوصاف الدعاة الحرم قد تغيرت أيضاً ، وحلّ محلهم أناس آخرون ، قيل لي بأنهم أبناؤهم . هذه الأسباب أدخلت الشك إلى نفسي ، وكوكبت عشرات الإستفسارات في مخيلتي .

قال الحسين : أنت عالم من علماء الدعوة يا عبدان ، والمفروض فيك أن تعلم بأن الإمام لا يمكن أن يعيش إلى الأبد ، لأنه انسان من الناحية الجسدية ، من لحم ودم ، والإنسان معرض للموت والفناء ، فإذا مات الإمام من الطبيعي أن يخلفه ولده بموجب النص ، وفي اعتقادي أنك تعرف كل هذه الأمور ، ولكنك تجاهلتها لغاية في نفسك ونفس حمدان بن الأشعث ، فأنصحك بالعودة إلى جادة الصواب ، حرصاً على سمعتك وعلى تضامن الجماعات . . !!

قال عبدان : لا تزال طفلاً يا حسين ، ولا تعلم بما يدور وراء الكواليس ، لأن اختفاء معلمنا الحسين الأهوازي وموته جزء لا يتجزأ من مخطط رهيب للقضاء على الدعوة ، وتقويض ما بيننا من تلاحم ، خلال هذه الفترة الطويلة ، لن اسمح لأي إنسان أن يهدم هذا الصرح الشامخ الذي رويناه بدمائنا . . !

فاستل الحسين بن زكرويه سيفه وطعن عبدان عدة طعنات أودت بحياته ، وغادر المنزل بسرعة حتى لا يكتشف أمره .

ولما علم زكرويه بنهاية عبدان على يد ولده الحسين ، أصابه الجزع الشديد ، وأمر ولده أن يتوارى عن الأنظار ويذهب إلى بادية السماوة ، أو يلجأ لآل الجنابي في البحرين ريثما تهدأ نقمة الجماعات أتباع حمدان بن الأشعث . ولكن الحسين رفض أن يغادر كلوازي

حتى ولا التواري عن الأنظار ، بل أسرع إلى عقد الاجتماعات المتوالية للتوعية ، ولإعلام الناس بأن عبدان قد حاول النيل من مقام الإمامة والتشكيك بشخص الإمام ، عن طريق نشر الأكاذيب والترهات ، لذلك استحق القتل .

وهدد الحسين أن كل من يخرج على الدعوة،أو يحاول التشكيك بشخص الإمام ، سيكون نصيبه القتل ، فهدأت ثورة الجماعات وأيّدوا ما ذهب إليه آل زكرويه في دفاعهم عن قدسية الإمامة ، إلاّ جماعة قليلة انضوت تحت لواء حمدان بن الأشعث ، وراحت تنشر البلبلة والقلاقل في السواد ، وتحرض الناس على محاربة آل زكرويه انتقاماً لدم الداعي عبدان .

وحاول أبو سعيد الجنابي أن يتدخل لوضع حد لهذا الانقسام فأرسل ولده سعيد وشقيقه أبو طاهر الجنابي لإجراء مصالحة بين آل زكرويه وحمدان بن الأشعث ، ولكنهما عادا بعد أن فشلت وساطتهما ، لأن حمدان بن الأشعث لن يقبل المصالحة قبل أن يأخذ بثأر عبدان ، كما أن آل زكرويه ومعهم الأكثرية الساحقة من الجماعات رفضوا كل بحث في المصالحة قبل أن يعلن حمدان بن الأشعث بأن عبدان قد خرج على طاعة الإمام الحسين بن أحمد بن عبدالله ، لذلك استحق القتل .

هذه الخلافات الداخلية العميقة الجذور لم تضع حداً لنشاط آل زكرويه وآل الجنابي ، بل على العكس زادت نشاطهم الدعاوي ، وتحركاتهم العسكرية في كافة المناطق ضد الخلافة العباسية ، فنشروا الخوف والرعب ، واستولوا على العديد من المناطق ، وحاولوا بناء دولة قوية على أنقاض الإمارات والولايات العباسية التي استطاعوا تحريرها

من النفوذ العباسي .

ولا بد لنا من الإتيان على ذكر بعض المعارك الضارية التي خاضتها الجماعات في البحرين بقيادة آل الجنابي ، وفي السواد والسماوة وبلاد الشام بقيادة آل زكرويه استناداً إلى ما ورد في بعض المصادر التاريخية ، رغم أننا لا نثق بصحة الكثير من الروايات والأخبار التي جاءت في تلك المصادر ، وسنشير إلى تفاهتها وسخافتها في أماكنها ، هذا بالإضافة إلى النعوت والألقاب ، والشتائم والسباب واللعنات التي أطلقوها على آل الجنابي وآل زكرويه .

ونحن وإن كنا لا نقر بما ارتكبه آل الجنابي وآل زكرويه من أعمال حربية وتخريبية في المجتمعات الإسلامية ، وخاصة ما يتعلق منها بالنهب ، والسلب ، والقتل ، وقطع الطرق ، ولكننا طالما لا نثق بالأساطير والقصص التي رويت عنهم ، لا يمكننا إلاّ أن نتأنى ونتريث في قول كلمتنا ، لتأكدنا بأن المناقب الإسماعيلية التي تنهد إلى إيجاد دولة أهل الخير ، لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تسمح بمثل هذه الأمور إلا في حالة الدفاع عن النفس والمقابلة بالمثل ، أو إذا كان من يفعلها قد خرج عن الدعوة ومثاليتها ومناقبها ، وانخرط في صفوف الغزاة والمرتزقة . وليس لدينا ما يؤكد بأن آل الجنابي أو آل زكرويه قد خرجوا عن قانون الدعوة ونظامها إلاّ في أيامهم الأخيرة ، وعندما ذكر تمرد بعضهم على الأئمة والدعاة الإمام المعز لدين الله في رسالته إلى حسن الأعصم . وليس أدل على تَمَسُّكِهِمْ بالدعوة، وطاعتهم المطلقة للأئمة،من إعادتهم الحجر الأسود عندما أمرهم باعادته الامام عبيد الله المهدي ، فأعادوه بعد أن احتفظوا به عدة سنوات .

بعد أن ازداد نفوذ أبي سعيد الجنابي في البحرين واستولى على

القطيف ، اجتمع إليه خلق كثير وجماعة من الأعراب من قبائل قيس وبني كلاب وعقيل والحريس ، فهاجم هجر ، وسار باتجاه البصرة . فكتب والي البصرة محمد بن يحيى الواثقي إلى الخليفة المعتضد يعلمه بذلك ، فأمره الخليفة ببناء سور على البصرة ، فانفق على تحصينها مبالغ طائلة .

ولكن الخليفة المعتضد لم يطمئن للتدابير التي اتخذها الوالي فشاء أن يتخذ من جانبه تدابير أخرى اعتقد بجداوتها وفاعليتها تجاه خطر آل الجنابي الداهم ، فعزل العباس بن عمر والغنوي عن بلاد فارس وأقطعه اليمامة والبحرين ، وأمره بالقضاء على آل الجنابي ، وضم إليه ألف رجل . فسار إلى البصرة واجتمع اليه جمع كبير من المطوعة والجند والخدم ، ثم توجه إلى البحرين ، ولكن أبو سعيد الجنابي كان قد علم بمسيره نحوه فأعد الجماعات والجيش ، والتقى به قبل غياب الشمس فبدأوا القتال حتى حجز بينهم الليل ، فانصرف من جماعة العباس من أعراب بني ضبة ثلاثمائة فارس عادوا إلى البصرة ، وتبعهم مطوعة البصرة .

ولما أصبح الصباح ، وبدأت الشمس ترسل خيوطها الذهبية على المتقاتلين ، ازداد القتال عنفاً وضراوة ، حيث حمل نجاح غلام أحمد بن عيسى صاحب ميسرة العباس ، في مئة رجل على ميمنة أبي سعيد الجنابي وحاول التوغل فيها ، ولكنهم قتلوا عن آخرهم ، وحمل الجنابي ومن معه من الجند والجماعات على أصحاب العباس حملة واحدة فانهزموا وأخذ العباس أسيراً ، وغنم الجنابي ما كان في عسكره .

وانصرف من سلم من جيش العباس إلى البصرة ، فخرج إليهم

من البصرة نحو أربعمائة رجل على الرواحل ، ومعهم الطعام والكسوة والماء . ولما لقوا المنهزمين خرج عليهم بنو أسد ، فأخذوا الرواحل وما عليها ، وقتلوا من سلم من المنهزمين ، فاضطربت البصرة لذلك ، وعزم أهلها على الانتقال منها ، قبل أن يصل اليهم أبو سعيد الجنابي ، فمنعهم واليها الواثقي .

أما العباس فقد ظل أسيراً عند الجنابي عدة أيام ، ثم أطلقه قال له : امض إلى صاحبك وعرفه ما رأيت ، وحمله على رواحل ، فوصل إلى بعض السواحل وركب البحر فوافى الأبلة ، ثم غادرها إلى بغداد ، فوصلها في شهر رمضان ودخل على الخليفة المعتضد فخلع عليه ، وأكرم وفادته .

وبينما كانت المعارك الحربية دائرة على قدم وساق في البحرين والسواد وبعض القرى والدساكر الخاضعة لنفوذ آل الجنابي وآل زكرويه ، كان حمدان بن الأشعث يستعمل كل نفوذه وسلطته لإبعاد الناس عن مؤازرة آل الجنابي وآل زكرويه ويحرضهم على الابتعاد عن طموح هؤلاء ، الذين ضربوا بقواعد الدعوة عرض الحائط وراحوا ينفذون مخططاتهم العسكرية التي تنسجم مع طموحهم وميولهم الناهدة إلى سفك الدماء . مما أثار حفيظة آل زكرويه فقرروا التخلص من حمدان بن الأشعث بأقصى سرعة ممكنة ، وكلفوا يحيى بن زكرويه لإيفاد بعض المخلصين من أتباعه ليترصدوا تحركات حمدان بن الأشعث .

ولما سنحت الفرصة لهذا البعض ، نزل ليلاً إلى منزل حمدان بن الأشعث ، واستطاع أن يصل إلى غرفته رغم وجود الحراسة المشددة ، ويلف حبلاً حول عنقه ، حتى فارق الحياة . وفي صباح اليوم التالي

دخلت زوجة حمدان حسب العادة لتقدم له طعام الأفطار فوجدته ميتاً ، فشيع إلى مثواه الأخير باحتفال مهيب شارك فيه آل الجنابي وآل زكرويه . وبانتهاء حياة حمدان بن الأشعث انتهى خصوم آل زكرويه وأصبح المجال مفتوحاً على مصراعيه أمام تسنم زعامة الجماعات وقيادتهم وفق مخطط عسكري رهيب ، استطاعوا بواسطته أن يفرضوا نفوذهم على الكثير من المناطق في السواد والسماوة وبادية الشام ، كما تغلغل دعاتهم سراً إلى أغلب المدن العراقية والسورية ، وشملت تحركاتهم العسكرية الجزيرة العربية بكاملها ، وتعدتها إلى بعض المدن الفارسية .

في هذه الأجواء الصاخبة بالحروب والغارات وإزهاق آلاف الأرواح البريئة ، كان الداعي عيسى بن موسى يتسلم الصلاحيات التي كانت ممنوحة إلى عبدان بموجب قرار اتخذه آل زكرويه لإرضاء الجماعات الذين كانوا يؤيدون عبدان باعتبار عيسى بن موسى هو ابن شقيقة عبدان وخريج مدرسة الدعاة العليا في سلمية وموضع ثقة آل زكرويه .

ولقد استطاع عيسى بن موسى بما أوتيه من ذكاء ومقدرة عجيبة على التحرك أن يتجول سراً في كافة المدن العراقية ليزرع الدعاة الأكفاء في أغلب المراكز الحساسة في الدولة العباسية ، ليكونوا عيوناً للدعوة يحصون كافة التحركات ، ويرسلون المعلومات سراً إلى عيسى ابن موسى ليكون على بينة من مجريات الأحداث ، وليتخذ ما يراه مناسباً من احتياطات قبل وقوع الأحداث .

ورغم مضي فترة ليست بقصيرة على اغتيال خاله عبدان ، ورغم الثقة التي منحها آل زكرويه لعيسى بن موسى ، فانه كان يتحين

الفرص للأخذ بالثأر ، ويراقب كافة تحركات الحسين بن زكرويه في الداخل والخارج ، دون أن يشعر به أحد . ولكن الحسين بن زكرويه كان سريع التنقل من منطقة إلى أخرى ومن بلد إلى بلد ، يشعل نار الحرب هنا ويطفئها هناك ، حسب قوة وضعف المناطق التي يغزوها ، مما زاد من التفاف الجماعات حوله ، فوفروا له الحماية ضد أية محاولة لاغتياله .

ولما كانت ليلى بنت الجنابي زوجة الحسين بن زكرويه قد أصبحت مع مرور الأيام المسؤولة الوحيدة عن التنظيمات النسائية في السواد ، دخلت يوماً على عيسى بن موسى في مكتبه لمعالجة بعض المشاكل النسائية المتأتية عن الهجرة الجماعية بفعل الحروب ، فوجدته قلقاً واجماً يكثر من التأمل والتفكير وشرود الذهن . فسألته عما يتفاعل في أعماقه وقد عرفته منذ فترة طويلة مرحاً نشيطاً بقولها : ما لي أراك يا عيسى واجماً قلقاً شارد الذهن ، هل هناك ما يقلقك ؟

قال عيسى بن موسى وقد تصنع المرح : لا شيء يا ليلى . . لا شيء مطلقاً . . !

قالت ليلى : نحن أصدقاء وإخوان يا عيسى لماذا هذا التكتم؟

قال عيسى بن موسى : ولماذا أخفي عنك ؟ ألست زميلتي ورفيقة دراستي ؟ ليس هناك ما يزعجني ، بل بالعكس انني أشعر بالسعادة . . !

قالت ليلى : هل وقعت بالحب يا عيسى ؟ لأن هذا الوجوم والشرود يعني أن هناك ما يشغل بالك؟

فابتسم عيسى ابتسامة صفراء يخفي خلفها مايزدحم في كيانه من

تفاعلات : عندما كنت في ريعان الشباب لم أقع بالحب ، فهل تريدينني أن أقع فيه وقد أصبحت على أبواب الأربعين؟

قالت ليلى : ولم لا ؟ ألا تزال عازفاً عن الزواج لم تجد حتى الآن شريكة لحياتك؟

قال عيسى بن موسى : هذه أمور تافهة بالنسبة لي لا أعيرها أي اهتمام ؟ ولكن ما يقلقني يا ليلى أمور أخرى لها خطورتها وأهميتها ، وتتعلق بمستقبل الدعوة بعد أن تحولت من دعوة تبشيرية تنشر المحبة ، والإلفة ، والإخاء ، إلى دعوة ثورية عسكرية تنشر الدمار والخراب في كل مكان. . . مما جعلنا عرضة لغضب الدولة ، ومهاجمتنا عسكرياً ، وقتل الأطفال والشيوخ والنساء . . . هذا بالإضافة إلى الإشاعات الكثيرة التي بدأت تنطلق حول ديننا وأخلاقنا وتربيتنا ، حتى وصل الأمر إلى اتهامنا بالإلحاد وشيوعية النساء.

قالت ليلى : العقيدة ، والدين ، والنظام ، لا تحول دون الإنسان والدفاع عن نفسه ووجوده ، فمن اعتدى عليك اعتدي عليه بمثلها ، لهذا أجبرتنا الظروف المحيطة بنا إلى حمل السلاح والدفاع عن أنفسنا ، أما إذا وجد البعض من الغلاة الذين لا يتورعون عن القتل وسفك الدماء ، والنهب والتدمير ، فهذا مما لا بُدَّ له في الحروب والثورات.

وأنا أتساءل يا عيسى كيف يكون موقفك إذا هاجمك الغوغاء في عقر دارك ونهبوها وقتلوا أطفالك وعيالك ؟

قال عيسى بن موسى : أحاول أن أقنعهم بالعدول عن مهاجمة الدار بالحسنى ، وإذا عجزت ، واتضح لي أن الأمر واقع لا محالة ، أدافع عن نفسي وعيالي وأطفالي بقدر الطاقة . . .

قالت ليلى : إذن تعترف بحق الدفاع عن النفس . . !

قال عيسى بن موسى : هذا أمر طبيعي وجد مع وجود الانسان . . .

قالت ليلى : لماذا اذن أنت حاقد على من يدافعون عن أنفسهم وأموالهم وعيالهم وأطفالهم؟

قال عيسى بن موسى : لست حاقداً ، ولكن لي رأيي الخاص بهذا الموضوع ، وهو أنني لا أحب العنف بأشكاله . . .

قالت ليلى : ما قولك يا عيسى لو جمعتك بالحسين بن زكرويه لتبحث معه هذه الأمور ؟

قال عيسى بن موسى : إنه مشغول بالحروب . . . لم أشاهده منذ فترة . . . أتوق للاجتماع به في أي وقت كان . . .

قالت ليلى : لابأس ،سأحاول تحقيق هذه الرغبة عندما يأتي لزيارتي . . !

قال عيسى بن موسى : ما هي أخبار جمعياتك النسائية في هذه الظروف القاسية؟

قالت ليلى : الجماعات يسيطر عليهم القلق والوجوم لكثرة الإشاعات التي تلوكها الألسن حول الحروب والصراع القائم بيننا وبين الخليفة وبعض الخصوم ، وعلى العموم المرأة تساهم مساهمة فعالة في هذه الحروب وتقدم كل ما لديها في سبيل المجموع .

قال عيسى بن موسى : أتوسل إليه تعالى أن تنتهي هذه الحروب على خير . . !

قالت ليلى : إنني بحاجة إلى مبلغ من المال لإنفاقه على بعض العائلات المهجرة ، فهل يمكنك مساعدتي في هذا المجال ؟

قال عيسى بن موسى : كم يلزمك يا ليلى؟

قالت ليلى : ألف دينار . . .

قال عيسى بن موسى : المبلغ موجود وهو تحت تصرفك . . .

وبعد أن قبضت ليلى المبلغ توجّهت إلى مقرّها في الجمعية النسائية ووزّعته على العائلات المهجرة ، ثم عادت إلى منزلها ، فوجدت زوجها الحسين بانتظارها يداعب الأطفال ويتحدث اليهم ، فسلّمت عليه وعانقته مهنئة بالعودة والسلامة . ولكن الحسين الذي كان لا يزال في ثياب الحرب مدججاً بالسلاح أبلغها بأنه إنما جاء لتوديعها وتوديع الأطفال ، إذ سيرحل فوراً في مهمة قد تستغرق عدة أشهر ، وربما كانت مهمته في بلاد الشام ، ثم أضاف : أتذكرين يا ليلى يوم كنا في سلمية نتلقى العلم ، وكنت أقضي أيام العطل والأعياد متجولاً في المدن السورية أدرس الأوضاع وأكون الصداقات ، وأخطط سراً للمستقبل ، لقد جاء ذلك اليوم الذي أنا فيه بحاجة إلى مساعدة كل الأصدقاء وكل الجماعات ، فأنا راحل بعد هذه السنوات الطويلة التي قضيتها بعيداً عن الأصحاب لإعادة الاتصال بهم ومعرفة ما بامكانهم أن يقدّموه من خدمات ، وهل لا يزالون على العهد الذي قطعوه لي إبان ترددي عليهم؟

قالت ليلى : هذا ما كان قلبي يحدّثني به دائماً ، ولكن أليس لديك بعض الوقت لقضائه بيننا نحن أهل بيتك أليس لنا عليك حقوقاً ؟ لقد شغلتك الأمور السياسية عنا يا حسين ؟

قال الحسين : وهل من المعقول أن يشغلني شيء في هذا الكون عنك يا ليلى ؟ إنك واهمة . . . ولكن اضطراب الأحوال في بلاد الشام ، وتنافس الولاة والحكام ، وانتشار الفوضى في سائر البلاد ، عوامل هامة وخطيرة جعلتني أفكر باستغلالها لتحقيق طموحي وأحلامي في تكوين دولة إسماعيلية كتلك التي أقامها والدك في البحرين. . !

قالت ليلى : إذا كنت قد صممت على هذا الأمر ، فلا طاقة لي بإقناعك للعدول عنه ، ولكن لا بد لي من تذكيرك بأمر هام كاد أن يغرب عن بالي ، وهو أن الداعي عيسى بن موسى طلب مني أن أسهل له مهمة الإجتماع بك لأمر هام ، فهل تقابله قبل رحيلك ؟

قال الحسين : كلا . . كلا . . دعي أمر زيارتي هذه سراً ولا تخبري بها أحداً . لقد علمتني مجريات الأحداث أن لا أثق بأي انسان ، مهما كان مقرباً . ثم ودّعها وودع الأولاد وغادر كلوازي متوجهاً إلى بادية الشام عن طريق الموصل ، ونزل في ضيافة بني العليص على شواطىء نهر الفرات ، واستطاع أن يكسب ودّهم ويتفق معهم على مساعدته في حالة غزوه لبلاد الشام ، وكذلك أيّده بني أسد وطيء ، ثم سار إلى الرقة ، حيث اجتمع بكبير دعاتها ، وبعد نقاش استمر عدة أيام استطاع أن يكسب ودّه ، ونصحه كبير الدعاة بأن يتّجه إلى حلب ومنها إلى المعرة فحماه فحمص ، وإذا شاء عاد إلى الرقة ، وإلا فعليه أن يعرج على تدمر لأن فيها أناس من المؤمنين الصادقين قد يؤيدوه ويساعدوه فيما هو مقدم عليه .

وقبل أن يودع الحسين بن زكرويه داعي الرقة أبا علي الحميدي قال له الحميدي : إن زميلنا في حلب الداعي نوح بن علي مسؤول عنا

وعن كافة المناطق التابعة لمدينة حلب ، فاسرد على مسامعه ما لديك من مخططات هادفة إلى الإستيلاء على السلطة وإيجاد دولة أهل الخير التي بشر بها دعاتنا الأول ، وخبره بالتفصيل عن نشاط الدعوة في البحرين والسواد ، وعن نظام الإلفة والإخاء الذي يسيطر على الجماعات ، وصف له الأحداث التي تتعرضون لها في بلادكم ، وأنا كفيل بأنه سوف يؤيدكم ويمهد السبيل لوصولكم إلى حلب . .

فقال الحسين بن زكرويه : أظن بأنني سمعت باسم هذا الداعي ، وربما قابلته منذ سنوات في حلب ، على العموم سأفعل ما طلبته مني وسأجعل طريق العودة إلى الرقة كونها أكثر أمناً ، وأقرب منالاً . ثم ودّعه وسار باتجاه حلب . ولما حط رحاله في حلب ، دخل على الداعي نوح بن علي ، فسلم عليه وطلب الاختلا به لأمر هام ، ولما أصبحا وحيدين قص على مسامع نوح قصته وكيف أنه غادر السو بناه على رغبة والده زكرويه وأشقائه يحيى وأبو المعالي للاتصال بالدعاة وبالجماعات لمساعدته عندما يغزو سورية عسكرياً بقصد القضاء على النفوذ العباسي ، وإيجاد دولة إسماعيلية توفر الإلفة والإخاء بين جميع المواطنين ، على أن يكون إمام الزمان رئيسها ، والنظام الإسماعيلي قانونها .

ولا بد من اغتنام فرصة تشاغل الحيمه ، وفساد البلاد ، وازدياد الفوضى والخراب ، لنضرب ضربتنا بقسوة وشدة ، فهل بمقدور سيدي الداعي أن يقدم لنا المساعدات إذا وصلت جحافلنا إلى حلب وما جاورها من البلدان ؟

قال الداعي نوح بن علي وقد أذهلته المفاجأة : أنت تعلم يا ولدي بأننا لسنا سوى نواب ووكلاء لصاحب الأمر امام الزمان ، وليس

بمقدورنا أن نتصرف دون الرجوع إليه في كل الأمور ، فإذا وافق حتى ولو كانت موافقته رمزاً أو إشارة بادرنا إلى مساعدتك بكل ما نملك ، وإلاّ فاعذرنا يا ولدي. . . .

قال الحسين بن زكرويه : قلت لك يا سيدي بأن مهمتنا هي التمهيد لإقامة مدينة أهل الخير ، وليس لنا مصلحة أو غاية ، سوى خدمة الإمام وإسعاد الجماعات ، فإذا كان لا بد من الرجوع إليه ، فلا أرى أي مانع يحول دون ذلك. . .

قال الداعي نوح بن علي : لا بد من بقائك في ضيافتنا حتى نحصل على الجواب ، وسأتصل بمقر الإمامة فوراً بواسطة الحمام ، ولن تتأخر الإجابة. . !

قال الحسين بن زكرويه : على بركة الله يا سيدي ، وسأكون بالإنتظار . . .

وبالفعل بادر الداعي نوح بن علي إلى توجيه رسالة مستعجلة إلى مقر الإمامة في سلمية عرض فيها قصة الحسين بن زكرويه ، وطلب إيضاحاً مستعجلاً ، ليكون على بينة من أمره ، وما لبث أن تلقى الإجابة الموجزة التالية : علمنا بتحركاته منذ غادر السواد ، مساعيه تستحق الإهتمام .

ومع أن رد الإمامة لم يكن واضحاً مفصلاً فقد فهم منه الداعي نوح بن علي بانه إشارة إلى قبول الإمامة بما ينهد إليه ، لذلك أبلغ الحسين بن زكرويه بأنه على استعداد لمؤازرته وتأييد خطواته عندما يصل بقواته إلى نواحي حلب . فشكره الحسين بن زكرويه ، وسار باتجاه المعرة وحماه وحمص حيث أجرى عدة اتصالات كانت نتائجها

مرضية وموفقة . ثم عاد مخترقاً البادية عن طريق الرصافة إلى الرقة، فاستقبله داعيها ، وأنزله في ضيافته ، فحدثه عما جرى معه خلال جولته ، وأبلغه بأن مشروعه قد لاقى الاستحسان والقبول من كافة الجماعات والدعاة ، وسيعود إلى السواد ماراً بنواحي الفرات ليجري بعض الاتصالات مع زعماء القبائل النازلة في تلك الجهات ، وعلى الجميع أن يستعدوا للمعركة الفاصلة . فكرر داعي الرقة وعده بالمساعدة ، وعاهد الحسين على المضي بالاستعداد حتى يعلم بوصول جيوش السواد إلى شاطىء الفرات ، فيخرج بقواته لمناصرتها.

ودع الحسين بن زكرويه داعي الرقة وواصل المسير إلى شواطىء الفرات ، حيث استطاع أن يأخذ وعداً من الأعراب النازلين حول الفرات بمساعدته ومناصرته ، وتزويده بالرجال والسلاح . ثم عاد إلى السواد ، فاجتمع بوالده زكرويه بن مهرويه وإخوانه ، وسرد على مسامعهم ما جرى له في رحلته إلى بلاد الشام ، وكيف استطاع أن يحصل على تأييد الكثيرين في نواحي الفرات والرقة وحلب وحماه وحمص ، وأنهم يستعدون ، وينتظرون قدومه .

فاستبشر الجميع بالخير ، وسرّوا سروراً عظيماً بالأخبار التي حملها الحسين معه من بلاد الشام، وقال زكرويه مخاطباً أولاده وأقاربه : تعلمون بأن مقتل عبدان بالصورة التي قتل عليها ، قد سبب لنا مشاكل كثيرة ، وأثار علينا غضب آل الجنابي في البحرين وبعض الجماعات من أنصار عبدان وحمدان بن الأشعث ، رغم كون عبدان هو صهرنا ، ولكن الإمام عليه السلام الذي أيد مواقفنا وفوّضنا في قيادة الجماعات قد برأنا من دم عبدان وزاد في الصلاحيات المعطاة إلينا ، ونتائج رحلة ولدنا الحسين إلى بلاد الشام خير دليل على المكانة القيادية التي وصلنا إليها. وهذا ليس بالمستغرب كوننا نتحدر من أسرة صاحبة أسبقية في

الدعوة ونشر عقائدها ، لذلك أطلب منكم جميعاً الحرص والانتباه ومعاملة منافسينا من الدعاة والقادة بالحسنى والإخاء والمحبة . وبذلك تثبتون للجميع أن آل زكرويه لا هدف لهم من النشاط الذي يقومون به إلا صالح الدعوة والتمهيد لظهور إمام الزمان ، واستلامه القيادة.

وإذا ما شعرنا بأن النار التي خمد أوارها داخل صفوف الجماعات ، يحاول إشعالها أي داعي من الدعاة من أنصار عبدان سنقضي عليها بالمهد وبالقوة ، ولا يهمنا إذا غضب فلان أو استاء فلان ، لأن إمام الزمان قد منحنا كافة الصلاحيات .

ويبدو من مجريات الأحداث أن الثقة التي منحها الإمام الإسماعيلي لآل زكرويه قد خففت من حدة المنافسة والتوتر ، وأدت إلى انضواء الأكثرية الساحقة من الجماعات تحت زعامة آل زكرويه . ولم يبق في الجبهة المعارضة لآل زكرويه سوى آل الجنابي في البحرين ، مما حدى بالحسين بن زكرويه إلى إيفاد زوجته ليلى ابنة أبو سعيد الجنابي إلى البحرين للتحدث مع والدها ، ومحاولة إقناعه بأن عبدان قد استحق القتل ، حين أشاع بين الجماعات أخباراً سيئة تتعلق بإمام الزمان ، وحاول إثارة الجماعات سراً على آل زكرويه . . !

ولقد استطاعت ليلى بما لها من مكانة عند والدها أن تقنع والدها ببراءة آل زكرويه من دم عبدان،وتؤكد له بأن آل زكرويه من أخلص الجماعات ، يقومون بنشاط كبير لصالح الدعوة ، وأن إمام الزمان قد منحهم البركة والتأييد وأسلمهم القيادة في السواد والسماوة وبادية الشام. . !

ولما عادت ليلى إلى مقرها في دار الهجرة التي بناها وحصنها آل زكرويه في السواد وأطلقوا عليها اسم « مهمباذ » أعلمت آل زكرويه

بأن آل الجنابي رغم أن مقتل الداعي عبدان قد أساء إلى سمعة الدعوة وأغضب الكثير من الدعاة ، فانهم قد اقتنعوا ببراءة آل زكرويه من دم عبدان ، وهم على استعداد لإعادة العلاقات فيما بينهم إلى عهدها السابق ، بشرط ابتعاد آل زكرويه عن إثارة المشاكل بين الجماعات في المناطق الخاضعة لقيادتهم وزعامتهم . . .

وهكذا استطاع آل زكرويه أن يفضوا ولو بصورة مؤقتة على النزاعات الداخلية ، ويكسبوا ود وتأييد الجميع ، لذلك نرى زكرويه بن مهرويه يعين ولده يحيى بن زكرويه نائباً له ، وكبيراً لدعاة بادية الشام ، وجعل مركزه بين القبائل المنتشرة على شاطىء الفرات ، كما عيّن ولده الحسين نائباً ثانياً له ، ومسؤولاً عن الدعوة في السماوة والسواد . على أن يساعده في أعماله وقيادته شقيقه أبو العباس الذي كان أصغر منه سناً ، هذا بالإضافة إلى عدة قرارات اتخذها بشأن التسلح والاستعداد لكل الطوارىء . كما طلب من النساء الإسماعيليات أن يساهمن مساهمة فعالة بالنشاط العسكري ، ويقدمن كافة الخدمات للجيوش الإسماعيلية أثناء المعارك ، وفرض زوجة ابنه ليلى بأن تتولى تسليح عدة سرايا نسائية ، وتشرف على تدريبهن بنفسها .

وفي الوقت الذي كان فيه زكرويه بن مهرويه يجري الإستعدادات الكاملة للدفاع عن الجماعات في السواد والسماوة ويعيّن الشخص المناسب للمكان المناسب ، دخل عليه وهو في مقره بدار الهجرة شيخ مهيب ذو طلعة بهية توحي بالذكاء والتقوى والعلم ، وقدم نفسه على أنه الداعي الحسين بن الأسود ، ويحمل رسالة من مقر الإمامة في سلمية إلى الداعي زكرويه بن مهرويه ، فرحب به زكرويه ترحيباً شديداً وعانقه وقبله وأجلسه بجواره ، وراح يستفسر منه عن

أحوال الجماعات ، ومدى النشاط الدعاوي في بلاد الشام . فطمأنه الحسين بن الأسود إلى الحالة العامة وأنها حسنة جداً ، ثم طلب من زكرويه أن يخلو له المكان ليطلعه على رسالة إمام الزمان.

ولما أصبحا وحيدين ، أخرج الحسين بن الأسود من جيبه الرسالة وقبلها ووضعها على رأسه ثم قدمها إلى زكرويه الذي قبلها بدوره ووضعها على رأسه ، ثم فض غلافها ، واطلع على ما فيها ، وقال : أمر الإمام حق وصدق ، ونحن له من الخانعين الطائعين ، ونقدم لك دعمنا وتأييدنا ومساعدتنا ، فأهلاً بك يا مولانا في بلدك وبين إخوانك. . .

فقال الحسين بن الأسود : شاء مولانا الإمام أن يعين بديلاً لداعي دعاة العراق المغفور له سيدنا الحسين الأهوازي الذي توفاه الله منذ فترة ليست قصيرة ، فوقع اختياره علينا وحملنا هذه المهمة الصعبة القاسية ، وأعاهدك بأن أكون كما كان الأهوازي صادقاً أميناً ، أنشر العدل والمساواة والإخاء بين الجميع .

فقال زكرويه : هل تأمر يا سيدي بأن أدعو الدعاة لاجتماع عام نقرأ فيه عليهم رسالة الإمام؟

قال الحسين بن الأسود : ليكن موعد الإجتماع مساء الغد ، على أن يضم جميع الدعاة . . . .

ولما عقد الاجتماع الذي دعا إليه زكرويه بن مهرويه في مقر الدعوة في دار الهجرة (مهمباذ) قدم زكرويه للدعاة المجتمعين الداعي الحسين بن الأسود على أنه داعي الدعاة الجديد الذي عيّنه إمام الزمان ليحل محل الداعي الحسين الأهوازي في جزيرة العراق ، وهو يحمل تفويضاً مطلقاً حسب الأصول المتبعة لدى الدعوة .

وهنا نهض الحسين بن الأسود من مجلسه بقامته المديدة ، ولحيته الكثيفة التي وخطها الشيب ، وقال :

بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتي وعليه اتكالي ،

الحمد لله الغالب قدره ، العظيمة قدرته ، الذي إذا نهض الفكر نحو سماء معرفته انقلب خاسئاً وهو حسير بصره ، وصلى الله على خير من شرف على عناصر الأنبياء عنصره ، وفاق جوهرهم جوهره ، محمداً الشاهد بنبوته حجره ومدره ، وعلى وصيه الذي له حجول الفضل وغرره ، مولانا علي بن أبي طالب الذي هو منصور يوم الوغى ومظفره ، وعلى الأئمة من ذريته غصون المجد الذي هو شجره.

معشر الدعاة والداعيات : شاءت إرادة مولانا إمام الزمان أن يحملني الأمانة ، وولاني القيادة والحضانة ، وفوّضني بالإرشاد والتبشير والصيانة ، فكونوا يا أولادي لي مساعدين ، وانشطوا لبذر بذور الدين ، واغرسوا في قلوب المستجيبين اليقين ، ووحدوا الصفوف ، وأمروا بالمعروف ، وانشروا بين الجماعات العدل والمساواة، ولا تفرّقوا بين الفتيان والفتيات ، وواظبوا على جمع أموال الزكاة ، وما تجود به أكف المتبرعين والمتبرعات ، واحفظوا جميع الأموال لديكم ، حتى أوزع أوامري الجديدة عليكم ،وأعيّن أميناً للمالية ، تحفظ لديه في حرز أمين ، حتى نقرر في أي وجه نصرفها ، على أمور خافية مستورة سنعرفها. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، سيروا إلى أعمالكم وفقكم الله .

وبعد أن انصرف الدعاة إلى أعمالهم ، طلب الحسين بن الأسود من زكرويه بن مهرويه أن يستدعي الداعي عيسى بن موسى ، ليتشاور معه في بعض الأمور المالية الخاصة بالدعوة باعتباره المسؤول عنها . ولما

حضر عيسى بن موسى ، انفرد به داعي الدعاة الحسين بن الأسود وطلب منه أن يقدم تقريراً شاملاً عن الوضع المالي في السواد ، ليكون على بينة من أمره . . .

قال عيسى بن موسى : يؤسفني يا مولاي أن أبلغك بأن خزينة الدعوة في السواد خالية خاوية ، لأن الأموال التي جمعت هذا العام قد أنفقت على التسليح وبناء التحصينات ، بالإضافة إلى تقديم بعض المساعدات للعائلات المهجرة ، بسبب الإقتتال والحروب . .

قال داعي الدعاة : من أمرك بانفاق هذه الأموال وأنت تعلم بأنها خاصة بإمام الزمان ؟

قال عيسى بن موسى : نفذت الأوامر التي تلقيتها من الداعي زكرويه بن مهرويه . . .

قال داعي الدعاة : اعتباراً من هذه اللحظة لا تصرف قرشاً واحداً بدون أمري . . .

قال عيسى بن موسى : هذا ما كنت أتمناه يا مولاي ، لقد أصبحت أوضاعنا المادية حرجة جداً ، بسبب كثرة النفقات ، وما خلّفته الحروب من ويلات ، فالذي أعرفه يا مولاي بأن رسالتنا هي نشر المحبة والإخاء والألفة بين الناس ، لا الحروب والاقتتال وسفك الدماء . .

قال داعي الدعاة : قليلاً من الصبر يا بني سوف تعود الدعوة إلى رسالتها السمحاء ، إذا استطعنا أن نضع حداً لطموح بعض الدعاة وتطرفهم وغلوهم . .

قال عيسى بن موسى : ليس أمامك يا مولاي إلاّ عقبة واحدة ،

وهي تسلط آل زكرويه على مقدرات الجماعات ، وطموحهم إلى تسلم الزعامة المطلقة ، فإذا تمكنت من إزالة هذه العقبة ، عشنا وعاشت دعوتنا بسلام إلى يوم الدين . .

قال داعي الدعاة : أراك حاقداً على آل زكرويه يا عيسى ، فما هو سر هذا الحقد ؟

قال عيسى بن موسى : لست حاقداً على أحد يا مولاي ، لأن قوانين الدعوة علّمتنا المحبة والإلفة والإخاء . ولكن بعض تصرفاتهم لا تعجبني . . .

قال داعي الدعاة : منذ متى يا ولدي عيسى ؟

قال عيسى بن موسى : منذ أن تسببوا في قتل الداعي عبدان أكبر عقل مفكر في الدعوة ، وأشاعوا بأنه يسيء إلى شخص الإمام . .

قال داعي الدعاة : ألا يستحق القتل من يتنكر لإمام زمانه ويخالفه ؟

قال عيسى بن موسى : نعم يا مولاي . . ولكن إذا ثبت عليه هذا التنكر ، لا أن يؤخذ على الظن . .

ولقد حصل أول اصطدام مكشوف بين داعي الدعاة الحسين بن الأسود وآل زكرويه عندما طلب زكرويه بن مهرويه من داعي الدعاة بعض الأموال الخاصة بالإمام لإنفاقها على التسلح والتحصينات فرفض أن يدفع له أي مبلغ ، وطلب من زكرويه أن يستأذن الإمام .

الفصل الحادي عشر

نقل مقر الإمامة إلى المغرب

عندما توفي الإمام الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل ، كان ولده وخليفته عبيد الله المهدي صغيراً ، فأقام أخاه محمد بن أحمد الملقب بسعيد الخير وصيًّا عليه إلى حين بلوغه سن الرشد ، ولكن سعيد الخير شاء أن يورث الإمامة إلى ولده ، وكان كل ما أشار إلى أحد أولاده أصابه المرض وفارق الحياة حتى لم يبق له ولد يوصي إليه ، فرد الوصية إلى صاحبها عبيد الله المهدي ، وتوفي ودفن في سلمية .

وبعد أن صار الأمر إلى عبيد الله المهدي ، ازداد نشاط الدعاة ، وانتشروا في كافة أنحاء العالم الإسلامي ، وكانت الأخبار تتوارد على مقر الدعوة في سلمية تشير إلى الإنتصارات المتوالية التي يحققها الداعي أبو عبيد الله الشيعي في المغرب ، حيث عم نفوذه أكثر أجزاء تلك البلاد ، وأصبح صاحب السلطان المطلق في جميع الجهات الواقعة الى الغرب من مدينة القيروان ، واتبع أبو عبد الله الشيعي سياسة تنطوي على الحكمة وبعد النظر واقرار العدل بين الناس .

ولما وصلت الدعوة الإسماعيلية إلى هذه الدرجة من الإنتشار في المغرب ، واستقر الداعي أبو عبد الله الشيعي في دار هجرته ، سير أخاه أبا العباس محمد بن أحمد على رأس وفد مغربي إلى سلمية لينقل أخبار الإنتصارات التي حققتها الدعوة في المغرب إلى الإمام عبيد الله المهدي ، وما حققه الله على يده من ازدهار وتقدم ، وأنه ينتظر أوامره إذا شاء أن ينقل مقر دعوته إلى المغرب ، لأن سلمية لم تعد مكاناً صالحاً لإقامة الأئمة بعد أن ازداد النشاط الإسماعيلي في المغرب واليمن والبحرين والسواد ، تقدماً وازدهاراً ، بالإضافة إلى أن الخليفة

العباسي قد شدّد في طلب القبض على الإمام الذي تروج باسمه الدعوة الإسماعيلية .

ولم يكن الداعي أبو عبد الله الشيعي الداعي الوحيد الذي أرسل وفداً لدعوة الإمام عبيد الله المهدي للإقامة في بلاده ، بل وصل سلمية وفد آخر كان قد أرسله الداعي ابن حوشب من اليمن ليعرض على الإمام التوجه إلى اليمن ، وكذلك أرسل أبو سعيد الجنابي من البحرين ولده سعيد لدعوة الإمام للإقامة في بلاده .

هذا بالإضافة إلى الإلحاح المتزايد من قبل آل زكرويه في السواد على الإمام لضرورة نقل مقره إلى الكوفة . ولكن الإمام عبيد الله المهدي ترك كل هذه العروض للدراسة ، ولم يقرر شيئاً بالنسبة لنقل مقر الإمامة من سلمية حتى تتوضح الأمور أكثر ، طالما باستطاعته البقاء في سلمية فترة أخرى دون أن يعرض حياته للخطر . خاصة وأن الأجواء لا تزال ملبدة بالغيوم الدكناء ، والأمور متشابكة في كل بلد من بلدان العالم الإسلامي ، الذي تعمه الفوضى والثورات ، والبلبلة والاضطرابات ، فالتريث أجدى وأنفع .

وإذا كان لا بد من انتقاله إلى أي بلد ، فلا بد من أن يجري هذا الإنتقال بصورة سرية جداً لا يعلم بها إلاّ الأخصاء من الدعاة ورجال الحاشية . ومن الضرورة بمكان أن يبقى البلد المقصود سراً لا يعرفه أحد مهما كان مقرباً من الإمام حرصاً على سلامته .

وبينما كان الإمام عبيد الله المهدي يستعرض كل هذه الأمور ويدرسها دراسة واقعية بجدية واهتمام دخل عليه الداعي علي بن محمود صاحب أبراج الحمام وهو يحمل رسالة وصلت من السواد على جناح أحد الطيور ، ولما اطلع عليها اتضح له أنها مرسلة من قبل داعي دعاة

جزيرة العراق الحسين بن الأسود يطلب فيها الموافقة على تنحية آل زكرويه عن كل المناصب القيادية التي يتولونها ، نظراً لتصرفهم بأموال الجماعات لمصالحهم العسكرية ، ويذهب داعي الدعاة في رسالته إلى أنه بدأ يشك باخلاص آل زكرويه للدعوة ، وأن طموح هؤلاء لا يقف عند حد قيادة الجماعات بل ينهدون إلى ايجاد أمارة أو دولة مستقلة وخاصة بهم ، خاصة وقد انضم اليهم الكثيرون من البدو الرحل الغلاة المتطرفين ، الذين لا يفقهون من نظام الدعوة وعقائدها شيئاً ، إنما التفوا حول آل زكرويه بقصد النهب والسلب والمنافع الدنيوية الذاتية وسفك الدماء .

وقد شجعهم آل زكرويه ووفروا لهم الأجواء لتنفيذ أهدافهم الهدامة ، مما جعل المخلصين من الدعاة والجماعات يستغربون هذا الانقلاب في مبادىء الدعوة وأنظمتها ، فيظهرون التذمر والشك والتردد . لهذه الأسباب فإن داعي الدعاة الحسين بن الأسود يطلب بإصرار تنحية آل زكرويه وإبعادهم عن مناصب الدعوة القيادية . . . .

ويبدو من مجريات الأحداث أن الإمام عبيد الله المهدي كان يعلم بتصرفات آل زكرويه ونواياهم ، قبل أن يعين الداعي الحسين بن الأسود داعياً للدعاة ، لذلك عقد اجتماعاً مستعجلاً لدعاته الحرم ، واتخذ قراراً يقضي بتنحية آل زكرويه وإبعادهم عن كافة المناصب القيادية في الدعوة ، وأمر داعي الدعاة الحسين بن الأسود بأن يأمر الدعاة والجماعات في السواد وتوابعها قطع كل صلة لهم مع آل زكرويه والابتعاد عنهم نهائياً .

وبينما كانت جيوش يحيى بن زكرويه تنتقل في السواد والسماوة وبادية الشام من انتصار إلى انتصار ، كان داعي الدعاة الحسين بن الأسود يذيع على الدعاة والجماعات الأوامر التي تلقاها من الإمام

عبيدالله المهدي والقاضية بتنحية آل زكرويه عن كافة المناصب القيادية، مما أثار حفيظة آل زكرويه وغضبهم، فكاتبوا الإمام بلهجة قاسية، ونفوا كل اتهامات داعي الدعاة الحسين بن الأسود، وذكروا الإمام بأسبقيتهم في الدعوة، وجهادهم المستمر في سبيل نشرها وازدهارها، ولكن الإمام صمت ولم يجب على أية رسالة من رسائلهم، بل ترك الأمر لداعي الدعاة الحسين بن الأسود، باعتباره المسؤول عن الدعوة في جزيرة العراق.

ولم تكن هذه الصفعة الوحيدة التي وجهت لآل زكرويه وهم يخوضون المعارك ويستبسلون فيها، بل توالت عليهم الصفعات من كل جانب، فأنصار عبدان بعد أن شعروا بغضب الإمام على آل زكرويه بدأوا يتربصون بهم الدوائر ويضيقون على أتباعهم وأنصارهم الخناق، كما أن أبو سعيد الجنابي قد تخلّى عنهم وأعلن وقوفه على الحياد من هذا الصراع الداخلي، هذا بالإضافة إلى المحاولات الكثيرة التي يبذلها العباسيون لاستئصال شأفة آل زكرويه، كونهم أساس الداء، وأصل الوباء.

كل هذه الأمور الخطيرة تكوكبت وتجمّعت وتجسّدت دفعة واحدة أمام آل زكرويه، فاجتمع زكرويه بأولاده يحيى والحسين والفضل، ليتداولوا حول ما يجب أن يتخذوه من مواقف للخروج من هذه الحلقة التي بدأت تضيق عليهم، وتستحكم بمصيرهم كزعماء للدعوة الإسماعيلية.

قال زكرويه: تعلمون يا أولادي نتائج الصدمة الكبيرة التي حلّت بنا، أثر مؤامرة داعي الدعاة الحسين بن الأسود علينا وتنحيتنا عن مراكز القيادة في الدعوة، بمساعي بعض الدعاة من أنصار

عبدان ، بالإضافة إلى تخلي أبو سعيد الجنابي عن مناصرتنا ، وغضب الإمام عبيد الله المهدي علينا ، وصمته المطبق تجاه مراسلاتنا ، فما هو رأيكم بهذه الأمور الخطيرة ؟

قال يحيى بن زكرويه : لا بد لنا من مواصلة الكفاح والصراع حتى نثبت للجميع بأننا أهل لتسلم الزعامة والقيادة . . .

قال الحسين بن زكرويه : أنا أرى يا سيدي أن يذهب أحدنا سراً إلى سلمية ويقابل الإمام ويتفاهم معه على هذه الأمور ، باعتبار أن النشاط الذي نقوم به ليس سوى تمهيد لإقامة المدينة الفاضلة التي بشرنا بها ، وحتى نثبت جدارتنا وحسن قيادتنا لا بد لنا من مواصلة القتال ، في كافة المناطق التي لنا فيها أنصار لا يتوانون عن مساعدتنا . . .

قال أبو العباس الفضل بن زكرويه : من الأفضل يا والدي أن تظل في مخبئك بالصوار ، وتتركنا نتدبر أمورنا حسب تطورات الأحداث . .

قال زكرويه بن مهرويه : إذا كانت هذه إرادتكم ، فلن أخرج من مخبئي بعد اليوم ، فافعلوا ما ترونه مناسباً ، وينسجم مع مجريات الأمور ، واجعلوا قيادتكم ثلاثية ، أو بيد شقيقكم يحيى ، والله يوفقكم ، لما فيه الخير والفلاح . . .

وبعد عودة زكرويه إلى مخبئه في قرية الصوار حشد أولاده الثلاثة كافة قواتهم وأنصارهم في السواد وهاجموا البصرة ، فحاصروها وضيّقوا الخناق على ساكنيها ، فاستنجد والي البصرة بالخليفة العباسي ، ولكن آل زكرويه دخلوا البلدة قبل وصول النجدة ، وفتكوا بكل من عثروا عليه في داخلها من النساء والأطفال والشيوخ ، ونهبوا كل ما فيها من

أموال ومتاع ، ثم توجّهوا إلى شواطيء الفرات ، حيث بدأوا بجمع الأنصار من القبائل ليشنوا هجوماً كاسحاً على بلاد الشام .

ولما علم الإمام عبيد الله المهدي بنوايا آل زكرويه ، وأنهم متوجهون إلى بلاد الشام ، رأى أنه من الأفضل له أن يغادر سلمية ، باتجاه اليمن أو المغرب ، فاستدعى إليه الداعي أبو محمد كبير دعاته في حماه ، وأمره أن يجهز له الخيول العربية الأصيلة ، إذ يريد القيام برحلة إلى اليمن . ثم أمر حاشيته بالأخذ في أهبة السفر ، للخروج معه ، وأظهر لهم أنه يريد اليمن .

وبعد أن تهيأت جميع الوسائل والأسباب لانتقال عبيد الله المهدي إلى المغرب ، خرج من سلمية ومعه خاصته ومواليه ، وكان خروجه وقت العصر ، وكانت وجهته مدينة حمص ، ومنها قصد طرابلس الشام فبات فيها ليلة واحدة ورحل عنها إلى الرملة حيث أقام متستراً عند داعيها فترة من الوقت زاره خلالها الحسين بن زكرويه عندما كان أتباعه يحاصرون دمشق ، وبسط أمام الإمام ما ناله من الانتصارات في الحروب التي يخوضها تمهيداً لوصول الإمام عبيد الله المهدي إلى سدة الخلافة ، وقال له : أنا أرى يا مولاي أن تعود إلى سلمية لأن الأمر قد استقام لك بعد أن طهرنا بادية الشام وأغلب المدن السورية الشمالية من الخصوم ، وأقمنا لك الخطبة في كافة المساجد ، ونحن كما تعلم يا مولاي لم نخرج من السواد إلاّ لنؤكد لك عن إخلاصنا وتضحياتنا في سبيل إقامة دولتك ، ولنثبت لأولئك الذين نقلوا إليك أشياء وأشياء عن سلوكنا ، وأثاروا الشبهات حولنا ، مع أننا قد قدمنا خدمات للدعوة وثبتنا أركانها منذ عهود أجدادكم طيب الله ثراهم ونفعنا ببركاتهم ، وكل ما نهدف إليه هو نيل رضاكم ، والحصول على بركاتكم . . .

قال الإمام عبيد الله المهدي : أنت تعلم يا حسين بأن دعوتنا قامت على أسس مدروسة منظمة تهدف إلى نشر الخير والسعادة والإخاء في كافة المجتمعات الإسلامية ، لإنقاذ هذه المجتمعات من الظلم والعسف والاستبداد، ومن الفاقة والعوز ، عن طريق إيجاد الإلفة والمحبة ، والعدل والمساواة . أما أن تتحول دعوتنا إلى الإرهاب والقتل وسفك الدماء ، فهذا مما لا يرضينا ولا يسعدنا ، فكيف نقبل بأن يجسد أتباعنا ودعاتنا العسف والظلم والاستبداد ؟

قال الحسين بن زكرويه : نحن يا مولاي رضعنا مبادىء الدعوة الخيرة وبشرنا بالخير والسعادة والإلفة ، ولكننا أجبرنا على القتال دفاعاً عن أنفسنا ووجودنا ، ومع كل النكبات التي حلت بنا لم نظلم ولم نستبد إنما نشرنا العدل والمساواة في مجتمعنا حسب تعاليمكم وإرشاداتكم ، وها قد أثبتنا لكم عن مدى إخلاصنا لكم . . .

قال الإمام عبيد الله : وهؤلاء الذين سفكون الدماء ويروعون الناس أليسوا من أتباعكم ؟

قال الحسين بن زكرويه : نعم يا مولاي . . ولكن الظروف العسكرية والحربية أجبرتنا على التعامل معهم بصورة مؤقتة ، وإذا كان وجودهم معنا يزعجكم فنحن على استعداد للتخلص منهم . . . ولكن ألا ترى يا مولاي بأن وجودهم في هذه الظروف يساعدنا ، ويشد من أزرنا ؟

قال عبيد الله المهدي : لا مانع لدي إذا كان بالإمكان التخلص منهم إذا استقرت الأحوال . .

قال الحسين وقد شعر بالاطمئنان والارتياح : إننا نحاصر الآن دمشق يا مولاي فهل تأتينا إذا وفقنا في احتلالها ؟

قال الإمام عبيد الله المهدي : سألحق بكم عندما تستقر الأمور ، فارجع يا حسين إلى قواتك وتابع نضالك ، والله يوفق لما فيه الخير ، وأتوسل إليه سبحانه وتعالى أن يحقق الأماني . . وبعد أن كسب الحسين بن زكرويه ثقة الإمام عبيد الله المهدي ، وأعطاه وعداً بالعودة إلى سلمية ، عاد الحسين بن زكرويه إلى دمشق وشدد الحصار عليها ، حتى صالحه أهلها على خراج يدفعونه فانصرف عنهم إلى حمص بعد أن اشتدت شوكته وازداد عدد أتباعه .

أما الإمام عبيد الله المهدي فانه قد اجتمع بحاشيته وكبار دعاته الذين كانوا في معيته في الرملة وعرض عليهم اقتراحات الحسين بن زكرويه القاضية بضرورة عودته إلى سلمية ، وقال : لقد وعدت الحسين بن زكرويه بالعودة إلى سلمية ، ولكنني نفسياً غير مطمئن لهذه العودة ، إذ لاحظت في عينيه الخبث والمراوغة ، وأخشى أن يخون العهد ، ويضرب بالمواثيق التي قطعها على نفسه عرض الحائط ، فيغدر بنا ، فماذا تقولون ؟

قال الداعي فيروز : أرى أن ندرس الموضوع بدقة وعناية يا مولاي ، ثم تتخذون ما ترونه في هذا السبيل ، ولكنني أفضل يا مولاي أن نواصل المسير باتجاه مصر عندما تتهيأ لنا الظروف . .

قال داعي الرملة : لدينا يا مولاي المزيد من الوقت حتى نكتشف نوايا الحسين بن زكرويه ، فإذا اتصلنا باخواننا الدعاة في حمص وحماه استطعنا بواسطتهم معرفة ما يخبئه الحسين بن زكروية ، ولا بد من إرسال أحد الدعاة المخلصين إلى دمشق ليرافق الحسين ويحصي عليه تحركاته ، فإذا اكتشف من خلال تحرياته أية نية خبيثة مبيتة عاد إلينا وأبلغنا ذلك . . .

قال الإمام عبيد الله المهدي : أنا من جانبي غير مطمئن ، ولكن لا بد لي من مسايرة الحسين بن زكرويه حتى تصلنا الردود من المغرب واليمن والسواد ، فنرى ماذا نفعل في ضوئها. . .

وعندما وصل الحسين بن زكرويه إلى حمص وغلب أهلها ، خطب له على منابرها وكانت الخطباء في الخطبة تقول : اللهم أهدنا بالخليفة الوارث المنتظر المهدي صاحب الوقت أمير المؤمنين المهدي . اللهم املأ الأرض به عدلاً وقسطاً . اللهم دمّر أعداءه . فلما بلغه ذلك أصدر أمره بأن لا يدعوا عليهم بل يدعوا لهم بالهداية والطاعة لأمره وأن يجعل أعداءه له خاضعين وينصره على كل من يعاديه .

ولما استبطأ الحسين بن زكرويه عودة الإمام عبيد الله المهدي إلى سلمية بعد أن انتظره أكثر من خمسة أشهر ، كتب إليه رسالة أرسلها مع أحد المقربين يذكره فيها بوعده ، ويذكر له بأن الأحوال قد استقرت في حمص وحماه . فرد عليه الإمام عبيد الله المهدي يقول : قد أحسنت فيما فعلته ، ولو لم تفعل ذلك ما كنت من شيعتنا وأوليائنا ، وأنا قادم على أثر كتابي هذا إن شاء الله .

ولكن الإمام عبيد الله المهدي بدلاً من أن يعود إلى سلمية رأى أن يتوجه فوراً إلى مصر مع ولده القائم وغلمانه وحاشيته من الدعاة ، فأمر داعي الرملة بأن يعد العدة ويكون قافلة تجارية يحملها بالبضائع من الحرير والديباج ويضع كافة الأموال بين الأحمال وتحت البضائع . وبعد أن ودع الرملة واصل المسير إلى مصر حيث استقبله داعي دعاتها وأنزله في ضيافته وهو مستتراً في زي التجار .

واستمرت إقامة الإمام عبيد الله المهدي وحاشيته في مصر فترة من

الزمن حتى أتت الكتب من بغداد إلى صاحب مصر بصفته والأمر بطلبه ، والقبض عليه ، وكان بعض المقربين من عامل مصر من الدعاة فأسرع إلى الإمام عبيد الله المهدي وأعلمه بالخبر ، فقال الإمام المهدي : لقد فعلها الحسين بن زكرويه ، هذا ما كنت أتوقعه عندما طلب مني العودة إلى سلمية . ثم استدعى اليه حاجبه جعفر وأمره أن يعود إلى سلمية لاستخراج القمقمين اللذين أمره بدفنهما قبل مغادرة سلمية ، وأن لا يعلم أحد به سوى محمد بن عزيز وولده وابن أخ الحاجب جعفر الحسن ، ثم يعود إلى طرابلس حيث يجد الإمام بانتظاره فيها .

وأظهر عبيد الله المهدي مسيره إلى المغرب ، وكان أصحابه يظنون أن قصده اليمن ، وسأل الداعي أبو علي عبيد الله المهدي المسير معه ، ورغب إليه أن لا يفارقه ، ولكنه أمره بالبقاء في مصر إلى الوقت الذي يتهيأ فيه سفره ، ولكن الداعي فيروز الذي كان برفقة الإمام منذ خروجه من سلمية استبعد المسافة إلى المغرب ، فتخلف في مصر ، وسار إلى اليمن حيث أراد أن ينضم إلى داعيها ابن حوشب ، ولكن هذا الداعي اكتشف خبايا نفسه ، وما ينويه من الخداع ، فرفض التعاون معه ، وهدّده بالقتل إذا حاول إغواء الجماعات ، فهرب إلى الداعي علي بن الفضل واستقر عنده حتى قتلهما الداعي ابن حوشب .

أما جعفر الحاجب فانه وصل إلى سلمية وأخرج القمقمين ، ثم هدم البركة ، وقطع الشجرة التي كانت مزروعة على مدخل السرداب خارج قصر الإمام عبيد الله المهدي في سلمية ، وعاد إلى طرابلس حيث وجد القافلة بانتظاره .

خرج الإمام عبيد الله المهدي من مصر ومعه ابنه القائم وبعض

عبيده ، ومعه أموال في الأحمال كثيرة . فابتاع بها بضاعة وجعل الأموال معها في الأحمال وسار في رفقة في زي التجار ، حتى انتهى إلى ناحية الطاحونة فخرج على القافلة اللصوص ، فسلبوا كثيراً من أهلها . وذهب بعض ما كان للمهدي فيها ، وكان أعظم ما ذهب له كتب كان فيها علم من علوم الأئمة . فلما خرج القائم بأمر الله إلى مصر في الغزوة الأولى التي غزاها أخذ الذين قطعوا القافلة برد ما انتهبوا واسترجع الكتب بعينها . وكان المهدي يقول : لو لم تكن هذه الغزوة إلا لرد هذه الكتب لكان ذلك فتحاً عظيماً ، وسر باسترجاعها سروراً عجيباً .

وخرج يوم ذلك السلب مع المهدي أبو العباس محمد بن أحمد ابن زكريا أخو أبي عبد الله ، وكان فيمن قدم مع المهدي . فلما انتهى إلى مدينة طرابلس ، فرق من كان معه عنه ، وأرى الناس أنهم كانوا ، أصحاباً تجاراً ، وقدم أبو العباس إلى القيروان ببعض ما كان معه وأمره أن يلحق به إلى كتامة ، وكان قصده إليها ، ومعه بعض الكتاميين الذين كانوا ينفذون إليه ، فلما وصل أبو العباس إلى القيروان أصاب الكتب قد سبقت إلى زيادة الله بطلب المهدي وصفته لما أفلتهم من مصر ، فأمر زيادة الله بالسؤال عنه . فأخبر بعض من كان في القافلة معه أنه تخلف بطرابلس وذكروا أن أبا العباس من أصحابه . فأخذ ، وقرر ، فأنكر ، وقال : إنما أنا رجل تاجر . فحبس .

واتصل الخبر بالمهدي ـ وهو بطرابلس ـ فصادفته رفقة خارجة إلى قسطيلية ، فخرج فيها . وأتى كتاب زيادة الله إلى عامل طرابلس بطلبه وصفته ، وقد كان هذا العامل قد استعطف المهدي فأهدى إليه بعض التحف الثمينة ، فكتب بأنه قد خرج من عمله ، ونفذ إلى ناحية قسطيلية . ووصل المهدي إلى قسطيلية ، فوافى بها عيداً ، وكانت في

القافلة التي هو بها رجال من بلدان المغرب والزاب وسجلماسة ، وكان قصده إلى أبي عبد الله . فلما انتهى إليه أن أخا أبي عبد الله قد اعتقل وأنه علم أنه من أصحابه ، خاف إن قصد إلى أبي عبد الله أن يتحقق ذلك عليه ، فترك القصد إلى أبي عبد الله وتوجه إلى سجلماسة . ولما شهد المهدي صلاة العيد بقسطيلية ، دعا بعض عبيده فقال له : ويحك ! إن نفسي - والله - حدثتني أنني مطلوب فاذهب إلى مقدم القافلة واقرئه سلامي وقل له : قد قضينا صلاة عيدنا ونحن مسافرون ، وما قطعنا من طريقنا فهو خير ؛ وإن رأيت أن ترحل بنا الساعة فافعل ، وكان إليه محسناً يصله ويعطيه ، فلما جاء رسوله إليه ، قال : والله ! إن هذا الشيء يشتد على الناس ، ولكني ما أرى مراجعة أبي محمد فيما سأله . فضرب الطبل ، ورحل الناس . فلما كان من غدٍ وافى البريد من قبل زيادة الله إلى عامل قسطيلية بطلبه ، فأصابه قد خرج من عمله .

وسار المهدي حتى وصل إلى سجلماسة . فأقام بها . وكل ذلك تلحظه العيون في طريقه وحيثما نزل ، وفي أي مدينة دخل . ويقول كل من رآه ممن له تمييز وبصيرة : والله ! ما هذا تاجر وما هذا إلا سلطان أو ملك من الملوك . وكذلك كان يقول فيه كثير ممن يراه من أهل سجلماسة ، وكان مما يدل عليه أفضاله على من يصحبه ، أو يأتيه ، وما أنزل الله عليه من المهابة والجلالة في عين من رآه . وكان صاحب سجلماسة يومئذ اليسع بن مدرار ، وكان المهدي يصله ويهدي إليه ، فكان لذلك يوجب حقه وتعظيمه إلى أن أتاه كتاب زيادة الله لما اتصل به مصيره إليه ، يخبره أنه هو الذي يدعو أبو عبد الله إليه . فغير ذلك منه عليه . فلما قرب من سجلماسة أبو عبد الله أرسل اليسع بن مدرار إلى المهدي يسأله عن نسبه وحاله وهل إليه قصد أبو عبدالله ،

فاعترف المهدي بنسبه ، ولغزله في ذكر أبي عبد الله ، فقال : ما رأيته ولا أعرفه ، إنما أنا رجل تاجر . فغلظ له في القول فلزم كلامه الأول . فأنزل الله له الهيبة في قلبه والجلالة في عينه فلم يمتحنه بأكثر من أن جعله في دار وجعل عليه حرساً ، وجعل ابنه القائم بأمر الله كذلك في دار أخرى ليفرق بينهما ويختبر كل واحد منهما ، وكان قولهما واحداً .

وأخذ جعفر الحاجب وطيب وأبا يعقوب القهرمان فرمي بهم في السجن ، وعذبوا وضربوا ضرباً شديداً ، ولكنهم أصرّوا على النكران ، والتشدد في الكتمان ، رغم المحاولات الكثيرة التي بذلت بقصد إجبارهم على الاعتراف ، وحاول الإمام عبيد الله المهدي أن يتدخل لتخفيف الضغط عنهم ، ولكن جميع محاولاته باءت بالفشل الذريع .

ولما علم أبو عبد الله بما جرى للمهدي في سجلماسة على يد اليسع بن مدرار ، حشد جيوشه التي بلغ عددها مائتي ألف فارس وراجل ، وخرج في أول شهر رمضان سنة ٢٩٦ هجرية من (رقادة) فاهتز المغرب لخروجه وخافته قبيلة زناتة ، وزالت القبائل عن طريقه ، وجاءته رسلها ودخلوا في طاعته . وكتب أبو عبد الله كتاباً أرسله سراً الى المهدي يبشره فيه بقدومه ، فأدخل رجل قصاب من الإسماعيلية الكتاب الى الدار التي يقيم فيها المهدي وسلّمه إياه .

ولما قرب أبو عبد الله من سجلماسة أرسل رسلا من الخدم إلى اليسع بن مدرار وكتب إليه كتاباً يؤمنه جانبه ويتلطف له فيه ويذكر أنه إنما قدم لحاجة ولم يقدم لحربه ووعده الجميل من نفسه والبر والإكرام ، وأكد ذلك له ، وبالغ فيه فلما وصلت الرسل بكتابه رمي به بعد أن علم ما فيه وأمر بقتلهم فقتلوا ، واتصل ذلك بأبي عبد الله ،

فعاوده ولاطفه خوفاً من أن يكون منه إلى المهدي ما يكرهه ، وأعرض له عن ذكره تقية عليه ، وكان منه آخراً مثل ما كان منه أولاً ولج في طغيانه . فعاوده ثالثة ، فأصر وتمادى على غيّه فاستعان بالله وعبأ عساكره ودنا من المدينة . فخرج إليه اليسع بن مدرار فيمن معه فما لبث أن اقتحمته الخيل في المدينة بعد أن ناوشها ساعة ، وقتلوا من أصحابه جماعة وكان ذلك قرب المساء فاختلط الظلام ، ورجع العسكر فنزل حيث كان .

فلما جن الليل هرب ابن مدرار في بني عمّه وأهل بيته وبات أبو عبد الله ومن معه تلك الليلة في غم عظيم لا يعلمون ما صنع بالمهدي ولم يمكنهم دخول المدينة في الليل ، ولم يعلموا بهرب ابن مدرار حتى أصبحوا . فخرج إليهم وجوه أهل المدينة فاعلموهم بذلك ودخلوا معهم إلى المكان الذي كان فيه المهدي فاستخرجوه واستخرجوا القائم فكانت في الناس مسرة عظيمة استفزتهم وكادت تطيش لهم عقولهم . وقرب لهما فرسان فركباهما ، وحف المؤمنون بهما والدعاة يمشون حولهما . وأبو عبد الله يمشي بين يدي الإمام ويقول : هذا مولاي ومولاكم أيها المؤمنون ، ويحمد الله ويشكره ويبكي من شدة الفرح حتى وصل الإمام الى فازة قد فرشت له فدخل ، وأمر بطلب اليسع بن مدرار فخرجت العساكر في طلبه ، وأقام المهدي الى أن راح النهار فخرج إلى المؤمنين ، وفرش له أمام الفازة وحفوا به يسمعون قوله ، ويبكون ، ويحمدون الله على ما بلغهم إياه من رؤيته وهو في ذلك يثني عليهم ويذكر فضلهم وما أعد الله لهم من جزيل ثوابه ويعدهم بالفضل ويبشّرهم بدرك خير الدنيا والآخرة إلى أن آذن المؤذن بصلاة المغرب فقام فصلى بهم فقرأ في الأولى بفاتحة الكتاب وسورة القدر وفي الثانية بفاتحة الكتاب وسورة « قل هو الله أحد » ، وأتم الصلاة

ودخل الفازة وانصرف الناس .

وأدركت العساكر اليسع بن مدرار ومن هرب معه من أهل بيته ، وأخذوهم وأتوا بهم إلى المهدي . وأمر بضرب اليسع بن مدرار بالسوط فضرب أربعين سوطاً ، وطيف به في العسكر وفي مدينة سجلماسة ،واستصفى أمواله وأموال من أعان عليه وهرب معه من أهل بيته ، وقتله بعد ذلك وقتلهم . وأمن سائر الناس وأهل البلدان ، واستعمل عليهم عاملاً ، وأتته القبائل من نواحيه ففعل مثل ذلك فيهم .

وأقام المهدي بسجلماسة أربعين يوماً ، ثم نهض بجميع العساكر يريد إفريقية . وكانت أخبار أبي عبد الله قد انقطعت على إفريقية وارجفوا به وكثرت الأشانيع عليه . فلم يكن بأوشك من أن قد قدم عليهم البريد بفتح سجلماسة وبما كان من أمر المهدي وبكتاب من أبي عبد الله نسخة ما فيه :

أما بعد فالحمد لله الهادي إلى توحيده بآثار صنعته والداعي إلى معرفته ببراهين حجته الذي سبقت مشيئته وجرى حكمه باعزاز أوليائه الذين نصروا دينه وقاموا بحقه وإذلال أعدائه الذين اعتدوا عليه وكفروا نعمته ، فلم ينصب لأوليائه ناصباً إلا كان طاعناً في الدين الذي نصروا دينه وعدوا للحق الذي أقاموه لأنهم يقدمون الحجة أمام سيوفهم والدعاء قبل مناجزتهم والأناة دون معاجلتهم ثقة منهم بأن المحجوج من فارق سبيلهم والمضلول من خرج من جماعتهم ، فالأناة تظهر حقهم وتكشف باطل أعدائهم ، فمن عاد إلى الحق تلقوا بالقبول إنابته ، ومن أقام على باطله ناجزوه بعد إقامة الحجة ولم يجعل الله لمصر إقالة ، ولا لمعاند مقيم على الذنب توبة ، بل يحل بأسه ونقمته به

« والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً » .

وقد كنت قصدت سجلماسة على بعد شقتها وتراضي مزارها ووعر سبيلها لأقضي حق الله وأؤدي فريضة من فرائضه وأظهر حجة من حججه في أرضه واستنقذ ابن رسول الله من بين أوباش وطغام طلباً لرضوانه وزلفى لديه . فلما دنوت منها قدمت الأمان إلى الخائن اليسع بن مدرار كعادتي في البلدان ونويت أخذ حاجتي منها والانصراف عنها من غير أن أهيج فتنة أو أثير غباراً . وكتبت إليه كتاب الأخ إلى أخيه استعظمه فيه وأؤمنه وأدعوه إلى عقد الإخاء بيني وبينه في إخراج ابن رسول الله رغبة في الإبقاء عليه وعلى مؤازريه . وحفظاً لما ضيعوه . فمنع الخائن جانبه وقطب حاجبه وأظهر الأنفة من دخول رسلي عليه وأمر بقتلهم خلافاً منه لسنة رسول الله وما جرت به العادات في جميع الملل من ترك العرض بالمكروه للرسل .

ثم استظهرت الحجة عليه فأعدت رسلاً إليه طمعاً في إجابته ورجوعه إلى ما هو أسلم له وأعود عليه . فاعتقل الرسل في المطابق وثقلهم بالحديد ، وحبس ابن رسول الله في أضيق المحابس ووكّل به الحرس ومنع من إدخال الطعام إليه فبقي - بأبي هو وأمي - في المحبس أياماً مواصلاً للصيام لعدم الطعام . ثم استصغر فعل نفسه في حبسه إياه في تلك المحابس فنقله إلى أضيق منه . وتواعده بالقتل طلباً منه لدخل رسول الله . فبعثت إليه رسلاً أعده الإمساك عن الحرب والانصراف عنه من غير أن أشرب ماء من مدينته فكلما ازددت عليه إلحاحاً في طلبه زاد إلحاحاً في الامتناع مما حاولته منه عتوًّا على الله وإصرارًا على الكبائر واستكباراً وجهلاً أو خسارا « فخسر الدين والدنيا والآخرة » . ذلك هو الخسران المبين .

فلما رأيت ما عزم عليه الخائن من محاربة الله في ولد رسول الله وأمل فيه أملا كاذباً ولله فيه وعد صادق وظن فيه ظناً خائباً ، ولله فيه قضاء نافذ وأبى إلا التسكع في جهالته والتتابع في ضلالته وآثر إطلاق الحرب من عقالها وإثارة غبارها فهـززت أنصـار الحـق على مناجزتـه فوجدت نيّتهم بالله مستحكمة وبصائرهم نافذة في محاربته فدلفت بهم إليه مستنجزاً ما وعد الله أولياءه في أعدائه وجالت جولة وعاودت كرة بعد كرة عليهم طعناً بالرماح وضرباً بالسيوف ، ورشقاً بالسـهام . فلما مس الفسقة ألم القتل والجراح وأدارت الحرب عليهم رحاها وكلمتهم أنيابها وعلموا أن ليس لهم من الله عاصم ولا من أوليائه موئل ولّـوا منهزمين على أعقابهم . فاخرج الفاسق الخائن راغماً ما كنت طلبت منه راغباً وحجز الظلام بيننا وبينهم . ثم عاودهم أنصار الحق من غد فأخرجوهم وتحكم الأولياء في مدينتهم فاضرموا نار الحرب فيها وجاسوا ديارها ، واتخذ الخائن الليل سجفاً فهرب تحت ظلامه على وجهه إلى بلد السودان لا يلوي على أهل ولا ولـد ، فمنعـت حرمتـه وصنتهـا وأسدلت ستر العافية عليها احتساباً لثواب الله .

ثم قفوت إثر الخائن بنفسي في طلبه عشرة أيام حتى أمكن الله منه بلا عقد ولا عهد فأتيت به في وثاق إلى ولي الله ليكون عظة لأهل الشقاق والنفاق وعبرة للعالمين . والحمد لله المعز لدينه والمكرم لأهـل حقه الذي وصل أسباب السعادة بطاعته وجعل عاجل الفلح والظفر وآجل الثواب والفوز لأوليائه . فإن جادلوا كانت الحجـة لهـم ، وإن حاربوا كان النصر معهم حمداً قاضياً لحقه موجباً لمزيده . وأمير المؤمنين ولي الله وابن رسوله على أفضل ما جرت به عادة الله الجميلة عنده في نفسـه ، وولده ، وأنصار دولتـه ، وهـو قادم على بركة الله وسعادتـه ونصره وتأييده والسلام.

فلما وصل كتابه هذا إلى أبي زاكي وقرأه أمر به فقرىء على المنبر. وسر الأولياء سروراً عظيماً ، وأبطل الله شناعات المشنعين وأكذب أقوال المرجفين . وسارت به الأخبار في البلدان ، وبشرت بظهور المهدي فسر بذلك الولي وكبت العدو واستشرف له عامة الناس وانتظروا قدومه وتطلّعت أعينهم إليه .

وقدم المهدي والقائم معه ، والمهدي يومئذ حين كمل شبابه لم تبد به طالعة من الشيب ، والقائم حين طر شاربه . وقفل أبو عبد الله معه بجميع العساكر قد سلم الأمر له ، وأوقف الدعاة على أنه الإمام الذي دعا إليه وعرف جميع المؤمنين به وقال : هذا مولاي ومولاكم وولي أمركم وإمام هديكم ومهديكم المنتظر الذي كنت به أبشر قد أظهر الله أمره كما وعد وأيد حزبه وجنده ، فأسرعوا إلى لثم ركابه وادخلوا في طاعته تكتب لكم السعادة في الدارين ، فتقدم إليه خلق كثير .

ووصل موكب الإمام عبيد الله المهدي إلى مقر ملكه في رقادة ، بعد أن زال ملك بني رستم من تاهرت ، وأمر أن يخطب له يوم الجمعة وسير الدعاة الى مختلف المناطق يدعو الناس للدخول في مذهبه . وأعلن في مؤتمر كبير عقده لرجال دعوته عن انتهاء دور الستر والتخفي الذي بدأ بالإمام محمد بن إسماعيل ، وبدأت حياة جديدة حيث تولىّ الإمام عبيد الله السلطتين الزمنية والروحية .

قضى الإمام المهدي ست سنوات في تنظيم أموره الداخلية ، وإعداد جيش لجب ليفتح به مصر ، بعد أن انتشرت فيها الدعوة انتشاراً عظيماً على يد الداعي « أبو علي » كما عمل على تنظيم دعاته وحججه في جزائر الأرض ، وأرسل سنة ٣٠١ هجرية جيشاً أوكل قيادته لولي عهده القائم بأمر الله لفتح مصر فاحتل برقة واستولى على

الإسكندرية والفيوم وصار في يده أكثر البلاد . وسير جيشاً آخر عن طريق البحر بقيادة حباسة فاستولى على بعض المناطق المصرية .

وخرج المهدي لتفقد أحوال البلاد ولاختيار مكان صالح لبناء عاصمة لملكه ، فزار تونس ، وقرطاجنة ، ووصل البحر وقد شاهد جزيرة متصلة بالبر كهيئة كف متصلة بزند ، فتأملها فوجد فيها راهباً في مغارة فقال له : بم يعرف هذا الموضع ؟ فقال الراهب : هذا المكان يسمى جزيرة الخلفاء ! فأعجبه هذا الإسم فبناها وجعلها دار مملكته ، وشرع بالبناء يوم السبت الخامس من ذي القعدة سنة ٣٠٣ هجرية ، وشيّد فيها دار لصناعة السفن الحربية الكبيرة ، وجعل لها سوراً محكماً وأبواباً عظيمة زنة كل مصراع ألف قنطار ، وطوله ثلاثون شبراً ، ووزن كل مسمار من المسامير التي استعملت في تركيبه ستة أرطال ، ولم تلبث أن أصبحت مرفأ هاماً ، وفرغ من بناء هذه المدينة التي أطلق عليها اسم المهدية سنة ٣٠٥ هجرية ، وانتقل إليها الخليفة عبيد الله المهدي في شهر شوال سنة ٣٠٨ هجرية ، وأمر المهدي أيضاً ببناء مدينة أخرى بجوار المهدية ، وجعل بين المدينتين ميداناً فسيحاً وأحاطها بسور وأبواب وحراس وسماها (زويلة) نسبة الى إحدى قبائل البربر . . !

وأوجد الخليفة المهدي في مدينة المهدية وغيرها من مدن المغرب مدارس للدعوة ولتخريج الدعاة لنشر الدعوة في كثير من أرجاء العالم الإسلامي ، وخاصة في بلاد الأندلس ، وضاعفت هذه المدارس الجهود المبذولة لتجديد النشاط العقائدي في البلاد التي كان ينتشر فيها المذهب الإسماعيلي من قبل ، كمصر ، والشام ، واليمن ، والبحرين ، والعراق ، وفارس . وعمم المهدي الفقه الإسماعيلي المستمد من تعاليم الإمام جعفر الصادق ، وأمر بأن يقضى بموجبه بين

الناس .

ودلت تنظيات الخليفة عبيد الله المهدي وسياسته الداخلية والخارجية ، على عبقرية نادرة المثال ، فنجح نجاحاً منقطع النظير ، واستطاع بما أوتيه من مقدرة وذكاء أن يدخل في المذهب الإسماعيلي عدداً كبيراً من الأمراء والقواد ، وأصبحت جميع البلدان في قبضته بعد أن أزال دولة الأدارسة وأخضع قبائل كثيرة في المغرب ، ووجه من المهدية حملاته لقتال الروم في إيطاليا وصقلية وسواهما ، وهدد في أخريات أيامه جنوة نفسها ، كما انتصر على أسطول الروم في سردينية .

ووصف أحد شعراء إفريقية المهدية وانتقال الخليفة عبيد الله المهدي اليها فقال :

حططت الرحل في بلد كريم	رعته له الملائكة الكرام
لقد عظمت بأرض الغرب دار	بها الصلوات تقبل والصيام
هي المهدية الحرم الموقّى	كما بتهامة البلد الحرام
كأن مقام ابراهيم فيه	ترى قدميك ان عدم المقام
وإن لثم الحجيج لركن أضحى	لنا بعراص قصركم التثام
لئن شاب الزمان وشاب ملك	دعائمه إذا عجمت حطام
لملكك أيها المهدي ملك	غلام والزمان به غلام
لك الدنيا ونسلك حيث كنتم	فكلكم لها أبداً امام

وبعد أن استقرت الأحوال وتأسست الدولة الفاطمية في المغرب لاحظ الإمام عبيد الله المهدي انحرافاً في سلوك أبي عبد الله بعد أن تولى كافة الأمور بنفسه ، فراح يبحث بواسطة بعض المقربين عن أسباب هذا الانحراف ، فعلم أن شقيق أبو عبد الله أبا العباس قد

عظم عليه الفطام عن الأمر والنهي وداخله الحسد ، فأقبل يزري على المهدي في مجلس أخيه ، ويتكلم فيه وأخوه ينهاه ، فلا يزيده ذلك إلا لجاجاً ، ومما كان يقوله لأخيه : « ملكت أمراً فجئت بمن أزالك عنه ، وكان الواجب عليه ألا يسقط حقك » وما زال به حتى أثر في قلب أبي عبد الله وبات يرقب أن تواتيه الظروف ليحدث المهدي بما يتفاعل في أعماقه.

وذات يوم دخل أبو عبد الله على المهدي فقال له : لو كنت تجلس في قصرك يا مولاي وتتركني مع كتامة آمرهم وأنهاهم لأني عارف بعاداتهم وتقاليدهم لكان ذلك أهيب لك في أعين الناس . فتأكد المهدي أن ما نقل إليه صحيحاً وبات يتحين الفرصة المناسبة للتخلص من أبي عبد الله وشقيقه أبو العباس ومن لف لفهم ممن يحضرون مجلس أبي عبد الله . وأخذ أبو العباس يسر إلى بعض المقدمين والقادة بما في نفسه . . . فأثر قوله في قلوب كثير من الناس ، منهم زعيم من كتامة يقال له : « شيخ المشايخ » فواجه المهدي وحاول أن يخرج عن آداب السلوك تجاه الخليفة فأمر بقتله . . . ولما علم أبو عبد الله بما حل بشيخ المشايخ خاف على نفسه ، فاتفق وأخوه ومن معهما على الاجتماع عند أبي زاكي ، وعزموا على قتل عبيد الله المهدي ، واجتمع معهم قبائل كتامة إلا قليلاً ، فبلغ المهدي ما يبيتونه ، فلاطفهم وفرقهم في البلاد ، وجعل أبا زاكي والياً على طرابلس ، وكتب الى عاملها أن يقتله عند وصوله ، فلما وصلها قتله عاملها ، وأرسل رأسه إلى المهدي .

وأمر عبيد الله المهدي عروبة ورجالاً معه أن يرصدوا أبا عبد الله وأخاه أبا العباس ويقتلوهما فلما وصلا الى قرب القصر حمل عروبة على أبي عبد الله ، فقال : « لا تفعل يا بني » فقال عروبة : « الذي

أمرتنا بطاعته أمرنا بقتلك » فقتل هو وأخوه يوم الإثنين النصف من جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين ومائتين بمدينة رقادة وصلى عليه المهدي وقال : « رحمك الله أبا عبد الله وجزاك خيراً بجميل سعيك » .

يعتبر عبيد الله المهدي من الرجال الذين لا يجود الدهر بمثلهم إلا نادراً . قوي الشخصية ، امتاز بالصبر والجود ، وكان مهيباً يفرض احترامه وتقديره على من يراه ، وسيماً جميل المنظر ، قوي الساعد ، شديد البأس ، توفي بمدينة المهدية بعد أن حكم المغرب أكثر من أربع وعشرين سنة وتوفي وله من العمر نحو ثلاث وستين سنة ، وامتدّ نفوذ الدولة التي أسسها من المحيط الأطلسي غرباً الى بلاد العراق شرقاً ، ومن جبال طوروس شمالاً إلى بلاد السودان جنوباً ، وكانت هذه الدولة مضرب المثل في ازدهار الحضارة الإسلامية ، وفي السياسة والدين والثقافة ، وكانت وفاته سنة ٣٢٢ هجرية ودفن في مدينة المهدية .

الفصل الثاني عشر

معارك آل زكرويه في بلاد الشام والعراق

كانت بلاد الشام منذ قيام آل زكرويه في السواد والسماوة محط أنظارهم ، وهدفاً لتحقيق طموحهم وأطماعهم ، خاصة وان بلاد الشام كانت خاضعة لأمير الطولونيين في مصر ، ويلي أمورها طغج بن جف من قبل هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون .

ولما زحف يحيى بن زكرويه من العراق باتجاه بلاد الشام ، لم يتمكن واليها من الوقوف في وجه يحيى بن زكرويه الذي توالت انتصاراته على حاميات المدن الشامية ،واحدة بعد الأخرى ، وأسرف يحيى وجماعته من البدو في نهب البلاد وسفك الدماء .

وجهز طغج جيوشاً عديدة أرسلها لقتال يحيى بن زكرويه ، ولكنها هزمت في معارك متعددة ، واستطاع يحيى بن زكرويه محاصرة دمشق لمدة سبعة أشهر ، فاضطر سكان دمشق الى مصالحة يحيى بن زكرويه ودفع الجزية له في كل عام . ثم عاد يحيى بن زكرويه إلى حمص فصالحه أهلها ، وسار إلى حماه ومعرة النعمان ، ثم توجه إلى بعلبك فقتل أهلها ، وعاد إلى حلب والرقة ، حيث راح ينظم صفوفه ويحشد قواته ليعاود الغارة مرة أخرى من ناحية الرصافة على دمشق لتشككه في نوايا أهلها ، ومحاولتهم الاستنجاد بمصر وبالخليفة العباسي المعتضد الذي وجه غلامه شبل على رأس جيش جرار إلى الرقة عن طريق الموصل .

وعندما علم يحيى بن زكرويه بقدوم شبل وجيشه ، غادر الرقة متوجهاً نحو دمشق ، فأرسل طغج غلامه بشر على رأس جيش فالتقى بقوات يحيى بن زكرويه على مسافة عشرة أميال من دمشق ، وجرت بين الفريقين معارك ضارية هزم على أثرها بشر وقتل أصحابه ولم يبق

منهم إلا القليل عادوا إلى دمشق ، وحاصر يحيى بن زكرويه بقواته المؤلفة من الاعراب والبدو الذين يقاتلون حباً في الغنائم والأسلاب دمشق وعاهد أتباعه بأنه لن يفك الحصار عنها حتى تستسلم له فيدخلها ويلمر كل ما وصلت يده إليه . وأشرف أهل دمشق على الهلاك ، فاجتمع جماعة من أهل بغداد كانوا يقيمون في دمشق وأرسلوا الى الخليفة المعتضد يطلبون النجدة ، كما أن طغج أرسل إلى مصر يطلب من الطولونيين مساعدته لفك الحصار عن دمشق ، فأمدوه بالجنود والعساكر وعلى رأسهم القائد بدر الحمامي، وجرت بينهم وبين يحيى بن زكرويه معارك طاحنة على أبواب دمشق أسفرت عن مقتل يحيى بن زكرويه وهزيمة أتباعه .

وفي أثناء احتدام المعارك على أبواب دمشق ، وقبل هزيمة أتباع يحيى بن زكرويه ، نظر يحيى بن زكرويه إلى التحولات الجذرية التي أصابت قواته وهزّتها من الأعماق ، فلاحظ أن معارك دمشق تتجه إلى غير صالحه ، فقرر أن يعقد اجتماعاً مع أخويه الحسين والفضل ليتدارسوا الأوضاع القتالية التي وصلت إليها جيوشهم ، وقد ظهرت عليهم دلائل الجمود والتردد كما أن قسماً كبيراً من البدو بدأوا بالتسلل ليلاً من بين الصفوف والعودة إلى البادية ، بعد أن ظهرت لهم قوة الجنود المصريين وإقدامهم ، وقد أصبحوا ضمن فكي كماشة وطوقوا من كل جانب.

وجلس الأخوة الثلاثة في خيمة يحيى بن زكرويه وراحوا يستعرضون وضعهم الخطير الذي أصبح يهدد جيشهم بالفناء والهزيمة الحتمية ، فقال يحيى بن زكرويه وقد ظهرت تباشير القلق على محياه : كما ترون يا أخوتي لقد أصبحنا بين فكي كماشة ، فجيشنا مطوق ، والقبائل البدوية بدأت تتسلل بمجموعات كبيرة هاربة إلى البادية ،

فالهزيمة لا بد واقعة بين صفوفنا بين يوم وآخر ، فماذا ترون ، والأمر على هذه الدرجة من الخطورة ؟

قال حسين بن زكرويه : لا بد من التضحية والفداء والثبات ، فنحن لم نتعلم الهزيمة وكنا دائماً وفي كافة المعارك التي خضناها أشد المقاتلين شجاعة وإقداماً لا نعرف الهزيمة ، فلنواصل القتال ولنحاول إيجادطريقةللخروج من هذا الطوق الذي بدأ يلتف حولنا ، ولا بد من الصمود واختراق صفوف الأعداء بجرأة وإقدام مهما كانت النتائج . . .

قال الفضل : في رأيي أن محاولة اختراق صفوف الأعداء قد تهيء لنا النجاة والخروج من هذه الورطة .

قال يحيى بن زكرويه : إذاً لنقسم الجيش إلى ثلاثة فرق يتولى قيادة كل فرقة واحد منا ، ثم ننطلق بقوة وحزم نحو نقاط الضعف في صفوف الأعداء محاولين اختراقها ، فاذا وفقنا ، استطعنا النجاة ، وإلا فالشهادة أولى . ولا بد لي من أن أعلن لقادة الجيش غداً ، وقبل انطلاقنا أنك يا حسين ستكون خليفتي إذا أصابني مكروه ، وسأطلب من هؤلاء القادة أن يبلغوا الجميع ما عزمت عليه .

قال حسين بن زكرويه : بعد عمر طويل إن شاءالله يا أخي .

وفي صباح اليوم التالي عبأ يحيى جيشه وقسمه إلى ثلاثة فرق تولى قيادتهامع شقيقيهوانطلق على رأس فرقته باتجاه أسوار دمشق ، بينما أخذ الحسين القلب من الجهة الشرقية ، واتجه الفضل على رأس قواته نحو الجناح الأيسر من جيش العدو ، واشتعلت نيران المعركة بقسوة وضراوة ، وكانت الرؤوس تتطاير من كل جانب ، واخترق يحيى

الصفوف محاولاً اختراق صفوف العدو ، ولكنه ما لبث أن سقط مضرجاً بدمائه على أبواب دمشق ، بينما استطاع الحسين والفضل أن يخترقا صفوف الأعداء ، ويخرجا من المعركة بسلام باتجاه البادية .

ولما علما بمقتل شقيقهما يحيى على أبواب دمشق ، وأن فرقته قد أبيدت عن آخرها ، اجتمع الناجون من هذه المعركة الطاحنة حول الحسين بن زكرويه وسلّموه القيادة وزمام الأمور . فتوجه إلى البادية وشرع بجمع الناس حوله فأجابه أكثر أهل البادية من البدو واشتدت عزيمته وقويت شوكته ، وبدأ يعد العدة لمهاجمة دمشق .

وكانت الخطوة التالية للحسين بن زكرويه بعد هذا الاستعداد هي ذهابه إلى دمشق ومحاولته فتحها ، لكنه عدل عن ذلك بعد أن أدى اليه أهلها مبلغاً من المال . وجاءته رسالة من أهالي حمص يقولون فيها للحسين : أقدم علينا ودع دمشق فانا في طاعتك ، فقدم إلى حمص بالعساكر بعد أن ودع دمشق ، إذ رأى بأن دمشق لم تعد تصلح لاتخاذها مقراً للإمامة ومركزاً للدعوة ، لذلك قرر أن يستعيض عنها بحمص ، لأن أهلها كانوا أكثر استعداداً لقبول المذهب الإسماعيلي ، لقربها من مقر الدعوة في سلمية ، ولأن الدعاة كانوا يتخذونها مقراً لنشاطهم ومنطلقاً لدعاتهم في البادية وفي المدن السورية .

هذا بالإضافة إلى البذور التي كان قد زرعها الحسين بن زكرويه في مدينة حمص عندما كان يتردد عليها وهو طالب في مدرسة الدعلة في سلمية ، فإن تلك البذور قد نبتت وأينعت وحان قطاف ثمارها الناضجة منذ فترة طويلة .

ولما وصل الحسين بن زكرويه إلى حمص استقبل استقبال الفاتحين وجاءته الوفود من كافة المدن المجاورة تبارك انتصاراته وتعلن

عن تأييدها له ، وأقيمت له الخطب في كافة المساجد ، ثم قصد سلمية ، وخرب كثيراً من البلاد في طريقه إليها ، وخافه أهلها ، ولم يسمحوا له بدخول المدينة ، فاضطر إلى النزول مع عسكره خارجها.

وأتاه وفد من أهلها للتفاوض وطلب الأمان ، وكان من بين أعضاء هذا الوفد جماعة من الهاشميين أقرباء العباسيين وكذلك جماعة من الدعاة وأقرباء الإمام عبيد الله المهدي . فاحتجز الهاشميين من دونهم ، ولم يفرج عنهم إلا بعد شفاعة الدعاة وأقرباء المهدي فيهم . وتصادف أن وقع في يد الحسين بن زكرويه بعض الرسائل التي كان هؤلاء الهاشميون قد بعثوا بها الى بعض رجال الدولة في بغداد يستنجدونهم للقضاء على الحسين بن زكرويه ، مما أثار غضب الحسين ابن زكرويه فنكل بهم أشد تنكيل .

ولما استبطأ الحسين بن زكرويه عودة الإمام عبيد الله المهدي إلى سلمية استدعى داعي دعاة حماه أبو علي وقال له : أنت تعلم يا أبا علي بأن مولانا الإمام المهدي قد وعدنا بالقدوم إلى سلمية بعد أن اجتمعنا به في الرملة وتفاهمنا على أن نمهّد له الأمر لإقامة الدولة الإسماعيلية المنشودة ، ولما أخذنا حمص أقمنا الخطبة باسمه وأعلمناه بالأمر فكتب الينا يعلمنا بأنه قادم الينا ، ولكنه حتى الآن لم يحضر فهل لك أن تفيدنا عن أسباب عدم قدومه علينا ؟

قال الداعي أبو علي : الذي أعلمه بأنه لا يزال في الرملة ، فإذا وعد بالعودة إلى سلمية ، لا بد وأنه عائد في الوقت المناسب . . .

قال الحسين بن زكرويه : يبدو لي بأن الإمام المهدي ينوي أن يتوجّه إلى مكان آخر ، وليس وعده لي إلاّ مماطلة وتسويفاً ، لذلك قررت أن أدخل هذا اليوم قصره في سلمية للاجتماع بأهله والتفاهم

معهم حول عودة الإمام . فاذهب يا أبا علي إلى القصر واطلب لي اذناً بالدخول . . !!

قال الداعي أبو علي : أرى أن تؤجل دخولك حتى تأتينا أخبار الإمام من الرملة ، فلقد عولت على مراسلته اليوم . . !

قال الحسين بن زكرويه : لا بد من الدخول هذا اليوم فاجمع الأهل والأقارب وسأكون عندكم في المساء . . !

توجه الداعي أبو علي إلى قصر الإمام المهدي في سلمية وأبلغ أهل الإمام بأن الحسين بن زكرويه يصر على الاجتماع بهم مساء في القصر ، وقد لاحظ تباشير الغضب على محياه ، لذلك فهو ينصحهم باخفاء ما لديهم من أموال ، وإبعاد الأطفال والنساء من طريقه ، خشية أن يغدر بهم . فأبلغوه بأنهم قد اتخذوا كافة الاحتياطات الكفيلة بالمحافظة على ما لديهم من أموال ومتاع ، كما وأنهم قد أخفوا أبواب السرداب وغمروه بالتراب وزرعوا حوله الزهور والأشجار .

وبالفعل وصل موكب الحسين بن زكرويه إلى قصر الإمام في سلمية فاستقبله على المدخل داعي الدعاة أبو علي ، والداعي الحسين ابن الأسود ، وبعض أقارب الإمام المهدي وخدمه وغلمانه . ودخل الحسين بن زكرويه إلى القاعة المخصصة لمجلس الإمام ، وأمر الداعي أبو علي أن يقدم اليه سكان القصر الواحد تلو الآخر ، بما فيهم الخدم والجواري ، وكان يلاطفهم ويحاول استدراجهم لمعرفة الجهة التي سافر اليها الإمام المهدي ، ويسألهم فرداً فرداً عن الأماكن التي أودع فيها أمواله . وكانت الإجابات منسجمة ومتفقة وهي أنهم لا يعلمون بتحركات الإمام لأنها سرية وفق انظمة الدعوة ، حرصاً على سلامة الإمام . أما الأموال التي يسأل عنها فليس لهم علم بوجود أي مبلغ

مخبأ في القصر.

ولما انتهى من استجواب جميع من في القصر سأل الداعي أبو علي إذا كان هناك أي ساكن من سكان القصر لم يقابله ؟ فأجابه الداعي أبو علي قائلاً : لا يوجد إلاّ جارية الإمام المهدي لعب وهي مريضة وموجودة في غرفتها . . .

فقال الحسين بن زكرويه : أتوني بها وإذا كانت لا تستطيع الحراك احملوها إليّ فوراً.

فقال الداعي أبو علي : انها مريضة وطاعنة في السن ألا ترحم ضعفها وتتركها وشأنها ؟

فقال الحسين بن زكرويه : علي بها فوراً مهما كانت أوضاعها . .

ولما حضرت الجارية لعب وهي محمولة على أكتاف الخدم ، سألها الحسين إن كانت تعلم أين يخبىء الإمام المهدي أمواله ، وإلى أية ناحية قصد ؟

فقالت الجارية لعب : أراك تسأل بشغف عن المال يا حسين . . ألا تعلم بأن جميع ما يملكه مولانا ليس ملكاً له بل هو ملك للدعوة ينفقها الدعاة على نشر الدعوة . وأموال الزكاة كما تعلم يا حسين حرام لمسها والتلاعب فيها ، والله لو كانت تحت قدمي هذا لما أعلمتك بها . .

قال الحسين بن زكرويه : سأجبرك على الاعتراف بالقوة . . . !

قالت لعب : إذا كان الإيمان قد خرج من قلبك فافعل ما تريد يا بن زكرويه . . !

وبعد أن فشلت جميع محاولات الحسين بن زكرويه لمعرفة المكان

الذي خبأت فيه أموال الإمام المهدي، أمر بوضع جميع سكان القصر في قاعة واحدة، وأوعز إلى مرافقيه أن يقتلوهم ويقطعوا أوصالهم جميعاً ويرموا جثثهم في أحد دهاليز القصر، ومتى فرغوا من مهمتهم عليهم أن يشعلوا النار في القصر ويغادروه .

وقبل أن يغادر الحسين بن زكرويه القصر استدعى الداعي الحسين بن الأسود وقتله شر قتلة ، ثم تبعه بالداعي أبو علي وبقية الأطفال والنساء والشيوخ والغلمان ولم يخرج من القصر من فيه جسد يتحرك ، أو عرق ينبض بالحياة . ثم أمر أتباعه بأن يقتلوا كل من يعثروا عليه في البلدة من الشيوخ والأطفال والنساء والبهائم ، وخرج من سلمية وليس فيها عين تطرف .

وهكذا ساعدت الظروف الحسين بن زكرويه ، فثبت أقدامه في بلاد الشام ، وخطب له على منابر حمص ، وكان يخاطب أتباعه ممجداً نفسه بالألقاب العظيمة قائلاً : « من عبد الله أحمد بن عبد الله المهدي ، المنصور بالله ، والناصر لدين الله ، القائم بأمر الله ، الحاكم بحكم الله ، الداعي إلى كتاب الله . وزعم بأنه الإمام المنتظر الذي تروج الدعوة الإسماعيلية باسمه .

ولما بلغ أهل دمشق مزاعمه لقبوه بالقرمطي وسموا أتباعه بالقرامطة تحقيراً لهم لإبعاد الناس عنهم وعن عقيدتهم ، مما جعل المؤرخين يذهبون في هذه التسمية وأصلها وفصلها مذاهب شتى لا تنسجم مع الواقع والحقيقة فهي كلمة تحقيرية أطلقها أهل الشام فسارت في الآفاق تفعل فعل النار في الهشيم ، ولا تزال حتى اليوم مدار بحث ومناقشة وتحليل بين العلماء والباحثين ، لم يتفقوا على رأي واحد . بل تعددت الآراء وتنوّعت التسميات واشتقاقاتها .

ولما وصلت أخبار انتصارات الحسين بن زكرويه في بلاد الشام إلى مسامع الخليفة العباسي المكتفي مع كتب أهل الشام ومصر وفيها بث شكواهم وما يلقونه من القرامطة من القتل والسبي والأسر وتخريب البلاد . أمر الخليفة الجند بالتأهب والاستعداد وخرج من بغداد في سلخ رمضان وسار إلى الشام وجعل طريقه على الموصل ، وقدم بين يديه أبا الأغر بعشرة آلاف رجل فنزل قريباً من حلب فكبسهم الحسين ابن زكرويه وقتل منهم خلقاً كثيراً وسلم أبو الأغر ، فدخل حلب ومعه ألف رجل . وتقدم الحسين بن زكرويه إلى باب حلب فحاربه أبو الأغر وأعانه أهل حلب فاستطاع أن يرد الحسين بن زكرويه على أعقابه.

ونزل الخليفة العباسي في الرقة على نهر الفرات ، وبعث إلى الحسين بن زكرويه جيشاً بقيادة محمد بن سليمان الذي قاتلهم بعنف على بعد عشرة أميال من مدينة حماه ، فأسقط في أيدي الحسين بن زكرويه ، ولم يجد مفراً من الهروب ، وأمر أخاه أبا الفضل أن يذهب إلى البادية ليتحصن بها حتى يظهر هو بمكان آخر فيقدم عليه ، وتوجه الحسين بن زكرويه هارباً إلى العراق بعد أن مزق أتباعه شر ممزق ، وهرب من سلم منهم نحو البادية ، فأرسل الخليفة في أثرهم الحسين ابن حمدان وغيره من القواد .

ولم تكن نتائج هذه المعركة متوقعة بالنسبة لآل زكرويه الذين كانوا يعتبرون أنفسهم أكبر قوة ضاربة في بلاد الشام ، تستطيع أن توجه ضربتها إلى أية مدينة من المدن السورية دون أن تلاقي أية مقاومة.

ولربما كان سبب هذه الهزيمة الشنعاء بعض العناصر البدوية التي انخرطت في جيش الحسين بن زكرويه بقصد النهب والسلب ، فلما

لاحظت هذه العناصر بأن الدائرة ستدور عليهم ولوا الأدبار ، مما خلف بلبلة في صفوف أتباع الحسين بن زكرويه ، ولم يبق معه إلاّ اقربائه الذين نصحوه بالفرار قبل أن تدور الدائرة عليهم .

ومما لا شك فيه بأن العناصر المؤمنة المخلصة التي انضمت الى الحسين بن زكرويه قد هالها إقدام الحسين بن زكرويه على قتل أهل الإمام وأطفالهم ، فتزعزع إيمانهم به واعتبروه خارجاً على الدعوة ، لذلك عمدوا إلى الانفضاض من حوله أبان اشتداد أوار المعركة بجوار حماه ، وهكذا كان .

وبهذه السهولة فشلت مخططات آل زكرويه في تكوين دولة يتوارثها الآباء عن الأبناء ، وكان من أهم أسباب فشل آل زكرويه في تحقيق طموحهم مخالفتهم الصريحة لأوامر الإمام عبيد الله المهدي ، الذي حاول نصحهم عدة مرات بالابتعاد عن العناصر البدوية التي لا هدف لها إلا النهب والسلب والقتل والتخريب ، والعودة إلى حظيرة الدعوة والاعتماد على الأتباع المخلصين .

ولكن آل زكرويه ضربوا بنصائح الإمام عرض الحائط وحاولوا استدراجه إلى سلمية للتخلص منه ، وبعد أن فشلوا باقناعه بالعودة إلى سلمية ، عمدوا إلى قتل أهله وذوي قرباه وكبار دعاته وأشعلوا النار في قصره انتقاماً منه .

ومما لا جدال فيه بأن الاهتمام الذي أبداه الخليفة العباسي المكتفي بتتبع تحركات آل زكرويه ، والخروج بنفسه لقتالهم كان له أكبر الأثر في إضعاف قواهم العسكرية والقتالية ! خاصة وان مراكز نشاطهم كانت على مقربة من مقر الخلافة العباسية في بغداد ، مما سهل مهمة

العباسيين في القضاء عليهم ، بعكس بقية دعاة الإسماعيلية الذين ظهروا في مناطق بعيدة عن حاضرة الخلافة العباسية .

وسار الحسين بن زكرويه بابن عمه المدثر والمطوق صاحبه وغلام له رومي إلى الكوفة عرضاً في البرية فانتهى إلى الدالية وأرسل بعض من كان معه ليأخذ له ما يحتاجون إليه من زاد ، فدخل الدالية المعروفة بدالية ابن طوق ليشتري لهم بعض حوائج فاشتبه به بعض أهل الناحية فقبضوا عليه وأخذوه إلى الوالي المدعو بأبي خبزة خليفة أحمد بن محمد بن كشمرد فسأله عن حاله فأخبره أن الحسين بن زكرويه أرسله إلى البلدة لشراء بعض الحوائج ، وهو يكمن وراء رابية خارج البلدة ومعه ثلاثة رجال ، فأرسل الوالي جنده فطوقوا الحسين بن زكرويه وصحبه وأحضروهم إلى الوالي الذي أرسلهم بدوره إلى الخليفة بالرقة ورجعت الجيوش من طلبهم .

ولما مثل الحسين بن زكرويه بين يدي الخليفة وهو مكبل بالحديد ، سأله الخليفة المكتفي عن أسباب ثورته ، وعن الجرائم التي ارتكبها في طول البلاد وعرضها ، قال : لست من أهل الزعامة ، ولا من طلاب الرئاسة والحكم ، ولا من أولئك الذين تسميهم قرامطة ، وإنما أمرني بالخروج إمام الزمان عبيد الله المهدي ، الذي يقيم في سلمية مع حاشيته ودعاته ، ويرأس الدعوة الاسماعيلية وله دعاة وأنصار في جميع أنحاء العالم الإسلامي ، ولقد حققت دعوته انتشاراً وازدهاراً في كل من المغرب واليمن ، وهو يهدف من وراء ثورتي في بلاد الشام إلى الاستيلاء على السلطة وتقويض دعائم الخلافة . . .

قال الخليفة المكتفي وقد علت وجهه مسحة من الاستغراب والجزع : هل بإمكانك يا حسين أن تصفه لي ؟

قال الحسين بن زكرويه وقد ظهرت على شفتيه ابتسامة خبيثة : بكل دقة يا مولاي ، فهو في شرخ الشباب أشقر طويل القامة جميل الوجه عريض المنكبين ، عيناه زرقاوان ، تتربع فوق خده الأيمن شامة . . واستمر الحسين بن زكرويه يعدد صفات عبيد الله المهدي بدقة واتقان ، بينما راح الخليفة يدون هذه الصفات بعناية واهتمام . ثم قال : قل لي يا حسين لماذا تعطينا صفات عبيد الله المهدي بهذه الدقة وأنت من دعاته المقربين ، الذين قدموا للدعوة خدمات كبيرة ؟

قال الحسين بن زكرويه : الخدمات التي قدّمناها نحن آل زكرويه منذ فترة طويلة للدعوة أكثر من أن تحصى أو تعد ، ولكن عبيد الله المهدي قد أدار لنا ظهر المجن ، ومنح ثقته لدعاة غرباء عن هذه الديار من الأعاجم ، وهم لا يستحقونها ، لذلك حقدنا عليه وحاولنا الإيقاع به ، ولكنه عرف بنوايانا فتوارى عن الأنظار ، ولا نعلم أين توجه بعد أن قابلته في الرملة منذ فترة . . .

قال الخليفة المكتفي : لقد كان إمامك على حق رغم حقدي عليه وعدم معرفته ، ولو كنت مكانه لما فعلت إلاّ مثل ما فعل ، سيكون عقابك شديداً يا حسين لتكون درساً تتعظ به الأجيال القادمة . . .

وأمر الخليفة المكتفي بالمسير إلى بغداد ، وطوف بالحسين بن زكرويه وأصحابه بالمدينة ، ثم وضعوا في سجن بغداد ، وعاد الى بغداد محمد بن سليمان ومعه الجند ومن ظفر بهم من أتباع الحسين بن زكرويه ، فأمر الخليفة العباسي بقطع أيديهم وأرجلهم ورؤوسهم ، وأخرج الحسين بن زكرويه وأصحابه من السجن فشنع بهم ، وقطعت رؤوسهم ، وضرب الحسين بن زكرويه مائة سوط وقطعت يداه وكوي فغشي عليه فأحرقوا خشباً وجعلوه على خواصره فصار يفتح عينيه

ويغمضهما فلما خشوا موته ضربوا عنقه ورفعوا رأسه على خشبة ونصبوها على الجسر.

أما أبا الفضل بن زكرويه فقد رحل إلى البادية الشامية حيث التف حوله كثير من القرامطة ، فاشتد بهم ساعده ، وتمكن من دخول طبرية ، واحتلال بعض المدن الشامية ، وأصبح وجوده في بادية الشام كقوة ضاربة يشكل خطراً كبيراً على الخلافة العباسية ويهدّد مصيرها ، ويقلق راحتها ، ولم يكن أبا الفضل ليستقر في ناحية معينة من البلاد بل كان سريع الحركة والتنقل بأتباعه من مكان إلى مكان يشن الغارات ويغزو المدن وينهب ويقتل من يقع في طريقه ، فاضطرب الناس وخافوا شرّه .

كان الحسين بن زكرويه قبل إلقاء القبض عليه قد أناب عنه القاسم بن أحمد وادعى لأصحابه أنه مضطر للذهاب إلى بغداد لأن أهلها أقروا له بالبيعة وأرسلوا اليه يطلبون قدومه ويحثونه على انتهاز فرصة رحيل المكتفي عن بغداد إلى الرقة . ولكن أتباعه لم يخلصوا النية لنائبه ، ولما أيقن القاسم من انفضاض أتباع الحسين بن زكرويه من حوله ، هرب إلى السواد حيث قابل زكرويه بن مهرويه وأطلعه على سوء نية القرامطة في بلاد الشام ، فلامه زكرويه على هروبه وتخليه عن القيادة والزعامة ، وأرسل لهم داعياً جديداً يعرف بأبي غانم نصر ابن عبد الله بن سعيد .

استطاع أبو غانم أن يخلق القلق والبلبلة في بلاد الشام ، وتمكن من تخريب عدة مدن وقتل كثيراً من أهلها ونهب أموالهم ، وانضم اليه بعض جند الشام لافتتانهم به ، فألحق الهزيمة بالجيش العباسي وقتل قائده يوسف بن ابراهيم . ولما أدرك الخليفة المكتفي خطر أبي غانم

وأتباعه ، أرسل اليهم الحسين بن حمدان على رأس جيش جرار ، فقصد دمشق ، وكان القرامطة وقتذاك قد توغلوا في البادية وأخذوا يغورون الماء وراءهم ، فعجز القائد العباسي عن متابعتهم . واتجه بمن معه من جنود إلى الرحبة .

وقصد القرامطة قرية هيث فنهبوا ربضها وقتلوا أهلها ، وحملوا ما نهبوه منها على ثلاثة آلاف دابة . ولم يطل أبو غانم اقامته بها إذ توغل من جديد في البرية واتجه نحو « المائين » فارسل المكتفي الجيوش في أثرهم مزودة بالدواب التي تحمل الماء ، فأحاطت بالقرامطة من كل ناحية ، فلما أدرك أنصار الداعي أبي غانم ما سوف يحل بهم انقضوا عليه وقتلوه ، ثم تقدّموا برأسه إلى الخليفة العباسي .

ويظهر من الوقائع والمعارك التي خاضها أبي غانم في أنحاء بلاد الشام أنه كان يرمي إلى إثارة الرعب في قلوب الناس ، إذ أنه لم يهدف من وراء معاركه إلى الاستقرار في أي بلد يتم له احتلالها ، بل كان يكتفي بتخريبها وقتل أهلها ، لذلك ضاعت جهوده الحربية سدى ، ومما زاد موقفه حرجاً تخلي أتباعه وانفضاضهم من حوله أثناء المعركة خوفاً من بطش العباسيين، ووصل الأمر الى حد قتله على يد أحد أتباعه المقربين إليه .

ولقد أدى مقتل أبي غانم إلى انقسام أتباعه من القرامطة بين مؤيد لمقتله ومعارض أعلن سخطه ونقمته على القاتل ، مما كان سبباً في ضعفهم وتشتتهم ، فتمكّن الحسين بن حمدان أحد قواد الخليفة العباسي من التنكيل بهم ، كما اضطر كثير منهم الى طلب الأمان من الخليفة المكتفي وإعلان التوبة .

وكنتيجة حتمية لهذه الهزائم التي مني بها القرامطة في بلاد الشام

وتفرق شملهم ، عزم زكرويه بن مهرويه على مواصلة القتال ونقل نشاطه الحربي الى العراق بالذات خاصة بعدما فقد في بلاد الشام أولاده وكثيراً من الأتباع . وأخذ زكرويه يتصل بأنصاره في بلاد الشام ويطلب منهم القدوم الى العراق ، فاستجابوا له ، والتفوا حوله بزعامة القاسم بن أحمد .

ويبدو أن زكرويه بن مهرويه كان يعد خطة سرية للإستيلاء على مدينة الكوفة ، فلما وصل القاسم بن أحمد وأتباعه ، عقد زكرويه بن مهرويه اجتماعاً حضره القاسم بن أحمد وبعض زعماء القرامطة ، وتداولوا في أمر تحركاتهم الجديدة بعد الهزائم المتلاحقة التي حلت بهم في بلاد الشام ، فقال زكرويه بن مهرويه : الهزائم التي حلت بنا كانت نتيجة حتمية لتفرق صفوفنا ، وعدم تضامننا ، لذلك أطلب اليكم رص صفوفكم وتوحيد كلمتكم ، والعمل بجد واخلاص لمواصلة القتال ، ولتكن انطلاقتنا الأولى إلى الكوفة لاحتلالها والقضاء على حاميتها من الجنود ، وإخراج أتباعنا من سجونها ، لأننا بحاجة ماسة لجهود كل فرد من أتباعنا . . .

قال القاسم بن أحمد : وكيف نهاجم الكوفة ويقوم على حراستها عدد ضخم من الجنود الأتراك ؟

قال زكرويه بن مهرويه : سيكون هجومنا صباح يوم العيد بينما يكون الجميع مشغولون بالصلاة ، فنباغتهم من كافة الجهات ، وعليك يا قاسم أن تتوجه مع مائة مقاتل إلى سجن البلدة فتطلق سراح المسجونين وتعود إلى أمام الجامع لنزحف سوية باتجاه قصر الوالي إذ لم نجد الوالي يؤدي الصلاة في الجامع الكبير . .

وزحفت جحافل القرامطة بقيادة زكرويه على الكوفة ، فتوجه

القاسم بن أحمد برجاله إلى السجون ففتح أبوابها وأطلق السجناء ، ثم عاد إلى باحة الجامع الكبير فوجد الناس قد خرجوا من الصلاة وراحوا يرشقون القرامطة بالحجارة ، بينما كان زكرويه يخترق الصفوف وهو يقول : « يا لثارات الحسين » بقصد إثارة العناصر الشيعية ، ولكن أهالي الكوفة حملوا السلاح وبادروا القرامطة بالقتال ، مما أجبرهم على الفرار .

ولما فشل هجوم القرامطة على الكوفة توجهوا إلى القادسية وحاولوا الاستيلاء عليها ، لكنهم ما لبثوا أن عدلوا عن تلك المحاولة ، عندما علموا أن والي الكوفة قد أنذر أهل القادسية وحذرهم من خطر القرامطة ، فولّوا وجوههم شطر قرية الصوار . وأخذوا يعدون أنفسهم لمعارك جديدة .

وعندما علم الخليفة بهجوم القرامطة على الكوفة أمر بانفاذ جيش اليهم على وجه السرعة ، وطلب تجهيزه بكل ما يحتاج اليه من الأموال والسلاح والعتاد ، وعهد الى كبار قواده بقيادته من أمثال وصيف بن صوار تكين التركي ، وبشير الخادم الأفشيني ، والفضل بن موسى بن بغا ، ورائق الخزري . ووصلت طلائع هذا الجيش الى الكوفة بعد ستة أيام من هجوم القرامطة عليها ، وهناك عرفوا أن القرامطة قد عادوا الى قرية الصوار ، فواصل الجيش العباسي مسيره ، ولم يعبأ قواده بنصائح والي الكوفة الذي حذّرهم من الاستهانة بأمر القرامطة بقوله : « سيروا الى القادسية فان بينكم وبينها مرحلة ، وإذا صرتم بها فأريحوا واستريحوا وتجمعوا ثم سيروا اليهم وطاولوهم ونازلوهم فان الظفر يرجى بذلك عندي ، ولا ترموا بأنفسكم اليهم ، فانهم يصبرون عند اللقاء وغير أنكال . فقال له بشير الأفشيني : إن رأيناهم كفيناك القول يا أبا يعقوب ، إنما نخشى أن يهربوا » ، ولقي

الجيش العباسي أثناء مسيره كثيراً من المتاعب ، فالتقى بالقرامطة وهو تعب منهوك غير معبأ ، ومع هذا فقد حقق بعض الانتصار في الجولة الأولى وانشغل أفراده باقتحام المنازل وسلب ما فيها من غنائم ، فأعاد القرامطة عليهم الكرة ، فلم يشعروا إلا والسيف فيهم ومن ورائهم ، وانهزموا أقبح هزيمة ، وقتل منهم ما يزيد على الألفي رجل ، ولم ينج منهم إلا من كانت دابته قوية ، أو أثخن بالجراح فاختفى بين القتلى ، ثم ولى هارباً بعد انفضاض المعركة .

ولقد أدى انتصار القرامطة على الجيش العباسي إلى ردة فعل قوية حيث التف جميع القرامطة في السواد حول زكرويه بن مهرويه ، واندفعوا بقوة يشنون الغارات ويسفكون الدماء ، ويدمرون كل ما تقع عليه أيديهم ، مما زاد الخوف في كافة البلاد .

واندفع القرامطة بعد أن جمعوا صفوفهم واستفادوا من الغنائم التي تركها الجيش العباسي المنهزم باتجاه الصحراء يحدوهم الأمل في تحقيق المزيد من الانتصارات التي تثبت مدى ضعف الخلافة العباسية وعجزها عن الوقوف في وجههم .

استقر القرامطة بمكان في الصحراء يعرف « بالسلمان » على بعد أربعة أيام من « واقصة » إحدى المحطات الرئيسية للحجاج قرب مكة ، وترصدوا أول قافلة عابرة للحجاج ، غير أن هذه القافلة استطاعت الإفلات من براثن القرامطة لأن أهل « واقصة » حذروا رجالها . فلما علم زكرويه بما فعله أهل « واقصة » انتقم منهم شر انتقام ، وسامهم أشد العذاب ، ثم ارتحل زكرويه نحو زبالة وأغار في طريقه على جماعة من بني أسد ، ووصلت العساكر بأمر الخليفة من بغداد إلى عيون الطف فبلغهم مسير زكرويه من السلمان فانصرفوا

وسارت مفرزة من فرسان الجيش العباسي ونزلت واقصة بعد أن جازت القافلة الأولى من الحجاج .

وبينما كان زكرويه يتجول بالصحراء رأى قافلة الحجاج القادمة من خراسان في عقبة الشيطان وهم راجعين من مكة فحاربهم حرباً شديدة ، فلما رأى شدة بأسهم وأنه لا طاقة له بهم سألهم هل فيكم نائب السلطان فأجابوه بالنفي ، فقال : لست أريدكم ، وقد اطمأنوا لقوله وساروا فكر عليهم من سيرهم وأعمل فيهم السيف فلم ينج منهم أحد إلاّ الشريد ، وغنم زكرويه ما كان معهم من زاد ومال وسبى النساء وشنع بالشيوخ والأطفال . ولقي بعض المنهزمين غيلان ابن كشمرد فأخبروه بالواقعة وقالوا له ما بينك وبينهم إلا القليل و ر رأوك لقويت نفوسهم فالله الله فيهم . . . فأجاب غيلان بن كشمرد قائلاً : لا أعرض جيش الخليفة للقتل ، ولست على استعداد لمقابلة هؤلاء في قلب الصحراء المحرقة . وكر راجعاً مع أصحابه .

وأرسل من نجا من الحجاج الى رؤساء القافلة الثالثة يحذرونهم وأعلموهم بما جرى لهم من زكرويه وأتباعه ، ونصحوهم بالعدول عن المجيء من هذا الطريق ، والرجوع إلى فيد والمدينة الى أن تأتي جيوش الخليفة لتؤمن لهم الحماية ، ولكنهم لم يتعظوا وواصلوا المسير على نفس الطريق . وسارت القرامطة من العقبة بعد قتل الحجاج وما غنموه وسبوه من النساء فسدوا الآبار التي على الطرق والبرك بالجيف والرمال والأحجار بواقصة والثعلبية والعقبة وغيرها من المسالك في جميع الطرق التي يسلكها الحجاج والقوافل التي تعبر الصحراء ، وأقاموا في منطقة الهبير ينتظرون القافلة الثالثة ، فلما حضرت قاتلها زكرويه ثلاثة أيام وهم بدون ماء ، فاضطروا للتسليم لشدة ما بهم من العطش فوضع زكرويه فيهم السيف وقتلهم عن بكرة أبيهم ولم ينج منهم

أحد ، وجمع القتلى كقمة جبل ، وأرسل خلف من انهزم يبذل لهم الأمان ، فلما حضروا قتلهم ، وأحصي عدد القتلى في تلك المعركة فبلغ عشرون ألفاً .

وجملة ما غنمه زكرويه من هذه المعركة مائة ألف ألف دينار ، وكان في جملة ما أخذه أموال الطولونية لأنهم عندما عزموا على الانتقال من مصر إلى بغداد خافوا أن يستصحبوها فتؤخذ منهم فعملوها سبائك وجعلوها في حدائج الجمال ، وجميع ما لهم من الحلي والجواهر ، وأرسلوا جميع هذه الأموال إلى مكة سراً ، وكان جميع مالهم في هذه القافلة فأخذت .

وبعث زكرويه يستطلع جند الخليفة الذي كان بالقادسية ، وأقام ينتظر وصول من كان في الحج من عسكر الخليفة وأصحابه ، وكانوا مقيمين بفيد منتظرين الأخبار ، أي أخبار زكرويه وهل تعرض للحجيج ؟ وكان معهم جماعة من التجار وأرباب الأموال ، فلما بلغهم خبر القافلة الثالثة وما جرى لها من قبل زكرويه وأتباعه ، جلسوا ينتظرون وصول النجدات من عند الخليفة .

ولكن زكرويه بعدما حقق من انتصارات في المعارك التي خاضها في البادية رأى أن يهاجم جند الخليفة بفيد ، فعمد إلى سد كافة الآبار وردم البرك الموجودة في طريقه إلى فيد ، وحاصر الجند والحجيج وضيق عليهم ، فاحتموا بالحصنين اللذين بفيد ، فانذرهم زكرويه بالتسليم وهو على استعداد لتأمين سلامتهم ، ولكنهم رفضوا الاستجابة إلى تهديداته ، فحاصرهم عدة أيام ، ثم رحل عنهم إلى النباح ثم إلى حفر أبي موسى .

ومن الملاحظ أن الخليفة العباسي قد بذل كل ما في وسعه لإنقاذ

الحجاج وحمايتهم من زكرويه وأتباعه من البدو والمرتزقة ، فسير الجيوش تباعاً لهذا الغرض ، ولم يبخل عليها بالمال والعتاد ، بل أنفذ محمد بن داود الجراح إلى الكوفة ، وكان يلي داواوين الخراج والضياع ، وقال له : كلما قرب نفاذ ما معك كاتبني لأمدك بالأموال . لكن هذه الجيوش لم تقم بواجبها على أكمل وجه ، كما وان بعض القوافل لم تستجب الى تحذير قواد العباسيين لها بضرورة عدم السير في الطريق المعتاد ، لعدم ثقة أصحاب القوافل بهم ، مما جعلهم يتعرضون لمهاجمة زكرويه لهم .

ولقد استفاد زكرويه بن مهرويه من المعارك التي خاضها مع الحجاج واستطاع أن يكون قوة ضاربة أصبحت تهدد كافة المناطق والبلدان الواقعة على طريق الحجاج ، وتدخل الهلع والرعب في النفوس . ولما انتهى موسم الحج قرر زكرويه أن يبحث عن مكان يأوي إليه مع أتباعه حتى الموسم القادم ، فعقد اجتماعاً لكبار قادته ومعاونيه وعرض عليهم فكرة البحث عن مكان يتخذوه مقراً دائماً لهم بدلاً عن التجول في الصحراء ، وقال : اعلموا بأن موسم الحج قد انتهى لهذا العام ، وقد كسبنا كل المعارك التي خضناها في قلب هذه الصحراء المحرقة ، وأصبح لدينا من المال والرجال ما يكفي لاستقرارنا في مكان آمن ، فماذا تقولون ، وأي مكان تختارون ؟

قال القاسم بن احمد : أرى أن نبادر إلى احتلال بلدة فيد لأنها المكان الوحيد الذي يوفر لنا الأمن والحماية . . ويا حبذا لو أرسلنا وفداً من قبلنا إلى البحرين لمفاوضة الجنابي ومحاولة إقناعه للتعاون معنا ، وبذلك نزداد قوة .

قال صهر زكرويه علي المنتقم : لقد جربنا محاولة احتلال فيد ،

ولكن أهلها دافعوا عنها دفاعاً مستميتاً ، فتخلينا عن هذه الفكرة لصعوبة تحقيقها ، لذلك أفضل أن نضرب خيامنا في قلب البادية في مكان نختاره بعيداً عن الأنظار ، ونقيم فيه حتى نوفق في إيجاد مكان يأوينا ، وأرى أن الاتصال بآل الجنابي ومفاوضتهم خطوة كبرى لا بد من الإقدام عليها .

قال محمد الحداد : لنحاول ثانية الغارة على فيد ، فهي المكان الصالح لإقامتنا ريثما تنجلي الأمور. . .

قال زكرويه بن مهرويه : قبل أن نكرر المحاولة للاستيلاء على فيد لا بد لنا من الاستعداد الكامل ، وهذا يستغرق بعض الوقت ، لذلك أرى أن نختار وفداً نرسله إلى البحرين لمفاوضة آل الجنابي بشأن التعاون فيما بيننا ، فمن تختارون للقيام بهذه المهمة ؟

قال القاسم بن أحمد : نترك أمر اختيار الوفد لك ، ونفوضك بالتفاوض والاتفاق مع آل الجنابي . . .

قال علي المنتقم : نعم الرأي رأي القاسم . .

قال محمد الحداد : أقترح أن تكون زوجة ولدك الحسين في تعداد الوفد فهي من آل الجنابي وبامكانها أن تقنع والدها وأشقاءها . . .

قال زكرويه بن مهرويه : لقد أصبت الهدف يا حداد ستكون ليلى على رأس الوفد وسيرافقها ولدي أبا الفضل وصهرنا علي المنتقم إن شاء الله .

ولما انفض الاجتماع توجه زكرويه بن مهرويه إلى بيت الحريم

فاجتمع بأرملة ولده الحسين ليلى الجنابي ، وطلب منها أن تكون على رأس الوفد الذي سيذهب إلى البحرين لمقابلة والدها أبي سعيد الجنابي ، ولكن ليلى أبدت معارضة شديدة ورفضت أن تذهب إلى البحرين لأنها تعلم حق العلم بأن والدها سيرفض كل تعاون مع زكرويه إذ يعتبره خارجاً على الدعوة تآمر على قتل أهل الإمام في سلمية وأحرق قصره ، كما وأن زوجها الحسين بن زكرويه قد وشى بالإمام ودل الخليفة العباسي على صفاته . . .

ولكن زكرويه ألح عليها ورجاها أن تحاول إقناع ذويها بعقد معاهدة مع جماعة آل زكرويه حرصاً على مصلحة الطرفين ، لأن الخطر العباسي يتهدد الجانبين . فقبلت ليلى مرغمة وأخذت تعد نفسها للسفر ، فعرض عليها زكرويه أن تصطحب معها ولدها البكر علي بن الحسين فعسى أن يستدر شفقة جده وعطفه ، ولا مانع إذا بقيت مع ابنها في البحرين فترة من الوقت ريثما تستقر الأمور .

وتوجّه الوفد الذي اختاره زكرويه إلى البحرين ، عرضاً في الصحراء ، بينما وجّه زكرويه عدة رسائل أرسلها مع بعض معاونيه إلى بادية الشام يطلب فيها من أتباعه أن يوافوه إلى فيد ، وكل تأخير عن القدوم يعرض صاحبه للعقوبة والانتقام . ثم أمر أتباعه بأن يأخذوا قسطاً من الراحة ، ويستعدوا لمعارك جديدة قد تشتعل نارها في أية لحظة . ثم بث العيون في الصحراء لمراقبة المسالك والطرق .

الفصل الثالث عشر

الصراع في العراق والبحرين

لم يكن الصراع في سورية والعراق بين الإسماعيلية والعبّاسيين فقط ، بل كان صراعاً اشتركت فيه عدة جهات، واستمر فترة طويلة أدى إلى انتشار الفوضى والإرهاب والقتل والتدمير في سورية والعراق ، وشجّع الولاة والقادة من الأتراك على السيطرة الفعلية على شؤون الخلافة العباسية وجهاز الحكم فيها ، وزاد نفوذ القادة الأتراك عندما قتلوا الخليفة المتوكّل وتدخلوا في تولية ابنه المنتصر .

وانحدرت الخلافة العباسية إلى درك سحيق ، منذ أن ازداد نفوذ القواد الأتراك وسيروا الخلفاء وفق مشيئتهم حتى انه في الفترة بين مقتل المتوكل في سنة ٢٤٧ هـ وتولية المعتمد في سنة ٢٥٦ هـ ، ولوا أربعة خلفاء ، ليس لهم من رسوم الخلافة سوى السكة والخطبة، ولقوا جميعاً حتفهم على أيدي الأتراك أو بإيعاز منهم .

وتعرض الأهالي لعسف الأتراك ، وأصابهم من ظلمهم مثل ما أصاب الخلفاء ، فعندما كثر عدد الأتراك في بغداد ، وأخذوا يطأرون الصبية والشيوخ تحت سنابك خيولهم في الشوارع والطرقات دون شفقة أو رحمة ، حتى ضجّ الناس بالشكوى ، فذهبوا إلى الخليفة المعتصم وقالوا له : لا جزاك الله عن الجوار خيراً جاورتنا وجئت بهؤلاء العلوج فأسكنتهم بين أظهرنا ، فأيتمت بهم صبياننا ، وأرملت نسواننا ، وقتلت بهم رجالنا ، فإما أن تخرج من بغداد ، أو نحاربك ، فقال المعتصم : كيف تحاربونني ؟ قالوا : نحاربك بسهام السحر ، قال : وما سهام السحر ؟ قالوا : ندعو عليك ، فقال المعتصم : لا طاقة لي بذلك .

ولقد استاء أهل بغداد من تحكم الأتراك واستبدادهم بشؤون الخلافة ، واغتيال قواد الجيش من المسلمين في الثغور ، فاجتمعوا وأعلنوا استنكارهم لمواقف الأتراك وقتلهم من أرادوا قتله من الخلفاء والقواد ، وتولية الخلافة لمن أرادوا ، دون اعتبار منهم لمصلحة المسلمين .

هذا بالإضافة إلى تدني الأوضاع الاقتصادية والمادية والاجتماعية ، لكثرة بذخ الخلفاء ، وازدياد طلب الجند للأموال ، وكثرة الفساد وسفك الدماء ، والنهب والسلب ، وانتشار الرشوة بشكل غريب .

هذه الحالة المتردية التي وصلت إليها الخلافة العباسية أدت الى كثرة الخارجين على الخلافة العباسية في شرق الدولة وغربها ، مستغلين فرصة الاضطراب الذي عم البلاد منذ أن استأثر الأتراك فيها بالسلطة والنفوذ دون الخلفاء . فنجح الحسن بن زيد العلوي في تكوين دولة علوية بطبرستان ، كما قامت الدولة الصفارية في سجستان ، واستطاعت أن تبسط نفوذها على كرمان ومعظم أنحاء فارس ، وأسس أحمد بن طولون دولة مستقلة في مصر عرفت باسم الدولة الطولونية ، ولم يبق في حوزة العباسيين سوى العراق والجزيرة الفراتية والأهواز .

وكذلك قامت ثورة الزنج التي تزعمها علي بن محمد ، وتمكن من الاستيلاء على المنطقة الممتدة من الأهواز حتى واسط ، وواصل زحفه حتى أصبح على أبواب بغداد . وقد كلفت هذه الثورة العباسيين كثيراً من الدماء والأموال .

وفي زحمة الصراع بين الزنج والخلافة العباسية ، أطل الداعي الإسماعيلي الحسين الأهوازي على سواد الكوفة ، وراح يبشر بقرب

ظهور المهدي المنتظر الذي سيملأ الأرض عدلاً ويخلص الناس من ظلم العباسيين ، ويوفر الأمن والرخاء والسعادة لجميع الناس . ولم تعره الخلافة العباسية أي اهتمام ، لانشغالها بالقضاء على ثورة الزنج ، ولضعف الخلفاء وانتشار الفساد والرشوة في كل مكان ، مما أتاح الفرصة أمام دعاة الإسماعيلية للتبشير بدعوتهم ، فنالوا قسطاً كبيراً من النجاح والأزدهار، وبسطوا نفوذهم في طول البلاد وعرضها ، وأوجدوا نظام الالفة والإخاء بين الجماعات في المناطق التي اصبحت خاضعة لنفوذهم .

ولولا الصراعات الداخلية التي نشبت بين الدعاة وبعض الزعماء على النفوذ والمناصب الدنيوية الزائلة لتغير وجه التاريخ ، ولأصبح للإسماعيلية دولة قوية منيعة في الشام والعراق كالدول التي أوجدوها في المغرب ومصر واليمن والبحرين .

ولا بد لنا من العودة إلى زكرويه بن مهرويه الذي استقر في البادية ، وراح يوجه ضرباته إلى قوافل الحجاج ، وينشر الرعب والخوف في الصحراء ، وقد حقق بعض الانتصارات على الجيوش العباسية ، وغنم الأموال الطائلة ، والتف حوله المزيد من الأتباع والأنصار ، فعول على الاتصال بآل الجنابي في البحرين محاولاً وضع حد للخلافات بينهما وصهر الحركتين بحركة واحدة تهدف إلى السيطرة على العراق والجزيرة العربية.

ولقد اختار زكرويه بن مهرويه لمهمة مفاوضة آل الجنابي وفداً يتألف من ليلى أرملة ولده الحسين بن زكرويه ، وشقيقه أبا الفضل ، وصهره علي المنتقم ، ولكن هذا الوفد عاد بخفي حنين لأن آل الجنابي رفضوا كل تعاون مع زكرويه وأنصاره من القتلة وسفاكي الدماء.

ورفضت ليلى أرملة الحسين بن زكرويه العودة مع الوفد وبقيت في البحرين مع ولدها علي بن الحسين بن زكرويه .

ولما يئس زكرويه بن مهرويه من كل تعاون واتفاق مع آل الجنابي قرر أن يخوض المعارك مع العباسيين منفرداً مهما كانت النتائج ، فحشد قواته من البدو وشن هجوماً كاسحاً على الجيش العباسي الذي كان يلاحقه على طريق جفان ، وجرت بين الطرفين معارك طاحنة أسفرت عن مقتل زكرويه بن مهرويه ، ووقوع أقربائه وكاتبه وزوجته وابنه في الأسر ، وتفرق أنصاره هائمين على وجوههم في الصحراء ، وغنم الجيش العباسي كل ما كان في حوزة زكرويه بن مهرويه من أموال ومتاع ، واقتاد الأسرى مع جثة زكرويه إلى بغداد . وفر جماعة من أنصار زكرويه إلى الشام ، فلقيهم الحسين بن حمدان فقتلهم جميعاً ، وأخذ بعض الأسرى من النساء والصبيان .

وحمل رأس زكرويه إلى خراسان وطوف به في البلاد ، ليطمئن الناس إلى أن طريق الحج أصبح سالكاً وأميناً بعد مقتل زكرويه بن مهرويه وتفرق أتباعه . وتتبع الخليفة العباسي القرامطة في العراق فقتل منهم الكثير ، وحبس البعض ، ومنهم من مات في سجن الخليفة .

وعلى هذه الصورة انطوت صفحة آل زكرويه في العراق ، بعد نضال طويل ، وصراع مديد على السلطة ، تخللـه المزيد من الدماء المسفوكة ، والبلدان المخربة المهدمة ، وفشل زكرويه بن مهرويه في تأسيس دولة يتوارثها أبناؤه من بعده ، وكان من أهم أسباب فشله معاداته للسنيين والإسماعيلية معاً .

ولقد حفزت حركة آل زكرويه العباسيين على استعادة بلاد

الشام ومصر من أيدي الطولونيين ، الذين تلقوا على أيدي آل زكرويه ضربات قاسية ، أظهرت عجزهم عن الصمود ، وضعف قيادتهم ، وأتاحت هذه الحركة للجنابي أن يوطد دعائم دولته في بلاد البحرين . كذلك انتهزت الدولة البيزنطية فرصة انشغال العباسيين في حروبهم مع آل زكرويه وأخذت توجه هجومها إلى أطراف الدولة العباسية دون أن تلقى مقاومة تذكر .

وبعد القضاء على زكرويه بن مهرويه وتفرق أتباعه في الصحراء وفي المدن ، استغل أنصار الداعي عبدان ضعف الخلافة العباسية بعد وفاة الخليفة المكتفي ، فقام أحد تلامذة عبدان الداعي أبو حاتم البوراني ينادي بالثورة فالتف حوله كثير من الأنصار . ولكنه مات بعد فترة وجيزة وتفرق أتباعه . ثم ألقت السلطات العباسية القبض على الداعي أبو الفوارس واقتيد إلى الخليفة العباسي المعتضد فسأله عما يشاع من قول الإسماعيلية بحلول روح الله وأرواح أنبيائه في أجساد دعاتهم فتعصمهم من الخطأ والزلل؟

فقال أبو الفوارس بجرأة نادرة وشجاعة منقطعة النظير : يا هذا ! إن حلت روح إبليس فما ينفعك ؟ فلا تسأل عما لا يعنيك وسل عما يخصك . . !!

قال المعتضد : ما تقول فيما يخصني ؟

قال أبو الفوارس :أقول أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات وأبوكم العباس حي فهل طلب بالخلافة ؟ أم هل بايعه أحد من الصحابة على ذلك ؟ ثم مات أبو بكر فاستخلف عمر وهو يرى موضع العباس ولم يوص اليه ، ثم مات عمر وجعلها شورى في ستة أنفس ولم يوص اليه ولا أدخله فيهم ، فبماذا تستحقون أنتم الخلافة وقد

اتفق الصحابة على دفع جدك عنها ؟

وبعد نقاش طويل بين الخليفة المعتضد وأبو الفوارس ، أمر الخليفة بأن تخلع أضراس أبو الفوارس ، ثم خلعت إحدى يديه وعلّق في الأخرى صخرة وترك على حالته تلك من نصف النهار إلى المغرب ، ثم قطعت يداه ورجلاه في غد ذلك اليوم ، وضربت عنقه ، ثم صلب مع غيره من الإسماعيلية بعد أن عذبوا وقطعت أطرافهم ، وشوّهت أجسادهم .

ورغم ما تعرض له القرامطة من البطش والتنكيل من جانب العباسيين ، لم يتخلوا عن نشاطهم الدعاوي ، فاستمروا في نشر الدعوة ، وتجمع من جديد أنصار عبدان حول داعيين كبيرين أحدهما عيسى بن موسى ، وهو ابن أخت عبدان ، والآخر حريث بن مسعود ، وكانوا من الكثرة . بحيث أن ما تجمع حول حريث بن مسعود وحده كان يزيد على عشرة آلاف.

هاجم الداعي عيسى بن موسى مع أتباعه الكوفة ، ونزل بظاهرها ، وجبى الخراج ، وطرد عمال الخليفة العباسي المقتدر من السواد ، ووجه دعاته الى جميع من بالسواد من القرامطة ، فاستجابوا له ، وتوافدوا اليه ، غير أن جيوش الخليفة بقيادة صافي البصري سرعان ما هاجمته ، وانتهى الأمر بالقبض عليه وسجنه في بغداد . لكنه ما لبث أن تمكن من الفرار ، وأخذ يشتغل بنشر الكتب التي تركها خاله الداعي عبدان .

أما الداعي حريث بن مسعود فخرج بواسط ، وأوقع الهزيمة بأحد الجيوش العباسية التي تصدّت له ، واستولى على عتاده ومؤنه ، مما مكّنه من الصمود طويلاً ، ثم مضى الى أعمال الموفقي واستولى على

تلك الناحية وبنى بها دار هجرة ، واقتصر عمله على سفك الدماء وسبي النساء ، وسلب الأموال . فأنفذ الخليفة العباسي اليه جيشاً ، فأوقع به الهزيمة ، وقتل كثيراً من أنصاره ، وحمل حريث بن مسعود إلى مدينة السلام مع مائتي أسير من أتباعه فقتلوا جميعاً ثم صلبوا .

وتوالت الضربات القاسية المؤلمة على رؤوس قرامطة العراق من كل حدب وصوب ، حتى اضطر أكثرهم إلى الاختفاء أو الرحيل إلى مناطق بعيدة لا يعرفهم فيها أحد ، أو الاستسلام إلى السلطة العباسية وإعلان التوبة وطلب الأمان والعفو والمغفرة من الخليفة العباسي ، وبذلك هدأت حركتهم وأمن الناس من شرّهم وخطرهم .

أما حركة أبو سعيد الجنابي في البحرين فقد امتد نفوذها حتى شمل كل الجزيرة العربية ، وباتوا يشكّلون أكبر قوة ضاربة في تلك البلاد ، سيطرت سيطرة فعلية على كافة المناطق الممتدة من البحرين حتى مكة المكرمة ، وأسس أبو سعيد الجنابي دولة وراثية قوية في البحرين أصبح يتوارثها الأبناء عن الأباء ، وعاش الأتباع في ظلها متساوين متآلفين ، جمعت ممتلكاتهم في موضع واحد ، الكل شركاء فيها ، وأصبح إخلاص الفرد في العمل ، وما قدمه من خدمات للجماعة ، هو الذي يحدّد مركزه بين أفرادها ، واختفت الفوارق الاجتماعية والطبقية والعائلية داخل المجتمع الإسماعيلي في البحرين ، خاصة وأن أبو سعيد الجنابي قد تعهد بالإنفاق على جميع الأفراد بلا تفرقة أو تمييز ، بل بالعدل والمساواة .

ورغم ما وفره نظام الإلفة والإخاء الذي طبقه آل الجنابي في البحرين ، من سعادة وهناء للجماعات ، لم يتوقف الصراع الذي كان يدور بينهم وبين السلطات العباسية ، وبينهم وبين الجوار من السنيين

والشيعة ، وكان أبو سعيد الجنابي يخوض المعارك بقوة وحزم وتضحية ، فيحقق الانتصارات الرائعة ويحتل المزيد من المناطق فيضمها إلى دولته . أو يفرض عليها الجزية والأموال الطائلة . ولم يخرج أبو سعيد الجنابي يوماً من الأيام عن التعاليم والإرشادات التي كان يزوده فيها بيت الدعوة الإسماعيلية في سلمية ، بل ظل طوال المدة التي قاد بها الدعوة في جهات البحرين وهي ستة عشر عاماً القدوة في الطاعة والولاء وتنفيذ الأوامر ، كما وانه رفض التعاون مع آل زكرويه في العراق رغم صلة النسب والقرابة التي كانت تربط بينهما ، لأن آل زكرويه قد خرجوا على قانون الدعوة ، وحاولوا النيل من قدسية مركز الإمامة ، واعتمدوا في حركتهم على القتل وسفك الدماء ، والنهب والسلب وترويع الشيوخ والنساء والأطفال .

ولا بد لنا من الإتيان على ذكر بعض المعارك والأحداث التي خاضها آل الجنابي في البحرين بالتفصيل لتكون الفائدة أعم وأشمل ، فبعد أن ركز أبو سعيد الجنابي دعائم الدعوة في القطيف وهجر ، استولى بعد معارك طاحنة على الاحساء ، والطائف ، وسائر بلاد البحرين ، وانضم اليه خلق كثير وجماعة من الأعراب ، وقوي أمره ، وازداد نفوذه ، فأخذ يمتد نشاطه نحو الشمال والجنوب والشرق والغرب ، وأصبح الحاكم المطلق لكافة المناطق التي خضعت إلى نفوذه ، رغم الحملات العباسية التي أرسلت الى البحرين من أجل القضاء عليه ، ولكنه ردها كلها مهزومة مكسورة تجرجر أذيال الخيبة والهزيمة .

وبعد هذه الانتصارات التي حققها أبو سعيد الجنابي قرر أن يعقد مجلساً عاماً للدعاة ولزعماء الجماعات في دولة البحرين ليتناقشوا

في وضع الدعوة ومدى انتشارها بعد هذا الصراع الطويل مع العباسيين ، ولتعيين خليفة ليتولى قيادة الحركة الإسماعيلية وزعامتها في الجزيرة العربية.

ولما عقد الإجتماع في قصر آل الجنابي وقف أبو سعيد خطيباً في الدعاة فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم والعاقبة للمتقين المؤمنين

الحمد لله الغالب قدره ، العظيمة قدرته، الذي إذا نهض الفكر نحو سماء معرفته انقلب اليه خاسئاً وهو حسير بصره ، وصلى الله على خير من شرف على عناصر الأنبياء عنصره ، وفاق جوهرهم جوهره ، محمد الشاهد بنبوة حجره ومدره ، وعلى وصيه الذي له حجول الفضل وغرزه ، علي بن أبي طالب الذي هو منصور يوم الوغى ومظفره ، وعلى الأئمة من ذريته غصون المجد الذي هو شجره.

معشر الدعاة والمؤمنين : جعلكم الله ممن انتفع بالذكر الحكيم ، وهدي إلى الصراط المستقيم . الأنفاس معدودة، وعارية العمر مردودة ، فارغبوا بنفوسكم عملاً يبقى إلى ما هو باق ، وانشئوا أحسن الإنشاء للمضي الذي هو الى الملأ الأعلى راق ، والصامتين المسبحين لاق ، وباينوا من يقول ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق . دعوتكم اليوم لنتشاور في أمر الدعوة بعد استقرارها ،نسن للنظم قوانينها ونعلي منارها ، في آفاق الأرض وسهولها وجبالها ، ولنقيم الإلفة والمحبة بين شيوخها ونسائها وأطفالها ، فاقترحوا ماذا ترتأون ، وناقشوا بالخلاص وروية ما تبسطون ، فالإمام المهدي عليه السلام، قد منحكم البركات وحرية الكلام ، فهاتوا ما عندكم من الاقتراحات بشأن تعديل النظلم ، لينسجم مع الاستقرار والسلام ، والله تعالى نسأل أن يسدد

الخطى ، ويطيب المسعى ، وهو وحده صاحب العظمة والقدرة ، والبسط والمغفرة .

قال الداعي يحيى بن المهدي : إذا كان الصراع بيننا وبين بني العباس قد انتهى مؤقتاً ، فلا بد لنا من الانتباه إلى النواحي الاجتماعية والاقتصادية والعلمية ، وفرض المزيد من الأموال على الجماعات ، لإنفاقها على إنعاش الزراعة ، والتجارة ، والحياة الإجتماعية ، ويا حبذا لو فرضنا ديناراً واحداً يجبى من كل فرد في نهاية كل شهر قمري ، بالإضافة إلى ما يترتب عليه من الزكاة والفطرة . . !

قال الداعي علي بن المعلى بن حمدان : الإصلاحات الداخلية من الأوليات ، فهي تعتمد بالدرجة الأولى على وجود المال والنية الصادقة ، والتضامن والعدل والمساواة ، فإذا كنا فعلاً نرغب في رفع مستوى الجماعات فما علينا إلاّ أن نوجد طريقة صحيحة لتوفير المال .

قال أبو طاهر سليمان الجنابي : لا شك بأن نظام الإلفة والإخاء الذي طبقناه في مجتمعنا قد أعطى نتائج باهرة ، وكفل السعادة للجميع ، لذلك لا أرى لزوماً لإدخال أنظمة جديدة بل يكفي أن نطور هذا النظام وفق مقتضيات الإستقرار والسلم ، ولا يجب أن نفكر بأن صراعنا مع العباسيين قد انتهى إلى الأبد ، فما دام الخليفة العباسي موجود على رأس السلطة فصراعنا معه مستمر ، لذلك أرى أن لا نهمل النواحي العسكرية وتقوية الجماعات بالسلاح والعتاد . قال أبو سعيد الجنابي : ستكون كافة اقتراحاتكم موضع اهتمامي منذ هذه اللحظة ، ولن أغفل عن أي شيء يخدم الدعوة ويزيد في انتشارها وقوتها ، ولكن هناك ناحية هامة لا بد من عرضها عليكم ، وهي تتعلق بالقيادة والزعامة ، فأنا كما تعلمون أصبحت شيخاً لا طاقة لي

على حمل كافة الأعباء ، فاقترح أن يعين ولدي الداعي سعيد الجنابي نائباً لي ووليا لعهدي ، فماذا تقولون ؟

كانت المفاجأة كبيرة بالنسبة للدعاة المجتمعين، عقدت ألسنتهم عن الإجابة وأدهشتهم لأنهم يعلمون بأن نظام الدعوة وقانونها لا يجيزان للداعي مهما علت رتبته حق توريث مرتبته لأولاده ، لأن حق التعيين من اختصاص مجلس الدعاة الحرم الذي يرأسه الإمام بالذات ، فراحوا يسألون أنفسهم هل الداعي أبو سعيد الجنابي عين ولده سعيد خليفة له بدون الرجوع إلى مركز الإمامة ؟ أم أنه حصل على موافقة الإمام ؟

وران الصمت المطبق على القاعة ، ولم يحاول أحد الدعاة طرح أي سؤال أو الإجابة على ما طلبه أبو سعيد الجنابي حول هذا الموضوع . . فاستغرب أبو سعيد الجنابي الأمر ، فأعاد قوله ثانية بصوت مرتفع وألح على الإجابة . . . فقطع الصمت ولده أبو طاهر فقال بجرأة وشجاعة : نحن نعلم يا سيدي بأن قانون الدعوة لا يجيز للداعي تعيين خلف له إلا إذا حصل على موافقة الإمام ، فهل عرضتم الأمر على مقام الإمامة ، أم لا يزال مجرد اقتراح فقط ؟ . .

قال أبو سعيد الجنابي وقد ارتسمت علائم الغضب على محياه : كنت ولا أزال أول من يرجع إلى مقام الإمامة في كل شاردة وواردة ، فلا يعقل أن أكتم مثل هذا الأمر عن الإمام . . لقد عرضت الأمر منذ فترة ، وحصلت على الموافقة ، واليكم أمر تعيين ولدي سعيد خليفة لي ، ومد يده إلى جيبه وأخرج منها كتاب الإمام عبيد الله المهدي وعرضه على الجميع ، وبذلك وضع حداً للاستفسارات والتساؤلات ، وبارك الجميع هذا التعيين . . .

ولما أعلن عن انتهاء الإجتماع تفرق الدعاة وعادوا إلى أماكن تواجدهم ليبشروا الجماعات بأن الداعي سعيد الجنابي أصبح نائباً لوالده وخليفة له ، فانتشر الخبر في كافة المناطق واستبشر الجميع بالخير والسعادة لما يعلموه من أخلاق سعيد الجنابي ومدى إخلاصه وإيمانه . . . وأقيمت الأفراح في كافة القرى والدساكر الخاضعة لنفوذ أبو سعيد الجنابي ، ولم يبق إنسان إلاّ وعبر عن فرحته بهذه المناسبة ، إلاّ انسان واحد أصعقته المفاجئة ، وجعلته يسبح في دوامة من الحقد والغيظ ، ذلك الإنسان هو شقيق سعيد الأصغر أبو طاهر سليمان الجنابي ، الذي كان شجاعاً شهماً يحب العنف ويكره الخنوع والاستسلام ، ويميل بالفطرة إلى الشدة والحزم ، وخوض الحروب والمعارك .

وكان أبو الطاهر يعرف بأن شقيقه سعيد لا يليق بهذا المنصب الخطير ، فهو ضعيف متسامح يكره العنف والشدة ، مؤمن ورع يحب السلام ، ويتمسك بحرفية القانون والنظام .

ولقد حصل أول اصطدام بين الأخوين ، وكاد يؤدي إلى التفرقة في صفوف آل الجنابي ، عندما جاء وفد آل زكرويه وعلى رأسه ليلى الجنابي وولدها ليعرضوا على آل الجنابي فكرة التعاون مع آل زكرويه ومساعدتهم في حروبهم مع السلطات العراقية . حيث أعلن سعيد بكل صراحة رغم أنه صهر زكرويه وزوج ابنته رقية رفض كل تعاون مع آل زكرويه الخارجين على طاعة الإمام ، الذين يسفكون الدماء البريئة بلا مبرر . بينما أيّد أبو الطاهر فكرة التعاون مع آل زكرويه ومساعدتهم في حروبهم ، لأنهم يجسدون الثورة الإسماعيلية على الإنحراف والظلم والتسلط ، إذ لا بد من استعمال العنف في مثل هذه الحالات . .

ولكن أبو سعيد الجنابي وضع حداً لهذا النزاع وأعلن عن عدم التعاون مع آل زكرويه ، واعتبر كل تعاون معهم مخالفة صريحة لنظام الدعوة وخروجاً على ارادة إمام الزمان . وأمر ابنته ليلى بأن تبقى مع ولدها في البحرين ، طالما زوجها الحسين بن زكرويه قد توفي ، وأن تقطع كل علاقاتها مع آل زكرويه . وبنفس الوقت خير زوجة ابنه سعيد رقية ابنة زكرويه بين البقاء في كنف زوجها في البحرين أو العودة مع الوفد إلى أهلها ، ففضلت البقاء في البحرين بجوار زوجها وأولادها .

وكتب الخليفة العباسي كتاباً إلى أبو سعيد الجنابي أرسله مع وفد اختاره من كبار علماء المسلمين يطلب فيه إطلاق سراح الأسرى ، والعودة إلى الحظيرة الإسلامية ، فلما وصل الوفد إلى البصرة وهو في طريقه إلى البحرين بلغه بأن أبو سعيد الجنابي قد توفي وهو في الحمام على يد خادمه ، وأن ولده سعيد الجنابي قد تسلم السلطة والزعامة ، ويلاقي معارضة شديدة من شقيقه الأصغر أبو طاهر .

وبالفعل بينما كان أبو سعيد الجنابي في الحمام دخل عليه خادمه فخنقه . وحاول الخادم الهرب ، ولكن الحرس شعروا به وألقوا القبض عليه . حيث اعترف بأنه مرسل من قبل الخليفة العباسي منذ سنوات للقيام بمهمة اغتيال أبو سعيد الجنابي ، فأمر سعيد الجنابي بأن يطوف به في المدينة ثم يعدم شنقاً جزاء لما اقترفته يداه .

ولما تسلم سعيد الجنابي الزعامة والقيادة في البحرين أظهر من الضعف واللين ما جعل شقيقه أبو طاهر سليمان الجنابي يتخلص منه بسرعة ويتسلم القيادة ، ويسيطر سيطرة تامة على مقدرات البلاد ، ويوفر الأمن والاستقرار ولو بصورة مؤقتة في كافة أنحاء البلاد ، وشرع في جباية الأموال لشراء السلاح وتقوية الجيش .

وعندما وصل الوفد الذي أرسله الخليفة المقتدر العباسي إلى البحرين استقبله أبو طاهر أحسن استقبال وأطلق سراح الأسرى ، وأرسلهم معززين مكرمين إلى بغداد،وأجاب على كتاب الخليفة ، بأنه قد اختار العقيدة الإسماعيلية طريقاً للخلاص ، وسيظل وفياً لها ما دام فيه عرق ينبض ، ولكنه تعهد بعدم الاعتداء على جيوش الخليفة إلاّ إذا اضطر للدفاع عن النفس.

ولكن هذا الوفاق بين الخليفة العباسي وأبو طاهر لم يعمر طويلاً ، إذ سرعان ما قام والي البصرة بالاعتداء على بعض الإسماعيلية من أتباع آل الجنابي ، مما أجبر أبو طاهر على المسير إلى البصرة على رأس قوة من ثلاثة آلاف رجل ومعهم السلالم والمعدات ، فألقوها على سور البصرة وصعدوا اليه وفتحوا الأبواب وقتلوا الغفر الموكلين بالحراسة ، ولم يشعر والي البصرة سبك المفلحي إلاّ وأتباع أبو طاهر داخل المدينة يقتلون وينهبون ، وهم في طريقهم إلى قصر الولاية ، فركب اليهم فقتلوه ، ووضعوا السيف في أهل المدينة ، وهرب الناس إلى الكلأ وقاوموا الغارة القرمطية مدة عشرة أيام بلياليها ، فظفر بهم أبو طاهر الجنابي وقتل خلقاً كثيراً ، وطرح الناس أنفسهم في الماء طلباً للنجاة ولكن أكثرهم ابتلعه اليم .

وأقام أبو طاهر بالبصرة ثمانية عشر يوماً يحمل منها ما يقدر على حمله من الأموال والأمتعة والنساء والصبيان ، ورجع إلى البحرين . وولى المقتدر على البصرة محمد بن عبد الله الفارقي فانحدر اليها على رأس جيش كبير ، ولكنه وجد أبو طاهر قد رحل عنها .

ويبدو من خلال الوقائع والأحداث أن أبو طاهر الجنابي قد جعل من معركة البصرة منطلقاً لصراع طويل مع الخلافة العباسية ،

التي بدأت بالاعتداء ، وبذلك أكدت عن نواياها المبيتة تجاه الإسماعيلية ، وأثبتت بأنها لا تتقيد بالعهود والمواثيق . لذلك تحرك أبو طاهر إلى الهبير ومعه جيش عرمرم ليلقى الحج في رجوعه من مكة ، فأوقع بقافلة تقدمت معظم الحجاج ، وكان فيها خلق كثير من أهل بغداد وغيرهم فنهبهم ، واتصل الخبر بباقي الحجاج ، وهم بفيد ، فأقاموا بها حتى فني زادهم ، فارتحلوا مسرعين ، وكان أبو الهيجاء بن حمدان قد أشار عليهم بالعودة إلى وادي القرى وأنهم لا يقيمون بفيد ، فاستبعدوا الطريق ولم يقبلوا منه - وكان إلى أبي الهيجاء طريق الكوفة وكثير الحجاج - فلما فني زادهم ساروا على طريق الكوفة ، فأوقع بهم أبي طاهر وأتباعه وأخذوهم وأسروا أبا الهيجاء وأحمد بن كشمرد ونحرير وأحمد بن بدر عم والدة المقتدر العباسي ، وأخذ أبو طاهر جمال الحجاج جميعها وما أراد من الأمتعة والأموال والنساء والصبيان ، وعاد إلى هجر وترك الحجاج في مواضعهم فمات أكثرهم جوعاً وعطشاً من حر الشمس . وكان عمر أبي طاهر حينئذ سبع عشرة سنة .

ولما بلغ خبر القتلى من الحجاج إلى بغداد ثارت ثائرة الأهالي وكسروا منابر الجوامع وسودوا المحاريب وهاجموا السلطة المسؤولة عن حماية الحجاج ، وتزعزعت أركان الدولة ، وتعرّضت لخطر الزوال والاندثار ، واتهم ابن الفرات بالتآمر على الحجاج ، والتعاون مع أبي طاهر الجنابي ، وحاول ابن الفرات الهرب من بغداد في مركب فرجمه العامة حتى كاد أن يغرق في النهر .

وحتى يسيطر الخليفة على الأوضاع ، ويردع العامة من القيام بالأعمال السلبية ، أمر ياقوت بالمسير إلى الكوفة ليحميها من أتباع أبو طاهر الجنابي ، فخرج في جمع كثير ومعه ولداه المظفر ومحمد ، وزوّد جيشه بالمال والعتاد الكثير ، ولكن ورود الأخبار بعودة القرامطة إلى

هجر أجلت مسير ياقوت . فعمد الخليفة سراً إلى مفاوضة أبو طاهر الجنابي ليطلق الأسرى من الحجاج وغيرهم ، فطلب أبو طاهر الجنابي من الخليفة المقتدر أن يقطعه البصرة والأهواز ، فلم يجبه الخليفة إلى ذلك ، رغم أنه أطلق الأسرى وفيهم ابن حمدان وغيره من القادة ليؤكد للخليفة على حسن نواياه ، وانه على إستعداد للتعاون معه .

ولما رفض الخليفة تلبية طلب أبو طاهر الجنابي بشأن البصرة والأهواز ، ارتحل من مقره في هجر يريد الحج . وكان جعفر بن ورقاء الشيباني والياً على الكوفة وطريق مكة فلما سار الحجاج من بغداد سار جعفر الشيباني لحمايتهم من القرامطة ومعه ألف رجل من بني شيبان ، كما سار مع الحجاج ثمل صاحب البحر وجني الصفواني وطريف السبكري وغيرهم في ستة آلاف رجل ، فلقي أبو طاهر جعفر وحصلت بينهما معارك ضارية يشيب لهولها الولدان ، فبينما المعارك دائرة ، طلع فريق من أتباع أبو طاهر عن يمين جعفر ، فانهزم من بين أيديهم شر هزيمة ، فلقي القافلة الأولى وقد انحدرت من العقبة فردهم إلى الكوفة ومعهم عسكر الخليفة ، وتبعهم أبو طاهر إلى باب الكوفة واشتبك معهم في قتال عنيف فانهزم جند الخليفة وأعمل فيهم السيف ، وأسر جنيا الصفواني وهرب الباقون والحجاج من الكوفة ، ودخلها أبو طاهر الجنابي وأقام فيها ستة أيام يدخلها نهاراً ويجلس في المسجد إلى ما بعد العشاء ويخرج يبيت في عسكره ، وحمل منها من الغنائم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت من أموال وجواهر غوال وثياب من خز وديباج وغير ذلك ، وعاد إلى مقره في هجر ، ودخل المنهزمون بغداد ، فانفذ الخليفة أمره إلى مؤنس المظفر بالخروج إلى الكوفة فرحل اليها ودخلها، وقد عاد أبو طاهر راجعاً منها إلى وطنه ،فتخلف عليها ياقوت وسار مؤنس إلى واسط خوفاً من أبي طاهر وخاف أهل بغداد وانتقل

الناس إلى الجانب الشرقي ولم يحج في هذا العام من الناس أحد .

واستمر الصراع العنيف ، والمعارك الضارية بين قواد الخليفة وجنوده وبين أبي طاهر الجنابي وأتباعه في طول البلاد وعرضها وكان النصر دائماً وأبداً حليف أبو طاهر وأتباعه مما جعل سمعة الجنود العباسيين تتردى في الحضيض فيصفهم الناس بالجبن والهروب من المعارك ، بينما يصفون أتباع أبو طاهر الجنابي بالشجاعة والجرأة والتضحية .

ولما كثر اللغط واستاء العامة من تصرفات الخلافة العباسية تجاه أبو طاهر الجنابي أمر الخليفة العباسي بتقليد يوسف بن أبي الساج نواحي المشرق وأذن له في جباية أموالها وصرفها على قواده وأجناده ، وسيره إلى واسط ليسير إلى هجر لمحاربة أبي طاهر الجنابي . فدخلها وواليها يومئذ مؤنس المظفر فسار مؤنس إلى بغداد ليقيم فيها وجعل له أموال الخراج ببلدان همذان وساوه وقم وقاشان وماه البصرة وماه الكوفة وماه سبذان ليجري منها النفقات على جنده ويستعين بها على محاربة الجنابي.

وعلم الخليفة المقتدر بمسير أبي طاهر الجنابي وجنده إلى الكوفة ، ثم عبرت جيوشه باتجاه الكوفة ، فأمر المقتدر يوسف بن أبي الساج بالتوجه لمحاربة الجنابي ، فسار إلى الكوفة من واسط ، وأعدوا له الإنزال ولعسكره ، فلما وصلها أبو طاهر الجنابي هرب نواب السلطان عنها فاستولى الجنابي على الأعتدة والزاد والعلوفات ، وغنم غنائم كثيرة . ووصل الكوفة يوسف بن أبي الساج ثاني يوم وصول الجنابي إلى الكوفة فكتب للجنابي يطالبه بطاعة الخليفة ، فرد عليه قائلاً : نحن لا نطيع إلاّ الله والحرب بيننا وبينك غداً فلما أصبحا ابتدأ

أوباش العسكر بالسب والشتم وقذف الحجارة ورأى يوسف قلة أتباع الجنابي فاحتقرهم وقال : إن هؤلاء لشرذمة قليلة بعد ساعة ستكون في يدي . وتقدم بأن يكتب كتاب الفتح والبشارة بالظفر .

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

وزحف الناس بعضهم إلى بعض فاقتتلوا ، وكان أبو طاهر الجنابي يشق الصفوف بأتباعه بجرأة نادرة ، وشجاعة عجيبة ، فاستطاع أن يهزم الجيوش العباسية ويوقع قائدها يوسف أسيراً وكثيراً من أصحابه ، وطارت أخبار انتصارات أبو طاهر الجنابي إلى بغداد فارتعد الناس وخافوا عاقبة أمر أبو طاهر الجنابي ، وعزموا على الهرب إلى حلوان وهمذان ، ودخل المنهزمون أكثرهم حفاة عراة ، مما أثار القلق وبلبل الأفكار .

واضطر الخليفة تجاه ضغط الجماهير والغوغاء إلى ايفاد القائد مؤنس المظفر على رأس جيش مؤلف من خمسمائة سميرية ليحاول إيقاف نشاط أبي طاهر الجنابي ، ومنعه من عبور الفرات كما سير جيشاً آخر إلى الأنبار فقطع أهلها الجسر ، ونزل القرامطة غربي الفرات وأنفذ أبو طاهر أصحابه إلى الحديثة فأتوه بسفن ، بدون أن يعلم أهل الأنبار بها ، وعبر فيها ثلاثمائة رجل من القرامطة وقاتلوا عسكر الخليفة فهزموهم وقتلوا منهم جماعة واستولى القرامطة على مدينة الأنبار ، وعقدوا الجسر وعبر أبو طاهر جريدة وخلف سواده بالجانب الغربي ، فوصل الخبر بعبور أبي طاهر إلى الأنبار ، وخرج نصر الحاجب في عسكر جرار ولحق بمؤنس فاجتمعا في نيف وأربعين ألف مقاتل سوى الغلمان ومن يريد النهب والسلب ، وكان ممن معه أبو الهيجاء عبد الله ابن حمدان ومن إخوته أبو الوليد وأبو السرايا في أصحابهم ، فوصلوا نهر

زبارا على فرسخين من بغداد عند عقرقوف ، فأشار أبو الهيجاء بقطع القنطرة التي عليه فقطعوها وسار أبو طاهر ومن معه نحوهم فبلغوا نهر زبارا .

وشاء الجنابي أن يعبر النهر ، ولكنه وجد القنطرة مقطوعة ، فتوجّه الى عسكر الخليفة حيث هرب منهم خلق كثير إلى بغداد بدون أية مقاومة . فلما شاهد ابن حمدان ذلك قال لمؤنس القائد : كيف رأيت ما أشرت به عليكم ؟ فوالله لو عبر الجنابي النهر لانهزم كل من معك من عساكر ولأخذوا بغداد .

وقصد أبو طاهر الجنابي مدينة هيت واشتبك في قتال مرير مع جنود الخليفة وقتل منهم خلق كثير ، ثم عاد أبو طاهر إلى الأنبار والتقى مع الجيش العباسي الذي يقوده مؤنس فانهزم عسكر الخليفة . وواصل الزحف نحو الدالية من طريق الفرات فلم يجد فيها شيئاً . ومنها توجه إلى الرحبة حيث دخلها بعد قتال عنيف . وارسل أهل قرقيسيا يطلبون من أبي طاهر الأمان فأمنهم وامرهم ألا يظهر أحد منهم بالنهار فأجابوه إلى ذلك . وسير أبو طاهر سرية إلى العرب بالجزيرة فنهبوهم وأخذوا أموالهم ، فخافه الأعراب وهربوا من بين يديه ، وفرض عليهم جزية قدرها دينار واحد على كل رأس يحملونه إلى هجر .

واستمر أبو طاهر في شن الحروب وخوض المعارك في طول العراق وعرضها دون أن يلقى مقاومة تذكر وكان الناس والعسكر يهربون من طريقه لشدة الخوف ، وأصبح للقرامطة نفوذ ضخم في شمالي العراق بعد أن قصدوا الرقة ، وتابعوا زحفهم حتى مدينة سنجار .

ويبدو أن أبو طاهر كان على يقين من ضعف الخلافة العباسية وتفكك جيوشها ، وتنافس الزعماء والقادة على خلق الفوضى في البلاد ، لذلك كان يحدوه الأمل للاستيلاء على العراق وغيره من البلدان الإسلامية ، وإقامة الدعوة للمهدي في هذه الأمصار ، يتضح ذلك من قوله شعراً حين عاد إلى عاصمته هجر :

أغركم مني رجوعي إلى هجر ... فعما قليل سوف يأتيكم الخبر
فمن مبلغ أهل العراق رسالة ... بأني أنا المرهوب في البدو والحضر
سأضرب خيلي نحو مصر وبرقة ... الى قيروان الترك والروم والخزر
أكيلهم بالسيف حتى أبيدهم ... فلا أبقي منهم نسل أنثى ولا ذكر
أنا الداعي إلى المهدي ولا شك أنني ... أنا الضيغم الضرغام والفارس الذكر

وحتى يثبت أبو طاهر الجنابي للملأ ضعف الخلافة العباسية وعجزها عن حماية الحجاج والعتبات المقدسة هاجم مكة المكرمة سنة ٣١٧ هجرية ، في عدد قليل من أتباعه ، إذ كان في معيته سبعمائة فارس وتسعمائة راجل ، ونهب الحجاج وقتلهم ، وقلع باب البيت وقبة زمزم والحجر الأسود ، وأخذ كسوة الكعبة فوزعها بين أتباعه ، ونهب دور سكان مكة ، وأقام الخطبة في مكة لعبيد الله المهدي بدلاً من الخليفة المقتدر العباسي ، ثم عاد ومعه الحجر الأسود إلى الإحساء ، ولم تتمكن الخلافة العباسية من اتخاذ أي إجراء ضد أبي طاهر ، بل اكتفى الخليفة المقتدر بارسال رسالة إلى أبي طاهر يعاتبه فيها ويتوعده ، فرد عليه بما يدل على عدم إكتراثه به .

وكنتيجة حتمية لهذه الانتصارات التي حققها أبو طاهر في معاركه مع الخلافة العباسية ، إفتتن به الناس وأعجبوا بجرأته وشجاعته ، وعزيمته التي لا تقهر ، فانخرطوا في مذهبه جماعات ووحداناً .

وللدلالة على سعة انتشار الدعوة الإسماعيلية في العراق ، وكثرة أتباعها في كافة الأوساط نروي هذه الحادثة على لسان المؤرخ ابن الأثير حيث يقول : جاء انسان إلى علي بن عيسى وزير الخليفة المقتدر ، وأخبره أن في جيرانه رجلاً من شيراز على مذهب الإسماعيلية يكاتب أبا طاهر بالأخبار فأحضره وسأله ، فاعترف وقال : ما صاحبت أبا طاهر إلا لما صح عندي أنه على الحق . وأنت وصاحبك كفار تأخذون ما ليس لكم ، ولا بد لله من حجة في أرضه ، وإمامنا المهدي ، المقيم ببلاد المغرب . فقال له : قد خالطت عسكرنا وعرفتهم ، فمن فيهم على مذهبك ؟ فقال : وأنت بهذا العقل تدبر الوزارة ؟ كيف أسلم قوماً مؤمنين إلى قوم كافرين ؟ لا أفعل ذلك . . فأمر بتعذيبه فضرب ضرباً مبرحاً ، ومنع الطعام والشراب فهلك بعد ثلاثة أيام .

ورغم هذا الصراع الطويل بين القرامطة وبين الخلفاء العباسيين وما كلف من ضحايا وخراب ودمار لم تهدأ الأحوال ولم تستقر الأمور ، بل حروب وثورات في كل بقعة من البقاع الإسلامية ، وأصبحت السلطة عاجزة حتى عن حماية نفسها ومواطنيها ، وظل أبو طاهر الجنابي يخوض غمار المعارك الطاحنة ويتنقل من مكان إلى مكان حتى عمت شهرته الآفاق ، وارتعدت فرائص الأهالي والجند منه خوفاً وذعراً .

وفي سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة خرج الناس للحج فلما بلغوا القادسية وجدوا أبو طاهر الجنابي وأتباعه بانتظارهم فلم يعرفوهم ، فقاتلهم جند الخليفة وأعانهم الحجاج ، ولكنهم التجأوا إلى القادسية ، فخرج جماعة من العلويين بالكوفة إلى أبي طاهر فسألوه أن يكف عن الحجاج ، فكف عنهم وشرط عليهم أن يعودوا إلى بغداد ، فعادوا ولم يحج في هذا العام أحد. وسار أبو طاهر إلى الكوفة فأقام

فيها أياماً ورحل عنها عائداً إلى هجر ، بعد أن نادى بالأمان ، وفرض على أهل خراسان وشمال العراق وبادية الشام الأموال الطائلة التي كانت تحمل إليه في كل سنة من كافة المناطق التي أخضعها بحد السيف.

وفي الوقت الذي كانت تغزو فيه جيوش الفاطميين مصر ، كان أبو طاهر الجنابي يوجه ضرباته الشديدة الى العباسيين ، محاولاً الاتصال بالجيوش الفاطمية في مصر بقيادة قائده أبي القاسم بن عبدالله المهدي ؛ ولكن مؤنساً الخادم قائد الخليفة العباسي المقتدر حال دون تحقيق ذلك الاتصال . فعمد القرامطة الى شن غاراتهم البحرية على جنوب غربي بلاد فارس ، بقصد إشغال جيوش العباسيين ليتيحوا الفرصة للفاطميين لامتلاك مصر وضمها إلى الخلافة الفاطمية الإسماعيلية في المغرب .

ولا بد من الإشارة إلى ما ذكره التاريخ الإسلامي حول الانقسام الذي أخذ يذر قرنه بين القرامطة بعد الانتصارات الكبيرة التي حققوها في الجزيرة العربية وشمالي العراق وبلاد فارس ، وأسسوا دولة وراثية في بيت الجنابي يعاونهم في السلطة مجلس دعاة من ١٢ عضواً ، ووضعوا لهذه الدولة القوانين والأنظمة التي تكفل للفرد العدالة والمساواة ، وللجيوش المحاربة النظام والقوة والإخلاص .

وفي سنة ست وعشرين وثلاثمائة - كما يذكر التاريخ الإسلامي - اختل أمر القرامطة وبدأ فساد حالهم وقتل بعضهم بعضاً . وسبب ذلك أن رجلاً منهم يدعى ابن سنبر من خواص أبي سعيد ، والمطلعين على سره ، له عدو من القرامطة إسمه أبو حفص الشريك ، فقصد ابن سنبر إلى أصبهان لصاحب له هناك يدعى الصفوي ذو النور فتكلم

معه وقال له : بما أني واقف على أسرار أبي سعيد وغوامض أحوال القرامطة وعلومهم وإشاراتهم أريد أن أرشدك إلى ذلك كله ، حتى أجعلك سيداً عليهم يطيعونك فيما تأمر وينتهون بنهيك بشرط أن تقتل عدوي أبا حفص الشريك . فأجابه إلى ذلك فجلس إليه يعلمه ويرشده ، حتى إذا أتم وصار استاذاً ماهراً في دلائل القرامطة وأحوالهم ومعارفهم وعلامات كان يذكرها في صاحبهم الذي يدعون إليه ، فحضر عند أولاد أبي سعيد وذكر لهم ذلك وأشار اليهم بما يعرفونه من علامات وعلوم ومعارف وإرشادات عالية في علومهم وأحوالهم الباطنة ، فقال أبو طاهر : هذا الذي ندعو إليه، فأطاعوه ودانوا له حتى كان يأمر الرجل بقتل أخيه فيقتله ، وكان إذا كره أحداً يقول إنه مريض يعني أنه قد شك في عقيدتهم ويأمر بقتله .

وبلغ أبا طاهر أن الصفوي يريد أن يأمر بقتله لينفرد بالملك بعده ، فجمع إخوته وتشاور معهم في أمره وقال : لقد أخطأنا في اعتمادنا هذا الرجل وجعلنا له السلطة المطلقة في أمرنا ، ولا بد من أن أكشف أمره وأقف على حقيقة حاله . فأحضره وقال له : إن لنا مريضاً فانظر إليه ليبرأ فحضروه إلى منزلهم وكانوا مدبرين حيلة له ، وهو أنهم أضجعوا والدتهم وغطوها بإزار فلما دخل ورآها على هذه الصورة نظر نحو المريض وقال : إن هذا المريض لا يبرأ بنظري فاقتلوه . فقالوا قد كذبت وهذه والدتنا . وقاموا إليه وأوثقوه وقتلوه بعد أن أهلك منهم خلقاً كثيراً من عظمائهم وفرسانهم ، وكان هذا سبب تمسكهم بهجر وترك قصد البلاد الأخرى .

ونترك التعليق على هذه الرواية وأمثالها من الأقاويل التي ذكرها بعض المؤرخين حول القرامطة للفصل الرابع عشر والأخير إن شاء الله .

الفصل الرابع عشر

إسدال الستار على الدعوة في السواد والبحرين

بعد أن هدأت حدة المعارك بين القرامطة والعباسيين ، لمس أبو طاهر الجنابي وهو في أوج قوته ونفوذه ، بأن صراعاً داخلياً خفياً بدأ يذر قرنه في عائلة آل الجنابي ، حول القيادة والزعامة ، ولكنه غض الطرف عما يتفاعل في صفوف العائلة ، وحاول أن يجمع الكلمة ويوحد الصف خشية أن يستغل الخصوم هذا الصراع الداخلي فيتمكنون من القضاء على الأسرة بكاملها ، وعلى الدعوة التي أفنى حياته في سبيل نشرها وتقويتها .

ورغم القلق الشديد الذي سيطر على أبي طاهر ، فانه لم يشغله عن النشاط والتنقل والتجوال في المناطق التي تخضع لنفوذه ، فزار الكوفة سنة ٣٣٢ هـ ، لتفقد أحوالها وإجراء بعض الاتصالات الهامة مع أتباعه في بادية الشام والأهواز ، فأصيب بمرض الجدري ، مما أجبره على قطع رحلته والعودة إلى مقره في هجر ، حيث أدركته الوفاة في شهر رمضان من نفس العام .

واستغل أخواه أبو القاسم سعيد وأبو العباس أحمد غيابه عن الساحة فوثبا على السلطة ، وشكلا مجلساً للقيادة من ستة زعماء ، من أصحاب الأمر والنهي ، والحل والعقد ، ليأخذ على عاتقه مهمة تقوية الاتصال بالخلافة الفاطمية في المغرب وتطبيق سياستها في البلدان الخاضعة لنفوذ آل الجنابي .

وعقد مجلس الدعوة في البحرين أول جلسة له بعد شهر من وفاة أبي طاهر واتخذ عدة قرارات هامة تتعلق بالدعوة وأهدافها الجديدة الناهدة إلى مواصلة القتال ضد الخلافة العباسية ، والموافقة على إعادة الحجر الأسود إلى مكانه في البيت الحرام تلبية لرغبة الخليفة الفاطمي

وكسباً لوده ، ورفض كافة المبالغ التي وعد بدفعها الخليفة العباسي لقاء إعادة الحجر الأسود . وبالفعل أعيد الحجر الأسود مع سنفر بن الحسين بن سنبر في سنة تسع وثلاثين ووضع في مكانه يوم النحر فكانت مدة غيبته اثنتين وعشرين سنة تنقص أياماً :

وحتى يؤكد مجلس قيادة الدعوة في البحرين على إخلاصه للدعوة وتقيده المطلق بتعليمات إمام الزمان رأى أن يرجع إلى الإمام ويعرض عليه القرارات التي اتخذها ، ويطلب منه إقرار التعيينات حرصاً على مصلحة الدعوة باعتبار أن هذا المجلس يمثل كافة الأطراف المتنازعة على النفوذ والسلطة ، وبنفس الوقت يطلبون من الإمام أن يختار أحد أعضاء المجلس ليكون رئيساً للدعوة وداعياً لدعاتها .

وكحل وسط بين الأطراف المتنازعة أقر الخليفة الفاطمي القائم بأمر الله أحمد الجنابي في رئاسة الدعوة ، وولى سابور العهد من بعده ، وأمر برص الصفوف وتوحيد الكلمة ، ووضع حد للخلافات الداخلية ، والإقتداء بالآباء والأجداد وبما بذلوه من تضحيات في سبيل نشر الدعوة في البحرين .

ولكن أحمد الجنابي الذي أصبح رئيساً للدعوة ، كان يؤثر ابنه الحسن الأعصم على ابن أخيه سابور لولاية العهد ، أقلقه هذا التعيين ، وراح يتحين الفرص للتخلص من ابن أخيه سابور ، وبذلك عاد النزاع والتنافس سراً بين عائلة الجنابي .

وفي أحد الأيام دخل حسن الأعصم على ابن عمه سابور وهو في مقرّه ، وطلب منه أن يتحدث إليه على انفراد في بعض الأمور الخاصة بالدعوة ، فدخل سابور غرفة جانبية في قصره وأشار الى الحسن الأعصم ليتبعه ، ولما أصبحا منفردين قال الحسن الأعصم :

لقد مضى على تعيينك ولياً للعهد فترة طويلة من الزمن ، وكنا نشعر خلال هذه المدة بتهاونك وتعاونك مع من يكنّون لنا البغض والحقد والضغينة ، كأنك لست منا ولا تمت إلى عائلة الجنابي بصلة القربى والنسب ، فهل بامكانك يا بن العم أن توضح لنا مواقفك بجلاء وصراحة لنكون على بينة من أمرنا ؟

قال سابور وقد افتر ثغره عن ابتسامة صفراء : أنا أعلم يا حسن أشياء كثيرة عن نشاطك المعادي ، وتأليبك الجماعات عليَّ ، كأن الحقد الدفين الذي كان يتفاعل في أعماقك لا يزال يسيطر عليك ، فأنا منذ تسلّمي لهذا المنصب قد صفيت النوايا ، وقررت التعاون مع والدك الذي هو رئيس الدعوة الشرعي إلى أقصى حدود التعاون ، ولكن يبدو من خلال تصرفاتك أن طموحك لا يحد ، وانتهازيتك لن تتوقف . . .

قال حسن الأعصم : هل تعاونك يا سابور مع والدي برفضك أوامره وتعليماته وإرشاداته ؟

قال سابور : ومتى رفضت ذلك ؟

قال حسن الأعصم : عندما عرض عليك التعاون مع العباسيين وإنهاء الحروب فيما بيننا حرصاً على مصلحتنا ومصلحة الجماعات . . . .

قال سابور : كيف تريدني أن أتعاون مع من اغتصب حقوقنا ، وناصب أئمتنا العداء ، وشنع عليهم وعلينا ؟

قال حسن الأعصم : السياسة شيء والدين شيء آخر . .

قال سابور : هذا الرأي لا ينسجم مع العقيدة التي ورثناها عن

أجدادنا ، ولا يمكن أن أتعاون مهما كانت الظروف مع خصومنا ، إلاّ إذا أمرني إمام الزمان بذلك . .

قال حسن الأعصم : موقفك هذا يؤكد نيّتك المبيتة نحونا ، وأحذرك من عاقبة هذا الأمر . . .

قال سابور : أتهددني يا حسن . . . فأنت تعلم بأنني لا أخاف التهديد . . . ولا أخالف تعاليم الإمام وإرشاداته ، فافعل ما تريد . . . .

قال حسن الأعصم : ستندم يا سابور . . ولن ينفعك تمسكك هذا عندما تدور الدائرة . . .

وخرج حسن الأعصم غاضباً يهدد ويتوعد ، بينما توجه سابور إلى مجلسه وأخبر بعض المقربين إليه عما دار بينه وبين حسن الأعصم من أحاديث ، فنصحوه بالتريث وعدم إظهار ما يتفاعل في أعماقه ، خشية أن يغدر به حسن الأعصم ، وأن يشرح ما يدور حوله من مؤامرات للخليفة الفاطمي ، ويطلب منه إبعاد أحمد الجنابي وولده حسن الأعصم عن رئاسة الدعوة . ولكن حسن الأعصم لم يمهله حتى يراسل الخليفة الفاطمي ، فهاجم مقرّه ليلاً وقتله سنة ٣٥٨ هـ ونفى أنصاره إلى جزيرة أوال ، وحل محله في ولاية العهد .

ولقد أغضب قتل سابور ونفي مؤيديه الخليفة الفاطمي ، واعتبر قتله خروجاً على طاعته ، ومخالفة صريحة لأوامره وتعليماته ، مما أدى الى انقسام القرامطة بسبب النزاع الداخلي إلى فريقين :

الفريق الأول بزعامة بيت أبي طاهر ، وقد ظل على إخلاصه للفاطميين . والفريق الثاني بزعامة بيت أحمد بن أبي سعيد الجنابي

وعلى رأسه الحسن الأعصم ، خرجوا على الفاطميين وتقرّبوا من العباسيين . لذلك نشب نزاع مسلح بين المعارضين والمؤيدين للفاطميين ، فاتخذ حسن الأعصم من استيلاء الفاطميين على دمشق بقيادة جعفر بن فلاح سنة ٣٥٨ هجرية ، ومنعهم الجزية التي كانت تدفع للقرامطة من قبل ، ومقدارها ثلثمائة ألف دينار كل سنة ، فرصة للانتقام من الفاطميين ، فسار إلى بلاد الشام ، بقصد الاستيلاء عليها وأخذ هذه الجزية بالقوة .

وحاول الحسن الأعصم قبل مسيره إلى بلاد الشام أن يعقد حلفاً مع الخليفة العباسي المطيع ضد الفاطميين ، ولكن الخليفة رفض هذا العرض وقال : كلهم قرامطة وعلى دين واحد : فأما المصريون فأماتوا السنن ، وقتلوا العلماء ، وأما هؤلاء فقتلوا الحجاج وقلعوا الحجر الأسود .

ولما فشل الحسن الأعصم من التحالف مع الخليفة العباسي عمد إلى التقرب من البويهيين ، فأرسل إلى عز الدولة بختيار يستمد منه المعونة بالسلاح والمال . فأجابه إلى ذلك واستقر الحال أنهم إذا ساروا الى الكوفة سائرين إلى الشام حملوا الذي استقر ، فلما وصلوا الكوفة أوصل إليهم ذلك ، وساروا إلى دمشق ، وبلغ خبر وصولهم إلى جعفر ابن فلاح فاحتقرهم واستهان بهم ، ولم يحتط ويحترز منهم ، ولم يعمل لهم حساباً ، فكبسوه بظاهر دمشق في ناحية الدكة على نهر يزيد من حيث لا يشعر بهم ، فقتل جعفر بن فلاح في ٦ ذي الحجة سنة ٣٦٠ هجرية ، وغنموا ماله وأنعامه ومتاعه ، واستولوا على دمشق .

وسار حسن الأعصم الى الرملة فاحتلها بعد معارك ضارية وخسائر جمة ، وانضم إليه كثير من الأخشيدية والكافورية ، واستأنف

السير إلى مصر فاستولى على الفرما في محرم سنة ٣٦١ هـ ، وأمعن السير داخل البلاد حتى وصل إلى عين شمس فعسكر بجنده ، وأخذ يهدد مدينة القاهرة ، ولما علم جوهر الصقلي بذلك ، أعد العدة للحيلولة دون وصوله إلى القاهرة ، فحصنها .

وفي أوائل شهر ربيع الأول سنة ٣٦١ هجرية بدأ القتال بين الفاطميين والقرامطة ، عند باب مدينة القاهرة ، وانتهت المعركة بهزيمة القرامطة ، وارتدادهم إلى القلزم . ولما علم الخليفة الفاطمي المعز لدين الله بغزو القرامطة لمصر ، أرسل اليها جيشاً بقيادة أبي محمد الحسين بن عمار ، فازدادت قوة جوهر العسكرية ، وتوجّه الى مدينة تنيس وأخضعها ، وعفا عن أهلها .

عاد حسن الأعصم الى دمشق مدحوراً مهزوماً ، نهبت أمواله ، وأخذت صناديقه وكتبه ، من قبل بني عقيل وبني طي، كما انسحب أسطوله من النيل ، واضطر الى العودة إلى الاحساء ، لإخماد ثورة أنصار أبي طاهر وسابور ، ثم عاد من الاحساء ونزل الرملة ، وطرح مراكب في البحر وملأها بالمقاتلة وأكثر من جمع العربان معه للسير إلى القاهرة .

وفي أواخر سنة ٣٦٢ هجرية وصل الخليفة الفاطمي المعز الى مصر ، واتخذ القاهرة عاصمة لدولته ، وأرسل الى الحسن بن أحمد الجنابي القرمطي كتاباً طويلاً يهدده فيه ويتوعده ، ويعرض عليه في نهاية الكتاب أن يختار لنفسه إحدى ثلاث خصال ، وإلا أصبح الحكم بينهما للسيف وحده .

وهذا هو نص الكتاب كما وجدناه بين المصادر الإسماعيلية :

بسم الله الرحمن الرحيم

رسوم النطقاء ، ومذاهب الأئمة والأنبياء ، ومسالك الرسل والأوصياء ، السالف والآنف منا صلوات الله علينا وعلى آبائنا أولي الأيدي والأبصار في متقدم الدهور والأكوان ، وسالف الأزمان والأعصار ، عند قيامهم بأحكام الله وانتصابهم لأمر الله ، الابتداء بالأعذار ، والانتهاء بالإنذار ، قبل انفاذ الأقدار في أهل الشقاق والأصار ، لتكون الحجة على من خالف وعصى ، والعقوبة على من باين وغوى ، حسب ما قال الله جل وعز : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » و« إن من أمة إلا خلا فيها نذير » وقوله سبحانه : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ، وسبحان الله وما أنا من المشركين » وقوله : « فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق » .

أما بعد أيها الناس فإنا نحمد الله بجميع محامده ، ونحمده بأحسن مماجده ، حمداً دائماً أبداً ، ومجداً عالياً سرمداً ، على سبوغ نعمائه ، وحسن بلائه ، ونبتغي إليه الوسيلة بالتوفيق والمعونة على طاعته ، والتسديد في نصرته ، ونستكفيه ممايلة الهدى والزيغ عن قصد الهدى ، ونستزيد منه إتمام الصلوات ، وإفاضات البركات ، وطيب التحيات ، على أوليائه الماضين ، وخلفائه التالين ، منا ومن آبائنا الراشدين المهديين المنتخبين ، الذين قضوا بالحق وكانوا به يعدلون .

أيها الناس « قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمل فعليها » ليذكر من يذكر ، وينذر من أبصر واعتبر ، أيها الناس إن الله جل وعز إذا أراد أمراً قضاه وإذا قضاه أمضاه ، وكان من قضائه فينا قبل التكوين أن خلقنا أشباحاً ، وأبرزنا أرواحاً ، بالقدرة

مالكين ، وبالقوة قادرين ، حين لا سماء مبنية ، ولا أرض مدحية ، ولا شمس تضيء ولا قمر يسري ، ولا كوكب يجري ولا ليل يجن ، ولا أفق يكن ، ولا لسان ينطق ، ولا جناح يخفق ، ولا ليل ولا نهار ، ولا فلك دوار ، ولا كوكب سيّار ، فنحن أول الفكرة وآخر العمل ، بقدر مقدور ، وأمر في القدم مبرور ، فعند تكامل الأمر وصحة العزم ، وانشاء جل وعز المنشآت ، وإبداء الأمهات من الهيولات ، طبعنا أنواراً وظلماً ، وحركة وسكوناً ، وكان من حكمه السابق في علمه ما ترون من فلك دوار ، وكوكب سيار ، وليل ونهار ، وما في الآفاق من آثار معجزات وأقدار باهرات ، وما في الأقطار من الآثار ، وما في النفوس من الأجناس والصور والأنواع من كثيف ولطيف ، وموجود ومعدوم ، وظاهر وباطن ، ومحسوس وملموس ، ودان وشاسع ، وهابط وطالع ، كل ذلك لنا ومن أجلنا ، دلالة علينا وإشارة إلينا يهدي به الله من كان له لب سجيح ، ورأي صحيح ، وقد سبقت له الحسنى ، فدان بالمعنى ، ثم أنه جل وعلا أبرز من مكنون العلم ومخزون الحكم ، آدم وحواء أبوين ذكراً وأنثى سبباً لإنشاء البشرية ، ودلالة لإظهار القدرة القوية ، وزواج بينهما فتوالد الأولاد ، وتكاثرت الأعداد ، ونحن ننتقل في الأصلاب الزكية ، والأرحام الطاهرة المرضية ، كلما ضمنا صلب ورحم أظهر منا قدرة وعلم ، وهلم جرا إلى آخر الجد الأول ، والأب الأفضل سيد المرسلين ، وإمام النبيين ، أحمد ومحمد صلوات الله عليه وعلى آله في كل ناد ومشهد ، فحسن آلاؤه ، وظهر بالأحدية ، ودان بالصمدية ، فعندها سقطت الأصنام ، وانعقد الإسلام ، وانتشر الإيمان وبطل السحر والقربان ، وهربت الأوثان ، وأتى بالقرآن ، شاهداً بالحق والبرهان ، فيه خير ما كان وما يكون الى يوم الوقت المعلوم ، منبئاً عن كتب تقدمت في صحف قد نزلت ، تبياناً لكل شيء ، وهدى ورحمة ونوراً وسراجاً

منيراً ، وكل ذلك دلالات لنا ، ومقدمات بين أيدينا وأسباب لإظهار أمرنـا هدايات وآيات وشهـادات وسعـادات قدسيات ، إلاهيات أزليّات كائنات منشآت ، مبدثات معيدات ، فما من ناطق نطق ، ولا نبي بعث ، ولا وصي ظهر إلا وقد أشار الينا ولوح بنا ، ودل علينا ، في كتابه وخطابه ، ومنار أعلامه ، ومرموز كلامه ، فيما هو موجود غير معدوم ، وظاهر وباطن ، يعلمه من سمع النداء ، وشاهد ورأى ، من الملأ الأعلى ، فمن أغفل منكم أو نسي ، أو ضل أو غوى ، فلينظر في الكتب الأولى والصحف المنزلة وليتأمل الى القرآن ، وما فيه من البيان ، وليسأل أهل الذكر ان كان لا يعلم ، فقد أمر الله عز وجل بالسؤال ، فقال : فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون .

وقال سبحانه وتعالى : فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون . ألا تسمعون قول الله حيث يقول : وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون . وقوله تقدست أسماؤه : ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم . وقوله له العزة : شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه . ومثل ذلك في كتاب الله تعالى كثير ، ولولا الإطالة لأتينا على كثير منه .

ومما دل به علينا أنبأ به عنا قوله عز وجل: كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة ، والزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة ، زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار ، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم . وقوله في تفضيل الجد الفاضل والأب الكامل محمد ، صلى الله عليه وسلم ، إعلاماً بجليل قدرتنا وعلو أمرنا : ولقد

آتينا سبعا من المثاني والقرآن العظيم . هذا مع ما أشار وأبان وأوضح ، في السر والإعلان . من كل مثل مضروب وآية وخبر وإشارة ودلالة حيث يقول : وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون . وقال سبحانه وتعالى : إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب . وقوله جل وعز : سنريهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . فإن اعتبر معتبر وقام، تدبر ما في الأرض وما في الأقطار والآثار ، وما في النفس من الصور المختلفات والأعضاء المؤتلفات والآيات والعلامات والاتفاقات والاختراعات والأجناس والأنواع ، وما في كون الإبداع من الصور البشرية والآثار العلوية ، وما تشهد به حروف المعجم ، والحساب المقوم ، وما جمعته الفرائض والسنن ، وما جمعته السنون من فصل وشهر ويوم ، وتضيف القرآن من تجزيه وأسباعه ومعانيه وأرباعه ، وموضع الشرائع المتقدمة ، والسنن المحكمة ، وما جمعته كلمة الإخلاص في تقاطيعها وحروفها وفصولها ، وما في الأرض من إقليم وجزيرة ، وبر ، وبحر ، وسهل وجبل ، وطول وعرض وفوق وتحت ، الى ما اتفق عليه في جميع الحروف من أسماء المدبرات السبعة والأيام السبعة النطقا والأوصيا والخلفا ، وما صدرت به الشرائع من فرض ومنة وحدوسة ، وما في الحساب من آحاد وأفراد وأزواج وأعداد تثاليثه وترابيعه واثنا عشريته وتسابيعه ، وأبواب العشرات والمثين والألوف ، وكيف تجتمع وتشتمل على ما اجتمع عليه ما تقدم من شاهد عدل وقول وصدق وحكمة حكيم وترتيب عليم ، فلا إله إلا هو له الأسماء الحسنى والأمثال العلى . وان تعدوا نعمة الله فلا تحصوها . وفوق كل ذي علم عليم . ولو ان ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله .

وليعلم الناس من كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد ان كلمات الله الأزليات ، وأسماءه التامة ، وأنواره الشعشعانيات ، وأعلامه النيرات ، ومصابيحه البينات ، وبدائعه المنشآت ، وآياته الباهرات ، واقداره النافذات ، لا يخرج منا ، ولا يخلو منا عصر ، وانا لكما قال الله سبحانه وتعالى : ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ان الله بكل شيء عليم فاستشعروا النظر فقد نقر في الناقور ، ونار التنور ، وأتى النذير بين يدي عذاب شديد ، فمن شاء فلينظر ، ومن شاء فليتدبر ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين .

وكتابنا هذا من فسطاط مصر ، وقد جئنا على قدر مقدور ، مذكور ، فلا نرفع قدماً ، ولا نضع قدماً إلا بعلم موضوع ، وحكم مجموع ، وأجل معلوم وأمر قد سبق ، وقضاء قد تحقق . فلما دخلنا وقد قدر المرجفون من أهلها أن الرجفة تنالهم ، والصعقة تحل بهم ، تبادروا وتعادوا شاردين وجلوا عن الأهل والحريم والأولاد والرسوم ، وأنا لنار الله الموقدة التي تتطلع على الأفئدة فلم أكشف لهم خبراً ، ولا قصصت لهم أثراً ، ولكني آمرت بالنداء وآذنت بالأمان لكل بادىء وحاضر ومنافق ومتشاقق ، أو عاص ومارق ومعاند ، ومنابق ، ومن أظهر صفحته ، وأبدى لي سوءته . فاجتمع الموافق والمخالف ، والباين والمنافق ، فقابلت الولي بالإحسان والمسيء بالغفران . حتى رجع الناد والشارد ، وتسوى الفريقان ، واتفق الجمعان ، وانبسط القطوب ، وزال الشحوب ، جرياً على العادة بالإحسان والصفح والامتنان والرأفة والغفران ، فتكاثرت الخيرات ، وانتشرت البركات ، كل ذلك بقدرة ربانية ، وأمرة برهانية ، فأقمت الحدود

بالبينة والشهود ، في العرب والعبيد ، والخاص والعام ، والبادي والحاضر ، باحكام الله عز وجل وآدابه وحقه وصوابه ، فالولي آمن جذل ، والعدو خائف وجل .

فأما أنت الغادر الخائن ، الناكس البائن ، عن الهدى آبائه وأجداده ، المنسلخ عن دين أسلافه وأنداده ، والموقد لنا الفتنة ، والخارج عن الجماعة والسنة ، أفلم أغفل أمرك ، ولا خفي عني خبرك ، استتر دوني أثرك وانك مني لبمنظر ومسمع ، كما قال الله عز وجل : إنني معكما أسمع وأرى . ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا . فعرفنا أي رأي أصلت ، وأي طريق سلكت ، أما كان لك بجدك أبي سعيد أسوة ، وبعمل أبي طاهر قدوة ؟ أما نظرت في كتبهم وأخبارهم ، ولا قرأت وصاياهم وأشعارهم ؟ آكنت غائباً عن ديارهم وما كان من آثارهم ؟ ألم تعلم أنهم كانوا عباداً لنا أولي بأس شديد ، وعزم شديد ، وأمر رشيد ، وفعل حميد ، يفيض إليهم موادنا وينشر عليهم بركاتنا ، حتى ظهروا على الأعمال ودان لهم كل أمير ووال ، ولقبوا بالسادة فسادوا ، منحة منا واسماً من أسمائنا ، فعلت أسماؤهم ، واستعلت هممهم ، واشتد عزمهم ، فسارت اليهم وفود الآفاق ، وامتدت نحوهم الأحداق ، وخضعت لهيبتهم الأعناق ، وأن يكونوا لبني العباس أضداد ، فعبثت الجيوش وسار كل خميس بالجرال المنتجبة ، والعدد المهذبة ، والعساكر الموكبة ، فلم يلقهم جيش إلا كسروه ، ولا رئيس إلا أسروه ، ولا عسكر إلا كسروه ، وألحاظنا ترمقهم ، ونصرنا يلحقهم ، كما قال الله جل وعز : إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا . وقوله :وإن جندنا لهم الغالبون . وان حزبنا لمنصورون .

فلم يزل رأيهم وعين الله ترمقهم ، إلى أن اختاره لهم ما

اختاروه من نقلهم من دار الفناء إلى دار البقاء ، ومن نعيم يزول إلى نعيم لا يزول ، فعاشوا محمودين وانتقلوا مفقودين إلى روح وريحان وجنات النعيم ، فطوبى لهم وحسن مآب .

ومع هذا فما من جزيرة في الأرض ولا إقليم إلا ولنا فيه حجج ودعاة يدعون الينا ويدلون علينا ، ويأخذون تبعتنا ، ويذكرون رجعتنا ، وينشرون علمنا ، وينذرون بأسنا ، ويبشرون بأيامنا ، بتعاريف اللغات واختلاف الألسن ، وفي كل جزيرة وإقليم رجال منهم يفقهون وعنهم يأخذون وهو قول الله عز وجل : وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم .

وأنت عارف بذلك ، فيا أيها الناكث الحانث ما الذي أرداك وصدك ؟ أشيء شككت فيه أم أمر استربت به ؟ أم كنت خلياً من الحكمة ، وخارج عن الكلمة ؟ فأزالك وصدك ، وعن السبيل ردك ، إن هي إلا فتنة لكم ومتاع الى حين ، وأيم الله لقد كان الأعلى لجدك ، والأرفع لقدرك ، والأفضل لمجدك ، والأوسع لوفدك ، والأنضر لعودك ، والأحسن لعذرك ، الكشف عن أحوال سلفك وإن خفيت عليك ، والقفو لآثارهم وإن عميت لديك ، لتجري على سننهم وتدخل في زمرهم ، وتسلك في مذهبهم ، أخذاً بأمورهم في وقتهم ، وزمرهم في عصرهم فتكون خلفاً قفا سلفاً بجد وعزم مؤتلف ، وأمر غير مختلف ، لكن غلب الران على قلبك ، والصدى على لبك ، فأزالك عن الهدى ، وأزاغك عن البصيرة والضياء ، وأمالك عن مناهج الأولياء ، وكنت من بعدهم كما قال الله عز وجل : فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً . ثم لم تقنع في انتكاسك وترديتك في ارتكاسك ، وارتباكك وانعكاسك ، من خلافك الآباء ، ومشيك القهقرى ، والنكوص على الأعقاب ،

والتسمي بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ، وعصيانك مولاك ، وجحدك من ولاك حتى انقلبت على الأدبار ، وتحملت عظيم الأوزار ، لتقيم دعوة قد درست ، ودولة قد طمست ، إنك لمن الغاوين ، وانك لفي ضلال مبين ، أم تريد أن ترد القرون السالفة ، والأشخاص الغابرة ؟ أما قرأت كتاب السفر ، وما فيه من نص وخبر ؟ فأين يذهبون إن هي إلا حياتكم الدنيا ، تموتون وتظنون أنكم لستم بمبعوثين : قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير .

أما علمت أن المطيع آخر ولد العباس ، وآخر المتراس في الناس ، أما تراهم كأنهم اعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية ، ختم والله الحساب ، وطوي الكتاب ، وعاد الأمر إلى أهله ، والزمان إلى أوله ، وأزفت الآزفة ، ووقعت الواقعة ، وقرعت القارعة ، وطلعت الشمس من مغربها ، والآية من وطنها ؛ وجيء بالملائكة والنبيين وخسر هنالك المبطلون ، هنالك الولاية لله الحق ، والملك لله الواحد القهار ، فله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر الله من يشاء : يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد . فقد ضلّ عملك وخاب سعيك ، وطلع نحسك ، حين آثرت الحياة الدنيا على الآخرة ، ومال بك الهوى ، فأزالك عن الهدى ، فان تكفر أنت ومن في الأرض جميعاً فان الله هو الغني الحميد .

ثم لم يكفك ذلك ، مع بلائك وطول شقائك ، حتى جمعت أرجاسك وأنجاسك وحشدت أوباشك وأقلاصك ، وسرت قاصداً الى دمشق وبها جعفر بن فلاح في فئة قليلة من كتامة وزويلة ، فقتلته

وقتلتهم ، جرأة على الله ورداً لأمره ، واستبحت أموالهم ، وسبيت نساءهم ؛ وليس بينك وبينهم كره ولا ثأر ولا حقد ولا أضرار ، فعل بني الأصفر والترك والخزر ، ثم سرت أمامك ولم ترجع ، وأقمت على كفرك ولم تقلع ، حتى أتيت الرملة وفيها سعادة بن حيان في زمرة قليلة وفرقة يسيرة ، فاعتزل عنك إلى يافا ، مستكفياً شرك ، وتاركاً حربك ، فلم تزل ماكثاً على نكثك باكراً وصابحاً ، وغادياً ورائحاً ، تقعد لهم بكل مقعد ، وتأخذ عليهم بكل مرصد ، وتقصدهم بكل مقصد ، كأنهم ترك وروم وخزر ، لا ينهك عن سفك الدماء دين ، ولا يردعك عهد ولا يقين ، قد استوعب من الردى خيرومك ، وانقسم على الشقاء خرطومك ، أما كان لك مذكر ، وفي بعض أفعالك مزدجر ، أو ما كان لك في كتاب الله عز وجل معتبر حيث يقول : ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً . فحسبك بها فعلة يلقاك يوم ورودك وحشرك حين لا مناص ، ولا لك من الله خلاص ، ولم تستقبلهاوكيف تستقبلها واني لك مقبلها هيهات هيهات ، هلك الضالون ، وخسر هنالك المبطلون ، وقل النصير ، وزال العشير ، ومن بعد ذلك تماديك في غيك ، ومقامك في غيك ، عداوة لله ولأوليائه ، وكفراً لهم وطغياناً ، وعمى وبهتاناً ، اتراك تحسب انك مخله أم لأمر الله راد؟ أم يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولوكره الكافرون . هيهات لا خلود لمذكور ، ولا حر لمقدور ، ولا طافيء لنور ، ولا مقر لمولود ، ولا قرار لموعود، لقد خاب منك الأمل ، وحان لك الأجل ، فإن شئت فاستعد للتوبة باباً ، وللنقلة جلباباً ، فقد بلغ الكتاب أجله ، والوالي أمله ، وقد رفع الله قبضته عن أفواه حكمته ، ونطق من كان بالأمس صامتاً ، ونهض من كان هناك خائفاً ، ونحن أشباح فوق الأمر والنفس ، دون العقل ، وأرواح في القدس نسبة

ذاتية ، وآيات لدنية نسمع ونـرى : ما كنـت تدري ما الكتـاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهـدي به من نشـاء من عبادنـا . وتراهـم ينظرون اليك وهم لا يبصرون .

ونحـن معرضـون ثلاث خصـال والرابعـة أردى لك وأشقـى لبالك ، وما أحسبك تحصل إلا عليها ، فاختر : إما قدمت نفسـك لجعفر بن فلاح وأتباعك بأنفس المستشهدين معه بدمشق والرملة من رجاله ورجال سعادة بن الحيان ، ورد جميع ما كان لهم من رجال وكراع ومتاع إلى آخر حبة من عقال ناقة وخطام بعير ، وهـي أسهـل ما يرد عليك ، وأمـا أن تردهـم أحياء في صورهـم وأعيانهم وأموالهـم وأحوالهم ، ولا سبيل لك إلى ذلك ولا اقتدار ، وأما سرت ومن معك بغير زمام ولا أمان فأحكم فيك وفيهم بما حكمت ، وأجزيكم على إحدى ثلاث أقصاص ، وإمَّامنّا بعدُ ، واما فدى ، فعسى أن يكون تمحيصاً لذنوبك وإقالة لعثرتك ، وإن أبيت إلا فعل اللعين : فاخرج منها فانك رجيم ، وان عليك اللعنة الى يوم الدين . أخرج منها فما يكون لك أن تنكب فيها ، وقيل اخسئوا فيها ولا تكلمون ، فما أنت إلا كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار ، فلا سماء تظللك ، ولا أرض تقلك ، ولا ليل يجنك ، ولا نهار يكنّك ، ولا علم يسترك ، ولا فئة تنصرك ، قد تقطعـت بكم الأسبـاب ، وأعجـزكم الذهاب ، فأنتم كما قال الله عز وجل : مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . لا ملجأ لكم من الله يومئذ ولا منجى منه ، وجنود الله في طلبك قافية ، لا يزال ذو أحقاد ، وثوار أهجاد ، ورجال أنجاد ، فلا تجد في السماء مصعداً ، ولا في الأرض مقعداً ، ولا في الأرض ولا في البحر منهجاً ، ولا في الجبال مسلكاً ، ولا إلى الهواء سلما ، ولا إلى مخلوق ملتجأ ، حينئذ يفارقك أصحابك ، ويتخلى عنك أحبابك ،

يخذلك أترابك ، فتبقى وحيداً فريداً ، وخائفاً طريداً ، وهائماً شريداً ، قد ألجمك العرق ، وكظك القلق ، وأسلمتك ذنوبك ، وازدراك حزبك ، كلا لا وزر إلى ربك .

وكان رد الحسن الأعصم على هذا الكتاب قوله : جوابك وصل الذي قل تحصيله وكثر تفصيله ، ونحن حاضرون إليك على أثره والسلام . وظهر الأعصم ثانية في عين شمس في ربيع الثاني سنة ٣٦٣ هجرية . وخيم فيها مع أتباعه وأنصاره من العرب وقطاع الطرق واللصوص، ونشب القتال بين الطرفين، وتقدمت جماعة الحسن الأعصم فحاصروا القاهرة حصاراً شديداً ، وواصل جنود الخليفة الفاطمي هجماتهم على الصفوف ، حتى أرهقوا القرامطة وأشبعوهم قتلاً ، فولوا منهزمين ، فتبعوهم وظفروا بمعسكرهم ، وأخذوا من فيه أسرى ، وكانوا ألفاً وخمسمائة أسير ، فضربت رقابهم ، وأخذوا ما وجدوه في معسكرهم غنيمة .

ولما علم الخليفة الفاطمي المعز لدين الله بهزيمة القرامطة أمر قائده أبا محمود بن ابراهيم بن جعفر باقتفاء أثرهم على رأس عشرة آلاف مقاتل ، واستئصال شأفتهم ، وإخراجهم من بلاد الشام وضمها إلى مصر ، فاقتفى القائد أثرهم واستطاع أن يسترد الشام ، وهرب القرامطة عائدين إلى الإحساء .

وفي عهد الخليفة الفاطمي العزيز عاد الحسن الأعصم الى دمشق ، وتحالف مع هفتكين ، وتوجها بجيوشهما الى الرملة حيث تقابلا مع الجيوش الفاطمية التي كان يقودها الخليفة العزيز بنفسه في موقعة (نهر الطواحين) وحلت الهزيمة بالقرامطة وحليفهم هفتكين ، ومات الحسن الأعصم في الرملة يوم الأربعاء لسبع بقين من

شهر رجب سنة ست وستين وثلاثمائة .

فقام من بعده ابن عمه جعفر بن أبي سعيد الجنابي ، وقاتل جوهراً هو وهفتكين بقية السنة ، ثم دب الخلاف بينه وبين هفتكين ، فعاد إلى الإحساء ، وحمل معه الحسن الأعصم ليدفن هناك .

وكانت النتائج الفورية لهذه الحروب العنيفة التي خاض غمارها القرامطة التفكك والانحلال في صفوفهم ، فثار آل أبي طاهر على أتباع الحسن الأعصم واضطروهم إلى الهجرة ، بينما أعلنت البقية الباقية من القرامطة الولاء والعودة إلى حظيرة الدعوة الإسماعيلية ، ومحاربة العباسيين . واستمروا على إخلاصهم للفاطميين إلى أن أسدل الستار على دولتهم في جزيرة أوال سنة ٤٥٩ هجرية ، وعلى دولتهم في البحرين سنة ٤٧٠ هجرية . وهكذا زالت دولتهم، واضمحل نفوذهم ، بعد جهاد طويل ، وصراع عنيف ، استمر فترة طويلة من الزمن .

وبعد أن أسدل الستار الكثيف على القرامطة ونفوذهم في البلاد العربية ، لا بد لنا من استعراض بعض الآراء والأقوال التي وردت على صفحات التاريخ حولهم وحول تصرفاتهم الدعاوية والقتالية ، تبياناً للحقيقة ، وتعميماً للفائدة ، ليتمكن القارىء من رسم صورة واضحة للحركة القرمطية وتفاعلها في العالم الإسلامي ، ونتائج هذا التفاعل في المجتمعات الإسلامية والعربية .

والغريب في الأمر أن بعض المؤرخين إن لم نقل أكثرهم قد وصموا الحركة القرمطية بالكفر والإلحاد والفسق والفجور ، ووصفوهم بأحط التهم المناقبية والخلقية والاجتماعية ، وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، ولكنه تعداه إلى عصرنا الحاضر عصر الذرة

والاكتشافات الكونية ، حيث قام بعض الباحثين عن قصد أو غير قصد إلى سلوك نفس الطريق الذي سلكه من سبقهم من الكتاب والمؤرخين ، فاعتمدوا على أقوال السابقين من المتعصبين والحاقدين ، وراحوا يكيلون التهم ، ويصفون القرامطة بصفات لا تتفق مع واقع الحال . وكأن هؤلاء يعتقدون بأنهم لا يزالون يعيشون تحت السيطرة القبلية والعصبية والعشائرية ، بدون أن يفكروا بأن العصر الذي نعيش فيه .هو غير تلك العصور البائدة المنقرضة التي ساد فيها التعصب والتحامل والدس والتلفيق . فنحن في عصر الحرية ، والبحث عن الحقيقة ، والإلكترونيات والاكتشافات الكونية ، لذا يجب أن ننسجم مع عصرنا علمياً وخلقياً فنبحث عن الحقيقة ونجسدها في أعمالنا وسلوكنا مهما كانت تلك الحقيقة مرة وصعبة .

يتضح مما ذكرناه في فصول هذا الكتاب بأن القرامطة هم إسماعيليون قلباً وقالباً ، ولكن الأحداث المضطربة التي اجتاحت أرجاء العالم الإسلامي في ذلك الوقت ، أحدثت بعض العوامل الجذريةو التي تسببت بوجود الشقاق والانكماش لدى القرامطة ، الذين تعنتوا حول بعض النظريات والأنظمة والقوانين الاسماعيلية ، التي تلقنوها من كبار دعاتهم الأول أمثال الحسين الأهوازي وحمدان ابن الأشعث ، وعبدان ، ورفضوا أن يقتنعوا بأن هذه النظريات والأنظمة والقوانين تتطور مع تطور العصر والبيئة والمجتمع ، وتظهر بمظهر جديد لا يؤثر على جوهرها ، بل يبقى هذا الجوهر سليماً خالياً من الشوائب ، يشع بنوره الشعشعاني على الكون ، ليضيء طريق المعرفة لأبناء الإنسانية .

ومن البدهي أن يختط الإمام الاسماعيلي ومجالس دعاته الحرم ، سياسة عليا للدعوة الإسماعيلية ، ويعد منهاجاً مفصلاً للترتيبات

التي تكفل قيام المجتمع الإسماعيلي الكامل ، الـذي تتوفـر فيه جميع التشريعات الإسلامية الحقة التي تتـلاءم مع جوهـر الـدين وصلـب العقيدة ، ولم يكن للقرامطـة سبيل إلى الاطـلاع على هذه السياسـة العليا والوقوف على مجمل أهداف الدعوة الاسماعيلية وغاياتها ، لأن الأئمة الإسماعيليون في ذلك الوقت كانوا يعتمـدون السرية التامـة ، والتستر والتقية ، خوفاً من بطش العباسيين وتنكيلهم.

فالمعضلـة الـرئيسية التـي حملـت في طياتهـا بذور الفرقـة بـين الإسماعيليين والقرامطة هي مرحلة التستر عينها ، التي حالـت دون استمرار التماس بين الفئتين ، وإطلاعهما على الأهداف العليا . فلقد كان الإمام الإسماعيلي المستور محاطاً بأسوار كثيفة من السرية التامة ، وبمعـزل إلا عن المقربـين المخلصـين له ، وكبـار الدعـاة والحجـج والأبواب ، الذين اعتمدهم الإمام واسطة العقد بينه وبين أتباعـه ، وفي دور الستر الأول الذي بدأ بالإمام محمد بن إسماعيل بن جعفـر الصادق كان الدعاة الحرم الأربعة يحملون نفس الإسم الذي يعرف به الإمام للتغطية ولإخفاء شخص الإمام بالذات .

لهذا لم يتسن لجميع الأتباع أن يقفوا على أخبار إمامهم ، ولا على محل إقامته بالضبط حرصاً على سلامته ، فاتخذوا من الدعاة قدوة واعتبروا تعاليمهم صحيحة لا تبديل فيها ولا تغيير طالما تحظى بتأييد الإمام وإقراره .

ولكن دور الستر والتقية ينتهي عند الأئمة بعد بلـوغ الدعـوة مرحلة النضج ، وإنطلاقها في مرحلة التأسيس لدولة إسماعيلية حقة . وما أن تناهي للقرامطة أن الإمام هو عبيد الله المهدي ، حتى التبس عليهم الأمر ، لأنهم كانوا لا يزالون يدينون بالطاعة والولاء للإمـام

محمد بن إسماعيل الذي في حياته تم نشر الدعوة بينهم ، واعتبروه المهدي المنتظر .ولم تفلح الحجج والبراهين التي اعتمدها الدعاة في إقناعهم بأن الإمام عبيد الله المهدي هو الإمام الشرعي بحسب النص الذي تركه الإمام محمد بن إسماعيل الى ولده ومنه إلى ولده حتى وصلت إليه .

ويرجع هذا التعنت من القرامطة الى انقطاعهم في البادية ، وعدم احتكاكهم الدائم في مركز الدعوة في سلمية ، وتتبعهم تطورات هذه الدعوة ، فاعتبروا ان هذه التطورات خارجة عن مفهوم التعاليم الأولية التي رضعوها من الأهوازي والأشعث وعبدان . فأحدث هذا الأمر لدى القرامطة شيئاً من الاضطراب العقائدي ، وبلبلة في تفكيرهم تجاه الإمام عبيد الله المهدي ، حتى أنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك ، فاعتبروا أن عبيدالله المهدي ربما كان قد اغتصب الإمامة من أصحاب الحق الشرعيين .

وثمة معضلة أخرى كان لها الأثر البارز في انحراف القرامطة عن سير الدعوة الاسماعيلية ، وهي أنهم كانوا تواقين بعنف إلى إمام مهدي منتظر يملأ الأرض عدلاً ، ويسارع إلى إنقاذهم من الفوضى الاجتماعية والاقتصادية التي عصفت بهم ، والقلق النفسي الذي تملك مشاعرهم ، فأصروا على الإمام أن يباشر فوراً في إعلان دولة إسماعيلية في بلاد الشام ، تجسد نظام المدينة الفاضلة التي بشر بها الدعاة الأول ، ويطبق فيها نظام الإلفة والمحبة والإخاء الحقيقي ، والعدالة والمساواة ، وكانوا قد أعدوا أنفسهم لتقبل مثل هذا النظام المثالي الناهد إلى إسعاد الفرد والنهوض بالمجتمع . وشرع دعاتهم الأول بتطبيق نظام الإلفة والإخاء الذي عممه مقر الدعوة في سلمية على الجماعات ، وحصروا كافة ممتلكاتهم وأموالهم في بيت للمال واحد ، وسنوا بعضاً من

التشريعات التي تحدد صلاحية الفرد بالنسبة للمجتمع ، وتبين حقوقه الإنسانية ضمن المجموع ، وتضمن حياة العاجز والعاطل ، والعامل والصانع والفلاح .

كما وأن القرامطة باعتقادي قد أنكروا على الإمام الإسماعيلي المرونة وسياسة الملاينة التي اعتمدها في كسب العناصر غير الإسماعيلية ، وتمسكوا في أن تكون الدولة الإسماعيلية قائمة بكافة أجهزتها ودعاماتها على الإسماعيليين دون سواهم ، وأن تبقى وقفاً عليهم وحدهم . كل هذه الأمور الجوهرية والسطحية بالإضافة الى بعض العوامل الشخصية ، أحدثت شقة ، ولو صغيرة ، بين القرامطة والإسماعيلية ، وكانت من أسباب انعطاف القرامطة الى منحى جديد ، ونهج آخر مغاير لروح الإسماعيلية وتعاليمها.

والتاريخ الإسلامي لم يسجل أي عداء صريح ، أو اصطدام مكشوف بين القرامطة والإسماعيلية بل استمر القرامطة على ولائهم التقليدي العقائدي للإمام الإسماعيلي ، وليس أدلّ على ذلك من مسارعة الحسين بن زكرويه للحاق بالإمام عبيد الله المهدي حتى الرملة ، محاولاً إقناعه بالعدول عن الذهاب الى المغرب ، وتأسيس الدولة الإسماعيلية المنشودة في بلاد الشام بدلاً من المغرب بعد أن مهّد له السبيل إلى ذلك.

كما نستطيع الاعتماد على استخدام الإمام الفاطمي فيما بعد سلطته الروحية لدى القرامطة عندما أمرهم باعادة الحجر الأسود الى الكعبة الشريفة ، سبباً وجيهاً يبين مدى تأثير الإمام فيهم وعظيم مرتبته عندهم . وكتاب الخليفة الفاطمي المعز لدين الله الذي وجهه الى الحسن الأعصم خير دليل على مدى ارتباط القرامطة بالإسماعيلية .

ومما لا شك فيه بأن الأئمة كانوا يشرفون بأنفسهم على اختيار أمراء القرامطة ورؤسائهم وتعيينهم .

ويمكن أن نعلل أسباب عدم ذوبان القرامطة في الدولة الإسماعيلية الفاطمية ، والوقوف كلية بجانبها ، الى أن أجهزة الدولة الفاطمية اعتمدت مرونة سياسية في تصريف شؤون الدولة . وجعلت نصب أعينها في المرحلة الأولى تثبيت أركان الدولة وكسب المناوئين لها الى صفوفها بالترغيب والليونة ، مما دفع المغالين من الدعاة الى اعتبار سياسة اللين هذه انحرافاً عن النظرة الإسماعيلية العميقة ، ومخالفة صريحة للتعاليم الأولى التي تلقنها القرامطة ، والتي تقر في أن يكون الإسماعيليون كل الدولة ، وعليهم وحدهم تقع مهمة النهوض بأعبائها ، وان الدولة يجب أن تصهر جميع أفرادها في بوتقة إسماعيلية خالصة . فكانت نظرة القرامطة أن تستمر الإسماعيلية في صراعها ضد الخلافة العباسية دون هوادة أو استكانة حتى تستأصل شأفة الفساد والفوضى ، وتقيم المجتمع السليم الخالي من الشوائب والأدران ، العامر بالإلفة والمحبة والإخاء .

ويجدر بنا أن نعطي العذر للقرامطة في نظرتهم هذه ، لقلة تمرسهم في أصول السياسة ، ولما لاقوه من ظلم واضطهاد وتفكك اقتصادي واجتماعي وديني إبان الخلافة العباسية . والاختلاف كما تؤكده الوقائع في التكوين السياسي لا بالعقائد التي يعتنقونها ، لأن القرامطة إسماعيليون بكل ما في الكلمة من معنى . آمنوا بالعقيدة الإسماعيلية طريقاً للخلاص الى مجتمع مثالي صحيح ، عن طريق الثورة الجذرية العارمة ، غير أن أحداثاً عديدة متشابكة تجمعت كلها فأحدثت صدعاً في بنيان القرامطة ، وساقتهم إلى التمسك بمواقف تتغاير مع السياسة العليا التي اعتمدها الخلفاء الفاطميون ، فزادوا في

انحرافهم ، واشتطوا في تصرفاتهم ، حتى ناصبوا أئمتهم العداء ، ووقفوا على النقيض من أصول منبتهم . ومن ثم تكشفت لهم سبل الهداية ، فتبينوا الأخطاء التي ارتكبها بعض القادة فيهم ، فانتظموا في سلك الدعوة الإسماعيلية من جديد ، واستمروا في نشاطهم وولائهم للأئمة حتى زوال دولتهم .

أما التضارب الواضح في روايات المؤرخين واستنتاجاتهم ، والألقاب التي استنبطوها ، والاشتقاقات التي اشتقوها ، والصفات التي وصفوا فيها القرامطة والاسماعيلية ، فلا بد من مناقشة بعضها وترك البعض الآخر لتفاهته ، فنقول بعد أن أثبتنا بأن القرامطة والإسماعيلية قد عبوا من ينبوع واحد تحت رياسة الأئمة الإسماعيلية ، فعقيدتهم واحدة في كل أساليبها ونظمها وقوانينها : قال الشريف أبي محسن العلوي: إن حمدان الأشعث لاحظ انحرافاً في الرسائل الموجهة إليه من زعيم الإسماعيلية في سلمية ، كما هو متعارف بينهما من قبل فشك في الأمر ، وحاول إرسال أحد دعاته للوقوف على سر هذا الانحراف ، فقام عبدان بتلك المهمة ، وفي سلمية قابل عبدان ابن الزعيم الذي كان يكاتبه القرامطة فعرف منه أن أباه قد توفي وأنه حل محله، كما أقر هذا الإبن لعبدان أن محمد بن إسماعيل حديث خرافة ، وأن الإمام من نسل ميمون بن ديصان ، ولذلك ارتد القرامطة عن هذه الدعوة وتابوا منها ، وانقطعت دعوتهم في العراق نهائياً ، وإن بقيت في غيره من الأقطار . ونقل هذا القول النويري والمقريزي وغيرهما بدون أن يكلفوا أنفسهم بمناقشته لتضاربه وعدم صحته ، ونحن نقول : شعر عبدان وحمدان بن الأشعث بأن فترة غياب الأهوازي عن السواد قد طالت ، لذلك رأى عبدان أن يقوم برحلة إلى سلمية للاستفسار عن الأهوازي ، ولمقابلة إمام الزمان وعرض بعض الأمور المتعلقة بدعوة

السواد عليه، وبالفعل لما وصل عبدان إلى سلمية وجد أن الإمام الحسين بن أحمد بن عبدالله قد حل محل والده الإمام أحمد بن عبدالله بموجب النص الشرعي المعترف به لدى الإسماعيلية ، ولما سأل عن الحسين الأهوازي علم أنه انتقل إلى دار البقاء ، فعاد إلى السواد ليبلغ حمدان بن الأشعث مشاهداته في سلمية ، وليعلمه بأن الإمام أحمد بن عبدالله بن محمد بن إسماعيل قد انتقل إلى جوار ربه . وحل محله في رئاسة الدعوة ولده الحسين . وأن الأهوازي قد توفي أيضاً ، لذلك فقد تسلل الشك إلى نفسه ، وخشي أن تكون وراء وفاة الإثنين معاً مؤامرة لاغتصاب الإمامة . لأن الإمام الذي وصفه لهم الأهوازي هو غير هذا الذي قابله في سلمية .

هذه هي الرواية كما أوردتها المصادر الإسماعيلية ، أما ما طلع به علينا الشريف العلوي فمخالف للواقع والحقيقة ، وليس سوى دس وتلفيق ، إذ ليس من المعقول أن يقول الإمام الإسماعيلي بأن محمد بن إسماعيل حديث خرافة ، وينتسب كما يزعم العلوي إلى ديصان الثنوي ، فما هي مصلحة الإمام من هذا القول الذي إذا كان صحيحاً - وهذا مستحيل - يقوض أركان إمامته من الأساس . . .

كما أن هذا الزعم يعني انقلاب آل القداح على الدعوة الإسماعيلية ، في الوقت الذي كانوا فيه من أخلص المخلصين ، ويتمتعون بثقة الأئمة التي لا تحد . وليست هذه الرواية سوى واحدة من سلسلة القصص الخرافية التي ابتدعت خصيصاً للتدليل على عدم صحة نسب الأئمة الإسماعيلية إلى الإمام علي بن أبي طالب. وكتاب الشريف العلوي الذي كان محوره الطعن في نسب عبيد الله المهدي، ومحاولة رد نسبه إلى ميمون القداح ، خير دليل على تفاهة هذا الشريف جداً ، الذي كتب كتابه بناء على إلحاح الخليفة القادر بالله العباسي .

وهذه رواية أخرى جاء على ذكرها النويري والطبري والمنصوري حول ادعاء آل زكرويه الإمامة منذ بدء حركتهم في بلاد الشام ، وإن الحسين بن زكرويه كان يصف نفسه بالمهدي المنتظر ، والقائم بأمر الله ، الحاكم بحكم الله الداعي الى كتاب الله .

مما لا شك فيه بأن المؤرخين قد اختلفوا حول تفسير طبيعة حركة آل زكرويه في بلاد الشام، فذهبوا مذاهب شتى، وخرجوا باستنتاجات لا يقرّها المنطق ، لأن حركة آل زكرويه ليست سوى إحدى حركات الدعوة الإسماعيلية الرئيسية ، وانها كانت كغيرها من الحركات الإسماعيلية توجه من قبل الأئمة الإسماعيلية بالذات ، وليس من المعقول أن يدعي آل زكرويه بأنهم من الأئمة وهم ليسوا سوى دعاة مثل آلاف الدعاة الذين انتظموا في سلك الدعوة الإسماعيلية ، وعهد اليهم الأئمة بمهمات تنسجم مع مكانتهم وأوضاعهم السياسية والاجتماعية ، ولولا ثقة الإمام عبيد الله المهدي بهم وبإخلاصهم لما اجتمع بالحسين بن زكرويه في الرملة ، في الوقت الذي كان مستوراً فيه ، لا يعرف مكانه إلاّ الخواص من دعاته . وليس أدل على إخلاصهم من الخطبة التي تليت باسم يحيى بن زكرويه في حمص سنة ٢٩٠ هجرية ، والتي يقول فيها : اللهم اهدنا بالخليفة الوارث المنتظر المهدي صاحب الوقت أمير المؤمنين . . . . ولكن الثقة التي كان يوليها الإمام عبيد الله المهدي لآل زكرويه قد تزعزعت لعوامل شتى منها انحرافهم عن نظام الدعوة واعتمادهم على القتل والنهب والسلب ، وفتكهم بذوي المهدي في سلمية ، وطموحهم الذي لا يحد لتسنم الزعامة والقيادة . يقول ثابت بن سنان في كتابه تاريخ أخبار القرامطة وهو يصف هجوم القرامطة على الكعبة وانتزاعهم الحجر الأسود : « . . وقتل الحجاج حتى في المسجد الحرام وفي البيت نفسه ، ورمى

القتلى في بئر زمزم حتى امتلأت بجثث القتلى ، وخلع باب الكعبة ووقف يلعب بسيفه على باب الكعبة وينشد يقول :

أنا بالله وبــالله أنا يخلـق الخلـق وأفنيهـم أنا

وأصعد رجلاً ليخلع ميزاب البيت فوقع صريعاً ميتاً . ودفن باقي القتلى في المسجد الحرام بدون تكفين ولا صُلي عليهم ، وأخذ كسوة الكعبة فقسمها بين أصحابه ، ونهب دور أهل مكة ، وخلع الحجر الأسود من البيت فوضعه على سبعين جمل فسيرهم به وهم يضرطون من ثقله إلى هجر . . . » . مما لا شك فيه بأن القرامطة أخذوا الحجر الأسود من الكعبة وظل في حوزتهم عدة سنوات ، فأعادوه بعد أن هددهم الإمام عبيد الله المهدي بالطرد والمقاطعة ، هذه الرواية قد اتفق عليها جميع الكتاب ، ولكن الشيء الذي لا يدخل إلى العقل ولا يمكن أن يصدقه الإنسان مهما بلغ من البلاهة ، هو أن القرامطة وضعوا الحجر الأسود على سبعين جمل وهم يضرطون من ثقله ، ولا أدري كيف يوضع حجر بحجم الحجر الأسود على سبعين جمل دفعة واحدة ، انها أكذوبة لا تستحق الذكر ولا لفت النظر لولا أننا شئنا أن نقدمها كدليل واضح على ما لفق ودس حول القرامطة . وليت ثابت بن سنان اكتفى بهذه الأكذوبة المفضوحة ، ولكنه أضاف اليها فرية أخرى بقوله : « فرجع به جمل واحد بدلاً من سبعين جملاً وكان يمر به مر السحاب في رجوعه إلى مكة وقيل أن الجمل كان مهزولا ومريضاً فعوفي عند مسيره بالحجر إلى مكة .

هذه الخرافة أو الأسطورة لا يمكن أن نصدقها ولا نصدق راويها لأنها غير معقولة ، ولا يقبلها العقل البشري ، فإذا ذهبنا مع الراوية وقلنا بانه حجر مقدس له كرامته عند الباري سبحانه وتعالى ، نكون

قد خالفنا ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم الذي حطم الأصنام والأوثان ومنع عبادتها ، وتقديسها ، والركوع لها : انه حجر لا يضر ولا ينفع . لذلك لا أستغرب إقدام القرامطة على أخذه كونهم اعتبروا تقديس الأحجار ضرباً من الوثنية ، والعودة إلى عبادة الأصنام ، وليؤكدوا على أن الخلافة العباسية التي أثارت عواطف الشعوب الإسلامية ضد القرامطة ، واتهمتهم بالإلحاد والثورة ضد الدين والشرع ، عاجزة عن حماية الأماكن المقدسة والمحافظة على الحجاج . ومع هذا فانني أستهجن الاعتداء بهذه الصورة البشعة على الأماكن المقدسة مهما كانت الدوافع والمبررات ، لأنها رمز يجب المحافظة عليه ، كونه يجسد الحق والعدالة ، والمحبة والإخاء .

وأغرب رواية سمعتها تلك القصة التي رواها ثابت بن سنان عن أبي سعيد الجنابي فقال : وحكى إنسان منهم يقال له إبراهيم الصائغ أنه كان عند أبي سعيد الجنابي وأتاه يحيى فأكلوا طعاماً ، فلما فرغوا خرج أبو سعيد الجنابي من بيته وأمر امرأته أن تدخل إلى يحيى وألا تمنعه إن أراد . . » وأضاف الملطي في كتابه التنبيه والرد على أهل الأهواء رواية أخرى قال فيها : إن القرامطة زعموا إن نساء بعضهم حلال لبعض ، وكذلك أولادهم وأبواتهم مباحة من بعضهم لبعض لا حظر بينهم ولا منع . وذكر النويري أن القرامطة كانوا يجمعون النساء في ليلة معروفة ويختلطن بالرجال وذلك من صحة الود . ويقول الحمادي اليماني : إن القرامطة كانوا يسمون تلك الليلة بالمشهد الأعظم .

هذه المساوىء الخلقية والاجتماعية التي تدل على الإباحية والفسق والفجور ألصقها هؤلاء المؤرخين بالقرامطة لإبعاد الناس عنهم ، ورسم صورة سوداء كالحة لحياتهم الاجتماعية ، ولا أدري

كيف يصدق الإنسان أن شخصية بارزة مشهورة معروفة بالجرأة والشجاعة والإقدام كأبي سعيد الجنابي يسلم زوجته إلى إنسان غريب ويأمرها أن تلبي رغباته الشهوانية فيما لو طلب منها ذلك؟

فالقرامطة عرفوا بزخم العاطفة الزوجية ، وصدق الشعور ، والاعتزاز بالنسب ، وبالعلاقات الزوجية الصادقة المبنية على التفاهم والمحبة والوفاء ، والتساوي بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات ، فإذا علمنا أن انتشار الإباحية في الأسرة والمجتمع يؤدي الى انحلال الروابط الزوجية ، وتفكك نظام الأسرة ، وضعف الأنساب بين أفراد المجتمع ، بل تقضي قضاء تاماً على الشرف، والاعتزاز بالأصل والنسب. . وهذا ما لم نعرفه عند القرامطة ولا عند الإسماعيلية بأي حال من الأحوال ، تبين لنا أن هذه التهم عارية عن الصحة.

وفي اعتقادي أن هذه التشنيعات ألصقها بالقرامطة علماء أهل السنة الذين ناصبوهم العداء ، ووجهوا إليهم أقسى الفريات والتهم ، وذلك تنفيذاً لتعاليم الخلفاء العباسيين الذين كانوا يخشون انهيار ملكهم على يد القرامطة أو الإسماعيلية.

فقوة الرابطة الزوجية التي كانت تشد القرامطة أرفع وأسمى من أن تهبط إلى مستوى الفسق والفجور والإباحية. فلربما كان للدور الذي قامت به المرأة القرمطية في تطبيق نظام الإلفة والإخاء ، وفي المساعدات التي قدمتها أثناء الحروب ، ومساواتها مع الرجل في كل الواجبات ، أكبر الأثر على إطلاق أمثال هذه التشنيعات .

والمعروف حتى في عصرنا الحاضر أن القبائل البدوية الضاربة في الصحراء يهتمّون إلى حد الهوس أو الجنون بالنسب والأصل والعرق ، فالفرس التي تنحدر من سلالة كريمة تباع بأغلى الأثمان ، والمرأة ذات

النسب الصحيح ، والأصل المعروف ، والحسب العريق ، يفتش عنها في كل مكان ، فكيف نصدق ونحن بكامل إدراكنا ووعينا بأن القرامطة وأغلبهم من القبائل الضاربة في البادية ، ينشرون الإباحية وشيوعية المرأة . .؟ . . . إنها لفرية من أعظم الفريات التي ألصقها العلماء في جبين القرامطة زوراً وبهتاناً . . . .

هؤلاء هم القرامطة كما صورناهم في هذا الكتاب ، إنطلاقاً من مبدأ إظهار الحقيقة بدون غموض أو تعمية ، رائدنا من وراء ذلك خدمة العلم والمعرفة ، والله نسأل أن يوفقنا لما فيه الخير والمجد والسؤدد .

الفهرس